جُوزيه ماورُو

اعترافات الراهب يقطين

سلسلة زيزا - الجزء الرّابع

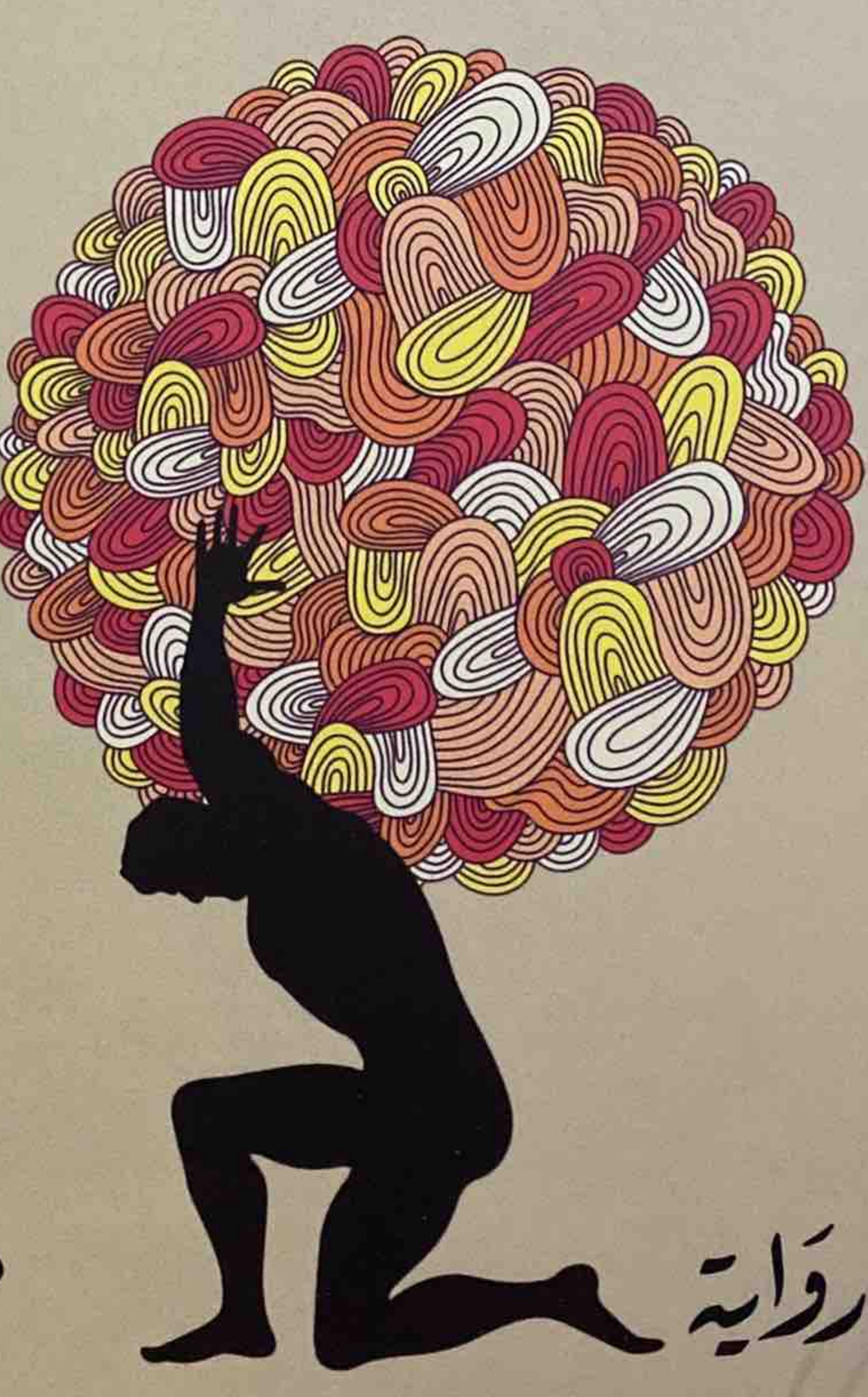

رواية

ترجمة:
محمد بومعراف

الجزء الأوّل
الدّعاء

الفصل الأوّل

إشراق الإله

لم تكن تلك اللّيلة من شهر مايو رحيمةً بالرّاهب يقطين، إذْ اشتدّ بردُها، حتّى إنّ السّترة الّتي كانت تقيه من الصّقيع لم تصمدْ، فتقاذفتْها الرّياحُ. كان اللّيل يخيّم على المكان، غيرَ مبالٍ بوحدةِ ذلك الرّجل النّحيفِ وبحزنه، وقد احتمى بحفرةٍ صغيرةٍ، تلفّه أغطيةٌ قديمةٌ، بلّلها النّدى.

قُبيْل الفجر، أصبح البردُ في الغابة أكثر قسوةً، وهو ما أرغم الطّيورَ بمختلف أنواعها على مغادرة المكان. وعمّ السّكونُ. حتّى تلك الأصواتُ الّتي تخترق الوحشةَ أحيانًا، لم يكن لها أن تدوم، وسرعان ما تتلاشى ليُطبقَ الصّمت.

تململ الرّاهبُ يقطين ودعَا الرّبَّ في سرّه حتّى يعجّل بمقدَم الفجر، وأن تمتدّ الشّمسُ بخيوطها الذّهبيّة، فيسري دفؤها في الآمال، ثمّ تمتم «آمين». لم يعرف النّومُ السّبيلَ إلى عينيه، وهو كسيرُ القلبِ. رفع رأسَه إلى السّماء البعيدة، وحدّق في نجومها المتجمّدةِ مليًّا. وارتسمت على قسماتِ وجهه المُنهَك ابتسامةٌ شبهُ يائسة. إذ بدا له وهو يتأمّلها أنّ شروقَ الشّمسِ مازال بعيدًا.

ردّ الرّاهبُ يقطينُ ما حلّ به من جزعٍ إلى تقدُّمه النّسبيِّ في السّنّ. وخمّن في الأثناء أنّ المدّةَ الّتي قضّاها في شينغو من شأنها أيضًا أن تمثّل

سببًا لما كان يستشعره مِن وهنٍ. طوى خلال إقامتِه هناك مسافاتٍ طويلة، وكان في حاجةٍ ملحّةٍ إلى مرسى، بعْدَ أن تمكّن منه الجوعُ ونخَرت الوحدةُ روحَه.

لعلّه كان سعيدَ الحظّ. فحتّى يصلَ إلىَ طائرة القوّات الجوّيّة البرازيليّة لتُقلّه إلى مركز سانتا إيزابيل، ليس عليه أن يجدفَ أكثرَ من يومٍ وليلةٍ. شَفعت له نحافتُه، حتّى يتمتّع حالَ حلوله بالمكان بأسبوعيْن متواصليْن من الرّاحة، حيثُ التقى الهنودَ القُدامى، وأنشأ معهُم صداقة. تعوّد الرّاهبُ أنْ يجدَ منهم تلك الحفاوة، في سابق رحلاته. وكانوا يُحيطونه، كدأبهم، بكثيرٍ من المودّة واللّطف. وفي مقابل ما يُغدقون عليه من الرّعاية يُطالبونه ببعض الخدماتِ. ويعرفون أنّ ظهوره يعني اعتزامَه العودة إلى المدينة. غفا الرّاهبُ وعلى وجهه ابتسامة. فرغم كلّ شيءٍ، ما تزال في الحياة شفراتٌ صغيرةٌ من الحنان، تُنفّذُ بشكلٍ أقلَّ إيلامًا حُكمَ إدانةِ الكائن الحيّ.

لم تطلْ غفوتُه، إذ استفاق بعدها مُتثائبًا، وفتحَ عينيْه بشيءٍ من التّثاقلِ، لتبدوَ له النُّجوم في أعاليها ثمِلةً من النُّعاس.

ظهر شعاعٌ دافئٌ وجريء. لم يكن في واقع أمره أكثرَ من مجرّد خيطٍ من ضوء الشّمس، مرَّ فوق رماد النّار المنطفئة، مُنكسرًا على الشّاطئ، واستغرق بعضَ الوقت وهو يُشكّل ملامحَ دهشةٍ على وجه الرّجل النّحيف الملتحي.

استوى الرّاهب يقطينُ جالسًا، وهو مُلتفٌّ بغطائه، بعد أن أيقظه حُنوّ الشّمس. ثمّ أزالَ عن وجهه، وعن مُقدّمة شعره، ما التصق بهما من رملٍ لزج. وبمفاصل أصابعِه طفقَ يمسح عينيْه، وطقطق من بعدها

عظامَ ساقَيْه، إذْ نالَ منه التّعبُ، بما يكفي، وهدَّه الأرقُ، وبدا له أنّ حاجتَه إلى بعض الرّاحة أكبرُ حتمًا ممّا كان يتصوّر.

وما إن ألقت الشّمسُ بردائها الفضّيّ على الأشياء وأيقظتها من سُبات، حتّى سرّح بصرَه في ما حوله باحثًا عن ملامح للحياة. كانت الشّواطئ مترامية على مسافاتٍ طويلة. وأثبت ناظريْه على الزّورق الطّيّع، فإذا هو ما يزال مشدودًا بمقبض الحبل، يخنق المجدافَ المدفونَ في الرّمال الرّطبة.

قرأ الاسمَ المكتوب بحروفٍ مخضرّةٍ ومُوحلة... هيرمينيجيلدا.

هيرمينيجيلدا اللّعينة! سببُ كلِّ الذّنوب، أتانٌ، غبيّةٌ، حمقاء. إنّها وعاءٌ جَمَعَ الصّفات السّيّئة كلّها.

ربّما كان في مقدُور بعضهم أن يُنصتوا إلى زوارقهم، وأن يتبيّنوا مُرادَها. ولكنّ عُدوانيّةَ هيرمينجيلدا وبُطءَ حركتها حالا دون أن تسيرَ على هذْيِ القناةِ، لتُبلغَه برَّ الأمانِ. وربّما صار عليه الآن تركُها، لتلقَى مصيرَها المحتوم، فتنجرفَ نحو السّطح، أو تضلّ سبيلَها، فتغرقَ في الفجوات، أو ليكون اصطدامُها الطّوعيُّ بما تناثر في النّهر من ميّتِ الأغصان. كان عليه أن يتحلّى بالصّبر، خلال يومٍ وليلةٍ من الزّمان لا غير. ولعلّه، متى كُتِبَ له الوُصولُ، سيمنحها هديّةً لأوّل من يصادفه من فقراء سانتا ماريا، أو أراغواسيما، ذلك الاسم السّخيف الّذي يُطلقه عليها المتحضّرون، دون أن تكون له صلةٌ بأيّ تقليدٍ نهريّ.

صارت حرارةُ الشّمس أكثر نُعومة، وصار معها النّهوضُ مُتاحًا للجسد المكدود. ولكنّ «يق»، مثلما كان يحلو للرّاهب أن يختزل اسمَه، فضّل الرّكونَ إلى تلك الزّاوية المنسيّة، ليُحصّل قدرًا أكبر من الدّافعيّة والقوّة في قلبه.

وهمسَ له ضميرُه: تنتظرك يا «يق» طريقٌ طويلة، وقريبًا ستتوسّط الشّمسُ كبدَ السّماء ويتعذّر عليك عندئذٍ بلوغُ المراد، ليس عليك حينها إلّا أن تلوم نفسَكَ!»

فردّ عليه ضجِرًا: «ها إنّي أنهض، وسأواصل المسيرَ، يا لك من مزعج!»

ثمّ أزاح الأغطيةَ عن جسده ومشى.

شعر بألمٍ في قدمَيْه، وهو يطأ حافّة الرّمال الجليديّة.

جَثَمَ على ضفاف النّهر، ولم يجرؤ على غسْل وجهه، وبدا النّهرُ في تلك السّاعة، أملسَ تمامًا، وزُجاجيًّا، يخلدُ إلى نومتِه رغم انتشار أشعّة الشّمس على مداه. استجمع الرّاهب قواه، وهمّ بالاغتسال، فأفصحت تجاعيدُه عن قسوةِ الزّمن. تملّاها بصمتٍ، وعكست مرايا الماء ما في عينيْه من حُزنٍ. «يُولد البعضُ والموتُ في عيونهم!»، تدفّقت العبارةُ بين شفتَيْه، كما لو أنّها اكتشافٌ عظيم.

بحركةٍ سريعةٍ قرّبَ إلى وجهه الماءَ، غيرَ راغبٍ. ثمّ قفَل راجعًا إلى الزّورق، وطفق ينبش في علبة شحم خنزيرٍ قديمة، فوقعتْ يدُه في أسفلها على قطعةٍ من المانيهوت، هي ما تبقّى من عشاءٍ سابق، كانت مطبوخةً وغير مملّحة. لقد كانَ حظّه في اللّيلة السّابقة أوفرَ، عندما عثر على ثلاث بيضاتٍ لطائر النّورس.

لقَمَ قطعةَ المانيهوت الدّهنيّة، رغم بُرودتها، وقسوتها، وهمّ بمَضغها. وفي الأثناء أحسّ بكثيرٍ من الغيظ، إذْ بدا له أنّه يأكلُ من تلك الأشياء حياتَها القديمة.

لم يمنعه إصرارُه على مواصلة رحلتِه من الاستسلام للجُلوس،

فجسدُه مُنهكٌ ولا بدّ له من الرّاحة، رغمَ تقدُّم الوقتِ. ظلّ يتأمّل ما حوله برهةً، فيما ظلّت مَعدتُه مُستاءة.

حدّقَ في السّماء البعيدة الممتدّة، وتملّى زُرقتَها، وهولَ المشهد بعْدَ أنْ غادرتها نجومُها، لتكون مثلَه وحيدةً تمامًا. لم يستطعْ حَبْسَ دمعتِه، وسيطرتْ على فكره تلك الصّورةُ الّتي تُطارده حيثما حلّ، وتستبدّ بذاكرته. أيقظت إحساسَه بقسوة الحياة، فصرخ قلبُه الغارق بمرارةٍ في زوبعةٍ من اليأس:

في كلّ هذا الاتّساع أيّتها السّماء الجميلةُ، الزّرقاء، أين عساك أن تُخفيها؟ يا من يبدأ اسمك بحرف السّين، وينتهي بالهمزة، أين.. أين تُخفين باولا؟

عندما أدار وجهه إلى النّهر، رمق سمكات ميغيلينيو صغيرةً. كانت تسبح على عجلٍ، كما لو أنّها تترجّاه أن يُطعمَها. فولّى وجهه عنها، ومضى صوبَ القارب حتّى يفكّه.

خيّم على كيانه شبحُ الموت الّذي كاشفه في عينيْه. ولم يعدْ باستطاعة أيّ قوّةٍ أن تُخفّفَ من جزعه وغُربته. صار لا بدّ له من مُعجزةٍ تنتشله من حُزنه الأبديّ، وتُعيد إليه الإحساسَ بالحياة.

أخذت الشّمس في الامتداد، بشكلٍ مُذهل، لتُلقي بأشعّتها على الأشياء، ولينعكسَ ضوؤها على عينيْ «يق» اللّتيْن ارتسمَ عليهما تعبُ اللّيلة الفارطة، وصقيعُها. وبتباطؤٍ هبطت هيرمينيجيلدا النّهرَ مُرغمة، وسارت على مهل، كأنّ الوصولَ لا يعنيها. بدا كما لو أنّها شامتةٌ بإمعانها في الإساءة إلى الرّجل، وهو في أشدّ لحظات يأسه وتعبه. فكانت ذراعا يق المنهكتان لا تكادان تدفعان الزّورق في النّهر، ولم يكن له بدٌّ من

الاستمرار في الفعل، وهو حانقٌ تمامًا، يُصارعُ يائسًا البعوضَ وشُحَّ الرّياح ولفحَ الهجير.

كان يجدرُ به أن يأخذ قسطًا من الرّاحة عند كلّ ظلّ، متخفّفًا من الحرارة الآخذة في الارتفاع. ولئن لم يبلغ من الجوع ما يُؤذِن بانهياره، لإكثاره من التّوقّف للصّيد كلّما سنحت الفرصةُ، فإنّك تراه يوقدُ نارَه، ويهمّ بأكل سمكاتِه، بعد أن نفدَ ما أحضره من ماتولا.

لقد امتدّ الوقتُ بشكلٍ خُرافيّ. ولم يكن بوسع الظّلّ المهمَل على شكل سحابةٍ أن يغطّي قسوةَ الشّمس الحارقة. وأمّا الرّيحُ الّتي دأبت على تلطيف حدّة الحرّ، وعلى طرد البعوض، فيبدو أنّها نسيت هذه المرّةَ أن تهبّ.

لم يكن للرّاهب ما يشغلُ تفكيرَه، على وجه التّحديد. بل إنّه لم يكن يملك الوقتَ لمجرّد الشّكوى، فخبرتُه بالحياةِ وصروفِها أكبرُ من أن يجزعَ أو يتألّم، ولعلّه رضي بما لقيَه منها. فلم تكن سنينُه فيها إلّا تنقّلًا، بين المعاناةِ، والنّسيان، بين الجراح والبلسم. ولم تكن الحياةُ أكثر من مرادفٍ للألم على حدّ عبارة القدّيس أغسطين. حتّى دفقات المجداف في المياه كانت تكرّر بلا كلل: «الحياة هي الألم! الحياة هي الألم!...».

أمكن لـ«يق»، أنْ يغنمَ في الظّهيرةِ بعضَ ما كان يحتاجُ إليه من هدوءٍ، والتقطَ بعضَ أنفاسه من جديد. وقدّر أن يكون وصولُه إلى ميناء أراغواسيا، إذا سمحت إرادة الرّبّ، يومَ الغد، بُعيْد الفجر.

استرعى انتباهَه خطبٌ غريب، دفع به إلى العُبوس، لّما رمقتْ عيناه سُحُبًا مُنذرةً تكدّست خلف الزّورق. لا يُعقلُ في مثل هذه الفترة من السّنةِ أن تُمطر، فالصّائفةُ على الأبواب.

جدف في انتظار الظّهيرة، مُمنّيًا نفسَه باستقرار الوضع. وتملّى أثرَ البرد القارس على النّهر وارتحالَ الرّمال عن شواطئها. وتابع بعينَيْن مُتعبتيْن لقالقَ الجابيرو، تتقافز حول إناثها بأجنحتها الضّخمة، تروم الجماعَ، مُصدرةً غناءً وحشيًّا وقبيحًا. وفي الجهة الأخرى كانت طيورُ «أبو ملعقة» ولقالق الماغواري ترسُم في الفضاء مُنحنيات، لحظاتٍ قبل بلوغها حافّةَ الشّاطئ للاستراحة من اليوم السّماويّ. وأمّا طيور الهواتزين، الّتي أغراها صوتُ الزّورق، فلم تكفَّ عن الصّياح بحماسة، قافزةً بين الفروع، تطيرُ أو تفتح مراوحَ ذيولها البُنّيّة. كانت تلك هي اللّحظة الّتي توقّفت فيها الأشجارُ الواقعةُ على ضفافِ النّهر عن إظهار أوراقها لتتزيّن بالرّيش.

لاحظ «يق»، وهو يُحدِّق في السّماء، أنّ حجمَ الغيوم صارَ أكبر، فظلّلتْ كلَّ شيءٍ تحتها. كانت الرّيح تزداد عنفًا، كلّما تقدّم اللّيلُ، ليطبق أنينُها الأرجاءَ، والآفاق. وبحثًا عن مكانٍ أكثر أمانًا، اقتربَ الرّاهب من ضفّة النّهر، فالعاصفةُ صارتْ أكثرَ منْ مجرّد احتمال، ولا ريبَ من حدوثها في السّاعات القادمة. والأمل، كلّ الأمل، أن تغيّر الرّيح مسارَها إذا هبّت قليلًا.

تمتم يق، وفي قلبه وخزٌ:

- يا نافخَ الرّوح في هذا الجسد العليل، لا أحسب أنّك تنسى عبدكَ، فلا تخذلني. كُنْ لي سَندًا فأنا أوشك على الانتهاء من الرّحلة.

غيّرَ مسارَ زورقه إلى خليجٍ صغيرٍ كان الشّاطئُ فيه ظاهرَ الارتفاع. ومنّى نفسَه بأن يجدَ فسحةً من الوقت لجمْع الحَطَب وإيقاد نارٍ صَغيرة، لكنّ هُبوبًا مُباغتًا للرّيح أبطل ذاك العزمَ. كانت قويّة، حتّى إنّ كثيرًا من

الرَّمل تهاوَى من جهة الزّورق. فعَدَلَ يق عن فكرته، وأخفى وجهَه بين يدَيه حتّى لا تتأذّى عيناه.

لم يخِبْ حدْسُه، إذ بدأت غيومُ العاصفة تبرز، ليدلهمَّ اللّيلُ أكثرَ، وتخبُو نجماتُه، وَليُحدِق الخطرُ بالمكان. وحتّى يُحكم ربطَ الزّورق، كان على الرّاهب أن يَجري، ولكنْ هيهات. فهو أعجز من أن يبرحَ مكانَه. غرز المجدافَ في الرّمل، وشدَّه بحبل المقدّمة إلى الزّورق، ثمّ أسندَه إلى الشّاطئ. وفي النّهاية أمكن له أن يُثبّت المؤخّرة، بأن غرزَ قطعةَ خشبٍ في الرّمال. خارت قواهُ، فعجّل بإزالة الغطاء والحصيرة الصّغيرة، وجعل له مأوًى يقيه غضبَ الرّيح والعاصفة القادمة. خيّم اللّيلُ على المكان، وتربّص الخوفُ بالكائنات، وشقّ البرقُ الغيومَ السّوداء، كما لو أنّه منشارٌ من نار.

- يا إلهي! لن أكون قادرًا حتّى على إيقاد شُعلة نار.

عوتِ الرّيح، وصدحَ النّهر بخليطٍ من الأصوات، وتحت وطأةِ الأمواجِ الغاضبة، والرّيح، ظلّت هيرمينجيلدا تتأرجحُ تارةً وتئنُّ أخرى، وتساقطَ على جنباتها رذاذٌ خالطتْه حبّاتٌ من الرّمل.

في اليوم المقبل، تنتظر يَقْ مهمّةٌ لا تخلو من عناء، إذ عليه، متى توقّف المطر، أن ينزعَ عن قاربه ما علق به من رمالٍ جافّة وصلبةٍ لتتسنّى له مواصلةُ الرّحلة.

وعلى أيّةِ حالٍ، لن يكون ذلك الخطبُ هو الأسوأ.

حملت العاصفةُ الطّيورَ الكبيرةَ على مغادرة المكان، وأطلق البطُّ البرّيُّ وطيورُ النّورس صراخًا يصمّ الآذان. وتحسّبًا منه لنزول المطر، جعل يَقْ على جسده غطاءً صغيرًا، ملفوفًا بقطعةٍ من حصير. وضاق نفَسُه مع اشتداد العاصفة.

وما هي إلّا لحظات حتّى فعلتها السّماءُ، وتهاطلَ المطرُ فزادَ المكانَ وحشةً، وجرفتْ مياهُه الرّمال، واختنقت الرّيحُ. وفي الامتداد الرّهيب فاحتْ رائحةُ الأرض المبلّلة، ليُخاتلَ النّفسَ إحساسٌ لطيفٌ لم يطُلْ. عمّ النّهرَ هدوءٌ، وكفّت هيرمينيجيلدا عن الاصطدام بصلابةِ الشّاطئ الّذي غمرته برودةٌ لم تكن مُريحة.

تقدّمت السّاعات ببطءٍ قاتل، وتمكّن البردُ من الجسدِ والرّوح، وأحسّ الرّاهب ببللٍ في عينيه زادَ من انزعاجه. فتوجّه إلى الرّبِّ مُعاتبًا، يبثّ شكواه:

-لا أجد تفسيرًا مُقنعًا لما أحاط بي من نوائبَ. ولا أحسبُ أنّي أستحقّ كلَّ هذا البلاء. فأنا رجلٌ وَهَنَ عظمُه، وأنهكتْه المسافاتُ. ولا رجاء لي سوى أن تُنصفَني الطّبيعة.

لم تكن الأمطارُ لتأبه، أو لتهتمّ برجائه. فإذا بها تمعن في غيّها، وتزدادُ عنفًا، ليتسرّب الماء إلى الحصيرة.

فيُضيف يق، في أوجِ يأسِه:

- حنانَيك أيّها المقتدرُ الجبّارُ، هبْني ليلةً قصيرةً من الهدوء.

فيصمّ الكونُ آذانَه، ويواصل المطرُ شماتتَه بالرّجل، كأنّه يستلذّ ضَعفَه.

-ليس عزيزًا عليك أن تمنح عبدَكَ المسكينَ ليلةً يهنأ فيها قلبُه وجسدُه. لك أن تزيّن سماءَها بما شئتَ من النّجوم، وأن تمنحه بعض الوقت ليصطادَ سمكةً واحدةً لا غير، وليصنع حفرة، يوقدُ فيها نارَه. إنّه لا يحتاجُ إلى أكثر من ذلك. عشاءٌ يسدّ رمقه، ودفءٌ يؤنس وحدتَه.

ولكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث. إذ ظلّ المطر يوقّع على الرّملِ صاخبَ الألحان، ليفقد يق ما حاول أن يحافظ عليه من أملٍ، ويزيد من يأسه وقُنوطه. استبدّ به الجذامُ، وسرى الألمُ في أوصاله، وفي ركبتَيه، واصطكّت أسنانُه، وقصمَ التّعبُ ظهرَه فلم تعدْ له من قوّةٍ على التّجديف.

بدا له أنّ المطر لن يتوقّف. فكفّ عن التّضرّع والرّجاء.

- لعلّه ابتلاءٌ يا إلهي، فاغفرْ لي غضبي، وإذا كانت الجنّةُ حظّي في عوالمك البعيدةِ، فإنّي لا أحتاجُ الآن إلى شيءٍ من نعيمها، أريدُ ببساطة، أن أسدّ رمقي، بسمكة واحدةٍ لا غير، أقليها على طريقتي، وآكلها على مجداف!...

كلّما تضرّع الرّاهبُ لربّه، أمعن المطرُ في الهطول، وتآمر على جسده النّحيل، جوعٌ كافر، وبردٌ لا يرحم. فإذا هي الرّتابة، وتباطؤُ السّاعات وخفوتُ الأمل.

أطبقَ اليأسُ، وجفّت منابعُ اليقين، وبلغ السّخطُ مبلغَه، ولم يعد بحَوْل الرّاهب أن يروّض نفسَه، ولا بحوْلِ حكمته أن تُطوّقَ الأمر، وانفرط العقدُ. فتح ذراعَيْه على شكل صليبٍ، والمياه تغمره، ثمّ رفع رأسَه وصرخ:

-أيّها الربّ! أيّها الرّبّ!... الرّحمةَ... الرّحمةَ...

خالطت الأمطارُ دموعَه، وشهق من اليأس، وهوى على رُكبتَيْه مرتجفًا. جعل وجهَه بين يديْه، ثمّ لفّ نفسَه في غطائه المبلّل، وحصيرته الرّثّة، غير مبالٍ، وبكى بصوتٍ خفيضٍ. ظلّ منكمشًا، لحظاتٍ، وصدرت عنه غمغمةٌ لا يكادُ السّامع يميّز منها شيئًا. ثمّ تحوّل بكاؤُه إلى نشيجٍ محموم، وسال لُعابُه وامتلأ فمُه برملٍ لزج.

- تعرف يا إلهي أنّني أقدمتُ على الأمر بمحض إرادتي، وكان يجدرُ بالسّماء أن تكون أقلّ قسوةً، وأنا على مشارف الوصولِ. إنّه آخر أيّام رحلتي، وبوسعها من بعده أن تفعل ما تشاء. لعلّي مُخطئٌ في تقديرِ الأيّام، ولكن بأيّ ذنبٍ يحدث كلُّ هذا؟ هل اقترفتُ ما يغضب الرّبّ عندما قرّرت ركوبَ الموج على ذلك القارب الخرِب، اللّعين؟ هل أغضبتُه حين أخلصتُ في الاعتناء بمَن صادفني من مرضى، وحين مررتُ بتلك القُرى المعدمةِ، حيث يرزح الأطفال تحت طائلة الحمّى، والإسهال، والحشراتُ تعبثُ بوجوههم؟

حبَس دموعَه، وحاولَ أن يتماسكَ رأفةً بنفسِه. ولم يجد جدوَى من مقارعة السّماء. تسلّل إليه شعورٌ عميقٌ بالخيبة، وأحسَّ بوخزٍ في مكانٍ خفيٍّ مِنْ قلبِه. معاناته لا تزولُ، وعليه أن يعيشها، قد تنصفه الأعالي، بإجابةٍ مّا ذات يوم، ولكنّ الكونَ بأسره عاجزٌ عن إرشاده إلى مكان باولا.

هزّ رأسَه المبلّلَ وهو مُرتبك، وقدّر بينَه وبين نفسه أن يكون الرّبُّ قد أخفى باولا لحكمةٍ مّا.

تمتمَ بلطف:

- باولا... باولا... باولا... باولا توجور... باولا توجور... بو...

بعث فيه الحزنُ نوعًا من الهدوء، وأحيَا في داخله حشدًا من الذّكرياتِ حسِب أنّ النّسيانَ طواها. ولكنّها ظلّت قابعةً تنتظر أسبابَ رُجوعها.

أخذه النّعاسُ من التّعب والإرهاق. وعندما استيقظَ، وجد أنّ المطر تناقصَ مع بدايات الصّباح، ورجّح توقّفَه عن الهطول في وقتٍ قريب.

وكعادته عند الاستفاقة من النّوم، طفق يمسح وجهَه. وشعر بتجمّد جسده، وبألمٍ يسري جرّاء ذلك في مفاصله.

ألقى نظرةً على ما لحق القاربَ من أضرار، وعاودَه الإحساسُ بالجوعِ مرّةً أخرى. وبعد أن تعهّد القاربَ بإزالة الرّمل العالق به، أمكن له أن يستخرج السّكّر البنّيّ الّذي كان مخبّأً في علبةٍ مستعملةٍ من شحم الخنزير. طفق يمضغها ببطءٍ، حتّى تتمدّد ويكبر حجمها. في تلك الأثناء أنهى المطرُ مهمّته وأقفلَ راجعًا. اللّعنة، إنّه لم يكنْ أكثرَ من ضيفٍ سخيفٍ وبائسٍ في ليلةٍ طواها الزّمن.

حدّث يق نفسَه:

- وجب الرّحيلُ أيّها الرّاهبُ يقطين، فلم يتبقّ لكَ من الزّمنِ إلّا قليلُه. ساعات أربع ويكون نزولُك من النّهر، وعليك أن تُسرعَ، قبلَ أن تهمدَ كلُّ قواك.

خفّف هيرمينيجيلدا من الرّمالِ الّتي ظلّت عالقةً بها، على نحوٍ أكثر سرعةً. وبدا له أنّه بلغ المنتهى من الطّريق ومن قدرته على التّحمّل في آنٍ واحدٍ.

أخذ يجدف من جديد. لم تكن له غايةٌ وهو يستعيد الفعلَ إلّا الظّفر ببعض الدّفء، وتحوّل التّجديف من فعلٍ غايته الوصولُ، إلى فعلٍ من أجل الحياة، يهبه الدّفءَ والمعنى. لم يكن مجرّد حركةٍ بل فعلَ خلق، وانبعاث، به تنبثقُ في الرّوح مواساةُ القدّيس توما الأكويني الذي خطبَ في الرّياح السّبعة: «كن على استعدادٍ دائمٍ للموت، وعِشْ كما لو أنّك لن تموتَ أبدًا».

ارتسمت على مُحيّاه ابتسامةٌ بائسةٌ رغم التّعب. كان توم، كما يحلو

للرّاهب أن ينادي القدّيس في السّرّ، سمينًا بشكلٍ لافتٍ للانتباه، حتّى إنّهم جعلوا في الطّاولة الّتي يعمل بها ثُقبًا، يُوافق التّقدّم المذهلَ لكرشه. وخلافًا لصديقه القدّيس كان الرّاهب نحيفًا، وأمّا الآن فهو نحيفٌ وجائع، وهذا مُضحكٌ رغم بؤسه.

تقدّم الزّمن، وأجلت الشّمس عن نفسِها. كان بزوغها أشبه ما يكون بفعلِ ساحر، أو بالمعجزة. امتلأت الغابةُ برائحة المطر، وكشَفتْ عن بهاءٍ أخّاذ. واتّشحت الشّواطئ بلونٍ رماديٍّ لامع. وأمّا النّهرُ فبدا كما لو أنّه فضّةٌ نُثرت فوق المياه. ووجدّدت الطّيور الكبيرة عهدَها معَ السّماء، وعادت طيور الصّيد لتستأنف مهمّتها اليوميّة. أمّا الشّمس الصّديقةُ الدّافئةُ فمنحت الأشياءَ معنًى جديدًا، إذ ألقت عليها رداءً ذهبيًّا. فعاد جمال الطّبيعة يسود المكان، بعد عذاب اللّيلة الماضية.

واصل التّجديفَ بعزمٍ أكبرَ هذه المرّة، وقد غمره الحنينُ. وخشي أن ينتهي به الأمرُ إلى الاستسلام. حدّق بحنوٍّ في السّماء الّتي أخفت باولا في اتّساعها المبهر، وظلّ مندهشًا أمام عظمة المشهد.

في البدء قال معلّقًا:

- لا شكّ أنّك قد صنعتِ أشياء جميلةً جدًّا أيّتها السّماء...

ساد الصّمت من الجانب الآخر.

- لم يكن الأمس هيّنًا، أظنّ أنّك توافقينني الرّأي؟

حلّ صمتٌ جديد، وقال مستدركًا:

- لقد كان شاقًّا لا شكّ في ذلك، لكنّي تسرّعتُ قليلًا.

هبّت في الأثناء عاصفةٌ ضربت النّهرَ والقارب ووجهَه.

وبدا كما لو أنّ الرّيح تسأل معترضةً:

- قليلًا؟

- حسنًا، لكنْ لو أنّكِ في مكاني، ماذا كنت تفعلين؟ بحقّ الرّبّ أجيبيني؟

أحجمت الرّيح عن الإجابة، وبدا أنّها ترمي إلى القول إنّ الأمور كانت مرضيّةً على الجانب الآخر.

سرّح الرّاهبُ بصرَه في سحر المناظر الطّبيعيّة دون أن يكفّ عن التّجديف، وعقّب مُمتنًّا لجلال المشهد:

- إنّي لَمُمتَنٌّ حقًّا يا إلهي، ولم يكن غضبي اعتراضًا، بل شكوى وتضرّعًا. أعيتني الحيلة وأحبطني العجزُ. وقرّرتُ أن أعترفَ بكلّ ما أقدمت على فعله في حياتي، بتلك الأمور الباعثة على الحزن، وبما تستّر من أمري ولفَّه الغموضُ، وبشنيع الفعال. لا نافذة لي كي أطلّ منها على ذاتي إلّا من خلالك، ولا ملجأ لي إلّاك. وإذا لم أكن على حقيقتي معك، فمع من تراني أكون، عفوك ورضاك وإن ساجلتُك فلأنّي أحبّك وأحتاج إليك في كلّ هذا الضّياع.

ثمّ استمرّ في تجديفه، مبلّلَ العينيْن، ناظرًا إلى الأعلى.

- لم يكن غضبي إلّا سحابةً مرّت، يا لروعتك يا خالقي! ويا مبدّل الأحوال، ومحيي الآمال. كان الأمر يحتاجُ إلى الصّبر، وإلى الوثوق برحمتك، وبواسع قدرتك، ولكنّ الحمل كان ثقيلًا. غفرانك غفرانك...

ما إن أتمّ مناجاتَه، حتّى هبّت ريحٌ خفيفة، طردت البعوض، وتدفّق النّهرُ، بشكلٍ أفضل، لتتّخذ هيرمينيجيلدا أجمل وضعيّاتها. وقد أبهجه كلُّ ما يحدث.

الفصل الثّاني

«توجور»

حلّقت طائرة الكابتن موريلو فوقَ النّهر تقريبًا. ووجد خالصَ المتعة وهو يرى ظلّها مرتسمًا فوق مياهه، وعلى امتداد الشّواطئ، وأعالي الأشجار.

كان الأمرُ أشبه ما يكون بالحلم. بيد أنّ صوتَ الملازم باربوسا قطع عليه المتعةَ حين توجّه إليه بالسّؤال:

- هل استيقظَ ذاك الرّجلُ فعلًا؟

- دع المسكينَ ينام، لقد بلغ من التّعب ما لم يلاحِظْ معه نزولَنا وصعودَنا، للمرّة الثّالثة على التّوالي. إذا تحطّمت الطّائرة، فسنرتقي مباشرةً إلى السّماء.

- هل تعرفه منذ زمنٍ بعيد؟

- من امتدّ به العيش في هذه النّواحي، خلال السّنوات الخمس الماضية، يعرف الرّاهب يقطين تمامَ المعرفة. التقيت به أوّل مرّةٍ في شينغو، حدث ذلك منذ زمنٍ طويل، بمركز الكابتن فاسكونسيلوس القديم. للرّجلِ هوسٌ بالهنود، لا يمكن أن يتصوّره العقلُ، يهرع دون تردّدٍ لمدّ يد المساعدة لكلّ بائسٍ هنديّ، ولو كلّفه ذلك حياتَه. كان في لقائنا الأوّل برفقة والدي، يُطلعه على الغابة. أتذكّر جيّدًا

انبهارَ أبي بما رأى ولم يكن الرّاهب يقطين حينها أكثر من رجلٍ بقبقابٍ أبيض.

في ذلك اليوم، شاهد الكابتن الطّائرةَ تهبط في حقل شينغو الضّيّق. ولفت انتباهَه جمعٌ من الهنود، كانوا عراةً، دنوْا منها. لاحظ على والده شدّةَ اندهاشه ممّا كان يميّز سكّان الغابات على مستوى بنيتهم الجسديّة، فهم مفتولو العضلات أشدّاء، ولم يكن اندهاشه أقلّ إزاء ما كانوا يُبدونه من ودّ، ومن لطفٍ في المعاملةِ. ولمّا سأل عن واحدٍ من معارفه يُدعى أورلاندو، أخبروه بسَفَرِه إلى مكانٍ بعيد.

- وعلى عاتق مَن تقع العناية بالمركز يا ماريكا؟

ضحك الهنديّ وقال بصوتٍ خفيض:

- يَقْ.

سار على إثرِهم جمعٌ من الهنود، وهم يصوّبون جهةَ المزرعة، ويمنّون أنفسهم بالحصول على أيّ هديّةٍ من هؤلاء الكاريبيّين.

أمسكه ماريكا من كُمّ قميصه، ورافقَه إلى العيادة الّتي لم تكن في واقع أمرها غير مزرعةٍ دائريّة الشّكل، صغيرة المساحة. وحال وصولهما، أشار إلى الدّاخل.

- يَقْ.

كان الرّجلُ يُضمّد ساقَ شابٍّ هنديّ، جلس قبالتَه القُرفصاء. ما إن انتبه إلى زوّاره حتّى همّ بالنّهوض، وحرص وهو يحيّي القبطان موريلو على ألّا يمدّ يده، كي يجنّبه ملامسةَ كفّه المتّسخة.

قال معتذرًا:

- بلغ مسمعي ضجيجُ الطّائرة، وتعذّر عليَّ أن أبرحَ المكان، فلو فعلتُ لغادر هذا العفريتُ دونَ علاج. وإنّه لمن أسباب سعادتي أن أراكَ حضرة القبطان موريلو!

- جئتُك يرافقني والدي، وبودّه أن يتعرّف إلى المناطق البرّيّة.

ابتسم يق للرّجل الودود.

- سينال الأمر رضاك، أيّها السّيّد المبجّل. قد يكون من المؤسف أنّ أورلاندو لم يعد حتّى السّاعة من ريو، لقد غادر لجمع الأموال، ولا أعرف سببَ تأخّره على غير العادة. بوسعكم سادتي أن تُلقوا نظرةً على المزرعة الأخرى، وسألتحق بكم عندما أنهي ما أنا بصدده، بعد وقتٍ وجيز.

أشار القُبطان إلى والده قائلًا:

- مثلما ترى يا أبي، ليس لهؤلاء الرّجال ما يميّز عيشهم غير هذه الأشياء البسيطة، وهم راضون بما قُسِم لهم.

ظلّ الرّجلُ مدهوشًا، وقد تملّكته الحيرة، فأغلبُ الجمع من خيرة الشّباب، وقد بدت عليهم السّعادةُ والرّضا. دخلوا المزرعةَ وتفحّصوها عن قُرب: بعض الأراجيح الشبكيّة، كومةٌ كبيرةٌ من رمال الشّاطئ جُعِلت للأولاد حتّى يلعبُوا الشّقلبة، وسريرُ مخيّمٍ. كان ذلك كلّ شيء.

حكّ الرجل العجوز رأسَه في دهشة.

- إنّها أشياء بسيطةٌ أقلّ من أن تُحصيها العينُ. فكيف يجرؤ بعضهم على تقديم صورةٍ مشوّهةٍ لهؤلاء الزّاهدين.

تشاركوا اللّعبَ مع هنودٍ يعرفهم القبطان، وهم يجلسون إلى مقاعد

لم تكن مريحةً بالمرّة. لم يطل بهم المكوثُ حتّى دخل عليهم الرّاهبُ يقطين ماسحًا يديْه على سرواله الباهت.

- كنّا في انتظارك لنستمتع ببعض القهوة.

ضحك يَقْ بحرارة.

- شرفٌ لي أن أشارككم القهوة مع البسكويت، حلوى بيجوزينيو مع زبدةٍ طيّبة الرّائحة، هكذا هي. صدّقني يا صديقي العزيز، ليست الرّغبةُ ما ينقصني لكن ...

ضحك مرّةً أخرى.

- مرّت أربعة أشهرٍ بالضّبط لم نعرفْ فيها طعمَ القهوة أو السّكّر، أو السّجائر، أو الملح، أو الشّحم... بل حتّى الصّابون، ولهذا السّبب غادر أورلاندو إلى ريو لجلب بعض المساعدة ونحن ننتظر عودتَه. تمرّ عليّ ليالٍ يكون فيها حلمي بالجنّة مختزلًا في قطعةٍ من مربّى الجوافة، من ذلك النّوع الّذي يبعث فيك قشعريرةً من شدّة حلاوته...

هزّ موريلو رأسَه.

- أيُعقل مثل هذا، يا إلهي؟

- قد لا يكون الأمر معقولًا، ولكنّه واقعٌ نعيشه ونكابده.

حدّق الرّجل العجوز في رِجْلَي الرّاهب يقطين النّحيلتَيْن، وقد أبهره قبقابُ الشّابِّ الأبيضُ.

- وماذا كنت تأكل في الفترة الأخيرة؟

- الأخت يقطينة، نقطعها ونرشّ عليها الفلفل، ثمّ نرجّه، وربّما

أضفنا إلى الوليمة بعضَ الأرزّ دون ملح. وجبةٌ من الضّروريّ أن يلقمها المرء ساخنة، إذا فقدت حرارتها تعذّر أكلها، وعلقت بالحنك...

ضحك مرّةً أخرى.

فكّ ساقَيْه وشبكَ يدَيْه.

- يجمعنا الطّعامُ على قلّته، ولنا في الغابة أرجوحةٌ نزجّي عليها الوقت، وليس لنا أمام قسوة البردِ سوى ما يعتمرنا في الدّاخل من دفءٍ إنسانيّ. وليس لنا بُدّ إذا ضاقت بنا الخياراتُ من أخذ حمّامٍ في المياه المنعشة لنهر تواتواري، يكون كفيلًا بامتصاص أحزاننا.

ثمّ قال في ما يشبه التّوسّل:

- هلّا بتَّ عندنا اللّيلة، حضرةَ القبطان، آهٍ لو تتكرّم علينا ببقائك ضيفًا مبجّلًا، فبنا رغبةٌ لنسمع عن المدينة أشياءَ لا نعرفها. إنّنا لا نملك حتّى مجرّد مذياعٍ يُطلعنا على أحوال العالم من حولنا.

وكان للرّاهب ما أراد، ليتسامروا حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ دارت فيها الأحاديثُ، حول أمورٍ شتّى، في أجواء حميمة، جعلت القبطان يأنس المكان رغم شحّ الطّعام، وتعذّر النّوم.

صوّبَ والده بعد نهاية السّمر نحو مزرعة يَقْ. كانت صغيرةً بشكلٍ ملحوظ، ولم يكن فيها غير سريرٍ واحد، أُسنِدتْ رجلاه الخلفيّان إلى صندوقٍ قديم، وانتشرت فوقه صحفٌ مصفرّة، ووضعت على أحد جانبيه بطّانيّةٌ رثّة.

أشار يَقْ إلى الصُّحف، وقال:

- ننشرها على السّرير لتخفيف قسوةِ البرد، اجلس.

لم يستطع الرّجلُ العجوزُ أن يُخفيَ ذهولَه، أمام ذاك المشهد، الّذي بدا على ضوء المصباح أشدّ بؤسًا من الزّنزانة.

- مازلت شابًّا، ولا يليق بك أن تنهي ما تبقّى من حياتك على هذا النّحو من العيش.

ربّت يق على ظهر صديقه الجديد.

- أنا هنا بمحضِ إرادتي، والأمرُ يروقني.

مرّر يدَه على حقيبة التّخييم، وواصلَ قولَه:

- إنّها نوعٌ من التّرف الّذي يعجز كثيرون على التّمتّع به، لك أن تتخيّل ما يكابده هؤلاء الهنود المعوزون، إنّهم يقضون ليلهم على مقربةٍ من النّار المشتعلة على جانبي الأرجوحة الشّبكيّة، في نومٍ متقطّع، فتراهم يستفيقون من حينٍ إلى آخر، لتفقّد النّار وإشعالها من جديد.

- هل ترغبُ في شيءٍ محدّدٍ أُرسِله إليك من المدينة حال وصولي؟

- أشياء كثيرة، حتّى إنّني لا أستطيع تحديدها.

- يمكنك الاكتفاء بذكر الأهمّ والأكثر استعجالًا.

- هل لي أن أطلب منك ثلاثة أشياء؟

- لك ذلك وأكثر إن شئت.

هزّ يقطين رأسَه، علامةً على الرّفض.

- قطعةَ شوكولاتة، وعلبةَ سجائر، وصحفًا ومجلّاتٍ لا يهمّ أن تكون قديمةً، هنا ستكون دومًا جديدة.

صمت والد القبطان برهة، وبدت عليه الحيرة، ثمّ قال:

- سيكون لك ما أردتَ.

ثمّ فرقع أصابعَه بعصبيّة.

-لسوء الحظّ أن لا أحد يدخّن من بين أفراد الطّاقم. لكنّني لن أنسى طلب الرّجل ذي القبقاب الأبيض.

ربّت يَقْ على ظهره مرّةً أخرى.

-أناسٌ كثيرون، يزوروننا، ويعِدُوننا بما وعدتَ وأكثر، لكنّهم ينسون الأمر تمامًا حال وصولهم إلى المدينة، أملي ألّا تكون مثلهم.

ها هو القبطان موريلو بعد زمنٍ عن تلك الأحداث يقود الطّائرةَ شاردَ الفكر، في الوقت الّذي كان فيه الرّاهبُ يقطين يخلد للنّوم بعد ليلةٍ من التّعب والأرق والمخاوف.

أيقظ الملازم باربوسا القبطانَ من أحلامه.

- يا رجل! أين كنت، سألتك عن أمرَيْن ولم تسمعْ؟

- كنت بعيدًا، ما الأمر؟

- سألتك عمّا إذا كان ذلك الرّجل بالفعل راهبًا من بعثات التّبشير؟

- إنّه ليس راهبًا بالمعنى الدّارج للكلمة. ولكنّه يحملُ في عمقه من الرّوح الإنسانيّة والصّدق ما يفوق عشرات المبشّرين.

- وهل يكسب مقابل ذلك مالًا وفيرًا؟

- لا شيء، لا شيء من ذلك على الإطلاق. حتّى أنّه لا ينتفع بشيءٍ من الصّدقاتِ الّتي يجمعها في المدينة، فهي هبةٌ للهنودِ من أجل معاشهم، وسلامتهم الصّحّيّة.

- فهمت عنك، ولكن من أين جاءته تسمية الرّاهب يقطين، وما هو براهبٍ؟

- لم أفكّر في الأمر. إنّها التّسمية الّتي يناديه بها الجميعُ، وهذا كلّ ما في الأمر. يجب علينا أن نسرع في أداء مهمّتنا، وأن نعمل قصارى جهدنا لجمع تبرّعاتٍ تكون له عونًا على ما يبذله في سبيل الآخرين.

دخل الرّقيب المرافق لهم.

- قبطان، لقد استيقظ الرّجلُ النّحيفُ.

نهض القبطان من مجلسه، يتبعه الرّقيبُ، وصوّبا حيث الرّاهب يقطين، الصّديق القديم، صاحب القبقاب الأبيض.

- لقد خطر لي حضرة القبطان في هذه اللّحظات، أنّ مُكتشف البرازيل، ليس بيدرو ألفاريس كابرال، بل طائرة DC3 اللّعينة.

كان الوهَنُ باديًا على الرّاهب وهو ينطق بتلك الكلمات، ولم يكن فحسبُ وهَن من تقدّمت به السّنّ، بل وهنَ من أرهقته الحياة.

- يا للهوْل، لم أكد أتعرّف إليك أيّها الرّاهب يقطين، لقد نال منك التّعب، وارتسمت يد الزّمن الجائرة على ملامحك. أين كنت؟

- هناك.

قال ذلك وهو يشير بأصابع رقيقةٍ في اتّجاه شينغو.

ثمّ تابع ببطءٍ:

- امتدّ بي المقام في مملكة اليقطين أربعة أشهر، أنفقتها في مساعدة النّاس المكلومين.

- وكيف انتهى بك الأمر إلى هذه النّواحي؟

- ظهرت طائرةٌ خاصّةٌ وأخذتني في رحلةٍ قصيرةٍ إلى ماتو غروسو، وكنتُ حينها أتحوّز على كمّيّةٍ لا بأس بها من «أراليم»، وهو دواءٌ للزّحار ومضادٌّ حيويّ، وأمكن لي الحصولُ على زورقٍ بائسٍ لأنزلَ أسفلَ النّهر وأمدَّ يدَ المساعدة إلى هذه القرى المهجورة. لقد خانتني قُواي، ووجب أن أستريح في بانانال بضعة أيّام، أمضي بعدها لجمع ما يحتاج إليه الهنودُ من أطعمة، وملبس، وأشياء معدنيّة.

ابتسم القبطان موريلو.

- كدأبك دائمًا منذ عرفتك، تفعل الشّيء نفسَه، دون أن تكلّ، وبالشّغف نفسِه.

- تلك حكمةُ الرّبّ ومشيئتُه، وتلك سنّته في الخلق وفي الطّبيعة، ليلٌ يعقبه النّهار، ونهارٌ مخلوفٌ باللّيل.

تنهّد متعبًا من مجهود المحادثة.

- كم أتمنّى الحصولَ على سيجارة!

سلّمه الرّقيبُ علبةً وقدّاحة، فسحب يقطينُ واحدةً، وجعلها بين شفتيْه، بأصابع مرتجفة. ولم يجد الرّقيبُ بُدًّا من مساعدته على إيقادها، لما بدا عليه من توتّر.

سَحَبَ نفَسًا طويلًا، وألقى برأسه على الكرسيّ، لينتبه إلى العيون الكثيرة الّتي ظلّ أصحابُها يرمقونه بنظراتٍ أحرجته. لقد تغيّرت الوجوه، وتبدّل ركّاب الطّائرة في غفلةٍ منه.

ابتسم الرّاهبُ، وهو يركّز بصرَه على القبطان موريلو.

- كيف حال والدك؟
- لا بأس، في انتظار زيارتك يومًا مّا، في ريو.
- سأذهب يومًا مّا لأشكره شخصيًّا على الهدايا الّتي أرسلها إليّ.
- وبعد بانانال؟
- بالتأكيد ساو باولو... ساو باولو.
وضحك بلطف.
- قريبًا، قريبًا جدًّا، بعد ظهر يومٍ مّا، سأكون في باراو دي إيتابيتينغا، أراقب فرانسواز وهي تمرّ...
- ها قد وصلنا إلى منزلٍ آخر من منازلك، أيّها الراهب يقطين. وبدأ هنودك يشمّون الرّائحة بالفعل. منذ كم سنةً، وأنت تتردّد على بانانال؟
فكّر قليلًا.
- لا أتذكّر على وجه التّحديد.. ربع قرنٍ، أو أقلّ. لم يكن لكم في ذلك الوقت وجود، أيّها الملائكةُ المجنّحون، كان الأمر أكثر بؤسًا، في غياب أيّ شكلٍ من أشكالِ المساعدة، وفي تعذّر الانتقال بين الأمكنة، لشحّ القطارات وقلّة القوارب، والشّاحنات. كان المشي سبيلنا المتاح لبلوغ مآربنا، أيّام كنتُ في عنفوان شبيبتي، وها إنّي اليوم ما تراه، خردةٌ عديمة الفائدة.
خابت آمالُه كلُّها، ولم تلقَ خُططُه ما تصوّره من توفيق. توجّب عليه أن يمكث زمنًا أطولَ في بانانال، حيث تربّص به الجوع، فبدا للنّاظر كما لو أنّه قادمٌ من محتشد اعتقالٍ لا غابات شينغو. لم تكن المسافة

الّتي تفصل المطار عن قرية الهنود طويلة، ولكنّ قطعَها استوجب حملَه على الأكتاف، أو إسنادَه. وإذا وجد شيئًا من العزم، جرّ نفسه، فلم تعد ركبتاه قادرتَيْن على حمله. حال وصوله وجد ما أبهج قلبه من العناية وخفّفَ من ألمه، فقد حصلَ في مقرّ إقامته على غرفةٍ بها أرجوحةٌ شبكيّة، وسارعت ممرّضةٌ إلى حَقنه ليشتدّ عضدُه، ووجد من الأطعمة ما سدّ رمقه، وشدّ عودَه.

ما إن أخذَ قسطًا من الرّاحة حتّى همّ به التّعب، وأحسّ بما يشبه الانهيار، فإذا به يرجفُ. استبدّت بجسده الحمّى، والرّغبة في النّعاس، وصدرت عنه كلماتٌ هي أقرب ما يكون إلى الهذيان. وأصبح كلّ شيء من حوله مصدرَ انزعاج، حتّى الأرجوحة الّتي لم يعد يحتملُ نعومتَها.

وحتّى تتهيّأ للعليل بعضُ أسباب التّعافي، كفَّ الهنود عن ترانيمهم الّتي ألفوا ترديدها، وأوقفوا معها قعقعةَ آلات الماراكاس.

وحدث في إحدى اللّيالي أن عاودته هواجسُه لتفتح جروح الحنين إلى الماضي، ونظر بذهولٍ إلى صديقه المتفاجئ.

- ماذا حدث؟

- بحقّ السّماء! أنت محترق.

- جئت من هناك، من الغابة.

- هل تكون نموذجَ رسمٍ لي؟

- نعم. أنا بلا شيء.

- مع هذا اللّون البرونزيّ ستبدو هائلًا.

- وهذا ليس كلّ شيء، انظر إلى يدي المتصلّبة.

- وما سبب ذلك؟

- إنّه المجداف والمنجل، أنا قويٌّ مثل بغل.

- لماذا لا تعود لتكون نموذجًا في مدرسة الفنون الجميلة؟

- نعم أعود، هل تستطيع ترتيب ذلك؟

- كن حاضرًا هناك فحسب، لديهم نماذج بشعة، أحدُها امرأةٌ ذات صدرٍ مترهّل.

- متى أذهب؟ غدًا؟

- نعم غدًا، هل رسمت من قبل؟

- توقّفت فترة.

- إذَن، إلى غدٍ.

- حسنًا.

تذكّر أنّه عندَ عودته منذ أسبوعيْن، وقف بوصفه نموذجًا، وحتّى يُرضي الجماعةَ، توجّب عليه، فترةَ ما بعد الظّهر، أن يسجّل حضوره في فصول النّماذج الحيّة، وألزم نفسَه صباحًا بالحضور في دروس النّحت، ليُشرفَ بعد الغداء على تلبية طلبات الأفراد. لم يجد الوقتَ حتّى لتغيير ساتر عورته. أدمى التّعب قدميه، واستنزف طاقته. وها هو الآن يحدّق كالأبله في ساعةٍ قبالة عينيْه، يسيل فيها الزّمن رتيبًا، ويزيد في عذاباته، وفي إحساسه باللّا معنى، وبالتّلاشي، بدمٍ مُتخثّرٍ في أوردته.

كان شرطه الوحيدُ لتأدية دور النّموذج أن يتلقّى في المقابل دروسًا في الرّسم. ولكنّ عجزَه هذه المرّة عن الحراك حال دونه وما يحبّ. لقد دأب منذ أربع سنواتٍ على القيام بذلك الدّور رغم راتبه الزّهيد، ورغم

ما يكابده جرّاء ذلك من عناء، استطاع تجاوزَهُ بفضلِ قوّته وقدرته على التّحمّل.

أثناء إحدى وقفات النّماذج الحيّة، اقترب منه صديقٌ وسأله:

- ماذا لديك في اللّيل؟

- لا أدري تحديدًا، ولكن يجدر بي أن أذهب إلى فندق ساحة الجمهوريّة لأنام.

- هل لك أن ترافقني إلى أمرٍ أحسب أنّه سيبهجك.

جلس إلى المنصّة، يفرك قدميه، وبدا أنّ الدّعوة راقت له.

- حفلة.

- أين؟

- في بيت تلك النحّاتة الكبيرة والسّمينة، سيكون الطّعام والشراب وَفِيرَيْن. ثمّ إنّها دعت جميعَ الفنّانين.

- لكنّي لستُ فنّانًا.

- هذا كلام فارغٌ، أنتَ ترسم بقدر ما أفعل أنا. ثمّ -وغمز له- إنّها تستلطفك كثيرًا.

- ليس لديّ ملابس.

- إنّها حفلة فنّانين، لا قيمة للملابس فيها. إذا أردت المجيء، فسيلتقي المدعوّون عند الساعة الثّامنة والنّصف في ميدان لارغو دو ماشادو. اتّفقنا؟

- حتّى إذا غيّرت رأيي، سنلتقي في الميدان.

فكّر في ألّا يذهب، لكنّه ذهب.

انتعش في الفندق بحمّام، خلّص جسدَه من تعب يومٍ أنفقه في القيام بدور التّمثال. ثمّ ارتدى بذلةً خفيفةً، عليها مربّعاتُ شطرنج بنّيّةٌ وجميلةٌ جدًّا، وانتقى قميصًا داكنَ الزّرقة، بدت فيه بشرته البرونزيّة أكثر بروزًا، وكذلك شعره الذّهبيّ. بدا يقطينُ رجلًا آخر، يقطر شبابًا وبهجةً من كلّ جانب، وتخفّف من التّعب ومن مسحة الحزن.

التقى صديقَه في السّاعة المحدّدة. وابتسم أحدهما للآخر.

- خمّنت أنّك لن تأتي.

- لكنّي أتيتُ.

ظلّ الصَّديق برهةً يتفحّص ملابسَه.

- ليس سيّئًا على الإطلاق، ليس سيّئًا على الإطلاق.

- حاولت أن أكون أنيقًا ما استطعت.

- هذا جيّد، ففي مثل هذه الحفلات توجد دومًا نساءٌ مليونيرات ومجنونات، يقدّمن فرصًا مغرية.

- إذا كنّ من طينة المليونيرات المنحرفات اللّواتي يرقصن بملهى كريستال، في لابا، فأنا أتنازل عن الأمر.

- لا أحسب أنّك تعتبر عُريهنّ أشدّ وطأةً من أن يتعرّى المرء أمام حشدٍ من النّاس في المدرسة؟

- أخطأت تقدير الأمور. ففي المدرسة لا ترمقك العيون مثل سكاكين مشحوذة. وفي الملهى يحرص الزّبائن على الحضور بوجوهٍ مطليّة، ملساء، وبأيادٍ يغطّيها الفرو، متعرّقة، تلمع بالجواهر، تفوح من أجسادهم مختلف العطور.. فالخطب غير الخطب.

- وهل من اعتراضٍ على ذلك؟ أراه بديهيًّا في مثل ذلك المقام.
- السّاحرات المتأنّقات يا صاحبي متى انتبهنَ إلى وجود أمثالنا يُطِلن المكوثَ إلى أن يقفل الملهى أبوابَه، ويمنّين أنفسهنّ بصيد، يُنفقن معه ما تبقّى من اللّيل.
- ألم يحدث أن كنت فريسةً لإحداهنّ؟
- حدث ذلك مع اثنتين منهنّ، رافقتهما السّيّارة، ولم أتذكّر بعدها ما حدث.
- دعِ الإجمال، وهاتِ التّفصيل.
- يا فتى، إنّ الإحساس الّذي يجده المرء من أمثالنا على الوسائد النّاعمة للسّيّارة يجعله غير مبالٍ بما يمكن أن ينشأ من حوله من أحداث، وبما يتناهى إلى سمعه من عباراتٍ من قبيل:

«mon p'tit chou»، «Mon chou».

أطلق قهقهةَ ابتهاج.
- هل نستقلّ سيّارة؟
- لنذهب بالترام.
- سنصل بعد نهاية الحفل إذا ذهبنا بالترام، ثمّ إنّني تدبّرت بعض الأموال من جدّتي.
- ليس سيّئًا، لأنّي مفلسٌ أكثر من أيّ وقتٍ مضى، مع أنّي أخذت سُلفةً من قبل.
استقلّا سيّارة.
- هل لك أن تفسّر لي سبب قهقهتك؟

- تذكّرت سيّدةً سمينةً، شاحبةً، لها شارب، عانقتني عناقًا طويلًا كما لو كنت تمثالَ المسيح الفادي في جبل كوركوفادو، وأغرقتني في موجةٍ حريريّةٍ ناعمةٍ ونادتني بـ...، هل تعرف بماذا؟

ضحك مرّةً أخرى.

فهزّ الآخر رأسَه بالنّفي.

- نادتني «mon chien».

أصابا استراحةً.

- والرّجل الّذي في الصّور؟

- يا فتى، تلك كانت صفقةً جيّدة. وقد حصلت على المال.

- لكن ألم يكن..؟

- ليس في ما حدث ما يحمل على الحرج. لم أُعِرْ الخطْبَ اهتمامًا، لأنّه لم يكن في واقع أمره إلّا عملًا، عملًا لا غيرَ. ثمّ إنّ الشّرطةَ داهمت المكان، وأذنت بغلق الأستوديو.

- ألم تخشَ أن تعرّضك بعض الصّور للخطر؟

- لم يكن في الأمر خطر، فأنا لم أسمحْ لحامل الكاميرا مطلقًا بتصوير وجهي، وإذا فكّر أن يفعلَ، فمن المستحيل أن يتعرّف إليَّ أحدُهم، لأنّي أكون حينها خارج الإضاءة.

- لا أتصوّر وجود رجلٍ على البسيطة ينافسك في سوء سريرتك.

- لستُ سيّئًا إلى هذا الحدّ، وَهَبْ أنّي بلا أخلاقٍ، مثلما زعمتَ، تأكّد أنّ الأمر لا يكادِ يُزعجني. من السّهل أن نُصدر الأحكامَ بشأن الآخرين، إذا كنّا نملك كلّ شيءٍ، ولا نعرف معنًى للخصاصة،

من السّهل على أمثالك أن يلقوا أحكامهم جزافًا. وأمّا أنا فلا منزلَ لي ولا أبا غنيًّا، أو جدّة ترسل إليّ المال، أنت لا تعرف ما يعنيه الجوع لمن هو في مثل سنّي.

- حسنًا، ليس ذنبي أنّي لست مثلك. ألا ترى ذلك؟

- لا يعنيني هذا، لو أنّ الأمر بيدي لركبنا الترام وكنّا في طريقنا إلى الحفلة. أين يوجد منزل السيّدة البدينة؟

- ما إن نخرج من كوباكابانا وندخل لاغوا. نحن قريبان جدًّا.

كان المنزل المعلّق على سورٍ عظيمٍ مضاءً بالكامل.

- هل تعرف القائمين عليه؟ هل جئت إلى هنا من قبل؟

- ملايين المرّات.

- أوف! يا لها من راحة!

أحسَّ أوّل الأمر بأنّه خارج هذا العالم. وبعد أن كرع ثلاثة كؤوسٍ من الويسكي استعاد عنفوانه، وأصبحت نظرتُه إلى الأشياء من حوله حميمة. غير أنّ ما كان يريده حقًّا هو تناول الأطعمة اللّذيذة وشرب الويسكي المجّانيّ.

صافح عددًا من الحضور. وتبادل معهم عباراتٍ لا روح فيها، تفرضها المصانعة. وفي المقابل بدا أنّ صديقه أكثر ارتياحًا، وهو يجوب المكان، مبتسمًا للجميع، منحنيًا في كلّ مرّةٍ ليقبّل أيدي السّيّدات الأنيقات، مردّدًا العبارةَ نفسها.

تبادل أطرافَ الحديث مع أحدهم، وقد نال إعجابه، وفكّر أن يتّخذه نموذج رسمٍ، ولم يجد حرجًا في أن يبوح له بأنّ جسده هو الأكثر

مثاليّة في ريو دي جانيرو، وقد تحفّز للأمر ولا سيّما في غياب المليونيرات القويّات الأجساد بكامل زينتهنّ، يتباهين بما لهنّ من الحليّ.

التقط كأسَ ويسكي أخرى من صينيّةٍ عابرة، ومضى يبحث عن زاوية. فرغم ما كان يحيط به من هوسٍ، ومن أجواء مغرية، ظلّ شغفه بالزّوايا، قائمًا، دون أن يجد له تفسيرًا. اكتشف شرفةً هادئة، بإضاءةٍ أقلّ. وإذا كان ما يميّزها بالدّرجة الأولى أنّها مهجورةٌ، فإنّها كانت، فضلًا عن ذلك، ممتدّةً حتّى المياه المضيئة في البحيرة.

صارت الموسيقى في الدّاخل بعيدةً عن مسمعه. وأطبق جفنيْه مستسلمًا في آنٍ لما ظلّ عالقًا بجسده من تعبٍ، ولأثر ما كرعه من كؤوس. وسرى في أوصاله خدرٌ لذيذ، جعل العالم أكثر خفّة، وبلا هموم. كان الوقت يعني تلك اللّحظة، تلك اللّحظة فحسب.

- هل ستشرب هذا بمفردك؟

لم يفتح عينَيْه. كان الصوت الأنثويّ لطيفًا، فرفع الكأس مقدّمًا الويسكي.

- يمكنك أن تشرب، إنّه مجّانيّ.

انبعثتْ قهقهة سُرورٍ تؤكّد خبثَه.

- أنت ثَمِلٌ؟

- ليس تمامًا.

أصرّ على ألّا يفتح عينَيْه خوفًا من رؤية المليونيرة السّمينة.

سمع صوتَ قرع الكؤوس الزّجاجيّة ورنينَ قطع الثّلج.

- أين كنت قبل وصولي؟ في أيّ العوالم اختبأتَ؟

- هنا يكمن الخطأ، فكلّ ما في الأمر أنّي لم أكن، لم أكن في أيّ شيء.

- هل تعلم أنّي رأيتك من بعيد؟

- حقًّا؟

- وجدتُني معجبةً بك حين رأيتك من بعيد، ولكنّ العتمة تحول الآن بيني وبين لون عينيك.

- لونُهما سخيف، إنّه بنّيّ غامق.

- هل أنتَ من أطفأ المصباح؟

- أيّ مصباح؟ عندما وصلت كان المكان مظلمًا. هل يمكنني إبقاء عينيَّ مغمضتَيْن؟

- يمكنك ذلك، لكنّي سأضيء المصباح.

وقبل أن يتمكّن من قول أيّ شيء، كانت المرأة قد ضغطت على زرّ الإنارة.

شعر أنّ كلّ شيءٍ قد أضاء، وجلست هي بجانبه على الأريكة.

- رموشك طويلة!

ابتسم.

- هل تعلم أنّك فتًى جذّاب؟

- نعم أعلم.

- مغرور، هل تعرف زورايدا؟

- أيّ زورايدا؟

- صديقتي، سيّدة المنزل.

- تعرّيت لها مرّةً واحدة، مرّةً واحدة، لا بل مرّات عديدة.

هذه المرّة، كانت الضّحكة مليئةً بالبهجة حقًّا.

- أنت مجنون، لماذا تعرّيتَ لـزورايدا؟

-لا أعلم، لا أريد حتّى أن أفكّر في الأمر، ذاك شأنها.

- كيف «اخترقتَ» المكانَ ودخلت؟

- لقد تلقّيت دعوةً من صديق، هو في الأصل صديق لصديقٍ آخر لصديقتها.

- هل تبدو لك الحفلة سخيفةً؟

- كانت كذلك حتّى وصلتِ. جئتُ لتناول الطّعام فحسب، كي أوفّر ثمنَ سندويش العشاء.

- يا للمسكين!

- أنت غنيّة؟

- يمكن قول ذلك.

- سمينة؟

- إطلاقًا.

- مُسِنَّة؟

- يجب ألّا نسأل امرأةً عن ذلك. لكنْ لنجدْ لكَ في شرب الكحول عذرًا. اثنان وثلاثون عامًا.

- يا لك من غشّاشة!

- حسنًا، أنا غنيّة، نحيفة، شابّة بما يكفي، واسمي باولا.

- يا ربّ السّماء! مع كلّ هذه الميزات كدتُ أفتح عينيّ.

- انتظر لحظة! بعد أن أقول واحد، اثنان، ثلاثة، تفتحها.

- اتّفقنا.

سمع المرأة تبتعد عن الأريكة، وكان صوتها يقترب.

- واحد، اثنان، ثلاثة!

فتح عينيه، ليرى عندها باولا بكامل أنوثتها، مشعّةً بسمرتها الشّفّافةِ. ضحكت وهي تتكئ على الشّرفة. فتفحّصها مذهولًا، مفتونًا بشدّة ما تتملّكه من سحرٍ وجمال. شعرٌ أسودُ ناعمٌ، مفروقٌ، ينسدل بانسياب، عيناها مخمليّتان، أنفٌ جميلُ الشّكل، أسنانٌ في منتهى البياض، شفتان ممتلئتان، رقبةٌ نحيفةٌ ممدودة، صدرٌ يظهر في شقّ ثوبٍ جريء بلونٍ أبيض مظلّل، ونهدان يظهران تحت الثّوب الأبيض الشفّاف، صلبَين، جريئين، نابضين بالحياة. أنزل نظره إلى خصرها النّحيل الّذي يكبر ويمتلئ عند الوركين المستديرين. وكانت السّاقان مُتْقَنَتَي الشّكل، من الحذاء إلى محيط الفخذين.

أشارت إلى صدرها ضاحكةً، ونقرت عليه بسبّابتها نقرًا خفيفًا.

- هل يعجبك اسم باولا؟

- يا له من اسمٍ جميلٍ لكائنٍ جميل!

أسندت جِذْعَها بذراعَيْها، وجلستْ على حافّة الشّرفة. فلم يتمالك نفسَه، وبقفزةٍ واحدةٍ استوى إلى جانب المرأة، وأمسك كتفَيْها.

- أنت مجنون! قد تسقط من هذا الارتفاع!

أحسّت باولا بدوارٍ خفيف، فألقت برأسها على صدره.

- حبيبي، لقد كنت أبحث عنك منذ ميلاد أوّل نجم ...

فاحَ عطرٌ ناعمٌ من جميع أنحاء جسدها وشعرها، فأراد أن يبقى على تلك الحال إلى الأبد ويشعر بهذا الجسد يسكن حياتَه.

- يا لها من رائحةٍ أخّاذةٍ!

- إنّه ماركة Ma griffe، وتعني الظّفر أو المخلب.

وبيدين مشدودتين، راحت تداعب ظهرَه، من مؤخّرة رقبته إلى أبعد ما يمكن أن تصله يداها القلقتان.

- أتهيّب من قدوم أحدهم على حين غرّةٍ.

ترك نفسَه ينقاد بتثاقلٍ إلى الأريكة، فانحنى إلى الوراء وأغمض عينَيْه، وبقيَا صامتَيْن، مفتونَيْن بالانجذاب المتبادل.

أغمضت باولا عينيها مستسلمةً ليديه تُطوّقانها، وتمنحانها الأمان. وبدا كأنّه لم يعد هناك من حفل، ولا موسيقى، وتماهيَا، فلم يعدْ الوجودُ يتّسع لغيرهما، يتبادلان إحساسَ أحدِهما بالآخر، مستمتعَيْن، ويشعران كلّ مرّةٍ بقُربٍ أكثر. قاطعت باولا تلك النّشوة، وتكلّمت بصوتٍ خافت:

- حبيبي.

- اممم

- أمسكْ يدي.

فأطاع الأمر.

- هل تعرف يا حبيبي ماذا يقول العرب؟

- يا له من خاطر! ماذا يقولون؟

- يقولون إنّ الصمت إذا سادَ محادثةً دلَّ على مرور ملاك.

- إذَن سنجعل الآن فيلقًا من الملائكة يمرّ لتزدادي جمالًا وزينة. أريد أن أتذكّرك بتلك الحال، غدًا، عندما ينتهي كلّ شيء... هل تسمحين لي؟

خدشت معصمَه بأظافرها.

- من أنت يا حبيبي؟

- أنا لا أحد!

- ذلك جيّد!

ابتسم.

- وما وجه جودته؟

- يحرص الجميعُ على أن تكون لهم هويّةٌ محدّدة، بعناوين كثيرة.

- الآن حان دوري لأسأل، من أنت يا باولا؟

- جديرٌ بنا أن نظلّ غريبيْن، وأن نخلص لجلال اللّحظة الّتي تجمعنا، جديرٌ بنا أن نواصل رقصتنا التّنكّريّة.

مرّ أربعة ملائكة ببطء.

-حبيبي...

- امم.

- هل لك أن تحبّني؟

- أنا أحبّك فعلًا، وأنت؟

- إلى الأبد، توجور.

- باولا توجور... الحقيقة يا عزيزتي أنّك أطول منّي قليلًا. وغدًا سنواصل الحياة، كلٌّ على طريقته...

تناهت إلى سمعه ضحكاتٌ يعرف صاحبها جيّدًا. إنّه صديقه دون شكّ، ورجّح مع دنوّه أن يكشف هويّته ويفسد عليه رقصتَه التّنكّريّةَ.

- أيّها الهارب! لقد قلبت المنزل رأسًا على عقبٍ وأنا أبحث عنك.

- لو أنّك قلبتَ الشّرفة، لسقطتُ قربَك.

اصطدم الصّديق بـباولا، وهو يبتسم.

- أوه! إذَن أنتُما على معرفةٍ سابقة؟ وها هي باولا تكتشف الآن «أبوللو سيغاريت» مباشرة!

نهض وبه شيءٌ من انزعاج.

- يمكنك أن تقدّمني على أنّي أبوللو سيغاريت أو المسيح أو نرسيس أو إيروس أو أيّ تمثالٍ آخر كنت له نموذجًا.

بدت على وجه باولا نظرةُ استمتاع.

- عرفتِ الآن لماذا ذهبتُ عاريًا إلى صديقتك. مَن يدفع لي يمكنه رؤيتي عاريًا. سأغادر، غدًا تمام التّاسعة صباحًا، وسأكون المسيحَ من جديد.

نهضت باولا وهمست له:

- حبيبي... أنت سخيفٌ لطيف.

في ذلك الوداع القصير التصقَ الجسد الشّاب بجسدها التصاقًا قويًّا، وكان لكؤوس الويسكي أثرها في ذلك العناق الحميم.

العطر، الأظافر، المخالب، «باولا! باولا! باولا! توجور... توجور ... توجور».

الفصل الثّالث

زيفينيتا «ب»

تظلّ إرادةُ الإنسان عاجزةً عن بلوغ المقاصد، أيًّا كان مبلغها. ولا بدّ لها من تأييدٍ إلهيّ، يعضدها، ويمهّد لها السّبل. ولا اعتراض في خاتمة المطاف على مشيئة الرّبّ. هكذا سارت الأمور مع الرّاهب يقطين، لتتأخّر مخطّطاته، وليذهب بعضها سُدًى رغم اجتهاده وشدّة حرصه.

شعر بدوارٍ لم يستطع مقاومتَه عندما أخذ في الابتعاد عن الأرجوحة ليمشي أولى خطواته من جديدٍ. لم يكن الأمر هيّنًا، واستدعى منه الكثير من المجاهدة. حاول ثانيةً، ليجد نفسه بعد عناءٍ خارج الغرفةِ، وليكتشفَ ما في شمس يونيو الّتي بدأت للتوّ من جمالٍ ودفء.

احتفى الجميع بعودة الرّاهب ولم يتخلّف أحدٌ عن الحدث المهيب. جاء الهنودُ كبيرهم وصغيرهم. وفيما كان الكبار يحدّثونه في أمورٍ شتّى تحت ظلّ شجرة المانغو، وجد الصّغارُ الفرصة سانحةً للصّعود إلى حجره. ومزجوا، وهم يتكلّمون، بين البرتغاليّة ولغتهم المعقّدة. مرّروا أيديهم على لحيته الكثّة الضّاربة إلى الحمرة، وطالبوه بأشياء كثيرةٍ حتّى يُحضرها لهم عندما يتسنّى له الذّهابُ إلى المدينة.

- تويرا -هكذا كانوا ينادون يقطين-.

- تويرا، أصبحت ماتوكاري.

- أنا عجوز؟ فليكن أيّتها الشّياطين الصّغيرة. أنتم أيضًا ستصبحون كبارًا في السنّ يومًا مّا.

يضحك.

- صرتَ أشيب، وغزا شعرك البياضُ.

مرّروا أيديَهم الصّغيرة على صُدغَيْه ورقبته. وقال أحدُهم يُشاور الآخرين:

- لن ندع تويرا، الّذي هو أبونا، يطعن في السنّ.

اتّفقوا جميعًا، فنزل سيلٌ من الأيدي الصّغيرة يدقّ رأسَ يَقْ.

- آي آي آي! أيّتها الشّياطين، انزعوا الشّعرات البيضاء بشكلٍ ألطف، تريدون أن تجعلوني أصلع!

نزعوا وهم يضحكون شعرةً بيضاء، ورفعوها عاليًا، احتفاءً بما اعتبروه ضربًا من النّصر. شعر يَقْ بالاختناق من حرارة الأجساد المنكبّة على وهَنه. أحسّ بدوخةٍ خفيفةٍ، حاول إخفاءها والسّيطرة على أمرها. ولكنّه لم يستطع إلّا أن يُبدي سعادتَه برائحة السّمك المطبوخ الّتي انزلقت من تلك الأيدي الصّغيرة الماكرة. لم يجد بُدًّا من أن يسايرهم في ما يفعلون. فرغم ما كان يكابده من تعبٍ، لم يهن على نفسه أن يدفع بكلّ ذلك الحنان بعيدًا، فهو أحوج ما يكون إليه.

- تويرا، هل أحضرت لي بونا بونا؟

هُمْ مثل كلّ الهنود، يحبّون البالونات الملوّنة.

- نعم أحضرت.

- لي أيضًا؟

- ولي؟

- ولي؟

- للجميع أيّها الشّياطين.

- أحضرتَ كرة؟

- لم أنسَ أحدًا، فلتطمئنّ قلوبُكم.

كان يعرف أنّ ثمنَ الكرة أغلى وأنّ إحضارها أشدّ عُسرًا.

وتدفّق كلّ فمٍ بطلباته: عربات، لعبةَ الداما، كريّاتٍ زجاجيّة، خذروفًا، ورقًا لصنع أشكال، صنّارةً لصيد سمك، قمصانا، سراويلَ قصيرة، وعددًا لا ينتهي من الأشياء التي قد تجبر قلبَه البائس على أن يتوسّل في كلّ أرجاء المدينة الكبيرة، البعيدة والباردة.

- سأحمل لكم كلّ ما يسرّكم، وإذا لزم الأمر فسأصنعه، سأسرقه، سأجيء به من العدم. ولكنّني لن أنسى طبعًا أن أُحضر معي سوطًا غليظًا لأضرب به مؤخّراتكم جميعًا.

حاول النّهوض.

- هذا يكفي، وإلّا سيصيبُ رأسَ تويرا صداعٌ حادّ.

نظر إلى النّهر وشعر بحرارة ذلك اليوم. تملّكته رغبةٌ في بَلِّ وجهه بمياه النّهر الصّديق، والتنعّم بعذوبتها.

فهم الصّغارُ ما تُواريه نظرتُه.

- تأخذ حمّامًا، تويرا، تأخذ حمّامًا؟

التقط بإجهادٍ عصا المكنسة التي كان يتّكئ عليها، وحاول الوقوف.

تضاءل حجمُ الألم في ركبتَيْه وصار بمقدورهما أن تتحرّكا بشكلٍ أفضلَ.

- تويرا يريد النّهوض، ولكنّ ضَعفَه يحول بينه وما يريد.

- لنساعده يا أولاد، لنساعده يا أولاد.

- حسنًا، أنت يا أورّاديو، اركض إلى غرفتي وأحضر منشفة.

- هل عندك صابون؟

كانت البهجة ظاهرةً في كلّ نظرة، لكنّه بدا متردّدًا. مرّ وقتٌ كثيرٌ ولم يحضر الصّابون. وبعد أن حصل عليه الآن فسيستهلكه في لحظات، مع هذا العدد من الأطفال المجتمعين.

ضحك.

- حسنًا، أيّها الأشقياء، هلمّوا بالصّابون.

لم يكن مفيدًا في شيءٍ أن يشير إلى واحدٍ منهم بعينه. انطلقوا جميعًا وأجسادُهم تلمع تحت الشّمس الحارقة، وارتفع معهم من الأرض غبار، ولم يبقَ إلى جانبه سوى أصغرهم سنًّا.

***

مرّ على الخطب أسبوعان، تعافى خلالهما تدريجيًّا، وتغيّرت نظرته إلى الحياة. استعاد الكثير من قوّته، وكسا اللّحمُ جسدَه بعد الهزال، وعاد إلى ناظريْه بريقهما المعهود. لم يعد في حاجةٍ إلى عصا المكنسة، ولا إلى أن يسنده أحدهم. ولئن ظلّت خطاه بطيئة، فقد أبهجه ما آلت إليه الحال، وأبهجه أكثر ما غمره به الأصدقاء من موزٍ وسمكٍ ومن ثمرات البابايا والمانيهوت.

كلَّ ظهيرة، تأتي العجوز شيمالو ومعها جذر مانيهوت، تتحدّث بلغةٍ برتغاليّةٍ ركيكةٍ مخلوطةٍ بكلماتٍ هنديّة، ثمّ تعطيه الهديّة وتوصيه:

- تويرا يحتاج إلى أَكْل الكثير من المانيهوت، المانيهوت جيّدٌ للحفاظ على القوّة.

شكرَها وابتسمَ، وهو يفكّر في أنّ كبار الهنود لن يستطيعوا تعلّم الكلمات بشكلٍ صحيح. كان من الأسهل تحوير الألفاظ التي ينطقونها بصعوبة. الموز عندهم كان مانانا، وكلمة بيليم ينطقونها ميليم، الغازولين ينطقونها كاديورينا، والبرتقال يصبح عندهم لاراجاو.

لقد استطاعوا منحَ بعض الجمال لكلماتٍ كان وقعُها بشعًا وقبيحًا باللّغة البرتغاليّة.

وبمرور الأيّام، أمكن للرّاهب أن يعود إلى سالف أنشطته. صار قادرًا على المشي لمسافاتٍ أطولَ، وعلى ممارسة الرّياضة، والتّجوّل في القرية. وصار بمستطاعه الجلوس على الحصير والاستماع إلى الأحاديث. زار منزلَ أروانا واستمع إلى تلك الأغاني الّتي لا تنتهي، رغم رتابتها وتعقّد كلماتها. تنفّس الحياة، وأخذ قيلولةً بجانب النّهر. كان يغمر نفسه بمائه ويصنع به نوافير يقذفها من فمه. ومنح نفسه فترة خمولٍ واسترخاء، في سبيل أن يتعافى تمامًا، ويتمكّنَ من الذّهاب بعدها إلى ساو باولو، ليبدأ رحلتَه من جديدٍ، في ظرفٍ يعلم أنّه أشدّ عسرًا.

بعد ظهيرة أحد الأيّام، وعندما بلغت الحرارة أشدّها، سار نحو القرية. فنظر إلى بؤس المزارع المقسّمة على نحوٍ فوضويّ. ثمّ وقف أمام أواتاو مفتونًا بمنظر السّلاحف الثّلاث. كانت كبيرة الحجم، مقلوبةً، تدلّ بطونُها المنتفخة على أنّها إناث، وقدّر أن تكون متقدّمةً في السّنّ بالنّظر إلى حجمها. لفتت انتباهه، منذ أن بدأ يتجوّل في القرية، حيواناتٌ كثيرةٌ في مثل ذاك الوضع. تأسّف للأمرِ، ولكنّه عزاه لطبائع الأشياء.

فهي محكومةٌ بنظامٍ لا حيلةَ لها في ما يطرأ عليه من تغيّرات. ولم يكن له أن يبسط إرادته على تلك القوانين، وهو العاجزُ المحدود. لقد لاحظ على امتداد أكثر من أسبوع، تلك الرّؤوس المتدلّية بلا روح، سواء في حرارة الشّمس أو في برد اللّيل القارس. ولم يستطع أن يستوعبَ الأسباب الكامنة وراء ما يستبطنه الإنسانُ من شرور، تدفع به إلى الإبقاء على تلك الكائناتِ متدلّيةً، ليكون نصيبها الجفافُ. فإذا حان موعد الحفلة التي ينوي أنديسيولا ريتويرا تنظيمها، فارقت الحياةَ. وكانت، إذا لمسها أحدٌ من حينٍ إلى آخر، حرّكتْ ببطءٍ أرجلَها المسطّحةَ ومخالبها الطّويلة، وهي تتلقّى لهيب الشّمس الحارقةِ فوق دروعها السّميكة.

لم يستطع الرّاهبُ حبْسَ دموعَه، أمام إحساسه بالعجز المقيت. وخمّن في الألم الّذي عاشه آدمُ وهو يُطرد من الجنّة، ضريبةً لخطيئته. تلك اللّحظة بمثابة الإعلان عن انطلاق رحلة الإنسان بين مطرقة الشّقاء، وسندان الموت.

غير أنّه لم يفهم، في المقابل، الحكمةَ الكامنةَ وراء ما يلقاه الحيوانُ من عناءٍ، سببُه الإنسانُ، فالمسكين لم يقترفْ ذنبًا يستحقّ من أجله ذلك.

ولعلّه وجد العزاء في ما تتضمّنه بعض المعتقداتِ من حديثٍ عن تناسخٍ للأرواح، يتحوّل بموجبه الإنسانُ إلى حيوانٍ، حتّى يتطهّر من الشرّ والخطيئة؟ ومهما يكن من أمرٍ، فهو لم يجد تفسيرًا لفكرة أنّ هذا الحيوانَ اللّطيفَ، وهو أيضًا من عمل يد الرّبّ، يستحقُّ أن ينتهي به الحالُ بعد سنواتٍ من العيشِ في مياه النّهر الجميل العذبة، قربانًا للشّمس الحارقةِ، وضحيّةً لأنانيّة البشر ولامبالاتهم.

ولو أنّه أعاد تلك الحيوانات إلى النّهر، لضلّت سبيلها، وجرفها

التّيّار لشدّة ضعفها. نجح مرّةً في إنقاذ سلحفاةٍ ولكنّ الأمر كلّفه الكثير، وكانت نجاتها أشبه ما يكون بالمعجزة.

تأثّر يَقْ بحجم المحنة، فدخل مزرعةً وعاد بوعاءٍ فيه ماء.

- أعرف أنّه لن يساعدَ كثيرًا، لكنّي سآتي إلى هنا كلّ يومٍ لفعلِ ذلك.

جثَا على ركبتَيْه، وأخذَ من جيبه منديلًا، فبلّله وعصرَه في أفواه السّلاحف، بينما كانت المخلوقاتُ المسكينة تُحرّك رؤوسَها على الجانبَيْن.

عندما انتهى، أعادَ الوعاءَ إلى هنديٍّ صغيرٍ كان يُراقبه بفضولٍ ويحكّ مَوضِعَيْ كليتَيْه في كسلٍ.

تلا في قلبه صلاةً غريبة: «ليرزقْني الربُّ بعضَ الحنان ساعةَ موتي».

سأله الهنديّ:

- لِمَ فعلتَ هكذا يا تويرا؟

- الحيوان يعاني كثيرًا.

- لا أعتقد ذلك. أكّد لي والدي أنّ الكوبرا العملاقة والسلحفاة، لا يضيرهما شيءٌ إذا لم يشربا الماء.

اكتفى بالتّحديق في ذلك الطّفل، دون أن يعترض على كلامه. لكنّ الصّبيّ أضاف:

- في البدء تعاني، ثمّ تتحرّك. وبعد ذلك تغادرها المعاناة، لأنّها تتعوّد على هذا الأمر. ألا تراها دائمة الهدوء؟

مرّر يدَه على رأس الطفل، وداعب شعرَه الأسود، ثمّ ابتسم وابتعد.

***

إنّها القصّة نفسُها، تتكرّر بأشكال مختلفة. ومُحصّلُ أمرها أنّ مشيئةَ الرّبّ فوق كلّ إرادةٍ بشريّة.

حدث مرّةً أن مضى يقطينُ يطلبُ المدينة، وكان الأملُ يحدوهُ في أن يعود مظفّرًا. غادر القريةَ منذ دقائق محمّلًا بطلبات أهلها الطّيّبين، وقرّر أن يقضي ليلتَه في غويانيا. وفي ظهيرة اليوم الموالي وصل ساو باولو، الّتي اشتدّ فيها البرد، وذهب ضحيّته عددٌ لا بأس به. ورغم أنّه كان بلا مأوى قدّر أن يجد المساعدةَ من بعض أصدقائه، فاستسلم للنّوم، يطلب الرّاحة. أحسّ بقشعريرةٍ حسبها أوّل الأمر، من آثار البردِ فلم يولها اهتمامًا، لكنّها عاودته، وكانت أشدّ، ليعرف أنّها الملاريا، بعد أن تحوّلت أظافره عن لونها إلى الأرجوانيّ، وامتدَّ البرد ليستوطن عموده الفقريّ. أخذت أسنانه تصطكّ دون توقّف، وارتعدت فرائصُه، حتّى إنّ رؤيتَه صارت مشوّشة، ولم يعد يقوى على شيء. لقد جاءت في الوقت الخطإ لتُصيبه في مكمنٍ، وتوّجت حضورَها بلدغةٍ فظيعةٍ لسعت مؤخّرته.

فتح عينَيْه، فوقعَ نظرُه على وجه الرّائد كوتو، بسمرته الأخّاذة، وابتسامته الودودة.

- ما الّذي حلَّ بك أيّها الرّاهب يقطين؟ هل لسعتك حشرة؟ إذا واصلت على هذا النّحو، أيّها الرّجل العجوز، فلن تصمد حتّى بلوغ غويانيا.

أحضِروا له بطّانيّةً سميكةً لحمايته من البرد، بينما كان الرّكّابُ الآخرون ينظرون إليه بشفقة.

تابع كوتو كلامَه:

- أظنّ أنّه كان عليك أن تقضي شهرين في بانانال، أنت لا تزال ضعيفًا جدًّا يا صديقي.

جاءت الكلمات من بعيد، من جوفِ الأبديّة. حتّى الأصوات وصلتْ إليه بنبرةٍ حادّة.

- سنتركك في أروانا. هناك ستحصل على علاجٍ بفندق دونا إستيفانيا، ولا مفرّ لك من الأمر.

***

عندما تمكّن من فتح عينَيْه قليلًا، أدهشَه أن رأى الطّائرةَ تحوّلتْ إلى غرفةِ نومٍ وكرسيَّه إلى سريرٍ كبيرٍ ومُريح. أيّ معجزةٍ حدثت؟

تخلّصَ من الأغطية وشعرَ بجسده غارقًا في العرق، فسَحَب الهواءَ بقوّة. وفي الخارج كانت هناك أصواتٌ وبعضُ كلابٍ تنبح. لا شكّ أنّ الوقت اقترب من اللّيل، لأنّ الغرفة معتمة. توجّه نحو الباب وسارَ في الرّدهة. إنّه يعرف الآن مكانَ وجوده. نزلَ إلى الشّارع وجلس على الرّصيف. ولمّا تعرّفت إليه الكلاب، جاءت تداعبه. كان نهر أراغوايا يتّخذ، أمام عينَيْه المتعبتَيْن، لونَ آخر لمسات غروب الشّمس. أمّا شجرةُ التامبوريل القديمةُ والمألوفة فرسمتْ خيالًا عملاقًا مقابلَ السّماء.

- أوّل شيءٍ ستفعله، قبل حتّى أن تقول مساء الخير، هو شربُ كوب من الحليب الدّافئ.

- العمّة إستيفانيا... ظننتُ في البداية أنّي أحلم.

أمسك الكوبَ وانتظر حتّى تجلسَ السيّدةُ اللّطيفة إلى جانبه. لقد حملتْ عيناها طيبةً يعرفُها منذ عشرين عامًا، وكانت كعادتها حافيةَ القدمين، تتحدّث وتحرّكها فوقَ العشبِ والحصى.

- أيّ ضررٍ ألحقوه بك الآن، أيّها الرّاهب يقطين...!

- تقصدين أنّ الجبناء تخلّوا عنّي وذهبوا إلى ساو باولو؟

- كانوا يريدون اصطحابَك، فلمّا علمت بحالتك، ذهبتُ بسيّارة جيب مع إدموندو إلى المطار وسرقتُك.

- لستُ في وضعٍ يسمح لي بالبقاء...

هزّ رأسَه في حزنٍ.

- الأكيد أنّك لم تكن في وضعٍ يسمح لك بالسّفر.

- وكيف سأدفع لك؟ نقودي نفدت تقريبًا.

- يومًا مّا ستدفع لي. مَن يبذل ما تبذله أنتَ من جهدٍ في مساعدة مشرّدين لا تبالي بهم حتّى الحكومة، هو عندي شخصٌ له رصيدٌ مدى الحياة.

- لكنّه موسم السّياحة الآن، ستحتاجين إلى جميع الغرف في الفندق.

كان يعلم أنّ العمّة استيفانيا تحتاج في ذلك الوقت إلى أن تكسب مالًا، لعلّها تعوّض خسارةَ أشهرٍ لم يعمل فيها الفندق، بسبب الأمطار الغزيرة.

- في كلّ الأحوال سأعمل على إرسالك إلى مكانٍ آخرَ، يكون أكثر هدوءًا، فليس يجدر بك أن تظلّ في هذا الصّخب. لقد تحدّثت بالفعل إلى ديموندو وطلبتُ منه تنظيفَ مزرعة بوساو غدًا، سيكون باستطاعتك هناك أن تستردّ عافيتك، ولك متى شئت أن تزورني لتناول الطّعام.

أنزل كوبَ الحليب محُرَجًا، ووضعه على الرّصيف الّذي لا يزال دافئًا من شمس هذا اليوم العظيم.

- لا أحدَ يسكن هناك؟

- لا، لا أحد، ستكون في دعةٍ من أمركَ، ولن تطال يدُ المانيهوت الجميل.

بعد استراحةٍ قصيرة، أخرجتْ من جَيْبِها سيجارة، وأشعلت عودَ ثقابٍ ثمّ أطلقت سحابةَ دخانٍ كبيرةً باتّجاه الغيوم، وطفقت تنظر ببهجةٍ إلى غروب الشّمس الأحمر الأرجوانيّ، ثمّ تابعت:

- سأكلّف ديموندو ليحمل معه صبيحة الغدِ، سريرًا، وكرسيّين، وأرجوحةً، وبطّانيّةً ومنشفةً، في سيّارة الجيب.

سكتت قليلًا. وما إن رأت اللّيلَ يكاد يسود المكانَ، حتّى صاحت باتّجاه الدّاخل، كأنّما تذكّرتْ شيئًا:

- ديموندو! ديموندو!...

وصل الفتى الأسود على عجلٍ برفقة عددٍ من الكلاب.

- افحص المحرّك يا ديموندو، خلال وقتٍ قصيرٍ سيبدأ الضّيوف في الشّكوى.

أطاع الأسودُ، وواصل الجريَ في الشّارع والكلاب تتبعه.

كان الرّاهب يقطين لا يزال متردّدًا.

- لا أعرف يا عمّة استيفانيا.

- ليس مطلوبًا منك أن تعرف. كلّ ما عليك هو أن تصوّب جهةَ المكان، وستجد في انتظارك أجملَ الأشياء، وأحبّها إلى قلبك. بوساو ممتلئةٌ والنّافورة تواصل غناءَها. وستُقيم الطّيور الصّغيرة حفلةً على شرف حضورك كلَّ يوم. سأطلب من أحفادي ألّا

يقتربوا من المكان بفخاخ الصّيد. ألا ترى أنّي أعرف كلّ ما تحبّه؟

سعى جاهدًا لإخفاء دموعه، ومواراتها تحت ستارةٍ من اللّيل، فلا يليقُ به أن يكشفَ عن ضَعفه، أو أن يكون مصدرًا للشّفقة.

لم تنتهِ العمّة استيفانيا بعدُ. بل كانت على وشك أن تعلن «كش ملك» لأحاسيسه.

- أيّها الرّاهب يقطين المعذَّب، كم سنةً مضتْ منذ أن عرفتني مغروسةً على ضفاف ذلك النهر؟

- حوالي عشرين عامًا.

- وكم عدد السّنين التي عرفتك فيها؟

- المدّة نفسها.

- إذَن، لقد مرّ عقدان من الزّمان، وأنا أرى بأمّ عينيّ إخلاصَك واجتهادَك لتوزيع ما في قلبك الطّيّب من لطفٍ ومحبّة، في هذه الأدغال. هل تعتقد أنّي نسيت يومَ وصلتَ بلا قميص، حتّى إنّك اضطُرِرت إلى شراء واحدٍ رديءٍ لتتمكّن من السّفر؟ هل تظنّني أنسى ذلك؟

أطلق قهقهة.

- ذهب بي الظّنّ بادئ الأمر أنّك لا محالة رجلٌ مخبول.

- وأنا أعتقد أنّي لم أكن يومًا غير ذلك.

- إذا حان أجلك، فستجد أمامك سلّمًا من الهنود، لا من الملائكة، يشدّون أيديهم لمساعدتك على الارتقاء، إنّها لعنةٌ صديقةٌ سأدعو بها لك.

- آه لو كانت كلّ اللّعنات بهذا اللّطف.

- حسنًا إذَن، توقّف عن الكلام واذهب إلى المزرعة الآن، لو كان جواو أرتيغا على قيد الحياة، لما سمَح لك بالخروج من هنا وإن تطلّب الأمر إطلاق النّار. إذا أصررت، سأتّصل بـفيو وتاناري للسّيطرة عليك، كفى حكايات.

رفعت جسدَها السّمين، وأطلقت نَفَسَ دخانٍ آخر في سماء اللّيل، ثمّ حكّت جانبَيْ مؤخّرتها. أبعدت خصلةً من الشعر المبيضّ عن جبهتها ونظرت إلى الجهة الّتي ذهب منها ديموندو.

- لقد تأخّر ذاك الولد اللّعين، فما الّذي حلّ به بحقّ الجحيم؟

وانبعثَ صوت هدير المولّد، وقد بدأ يشتغل، كأنّه يردُّ عليها.

- ستتناول بعد قليلٍ حساءَ دجاجٍ مميّزًا، والآن سأذهب إلى الدّاخل لتفقّد المطبخ. بدأ الضّيوف يطالبون بالطّعام، ولا ثقة لي في كلّ أولئك العاملات، إنّهنّ لا يساوين فلسًا واحدًا.

مشت الهُوينى وهي تجرّ رجليها في الرّدهة المضاءة بنورٍ باهت. كانت الجدران لا تزال بيضاء ناصعةً من آخر عمليّة تبييض. قُسّمت المزرعةُ إلى غرفةٍ إسمنتيّة، وفناءٍ يفصل المطبخ عن الغرفة. كان المطبخ متّصلًا بغرفةٍ أخرى، مع شرفةٍ ترابيّةٍ كبيرةٍ وجميلة، إنّه مكانٌ رائعٌ حقًّا لمن يحتاج إلى عشرين يومًا أو شهرًا من الكسل الصحّيّ.

وسط المانيهوت الأخضر نبتتْ شجرتان من جوز الهند، تبدوان في مرحلة نموٍّ تثير الإعجاب. كان كلّ شيء أخضر، باستثناء غابةٍ كبيرةٍ من نبتات الكارابيتشو، بدأ يتهدّدها الجفافُ. إنّه موسم ذبولها من كلّ سنة، يحدث لها ذلك ليكون الخصب نصيبًا لغيرها من النّباتات.

وهو يجوسُ خلال الجزء الخلفيّ من المزرعة وجدَ بهاءً لا نظيرَ له.

كان خرير النّافورة أشبه بأغنيّةٍ هادئةٍ تدعو إلى النّوم، وبامتلاء الحوض، يتشكّل تيّارٌ صغيرٌ يشقّ طريقَه جهة النّهر. أطلعه عددٌ من الهنود كانوا في الجوار على وجود أسماك الأفواديراس والسلور اللّذيذة جدًّا. لكنّ ذلك شأنٌ آخر. فالحيوانات من عند الله، وإذا كانت في النهر أسماكٌ كثيرةٌ وكبيرةٌ، وجيّدةٌ للأكل، فلا حاجة بنا إلى غيرها.

ابتسم إذ تذكّر أنّ بعض الأصدقاء في المدينة اعتبروه ذات مرّةٍ خليطًا من الويسكي الأجنبيّ والقدّيس فرنسيس الأسيزي.

كان يتجوّل في المنزل الّذي سينزل به ضيفًا خلال يومَيْن. ثمّة أشجار توتٍ خضراء تبشّر بالبركات، وقطعُ قرميدٍ متراكمةٌ في زاويةٍ مقابل الحائط، على أمل أن تكون نافعةً ذات يوم. فهي الآن بلا فائدةٍ، وستظلّ كذلك إذا لم يحدث شيءٌ يجعل مصيرها مختلفًا. أثبت بصره فرمق فوقها سحليةً فضوليّةً جميلة.

اقترب منها يق، على حذرٍ، وأسعده أنّها لم تبرحْ مكانَها.

- مساء الخير أيّتها السيّدة الجميلة! كيف حالك؟

كانت سحلية غابات، متى تملّتها العينُ لا تعدم جمالًا. وبدا أنّها وهي تبتعد قليلًا، تتفحّص بفضولٍ ذلك الرّجلَ الّذي تحدّث إليها. ولمّا اطمأنّت لوجوده، ثبتت في مكانها، فالرّجلُ خلافًا لما عهدت من بني جلدته لم يلتقط عصًا ليهمّ بضربها، ولا حجرًا ليرميَه.

- هل تعرفين، سيّدتي، كم أنت لطيفة؟ ثمّ إنّ لك عينين فضوليّتين، وساطعتين كأجمل ما يكون السّطوع. أودّ أن أبلغك بأمرٍ، وأحسبُ أنّه سيسعدك. سنكون جارَيْن مقرّبَيْن بعد يومٍ واحدٍ من الآن.

ضحك ملء القلب، حين تأكّد له أنّ السّحليةَ الجميلة قد استأنست وجودَه، فلم تبتعد قيد أنملة، بل مكثت حيث هي، دون أن يبدوَ عليها الخوفُ. «لقد جبل الله مخلوقاته كلّها على حبّ الحنانِ»، هذا ما حدّث به نفسَه، وهو يدير ظهره مبتسمًا، ثمّ توجّه إلى أرضيّة الشّرفة ليغنم بعض الرّاحة. خلع قبّعته المصنوعة من القشّ وروّح بها لتخفيف الحرارة. وفجأةً لاحظ أنّ السّحلية الصّغيرة استدارت، وارتقت مكانًا لتراقبه.

- إذا كنتِ تستلطفينني كما استَلطفْتُك، فيمكننا أن نكون صديقَيْن جيّدَيْن. وثِقِي أنّي لن أسمح لأيّ شخصٍ بإيذائك.

استراح قليلًا، وبعد ذلك مسحَ العرق عن جبهته ونهض مُتعَبًا.

- أتعلمين ما الشّيء الّذي يوحّد البشر يا ابنتي؟ vecchiaia! الشّيخوخة، vecchiaia! نعم إنّها الشيخوخة.. لا أقول ذلك لأنّي طاعنٌ في السنّ. لكنّي أعترف بأنّي جسدٌ متهالكٌ تمامًا، وإذا لم أبذل جهدًا فوق طاقتي، ولم أعضّ على قلبي، فإنّي أشكّ في قدرتي على التّعافي مرّةً أخرى.

حاول المشيَ. فسار خطوتَيْن ثمّ استدار. كانت السّحليّة لا تزال في الزّاوية نفسها، معجبةً بطيبته وبحنان صوته، فأشار بأصبعه نحوها في لطف.

- غدًا أعود، أخبري جميع الحيوانات الصّغيرة أنّي لن أسمح لأيّ شخصٍ بأن يسيء معاملتَها طيلة وجودي هنا. قولي للطّيور إنّي سأضع أرزًا بالقشر لتلك الّتي تحبّه بالقشر وآخر دون قشرٍ لتلك التي تفضّله كذلك أو شاختْ مناقيرُها وأُنهِكت. إذا قدّمتِ لي

هذه الخدمة، فغدًا، عندما أعود، سأجد لك اسمًا فيه من الجمال ما يقتل الأزهارَ غيرةً وحسدًا. أراكِ لاحقًا.

خرج في اليوم الموالي، وقصد المزرعة، يبتغي النّزهة، فضلًا عن رغبته في أن يمرّن ركبتيْه المتعبتيْن، وفي أن يبعث بعض القوّة في نفسه ضدّ الملاريا الّتي أخذتْ تتلاشى مع الشّمس. لم يفكّر وهو يطأ المكانَ في النّافورة، أو في مياه الجدول الصّغيرة. بل توجّهت عنايتُه حال وصوله إلى قطع القرميدِ المتراكمة، وأحسّ بالارتياح حين وقع بصره على صديقته الجديدة.

- أوه! كم أنا ممتنٌّ لانتظارك. انظري، إنّني اليوم أكثر سعادةً وأشدُّ إقبالًا على الحياة، فماذا عنك؟ هل فعلتِ ما طلبته منك؟ بالتّأكيد، بالتّأكيد.. لا شكّ في ذلك. هل لنا في أن ننتقلَ حيثُ الظّلّ، لقد غامرتُ اليوم بحثّ خطاي على غير العادة، وللأمر ضريبتُه، أوف!

مشى مسافةَ متريْن إلى الوراء، وهو يراقب السّحلية، وأسعده أنّها اتّجهت حقًّا جهة الحائط، حتّى إنّه لم يكد يصدّق ما رأى. قدّر أن يكون الأمر محض مصادفةٍ ليس أكثر. ولكن ما معنى أن تتبعه السّحلية دون أن تفهم كلماته.

انتصب واقفًا في الزّاويةِ نفسِها، وكان حريصًا أشدّ ما يكون الحرص على ألّا يغيّر موضعه، حتّى لا يبعث فيها الرّيبة. فدنت منه، وقد اتّخذت لها المكان نفسَه.

أبهجه ما حدث، وكتم ضحكه حتّى لا تنزعج.

- حسنًا صديقتي، يبدو أن لا جديدَ، ولست أعرف إذا ما لاحظت صبيحة هذا اليوم وصول الأثاث. قد لا تحتاجينَ إلى تأكيد أنّه لي،

فلي ثقةٌ في ذكائك وفي قدرتك الخارقة على الاستنتاج. بالأمسِ القريبِ لم أكن أستوعبُ أن أقيم في هذا المكان ما يناهزُ الشّهر، غير أنّي اليوم أجد الأمر أكثر من ممتع. لقد أرسلتُ في طلب بعض الألوان والأوراق، وسأستغلّ الوقت في الرّسم. وسأسعى حال وصولي إلى المدينة إلى بيعها. لديّ يقينٌ أن يقبل عليها النّاس، لأنّها دون شكٍّ ستكون مذهلةً، بروح خاصّةٍ. سأجني أموالًا ذاتَ بالٍ، وسيكون بوسعي أن أقتني أشياء كثيرةً لهنودي وبعضَ الخردوات الّتي أنا في حاجة ماسّة إليها.

أطلق تنهيدةً طويلةً كأنّها جناح طائر جابيرو. وظلّ صامتًا، ثمّ خطر له أن يخبر السّحلية الصّغيرة بأنّ الصّمت إذا سادَ كان دليلًا على مرور مَلَاك. لكنْ من الصّعب على مسكينةٍ مثلها أن تفهم ذلك. ثمّ إنّ الملائكة لا تذكّره في واقع الأمر إلّا بأحزانٍ كثيرة، تهبّ على ذاكرته دفعةً واحدة.

أخفى خيبتَه العابرة، وابتسم.

-كنت وعدتك يوم الأمسِ بأمر، وأحسبُ أنّك تنتظرين حدوثه. لقد ثبت لي أنّك فتاةٌ لطيفة، ويتوجّب عليّ أن أمنحك اسمًا يليق بك، يكون فخمًا مثل أسماء الملكات. لِنَرَ، أنت رقيقةٌ مثل دبّوس، ولا شكّ أنّك سوف تزدادين حجمًا وتصبحين سحليةً جميلة، ممتلئةَ الجسم وقويّة. ومن الواضح أنّك لم تدخلي بعدُ مرحلة مراهَقَة السّحليّات.

فكّر من جديدٍ في موضوع الدبّوس.

-دبّوس! دبّوس! ما أحلاه! لك وجهُ جوزيفا، جوزيفا الدبّوس، لا! هذا اسمٌ يليق بخيّاطةٍ وليس بمخلوقةٍ حلوةٍ تريد أن تكون

ملكة. جوزيفا، جوزيفا، جوزينيتا، لا، إنّه مغرق في فرنسيّته، زيفانيتا. بحقّ الجحيم، ما هذا الدبّوس الذي لا يريد تركي وشأني! لكنّه يصرّ على ذلك لأنّه يحتاج إلى الحلول في الاسم. زيفا، زينيتي، إله السّماء! وجدته! وجدته! زيفينيتا، زيفينيتا.

نظرَ بحنانٍ إلى الحيوان الصّغير، وخشي أن تحسبَه مجنونًا. ولكنّه استبعد مثل ذلك الأمر، فلو أنّها شكّت في إمكانيّته لتركته غير آسفة.

- يبدو لي أنّ الاسمَ يروقك، ولابدّ له من تكملة. ليكن مثلًا، زيفينيتا الأولى، الثّانية، الثّالثة، لا، هذا سخيف. يجب أن يكون لك اسمُ سفينة، فيديريكو «س»، آنا «س»، إذا كان يمكن للسّفينة غير البشريّة أن تكون «س»، فيمكنك أن تكوني في مرتبة أفضل لأنّك إنسانة، لذلك أريد منك أن تكوني زيفينيتا «ب».

توقّف قليلًا وهو مرتاح، ثمّ نظرَ حول المزرعة وقرّر الذّهاب إلى الدّاخل لتفحّص مكان السّرير، والكرسيّ والطّاولة. أمّا الأرجوحة الشّبكيّة فسيُبْقيها لوقت التّسلية.

- معذرة، يجب أن أذهب لألقي نظرةً على الأشياء.

دخل الغرفةَ ورأى بساطةَ كلّ شيء. فصاح بابتهاجٍ صادقٍ، وشكر العمّة استيفانيا من أعماق قلبه على طيبتها.

- رائع! أنا محظوظ!

اقتربَ من الحائط وفتحَ النّافذةَ، رغبةً منه في أن يتّشح منزلُه المؤقّت بشيءٍ من الفرح والنّور.

نظر إلى السّرير، وكانت هناك حصيرةٌ هنديّةٌ تُستَخْدَم بساطًا، وبعضُ مسامير تصلح أن يجعلها علّاقات. مسح بعينيه ما في المكان،

وأحسّ ببعض الألفة، وبضربٍ من الارتياح. منّى نفسَه بأشياء ستؤنس وحدته، سيكون له متّسعٌ من الوقت ليتحدّث بما شاء إلى حيواناته اللّطيفة، وستطرق منصتةً، وقد يحظى بزياراتٍ من أشباحه المفضّلةِ.

لقد أدهشه أنّ زيفينيتا تسلّقت الحائطَ، وعبرت السّقفَ، وراحتْ تراقبه من أعلى النّافذة.

- يبدو أنّه تعذّر عليك الاستماعُ إلى ما كنتُ أحدّث به نفسي، من أنّ حنيني سيجلب في الليل أناسًا كثيرين لزيارتي، وهو تقريبًا يملأ قلبي بالدموع دومًا، وعينيّ أيضًا. وفيمَ الكذب؟ أنتِ سعيدة، زيفينيتا، صديقتي الملكة زيفينيتا «ب»، سعيدةٌ لأنّك لا تحتاجين إلى تعلّم البكاء ...

***

في اللّيل، حدّثتْ زيفينيتا عمّتَها المسنّةَ رانغلابيانا وذَكَرَ سحليةٍ عجوزٍ يُدعَى أوندروبليغو، كيف تلقّت اسمها، وكان الفخر باديًا عليها. زيفينيتا شاعريّةٌ جدًّا، حتّى إنّها تستطيع الانتقالَ بسهولةٍ بين الكلمات في لغة السّحالي.

لكنّ أوندروبليغو عارضها بحكمة:

- يا فتاة، لو كنتُ مكانَك، لتوخّيت أقصى درجات الحذر. فليس من الحكمة أن نثق كلّ الثّقة في الإنسانِ.

ظهرت عليها علاماتُ عبوسٍ، وفكّرت باستنكارٍ في ما يميّزُ كبارَ السّنّ من فقدانٍ للثّقة في الأشياء جميعها. ثمّ إنّ أوندروبليغو لم يفعل شيئًا سوى إفساد المتعة.

لكنّ العمّة رانغلابيانا كانت أكثر فضولًا واهتمامًا بقصّة زيفينيتا.

- وهل سيأتي حقًّا ليعيش هنا؟
- ألم تسمعي أيَّ شيءٍ من هنا في الأعلى؟
- وكيف أسمع وأنا شبه صمّاء؟ ثم إنّ صيد البعوض أنهكني فلم ألحظ أيّ شيءٍ آخر.
- سيأتي غدًا.

لم يكن أوندروبليغو راضيًا.

- كوني حذرةً يا فتاة، كوني حذرة.

أبدت زيفينيتا انزعاجًا أكبر.

- هل سبق لك أن رأيت الرّجلَ، هل أنصتّ إليه وهو يتحدّث؟ ما الّذي يدفعك إلى الحكم عليه بشكلٍ قطعيّ، وأنتَ جاهلٌ بحقيقته، ما الّذي يحملك على تصوّر أشياء لا مبرّر لها، هي من صنيعة أوهامك وهواجسك؟ إنّ الفرق بين حديثه وحديثِ غيره من البشر هو نفسه الفرق بين البعوض والجراد.
- وهل لك من الخبرة ببني آدم ما يجعلك قادرةً على أن تميّزي بعضهم من بعض؟ مازلت غرّةً بعدُ، ولا معرفة لك بالحياة.
- قد لا يحتاجُ الأمرُ إلى عناءٍ شديدٍ. فالكلمات النّابيةُ الّتي يتفوّه بها المارّة تتناهى إلى مسمعنا كلّها. وإذا تعلّق الأمر برعاة البقر فإنّ الواحد منّا يخجلُ أن يكرّر ما يصدر عنهم من كلماتٍ. والأمر، لا محالةَ، سيكون أشدّ فظاظةً إذا كانتْ لأحدهم شاحنةٌ ثُقِبَ أحدُ إطاراتها. وأمّا الأنكى من كلّ ما تقدّم فيمكن للأذن أن تلتقطه إذا ما تعثّرت العرباتُ الّتي تجرّها الثّيران، إذ تتدفّق أفواه الرّجال بسيل من الفظاعاتِ، ناهيك عن عودتهم يوم الأحد بوجوهٍ عليها

آثارُ الشّمالة، فتراهم يريدون القتال وإهلاكَ أنفسهم. أتظنّني بعد كلّ هذا جاهلةً ببني آدم؟

أطلقَ تنهيدةً جعلت العجوز رانغلابيانا تعدّل نظّارتَيْها لتنظر إلى ابنة أختها.

- وليس هذا الرّجلُ، في ما بدا لي، من طينة هؤلاء جميعهم. إنّه مختلفٌ تمامًا، يتكلّم بأسلوبٍ رقيقٍ جدًّا، يأسر الآذان ويُلقي السّكينة على القلوب، في منتهى الدّفء، حتّى إنّه ليبدو مثل الموسيقى. إنّه شبيهٌ بمرور الرّيح مغنّيةً على أوراق حقول القصب، وبهمسها في آذان نهرٍ مخاتلٍ لأجمل كلمات الحبّ.

استرسلت السّحلية الصّغيرة في توصيف الرّجلِ، وقد أخذتها الحماسةُ، حتّى إنّ العجوز أوندروبليغو أُصيب بالذهول، وهو الّذي عاش حياةً طويلةً لم يواجه فيها شيئًا مشابها. وبدا له أنّ الأمر في محصّله لا يعدو أن يكون نتيجةً لحداثة سنّها.

- في صباح الغد الباكر سأواصل كتابة الرّسائل في الأوراق البعيدة لتكون في متناول الطّيور، عملًا بوصيّته، وسأُبكر للأمر، لأسبق ديوك الهنودِ إلى الفجر.

استلقتْ ممدّدةً، مسندةً رأسَها على ذراعَيْها الصّغيرتَيْن.

- إنّني لا أهابُ في محبّته شيئًا. وهب أنّني أخطأت التّقدير وعنّ له مثلًا أن ينهي حياتي بضربة عصًا أو بحجارةٍ، لا ضيرَ أبدًا من ذلك. فيكفيني أنّه الشّخص الوحيد الّذي منحني بعض الاهتمام. مَن ذا الّذي تكلّم معي حتّى اليوم دون أن يوبّخني أو يصرخ في وجهي؟ أمّا هو فتكلّم معي بحنانٍ، هكذا دون سبب. ثمّ إنّه

توّجني ملكةً، ووفّر لي من وقته زمنًا حتّى ينحت لي اسمًا لم تحظَ به
إلّا النّجوم في عليائها... زيفينيتا «ب».

الفصل الرّابع

ابتسامة الإله

إذا كان من شأن شمعةٍ بسيطةٍ أن تبعث السّعادة في قلوب الوحيدين والغرباء، وتُشيع الدّفء، فماذا يمكن للمرء أن يقول عن النّار الّتي أوقدَها الرّاهب يقطين بعناية؟ لقد أحرق الجذوع بلطف، لأنّ الأشجارَ عندما كانت حيّة، وهبت الطّيورَ أعشاشًا، وأعطت الظلَّ والثّمار، ثمّ ماتتْ. إنّه قانون الطّبيعة الحتميّ الّذي يسري على الأشياء كلّها. لكن حتّى وهي ميّتة، أعطت النّارَ والحرارة لمن يحتاج إليهما. وستكون في صباح اليوم الموالي كومةَ رمادٍ تنثرها يدُ الرّيح في جميع الاتّجاهات لتخصيب الأرض وإنبات أشجارٍ جديدة. لقد كانت تلك الأشياءُ، على بساطتها، ماثلةً في ذهن يَقْ، يؤلّف بين وحداتها، ويُفضي بعضها إلى بعض. ثمّ إنّه عندما أشعلَ عودَ الكبريت لإيقاد النّار في حزمة الجذوع، فَعَلَ ذلك بحذرِ مَن يتعامل مع زجاجٍ هشّ، وسعى باحثًا عن زاويةٍ مناسبةٍ لتخفيف معاناتها.

تهالك بكامل جسده على كرسيٍّ شمسيٍّ قديم، صنعتْه العمّةُ إستيفانيا وأهدتْه إيّاه. نظر إلى السّماء المليئة بالنّجوم المنثورة في أرجائها، وبدت له داكنةً، فما من صورٍ شعريّةٍ ترتسم على الأرضِ، ولا إلهامَ حتّى يهيم بها الشّعراء.

الحقيقةُ الّتي يجب أن تقال هي أنّ تلك الحالة من المشاعر الخيّرة ومن السّكينة كان لها أثرٌ طيّبٌ في روحه، وحفّزته على الفعل، وحرّكت في داخله رغباتٍ سكنت. ومن ذلك أنّه عندما خرج من الغابة متّجهًا إلى المدينة، وجدَ من نفسه شجاعةً لا نظير لها، جعلته يحتملُ لهيب الشّمس، في غير جزع، وأمكنه حالَ وصوله أن يظفر بغاياته كلّها في غير عناء. لكنّه يشعر السّاعة بميلٍ إلى الهدوءِ، وإلى التّأمّل. وبدا أنّه في استراحةِ محاربٍ لا بدّ منها ليستعيد توازنَه.

وبدا كما لو أنّ النّجوم تتوعّده بما هو آتٍ:

- انتظر فحسب يا يقطين حتّى تنتهي هذه الحياة الطيّبة!...

- أنا أعرف، أراها انتهتْ منذ أن غادرت بانانال.

نظر مرّةً أخرى إلى النّار الّتي كانت ريحٌ عاصفةٌ تدفعها لتتقافز في جميع الاتّجاهات، ممّا أكسب لهيبَها لونًا أخضر وآخر مائلًا إلى الزّرقة.

في ذلك الوقت، كانت زيفينيتا «ب» في أجمل أحلامها. هناك في أعلى الحائط الّذي يحتوي على النّافذة الأماميّة، وكذا الكائنات الأخرى. ما أطرفَ حديثَ الحيوانات وبحثَها عن الحنان! تملّكه ندمٌ لا جدوى منه وشَعُرَ بعذابٍ لِما ارتكبَه من أفعالٍ سيّئةٍ وهو صبيٌّ في الشّمال، حين كان يستخدم المقلاع لقتل السّحالي المحتمية بأشجار جوز الهند. كان يرمي الحجر بدقّةٍ فيصيب المسكينةَ مباشرةً في الظّهر، فتسقط إلى الوراء على الأرض وتبقى ملقاةً يرتعش ذيلُها وأطرافها. ولحسن الحظّ، لم تكن زيفينيتا ومثيلاتها بحاجةٍ إلى معرفة أيّ شيءٍ من هذا. اعترف للرّبّ المحسن حتّى بهذه الخطيئة الطّفوليّة. وابتسم وهو يسترجع أشياء لا شرّ فيها. لكنّ الحيوانات كانت تتحدّث في ما بينها. فتبادلت الانطباعات حول البشر،

وأُقسِم أنّ ذلك صحيح، وإلّا لماذا بدأت تظهر طيورٌ لم توجد من قبل حول المزرعة؟ جاءت حمامةٌ رماديّةُ اللّون ودرست الأجواءَ المحيطة. وعند الظّهيرة، كان هناك ما لا يقلّ عن ثلاثٍ منها اجتمعت تنقرُ الحصيّات على الأرض، تحدّث إليها بعنايةٍ شديدة. وفي صباح اليوم التالي، كانت ذواتُ الذّيول السوداء كلّها على علمٍ بالقصّة. وبعد الظّهر جاء البيض المشاغبون واصطادوا اليرقات على أغصان المانيهوت، وأوصلوا الأخبار بعيدًا لأنّهم يسافرون كثيرًا عبر الأحراش.

- هل رأيتم الرّجل؟
- ليس بعد.
- هل هو طيّب؟
- نعم هو كذلك، لا يتحدّث إلّا بصوتٍ حنونٍ، ويمشي مثل عجوزٍ طيّب.
- وماذا يفعل؟
- يقدّم الطّعام، لقد ترك لنا الأرز ...
- هل علمت جوريتي بالأمر؟
- تركتُ لها رسالةً عند الباب.

وظهرتْ جوريتي، وهي يمامةٌ أرجوانيّة، ومعها طيورُ وقواق السّنجاب بذيولها الجميلة. لم تأكل أيَّ شيءٍ تركه يَقْ، لكنّها جاءت لتُظهِر زينتَها وتهرب من شرور الأولاد ومقاليعهم. وحضر كلٌّ من طائر الكوروبياو، وعصفورُ الباردال، وهو طائرٌ صغيرٌ يشبه عصفورَ النّمنمة، وكانا في أوج بهائهما. أمّا طيور الكاشيك فكانت أكثر من أن تُحصى. حدث

كلّ ذلك في فرحٍ مجنون، إذ لم تتوقّف تلك الحشودُ المتوافدة عن الضّجيج من شروق الشّمس إلى آخر شعاعٍ مغادر.

أمّا أحد حيوانات الأغوطي، وهو يعيش دائمًا في ظلّ نبات المانيهوت ورطوبته، فعلّق قائلًا لأرنبٍ رماديّ:

- يمكنك أن تطمئنّ وتبقى آمنًا. هذا الرّجل طيّبٌ إلى درجة أنّه يتألّم. فالقوارض والخنازير تحضر لأخذ حمّامٍ شمسيٍّ على طول الطّرق، ولم تُصب بأذًى.

- وكم من الوقت سيستمرّ كلّ هذا؟

- لا علم لي. لكن أثناء ذلك، سأخرج أنا وعائلتي كلَّ مساءٍ يمسك بعضُنا بأيدي بعضٍ للتجوّل هناك وقَضْم أيّ شيءٍ نشتهيه.

صار بوسع الأنثى العجوزِ رانغلابيانا والمسنِّ أوندروبليغو أن يتمشّيَا دون خوفٍ تحت شمس الظّهيرة، ومع كلٍّ منهما روماتيزمه المزمن.

زيفينيتا، يا لها من فتاةٍ شقيّة. لقد أمكن لها، رغم حداثة سنّها، أن تتبيّن من بعيدٍ أشياءَ لم يسبق لكبار السنّ اكتشافها قطّ...

كان عالمٌ من السّحالي الملوّنة يدور بشكلٍ طريفٍ حول حديقة المنزل، تحت شجرة الأماريلاو.

فكّر: يَقّ «إنّها مثل أطفالٍ صغارٍ يلعبون لعبةَ العجلة، تمامًا مثل البشر، ولا نحتاج إلّا إلى أن نعرف الطّريقة الأمثل للنّظر إليهم».

قال أحد السّحالي لآخر:

- تعالَ أيّها الأحمق، أحضر عائلتَك هنا، تحرّك، ثمّة شيءٌ اسمُه

إجازةٌ صيفيّة، اذهب وتحدّثْ إلى الحَرابيّ الخائفة، وأَحِطْهَا علمًا بأنّ العالم هنا قد تحوّل إلى حفلٍ موسيقيٍّ جميل.

- هل يعزف الرّجل على النّاي؟

- لا، ليس تمامًا، ولكنْ في صوته وَقْعُ الموسيقى.

وبسبب ذلك، حتّى ايكسوكروندو، بطريرك السّحالي، أصابَ قيلولةً في الشّمس، على ضفّة الحوض. وأمّا تيجواسو البطيء البليد فصار يجرّ جسدَه الضّخم عبر الفناء، صانعًا بذيله خطًّا، مخلّفًا علامةً تدلّ على مروره الجميل في الرّمال.

وماذا عن السّحالي؟ لقد حضرتْ منها الآن اثنتا عشرة واحدة. ولكنّ زيفينيتا ظلّت تبسط سلطانها بإطلاقٍ على كلّ شيء. فهي الملكةُ لا ينازعها في عرشها أحد. تتبعه حيثما سارت قدماهُ، فإذا ذهبَ إلى الشّرفة، ظهرتْ على الحائط، متلهّفةً لسماعه يُحادثها. ومتى سار على جانب البوّابة، تسلّقت هي السّطح وبقيتْ كأنّها في برج مراقبة. وإذا ذهب إلى الغرفة المجاورة للمطبخ كي يرسم، اعتلت الطّاولة الخشبيّة التي كانت قاعدة لرسوماته. تراها تتوقّف فوق الأوراق، بجانب الأقلام الرّصاص، وربّما عنّ لها أن تُصيبَ قيلولةً هناك غير مباليةٍ بأيّ شيء. وماذا عن الأخريات؟ حسنًا، كانت هناك واحدةٌ فضوليّةٌ جدًّا اسمُها ماتا هاري، وهي جاسوسةٌ لعينة. إذ صار يروقُ لها، كلّما انتصب واقفًا أمام المرآة الصّغيرة لحلق لحيته، أن تباغته بظهورها، لتراقب كالبلهاء ما يصدر عنه من حركات. لم تكن تفوّت على نفسها رؤيةَ أيّ شيءٍ ممّا يحتمل حدوثه، تتّخذ لها موقعًا مدروسًا، وتركّز نظرها بعنايةٍ منقطعة النّظير. تلك مسألة أذواقٍ والأذواقُ لا تُنَاقَش. وهناك أيضًا التّوأم شيتينيا وغراموفونا،

ووجدتْ هذه الثّانيةُ صعوبةً في التّعوّد عليه، فكانت تنظر إليه دومًا كأنّها تراه أوّلَ مرّة. أمّا شيتينيا فقطعةٌ من اللّطف والبراءة، تقضي وقتَها كلَّه محملقةً في الأشياء، لأنّها كانت حديثةَ الولادة. وكثيرًا ما تأخذ حمّامات الشّمس أثناءَ تجوّلها. وكم كانت تحبّ الأغاني! اكتشفَ يَقْ أنّه عندما يغمغم أغاني الفادو، مقلّدًا صوت البرتغاليّين، تبقى هي مفتونةً جدًّا حتّى إنّها تترك الحائط وتلتصق بالباب، ثمّ يبدأ «اللّحن». فتنزل زيفينيتا الغيورةُ بسرعةٍ على الحائط، وهو ما يدفع شيتينيا إلى الفرار. لكنّ الشّيء الأكثر إدهاشًا في كلّ ما يصدر عنهم كان بلا شكٍّ قدرتهم على التّواصل في ما بينهم.

عند السّاعة الواحدة، كان يَقْ يستعدّ لقطع مسافة الكيلومتر الواحد الّذي يفصله عن الفندق، وعندما اقتربَ من بوّابة المبنى على بعدِ أكثر من خمسمائة متر، كان يعلم أن بورتيرينا في انتظاره. وتلك سحليةٌ خاملةٌ نسبيًّا، تعيش في حفرةٍ كبيرةٍ قربَ البوّابة. ومن حسن حظّها أنّ الهنود الصّغار الّذين كانوا يأتون لزيارته في بعض الأحيان لم يكتشفوا وجودَها. وما إن خرج واتّخذ الطّريق الواسعة عبر نباتات المانيهوت، حتّى أسرعت زيفينيتا إلى مهاتفة بورتيرينا عبر الأسلاك الشّائكة لتخبرها أن تنتظره كي تنال نصيبَها من الموسيقى.

- صباح الخير حبيبتي، كيف حالك؟ انتبهي، سأفتح البوّابةَ، إلى غدٍ عزيزتي.

كانت بورتيرينا منتشية وهي تتبع الرّجل الّذي أخذ في الابتعاد. قال لها يق «إلى غدٍ»، لِعلْمِه أنّها لن تكون هناك عند عودته، فمع الشمس الحارقة ستختفي للاستمتاع بقيلولةٍ مريحةٍ جدًّا.

انتقل إلى كرسيّه، وكاد يغفو. كم هو جيّدٌ أن يبقى هكذا، بلا التزاماتٍ ولا أشياء قبيحة. كان يريد الاستفادة من ذلك ما استطاع. فأغمض عينَيْه حتّى ترتاحا قليلًا من اللّهيب، وولّى انتباهَه شطرَ عالم الصّراخ وما كان يضطرم من ضوضاء في الظّلام. كان أكثر ما جذبه هو خفقان النّافورة، تُرسِلُ بين فينةٍ وأخرى همساتٍ تحملُ معنًى، لعلّها همهمة الموتى في أبديّتهم، تطوّف في الأرجاء، أو هي روح مانويل دو بوساو المعذّبة، تؤكّد ما يتناقله النّاسُ من أنّه دفن حذو النّافورة كنزًا مسحورًا. وماذا عن الأسماك؟ لا شكّ أنّها نائمةٌ في هذه السّاعة. هكذا كان يسمّيها: «عدّادات السّمك الخاصّة بي»، لأنّ لغة الأسماك مختلفةٌ كثيرًا عمّا يعرفه في العالم الخارجيّ، لغة أسطوريّة، ناعمة، تحت مائيّة. لقد تشكّلت بينه وبين الأسماك صداقةٌ حميمة، صارت قادرةً معها على أن تميّز الأوقات. فالغسق هو الوقت الّذي يقدّم لها فيه يَقْ بقايا الطّعام. وفي الصّباح، عندما ينهض ليتوضّأ، يجلب لها حفنةً من دقيق الشوفان. وحين يرجع من الغداء تكون يداه مملوءتين بالدّقيق. كانت تسبح في زاويةٍ منتظرةً بلهفة، فيتحرّك عددٌ كبيرٌ منها وقد نفد صبره. الأسوأ في كلّ ذلك هو وضع سمكات الماندي المسكينة، فهي لم تتمكّن من الصّعود إلى السّطح ممّا حتّم عليها أن تنتظرَ في الأسفل بشراهةٍ سقوطَ بعض الفتات وغَرَقه. كان عليه أن يغمس يدَه ومعها حفنةُ الطّعام في الدّاخل وأن يفتحها من بعد ذلك في العمق حتّى لا تستولي الأسماك المتزاحمة في السّطح على حصّة غيرها. ثمّ إنّه وجد في الأمر متعةً عندما ذهبَ للاستحمام. فبدلًا من نَقْرِه أو عضّه أو وَخْزِه، كما فعلتْ بادئ الأمر، صارت بمرور الوقتِ تسبحُ حوله، بعد أن أدركت أنّه صديقُها

وراعيها. فتمرّ بين ذراعيه وساقيه، بعد أن صار في متناولها أن تفهم حتّى مزاحه، إذ يتظاهر أحيانًا بأنّه يريد صيدَ إحداها، فتدنو منه، وتستفزّه، في الوقت الّذي تتحلّق فيه حوله مجموعةٌ صغيرةٌ تنتظر. وعندما يؤدّي حركةً توحي بأنّه يريد الإمساك بها، تسرع إلى الانتشار في كلّ مكانٍ، ثمّ تعيدُ اللّعبةَ من جديد.

هكذا كانت حياتُه: لطيفةً وحلوةً وممتعة. ولولا لدغاتُ بعوض البوراشودو والكارابانياس السيّئ السّمعة، لكان الأمرُ أشبهَ ما يكون بالجنّة.

تقول القدّيسة برنارديت سوبيروس: «ليس ما ينبع من فرحٍ على وجه الإنسان إلّا مكاشفةً للرّبّ وترجمةً لحضوره، تتراءى لنا»، ومتى سلّمنا بذلك، فكيف لنا أن نقرأ ما يظهر من فرحٍ على الحيوان؟ إنّه لا يمكن إلّا أن يحملَ في طيّاته وجوهَ ملائكةٍ بكلّ ما فيها من آيات الخلق.

حملته تلك الأفكارُ بعيدًا، حتّى إنّه سهى وهو يبتسم في الظّلام عن تغذية النّار. هبّت ريحٌ لم يتوقّعْها أحد، وكان أعجز ما يكون عن فَتْح عينيْه، وظلّ رغم تضاؤل ألسنة النّار منتشيًا.

- أنت تسرعين كثيرًا يا عزيزتي.

- مازلتُ أسير بالسّرعة نفسِها يا حبيبي. وكلّ ما في الأمر أنّ الريحَ قَوِيَتْ مع اقترابنا من البحر. افتح عينَيْك أيّها الكسول.

رأى من بعيدٍ أنوارَ السّاحل، ومنازلَ متباعدةً مضاءةً في عالمٍ كبيرٍ بشكل لا يصدّق.

وضع يدَه برفقٍ على ساقَيْ باولا.

- هل اكتشفتِ أنّي أعشقك بجنونٍ يا حبيبتي؟

رفعت يدَها عن المقود وداعبتْ يدَه.

- لا أخفيك سرًّا، إذا قلت لك إنّني أجدُ الإحساسَ نفسَه.

- لماذا أردتِ السّفرَ في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل؟ كان يمكن أن يكون غدًا.

- توقّفْ عن التّذمّر، كنتَ نائمًا معظمَ وقت الرحلة ولم تشعرْ حتّى بنزول الجبل، وقد نزلت بطيئًا بسبب الضّباب.

أشعلَ سيجارتَيْن في آنٍ واحد، ووضع واحدةً على شفتَيْ باولا.

- كيف عرفتَ أنّ بي رغبةً في التّدخين؟

- كنتُ سأغفل عن هذا الأمر، في حالٍ واحدةٍ لا غير: لو لم أكن أعرفك، مثلما أعرف نفسي وأكثر.

أطلقتْ ضحكةَ فرح.

- حبيبي، سيعجبك المنزل.

- لِمَنْ هو الآن؟

- بناه أبي من أجلي، وحقّق كلَّ رغباتي. لقد درستُ التّصميمَ واخترتُ الموقع. لن أخبرك بأيّ شيءٍ حتّى لا أفسد المفاجأة.

- أتراه أجمل ممّا هو في غافيا؟

- ما من شكٍّ في ذلك.

- هل هو في جمالِ شقّتك في هيجينوبوليس؟

- إنّه شيءٌ مختلف يا حبيبي، هل لي أن أسالك عن أمرٍ مّا؟

- أكيد.

- هل أنت راضٍ بعلبة السّردين التي تعيش فيها؟

إمكاناتي.

- إلى حدٍّ كبير، لا أستطيع العيش فوق إمكاناتي.

- أوه! حبيبي كم أنت غبيّ!...

- في شقّتي مكانٌ للرّسم، ومطبخٌ صغير، وحمّامٌ جيّد، وغرفةٌ مريحةٌ مع سريرٍ جميل. ويكفي وجودك في المكان لتتّسع أركانه، بشكلٍ لا نهائيّ، لا تضاهيه السّماء. بك وحدك يتحوّل كلّ ضيّقٍ إلى أكوانٍ فسيحة.

خفّفت باولا من السّرعة، ثمّ حادت عن الطّريق وأوقفت السّيّارة.

- ماذا حدث؟

- أو تسألني عمّا حدث؟ كيف لك أن تعتقد أنّ بوسع امرأةٍ أن تواصل القيادةَ، بعد كلّ ما كنت تعزفه من كلمات؟

أخذتْ وجهَه بين يديها، وجذبته إليها وتعانقا.

لم يكن ممكنًا قولُ أكثر ممّا قالاه.

- حبيبي، هل تحبّني؟

- باولا، بولا، بوبينيا.

كان يداعب شعرَها. إنّه شديدُ النّعومة، شديدُ التّوحّش، ومتحرّرٌ من القيود في آنٍ واحد.

- لنواصلْ المسير، وإلّا فلن نصل أبدًا.

- سنصل يا عزيزي، يكفي أن نستديرَ حول هذا المنحنى.

أخذا يضحكان، وبدأت هي في القيادة. سارت ببطءٍ، وكانت تقود بيدٍ، وتداعبُ بالأخرى وجهَ الرّجل الشابّ.

- وصلنا يا حبيبي.

توقّفت السّيّارة.

- في السّماء؟

- تقريبًا عزيزي. لكن عليك، بصفتك رجلًا نبيلًا، أن تذهبَ وتفتحَ باب السّماء، لأنّي منحتُ القدّيس بطرس عطلةً هذا اليوم.

نزل، وفتحَ البوّابة الكبيرة. ثمّ عاد إلى السيّارة، وبدأت باولا تمشي في طريق واسعةٍ بين أشجار الأوكالبتوس التي تلقي بظلالها المظلمة عليه.

- ألا تنوين إغلاق البوّابة؟

- غدًا يغلقها دامبرواز.

انزعج قليلًا.

- هو مرّةً أخرى؟

- ومَن غيره؟ لا بدّ للطّعام من شخصٍ يعتني به، ويقوم عليه. ثمّ إنّه حصنٌ من الكتمان. هل نسيتَ يا عزيزي أنّك كلّما خرجنا طلبتَ منّي التّخلّي عن الخادمات والعمّال والباقين جميعًا؟

- هذا صحيح، نسيت ذلك.

- لا يهمّ، دامبرواز لن يفسد شهرَ عسلنا.

توقّفت السيّارة وانفتح الباب. كان العجوز دامبرواز يبتسم وهو متأهّبٌ للخدمة. فمدّ يدَه إلى باولا.

- هل كانت رحلةً جميلة، سيّدتي؟

- رائعة، مع قليلٍ من الضّباب في الجبال.

- السيّد أيضًا؟

- كنت نائمًا طوال الوقت.

أخذَ دامبرواز الحقائبَ. وكعادتها، أحضرت باولا حقيبةً إضافيّةً لها، ولم يكن من الجدال جدوى.

كان يفحص المنزل، فوجدَ على المنحدر ثلاثة طوابق. وحدَها نزوات باولا أوصلتها إلى تخيّل تلك الأشياء.

- في الطّابق العلويّ مرقدُنا. ولنا هنا قاعةُ جلوسٍ وشرفاتٌ زجاجيّةٌ تطلّ على البحر وغرفةُ طعام. أمّا في الأسفل فتوجد قاعاتٌ للرّياضة و...

سمعَا خطوات دامبرواز وهو يصعد السّلالم مع حقائبه، وأخذت باولا الرّجل الشابّ بين ذراعيها.

- هل يعجبك ذلك؟

- كثيرًا.

- ثمّة شيءٌ هناك ستحبّه جدًّا.

أخذتْه إلى الشّرفة وأشعلت الضّوء، ليكشفَ له بين الحجارة عن مسبحٍ، وعن سلالمَ من الألواح الكبيرةِ، تؤدّي إلى شاطئٍ خاصّ.

ظلّ يفكّرُ مشدوهًا.

- ما الأمر؟

- أحاول تقديرَ الأموال الّتي أنفقتِها لصناعة هذه العجائب.

- ألا تستطيع أن تتخلّص من هذا القلق الّذي ينتابك كلّما تعلّق الأمر بالمال. الأمر حقًّا لا يستحقُّ. هوّن عليكَ، واستمتع باللّحظة، دع عنك هذا النّكدَ. هي أموالي وأنا سعيدةٌ أن أتقاسمها مع رجلٍ أحبّه، وليس من الحكمة أن تصدّع رأسك بأفكارٍ لا طائلَ منها.

أفكّر أن أصطحبك لرؤية إحدى ممتلكاتي في كابو فريو. لكنّ المكان هناك شبه بائس، لا يوجد فيه حتّى حمّام سباحة.

ظلّ على حاله، وقد ازدادت حيرته.

- لا يليقُ بك أن تستمرّ على هذه الحال يا حبيبي.

فقرّر إفسادَ «سبب» مجيئهما.

- كلّ ما في الأمر أنّي لا أكادُ أجد ما يبرّر اختيارك أن نقضي إجازتنا في مثل هذا الوقت.

ابتعدت باولا، في شيء من الإحباط.

- أتزعم ذلك حقًّا؟

- أنا جادٌّ في ما أقولُ، ولا أكادُ أتذكّر سببًا يمكن أن يقنعني.

ابتعدت باولا وهي تتأمّل جمالَ البحر المضاء. ألصقت وجهَها على الزّجاج والتزمت الصّمت.

- هل تعرف يا حبيبي، أحيانًا أشعر أنّني مجرّد خرقاءَ.

- لماذا ؟ أَمَا زِلْتِ تشكّين في أنّي ملكك؟

- ليس هذا، لكنّ الطّبيعة الأنثويّة مليئة بالأسرار الصّغيرة، وهذا ليس خطأك.

- لقد أكّدتُ لك في أكثر من مناسبةٍ أنّ قلبي ليس أكثر من ثمرة كبيرة، وقد اصطفيتُك طواعيةً لتقشيرها على طريقتك وأكلها. لم يبقَ من تلك الثّمرةِ لصاحبها غير قطعةٍ متناهيةٍ في الصّغر، وما من أحدٍ غيرك يسكنُ تلك القطعة.

كان دامبرواز ينزل الدّرج.

- أعددت لك العشاء سيّدتي.

- لا بأس يا دامبرواز، خلال نصف ساعة نكون جاهزَيْن.

صعدا الدّرجَ صامتيْن تمامًا. كانت باولا في المقدّمة، وفتحت باب إحدى الغرف.

- هذه غرفتك.

كانت حقيبته مفتوحةً جزئيًّا.

أخذ باولا من معصمها، ونظر إلى الحقيبة وابتسم.

- لا أشكّ في أنّ ما تحويه الغرفةُ سينالُ رضاي، لأنّه من اختيارك، أليس كذلك؟

أومأت برأسها أنْ نعم، واعترت وجهَها ملامحُ حزنٍ ناعم.

جَذَبَها إليه، وجَلَسَ على السّرير، ورفع عينَيْه إليها، وإذا بـباولا تبكي.

- ماذا حدث يا بوبينيا؟

أخرج منديلَه من جيْبِه ومسح عينَيْها بلطف.

- ما هذا الحزن؟ ما الّذي أصابك فجأةً؟ أوه! باولا، باولا، لا أريد أن أراك هكذا.

استعادت ثباتَها.

- هل تعجبك الغرفة؟

- ما يعجبني دائمًا هو أنتِ، دعينا نرى غرفتك.

خرجا إلى الغرفة المقابلة، وعمدت باولا إلى فتح الأبواب على مصراعيْها.

- راقتك؟

- مرّةً أخرى، كلّ ما يعجبني هو أنتِ...

وضحك.

- في نهاية المطاف، أين يجدر بنا أن ننام؟ هل عليّ أن أشاركك غرفتك أم العكس؟

- هل ثمّة فرق؟

- لا يوجد فرق.

- لنستعدّ للعشاء.

تناولا العشاء في صمتٍ تقريبًا، وحتّى المحادثاتُ القليلةُ الّتي دارت بينهما، لم تكن ذاتَ بالٍ.

كانت باولا لا تزال عابسة.

- أحضرتُ أشياء كثيرةً لأقرأها، لو ترين رداءةَ القصص التي يقدّمها كتّابنا للصّحف كي تنشرها. والأسوأ منها ذلك الأحمق المسؤول عن إرفاق الرّسومات بمثل هذه «العجائب».

لم تقل شيئًا.

أخذ يفكّر في الوظيفة الطّريفة الّتي توسّطت له باولا للظّفر بها. فالصّحيفة على ملك واحدٍ من أبناء عمومتها. لم يكن لعمله جدولٌ زمنيّ، ولا ضوابطَ تحكمه، أو واجبات. حتّى إنّه غيرُ مضطرّ من الأساس ليلزم نفسَه بعناء التّنقّل إلى العمل.

طرحَ عنه الفكرة، وأمال حديثه إلى موضوعٍ آخر.

- كان العشاء رائعًا.

- دامبرواز ينجز كلَّ شيءٍ على أكمل وجهٍ
- لكنّك لم تتذوّقي الطّعام تقريبًا.
- أنا منهكةٌ قليلًا بسبب الرّحلة، وأرغب حقًّا في النّوم، هلّا ذهبنا عزيزي؟

تبعها وهو يصفّر بصوتٍ خافت، وقد بدا له أنّها لا تعبأ بأحاديثه.

سارا خطواتٍ، ثمّ توقّف كلٌّ منهما أمام باب غرفة نومه.

- هل أرجو لك ليلةً سعيدةً، أم ليس بعدُ؟
- لا يا عزيزي، سأرتّب بعض الأشياء، وسأكون لديك، لأتمنّى لك أجمل الأحلام.

دخل الغرفةَ، وهمّ بإخراج الحقيبة الّتي أحضرتها من أجله باولا، لم تكن له من حاجةٍ حتّى لمعرفة ما تحويه. كان عالمًا من الملابس الدّاخليّة، ومن السّراويل القصيرة والبيكيني، بألوانٍ من صميم اختيارها، قدّرت أنّها تناسبه. طفق يبحثُ عن بيجاما حريريّةٍ بلونٍ أزرق فاتح، كان متيقّنًا من وجودها. عندما وقعت عليها عيناه، ابتسم، ورفعها أمام وجهه بلطف. إنّها سخيفة! ابتسم مرّةً أخرى وفكّر أن لا شيء في هذه الحياةِ، من شأنه أن يداعبك دون أن تكون من ذلك منفعةٌ تُرجَى، سوى الحرير.

فكّ ملاءات الكتّان النّاعمة، وارتدَى البيجاما الزّرقاء الفاتحة، ثمّ أشعل المصباح وأخذ يقرأ إحدى تلك القصص المملّة، منتظرًا مجيء باولا. قرأ ثمّ توقّف، ونظر إلى ساعته فشعر أنّ باولا استغرقت وقتًا طويلًا. عاد مرّةً أخرى إلى التّركيز في ما كان يقرؤه، لكنّ عينَيْه كانتَا مثقلتَيْن برغبةٍ لذيذةٍ في الاستسلام إلى النّوم، حاول دفعها، ولكنّها

وجدت في نبيذ العشاء، وفي طول الرّحلة ومتاعبها، ما زكّاها، فضلًا عمّا اعتمر نفسه من مشاعر دافئةٍ.

عندما دخلت باولا الغرفة، كان نائمًا وقد تناثرت الأوراقُ على أرضيّتها، فانحنت حريصةً على ألّا تزعج نومته، وجمعتها بكثيرٍ من الهدوء.

جثت على ركبتيْها، تتأمّل جمالَ حبيبها: شعرٌ أشقر يبرز في البيجاما الّتي كانت تحبّها أكثر من غيرها. فدمعت عيناها مرّةً أخرى. لكنّها لم تلمسه بأيّ شكلٍ من الأشكال. كانت تكره نفسها لأنّها رومانسيّة جدًّا، رومانسيّةٌ بغباء، لم تكن تريد تضييع فرصةٍ في الحياة حتّى لا تشعر يومًا بحاجتها إلى تلك اللّحظة المُهدَرة. ثمّ وضعت الأوراق فوق قطعة أثاث، وقبل أن تطفئ الضّوء نظرت مرّةً أخرى إلى الوجه النّائم بلطف.

في غرفتها، ظلّت تشعر بسخونة دمعها، فاستلقت. جعلت بعض الماء في كوبٍ كان يُجاورها، وتناولت حبّةً، لتسرّع بالنّوم. «سيمضي وقتٌ طويلٌ وهي تُكابدُ هذا الشّعور المقيتَ بأنّها أتعس مخلوقات العالم، إلى أن يأتي النوم»، هذا ما حدّثت به نفسَها.

***

سحبت السّتارةَ بعنف، فدلفت الشّمس إلى غرفتها بوحشيّة، وأحسّت بانزعاجٍ مُباغتٍ أفسد عليها بداية يومها.

- السّاعة العاشرة! شخصٌ مّا سيدفع ثمن هذا.

استيقظت باولا في شيءٍ من الفزع. ونهضت بصعوبة جرّاء الدّواء المنوّم. تحاملت على نفسها، وخلعت عنها ما شابَ ليلتَها الماضيةَ من مزاجٍ متعكّر، دُفعةً واحدة.

أمّا هو فارتدى ملابس دامبرواز وجاء إلى سريرها يحمل صينيّةً. كانت الملابس تتدلّى على بطنه وتضغط على كتفيْه. في يده منديلٌ، وعلى الصّينيّة وردةٌ حمراء ضاربةٌ إلى السّواد، وكوبٌ من عصير البرتُقالِ، يحاذيه مغلَّف.

جلس وتلقّى قبلةً على جبينه.

- الآن ستدفع الثّمن أيّها المحتال.

جلس بجانبها على السّرير. وبينما كانت تصبّ الشّراب، أخذَ يداعبُ جبينها بالوردة.

- ما هذا؟

- لا أعلم، لا شكّ أنّها رسالة لدمبرواز.

ثمّ قال في نفسه وهو يفكّر: «يا إله السّماء ما أغرب أمرَ النّساء، فهي لم تلحظ احتواء العصير على بعض الشّمبانيا، وكثيرٍ من الحنان، لأنّي أنا مَن أعدّه!».

سحب الصينيّة وترك لها الوردة والمغلّف.

فتحت باولا المغلّف ببطء، وبسطت الورقة. كان فيها رسمٌ غير منمّقٍ لقلبَيْن متشابكَيْن ومعه عبارة «باولا، باولا توجور، أسعد التّهاني بالسّنوات الثّلاث الرّائعة التي قضّيناها معًا!».

انفجرت باولا باكيةً.

- أوه حبيبتي، يا حبيبتي، وأنا الّذي كنتُ أظنّ أنّك قد نسيتِ.

عانقها، وأحسّ الدّمع سخيًّا يبلّل عينيْه.

- كيف أنسى! تظنّني حمقاء؟

كانت تبكي، ولكنّ بكاءَها بكاء فرحٍ هذه المرّة. دنا منها أكثر، وضمّها إليه على نحوٍ أقوى.

- بالأمس لم أتمكّن من التّحكّم في نفسي، لو أنّك قلتِ لي «ليلةً سعيدة» كما وعدتني، لما تمكّنتُ من تحمّل الأمر ولاعترفت لك أنّي لم أنسَ.

- اخلع عنك هذه الثّياب الرّثّة، حبيبي، حتّى لا يُشبّه لي أنّي أخونك مع دامبرواز.

***

أعدّت باولا مظلّةً شاطئيّةً مليئةً بالرّسومات الملوّنة.

بعينَيْن شبه مغلقتَيْن، كانت تتأمّل ما بدا على الجسد من كسلٍ بمرايا الرّوح. واستلقتْ على بساطٍ قماشيٍّ فوق الشّاطئ، محاولةً ما أمكنها أن تتجنّبَ أشعّة الشّمس. كانت تعرف ما يتوجّبُ على امرأةٍ في مثل سنّها من حرصٍ على حمايةِ نفسها بشكلٍ أكبرَ من الشّمسِ. وتلك ألغازٌ صغيرةٌ تخصّ الطّبيعة ودفاعَ الأنثى.

إذا كان من سعادةٍ، فهي تلكَ.. كانت هادئةً، مسرورةً، قريبةً ممّن تحبّ وفي مكانٍ تحبّه منذ أن كانت طفلةً صغيرة.

أين يمكن أن يكون؟ وضعتْ نظّارتَيْها الشمسيّتَيْن لتكتشف ذلك. لم تكن خائفةً من فقدانه. لكنّها تريد دومًا أن تشعر بوجوده قربها. ففي أحيانٍ كثيرةٍ تكون له اهتماماتٌ صغيرةٌ وغير مهمّة، لكنّه يعود إليها بعينَيْن صاغرتَيْن وصادقتَيْن، فيطلب المغفرة بطريقته الخاصّة ويقسم أنّها ستكون دومًا باولا، باولا توجور، بوبينيا...

ابتسمتْ وهي تتذكّر أنّه افتتنَ مرّةً براقصةٍ في ملهًى بمجرّد أن رآها أمامه. فوقعت بينهما مشاجرةٌ استمرّت أسبوعًا، ثمّ عاد ومعه باقةُ ورودٍ صفراء، وضعَها عند قدمَيْها وألصق رأسه على رُكبتَيْها، ثمّ نظر إليها كأنّه دبٌّ برّيٌّ، وتمتم:

- بو، هي لا تحبّ الاستحمام.

كان لوجوده دلالته الخاصّة والاستثنائيّة، بوصفه مخلوقًا يثير الإعجاب. ومازالت تعتقدُ أنّها لم تُخطئ التّقدير منذُ الوهلة الأولى، ولم تكن أحكامها بشأنه ناجمةً عن تسرّعٍ أو انبهار. حدسَ قلبُها ما ينطوي عليه من غرابةٍ مغريةٍ، وأدركت قُدرتَه على أن يباغتَها في كلّ لحظةٍ بما لا يمكنها أن تتصوّر، إنّه حاملُ المفاجآت الرّائعة، في كلّ ما يمكن أن يأتيَه من حركات. ورغم شُقرته البادية، فإنّها تعتبره خلطةً هنديّة. كان يتمتّع ببهجةٍ آسرة وعفويّةٍ فاتنة، وبإمكانه أن يقول أكثر العبارات همجيّة، وأن يحكي عن أكثر الأشياء بذاءة. لكنّه يبقى نقيًّا وطاهرًا. فروحه قويّةٌ بشكلٍ مذهلٍ وواثقةٌ من نفسها.

كان أشبهَ ما يكون بهنديٍّ أو بقطٍّ برّيٍّ يبحث عن أماكنَ لم يكتشفها من قبل.

وتمامًا مثلما يمكنُ أن يحدث سواءً مع حيوانٍ صغيرٍ أو مع هنديٍّ أو قطٍّ برّيّ، سيختار أحبّ الزّوايا إلى نفسه.

دفعه شعورُه بأنّه مراقبٌ إلى أن يُلوّح لها بيديْه. ثمّ أخذ يقفزُ فوق الحجارةِ متّجهًا إلى الشّاطئ، ودنا من باولا لاهثًا. ركع على ركبتَيْه، وجعلَ جسدَه ينزل فوقها.

- وردتي، زهرتي، حبّي.

جلس بجانبها وابتسم.

- عندما دخلت الغرفة، وجدتُك تغطّين في نومٍ عميق، حتّى إنّي لم أرغب في إيقاظك. حزنتُ لذلك، وقبّلتُك، ثمّ غادرتُ بهدوء.

داعبتْ باولا ظهرَه السّاخنَ من حرارة الشّمس.

- حبيبي، bonjour quand même.

- يا حلوة! لقد كان يومنا رائعًا، أليس كذلك؟

استلقيَا جنبًا إلى جنب، ثمّ سألها بصوتٍ خفيض:

- هل رأيت المسبح يا بو؟

- لا، لم أرَه، ما به؟

- إنّه متّسخ بالوحل.

- سآمر بتنظيفه.

- لا، ليس هذا.

- ماذا إذَنْ؟

- كتبت كلمةً على الوحل، كلمةً كبيرةً جدًّا.

- أيّ كلمة؟

خفض صوتَه ما استطاع قائلًا:

- توجور.

الفصل الخامس

حكايات

استيقظ على صوتٍ يعرفه جيّدًا. إنّها علبة مربّى الجوّافة، تجرّها طيور الحمام المتوافدةُ على الشّرفة. أبكرتْ حتّى إنّ الصّباحَ لم تبرز معالمُه، وأبهجه الأمرُ. لم يكتفِ ضيوفه بجرّ العلبة، وامتدّت مناقيرهم إلى طبق الفخّار الّذي كان هديّةً من الهنود. أطبق الصّمت برهة، ثمّ احتشدوا بعدها محتجّين تحت النّافذة.

استفاق من مرقده، ودفع الناموسيّة القديمة، ثمّ فتح أشرطةَ النّوافذ، فدخلت غرفتَه رياحٌ خفيفةٌ لفحت وجهه.

طارت حمامات الجوريتي فوقَ المانيهوت، وواصلت شكواها.

- حسنًا، إنّه منتصف النهار ومازلتَ نائمًا؟ ألا ترى أنّنا جائعات؟ بقيتَ هناك تغطّ في النوم ونسيتَ أن تملأ أوعية الأرزّ، أيّها الكسلان!

- اهدأن يا صغيرات. أنا ذاهب، أنا ذاهب. كان يجدر بكنّ الانتظار، فأنا أحتاجُ هذه الفترة إلى بعض الرّاحة.

أراد لصباحه أن يكون لطيفًا، وسعى في بدايته إلى أن ينشر بعض الودّ في الأرجاء، رغم تعنّت الحياة وإصرارها في كلّ مرّةٍ على أن تتكفّل بتوفير الآلام والأوقات المريرة. لم يثنه ضعفه على أن يمارس أنشطته وبدأ

يجد بعض المرونة والقوّة في عضلاته. وقد مثّل الأمر على بساطته سببًا للإحساس بضربٍ من السّعادة.

توجّه إلى المطبخ. ودنت منه مجموعةٌ من حمامات الجوريتي، كانت رابضةً على أغصان أشجار التّوت الكثيفة. كان يحملُ علبةً من شحم الخنزير فيها أرزّ مقشّر، حتّى يسهل على الطّيور إشباع جوعها. ملأ كلا الوعاءين، وبحثَ عن ركن الشّرفة المناسب، كي تتمكّن الحيوانات من تناول الغذاء بارتياح. ثمّ جلس على الكرسيّ الشّمسيّ يراقبها، مراهنًا على أنّ تلك الممتلئة اللّعوب، ستكون أولى المقبلات على الطّعام، ولم يكن له شكٌّ أنّها الرّئيسة.

- أوه ... أوه ... ألم أقل ذلك؟

حطّت بهدوءٍ دون أن تُجهدَ جناحيْها، ونظرت إليه بجدّيّة، كدأبها كلّ يوم. وبعد أن فحصت الطّعام، أطلقتْ هديلًا:

- هيّا هيّا، لقد ملأ الأبله الأوعيةَ بالفعل.

جاءت الأخريات واحدةً تلو أخرى، برفرفةٍ غير مسموعة. بعضهنّ ذهبن إلى علبة الجوّافة، بينما غزت الأخريات طبق الفخّار، وهو ما جعل بعض حبّات الأرز تتناثر على الأرض.

بقي الرّاهب يقطين ساكنًا، يريد الاستمتاع بالمشهد. وبعد أن رآها أكلتْ بما يكفي، ولاحظت هي ذلك، قال معلّقًا:

- حسنًا، والآن يجب ترك القليل للحمامات الّتي تستيقظ متأخّرةً، اتّفقنا؟

ابتعدتْ في مجموعةٍ وأخذتْ تغنّي، وهي تهزّ أجسادها. وكرّرت الهديل مدّةَ دقيقةٍ واحدةٍ على أقصى تقدير، ثمّ توقّفت.

أجابها الرّاهب يقطين:

- العفو، العفو.

حلّق جمعهنّ بشكلٍ متزامن، وصوّبن جهة الأشجار الضّخمة حذو النّهر.

- يا للمسكينات، سأغادر عمّا قريب، ولن يهتمّ لأمرهنّ أحد. سيكون من المقرف أن ينتهي بهنّ المطافُ على المقلاة، وليمةً للحمقى. لعلّه ليسَ من المناسب أن أغتمّ للأمر. فلكلٍّ مصيرُه. وعليه أن يواجهه بشجاعةٍ ورضًا. سوف تستقبل الحمامات أصباحها بعد ذهابي، وستسعى وراء رزقها، في غنًى عنّي. سأكون حينها في عداد الأشياء المنسيّة. فالنّسيان من أجمل النّعم في هذه الحياة، والسّعيدُ السعيدُ من استطاع إليه سبيلًا.

أخذ بعضَ بقايا الطعام، وبقايا الأرز، وفرشاةَ أسنان، وصابونًا ومنشفةً ونزل نحو الحوض. لا وجود للشّمس، أو ربّما لأنّها ما تزال نائمة، تسيلُ النافورةُ في خطٍّ صغيرٍ داخلَ الحوض، وقد يكون ذلك بسبب البرد والخوف من الغوص في مياه اللّيل المتجمّدة.

حسنًا! هو لا يشكُّ البتّةَ في أنّها كانت هناك. بل يمكنه تقديرُ أنّها السّاعة السّادسة إلّا الرّبع من حرصها على دقّةِ مواعيدها. قرّر مراوغتَها، فتظاهر بعدم ملاحظة التحرّك القلق. ثمّ نزل مع مجرى التيّار، وذهب ليغتسل في بئرٍ أصغر.

عندما قرّر أنّ الوقت حان لإظهار انتباهه، نزلت الطيور المخادعة مع تيّار الماء وراحتْ تسبح في مكانٍ ضحلٍ جدًّا على مقربةٍ من يديه.

- أنتم متهوّرون بحقّ الإله! ألا يمكنكم أن تنتظروا قليلًا، لا؟

ابتسم مبتهجًا، ومضى مع خطّ الماء نفسه إلى عالم أسماك الماندي الصغير، في الحوض.

بعد أن انتهى من الاغتسال، غمس فرشاة الأسنان بمعجونها في الماء، فتقدّمت السّمكات، ثمّ تراجعت وقد خاب أملُها.

سار بعد نهوضه متّبعًا التيّار الصّغير. فأقبلت بحراشفها الفضّيّة اللّامعة مستبشرةً. ثمّ تلتها سمكات الماندي الّتي كانت تسبح ضدّ التيار.

أخذ من ركنه المفضّل يُلقي عليها حفنات من الأرز. يا لها من لعبةٍ مجنونة! أمكن له أن يراقب مستمتعًا ما كان يصدر عنها من حركاتٍ عجيبةٍ ورشيقة، وسعي بعضها للظّفر بالقطعة الأكبر حجمًا. كان الأمرُ أقرب إلى عرضٍ فوضويٍّ لا يعدمُ جمالًا ورونقًا.

-أحتاج الآن إلى رمي الأرز في العمق أكثر، لأمنح الأخريات نصيبَها.

فكّر برهةً. ثمّ ملأ يديه بالأرز اللّزج، وأغرقهما عميقًا، ثمّ فتحهما قليلًا حتّى يكون الطّعام في المتناول. فجاءت الحيوانات الصّغيرة لتلتقمه. وكان عليه أن يكون شديد الانتباه، لأنّه إذا ما فتح يده دفعةً واحدة، فسيطفو الطّعام ويستمرّ صومُها. وذلك لأنّ من المحتمل دائمًا أن يكون في الأعلى واحدٌ من هؤلاء المحتالين الّذين لا يقنعون بما قُسم لهم.

-الآن بعْدَ أنْ أكل الجميع منابَهم، حان الوقت لكلينا، الرّاهب ويقطين، كي نصنع فنجان قهوةٍ لنفسَيْنا.

عاد إلى المطبخ وهو يتسلّق المنحدرَ بيسرٍ أكبر.

كان الوقتُ مبكّرًا، ولا جدوى من البحث عن السّحالي، وعن عوالمها فهي لا تظهر إلّا إذا أضحت الشّمسُ حمراء بلون اللّوز النّاضج.

***

- هل تتركني أذهب؟

- لا.

- لِمَ لا؟

- لأنّه لا.

- لو أنّي أحدُ أولئك الهنود في الأسفل، هل كنتَ تتركني؟

- لا، ما كان لي أن أفعل.

- إذَنْ أنتَ لست صديقًا.

- بل أنا كذلك وأكثر.

- لكنّك لا تحبّني.

- بل أحبّك.

- إذَنْ تتركني؟

ابتسم الرّاهب يقطين من عناده، لكنّه لم يستطع حسمَ أمره.

- لا، سبق أن قلتُ لا.

كانوا ثلاثة أولاد لطفاء، وهم هنودٌ صغارٌ ببشرةٍ سمراء. يُدعى الأوّل تينر الونا. والثاني فرواكاتي. وأمّا الثالث فاسمُه كوماريّ. لقد شهدَ مولدَهم جميعًا، ويعرفُ أنّ لهم كُنًى يستشيطون غضبًا إذا تجرّأ أحدهم على مناداتهم بها، حتّى إنّهم لا يتردّدون في رميه بالحجارة، أو العصيّ. فأوّلهم يُلقّبُ بـ«ريتوتي» وذلك لأنّه قد سقط من السّقف، وهشّم رأسه.

وأمّا الثّاي فيُلقَّب بـ«ديوروسادو» لتعرّضه مرّةً لعضّة كلب. وأمّا ثالثهم فقد حمل لقبَ «ماوادو» لأنّه جرح نفسه بسكّين.

لم يستسلم الأولاد، مثلما أنّ الرّاهب يقطين لم يتراجع عن موقفه.

- اليوم فحسب.

- عندما أذهب فحسب، عندما «ديارا كاتيكارا أراكري».

لوى رواكاتي شفتَيْه ممتعضًا.

- أنت لا تبرح مكانك مطلقًا.

- قريبًا، قريبًا، سأفعل ذلك، في زمنٍ مباغت، لا يمكنكم توقّعه.

أمّا تينرالونا، وهو أكبرهم، فقرّر خوض تجربةِ طريقةٍ أخرى.

- نصطاد الكثير من السّمك، وستكون لك خمسُ سمكات، تتكفّل ماما بقَليها. فإذا استوت صارت جافّةً، وقابلةً للقرمشة، تتلذّذها عند أكلها، تتلذّذًا لم تعرفه من قبل في أكل.

ضحك الرّاهبُ من براعة الخطّة، ثمّ واصل الطّفل:

- إذَنْ؟ لا يعجبك ذلك؟

- أعجبني، طبعًا أعجبني، لكنّي لا أريد لأحدٍ أن يصطاد واحدةً من سمكاتي الصّغيرات، بحقّ الجحيم! النّهر مليء!

- لكنّها أسمنُ، وصيدُها أسهل.

- سبق أن...

- قلت لا، يعني لا.

خابت آمالهم كلّها في إقناعه. وأحسّوا، أمام إصراره على الرّفض، بما يشبه الصّعقة. افتعلوا اللّامبالاةَ، وساروا يحملون قصبات صيدهم

صوبَ المانيهوت، فصاح فيهم. ولم يجد أكبرهم بُدًّا من الإشارة إليه بأصبعه مهدّدًا:

-لست بصديق، ولن تكون. وسأخبر إستيفانيا وفيو وتاناري، بكلّ شيءٍ قريبًا.

يا لهم من ملاعين. لقد خطّطوا لكلّ شيءٍ من قبل. لكن لا شكّ أنّهم لم يتوقّعوا أن تكون إجابته بتلك القسوة عندما واجههم بقوله:

-آه! هكذا إذَن؟ حسنًا! اذهبوا وأخبروا إستيفانيا، وفيو وتاناري، أريد أن أتخيّل ما إذا كنتم ستحصلون على الكرات، والبونا بونا، والعربات، والسّراويل القصيرة والقمصان عندما يعود الراهب يقطين من المدينة. اذهبوا لتخبروهم، هيّا اركضوا ...

خلال ثوانٍ قليلةٍ وجدوا أنفسهم بلا سلاح، وظهرت عليهم الحيرة، ونظر بعضُهم إلى بعضٍ في ارتباك.

ابتعد كومارّي عنهم وهو محرجٌ، واقترب من الرّاهب يقطين الّذي كان يتصنّع ملامحَ قسوةٍ على وجهه، لكنّه يستمتع بالأمر في داخله.

أمّا الصّبي الصّغير الّذي كان شبهَ سمين، بشبه كرشٍ وأشياء جميلةٍ أخرى، فأمسك يدَه:

-راهب يقطين هل أنت تيبوريه؟ فعلا؟ لا تغضب، لا، كنّا نمزح لا أكثر، تينرالونا لن يخبر أحدًا بشيء، لا إستيفانيا، ولا فيو، ولا تاناري، هل الأمر جيّد؟

انحنى ونظر إلى عينَي الطّفل، فَبَدَتَا كرتَيْن من العذوبة.

-لا يا بنيّ، الرّاهب يقطين لم يكن غاضبًا على الإطلاق...

وعندئذٍ ابتسم كومارّي بعينيه وفمه، وببراءته القصوى، وهو ما أدهش يق.

- إذَن، سيسمح لنا الرّاهب يقطين بصيد السّمك؟

أطلق قهقهةً عاليةً اضطرّته إلى النّهوض كي لا يفقد توازنه.

نادى الآخرَيْن، وداعب رأسَيْهما.

- لنتحدّث معًا حديثَ رجال، حديثًا جادًّا. لن أترككم تفعلون ذلك ما دمتُ هنا. لكن عندي علبةُ مربّى جوافة حصلت عليها أمس، إن أردتم يمكنني فتحُها ليتناول كلٌّ منّا قطعةً، ما قولكم؟

عادت الابتسامة إلى الوجوه الثّلاثة.

- إذَن لنذهب!

ذهبوا إلى المطبخ ونال كلٌّ واحدٍ نصيبه. وبما أنّه لا شيءَ آخر يفعلونه، قالوا له: «نراك لاحقًا». وغادروا.

في وسط شجيرات المانيهوت، سأل راواكاتي صديقَه كومارّي:

- كيف علمتَ أنّ لديه مربّى جوافة؟

- رأيته أمسِ من بعيدٍ عندما كان يمرّ والعلبة الحمراء تحت ذراعه.

- لكنّه استغرق وقتًا طويلًا لإعطائنا القليل منها، اللّعنة!

جلس الرّاهب يقطين على الكرسيّ الشّمسيّ يشاهد ظلالَ الأولاد الثلاثة وهي تختفي في اللّون الأخضر.

كانوا ثلاثة أولاد سُمْرٍ على قدرٍ كبيرٍ من الجمالِ، يأكلون مربّى الجوّافة.

***

- لا، لم أحبَّ الأمر. كنت أكره كلَّ ذلك. ففيما كنت أجلس إلى البيانو أربع ساعاتٍ يوميًّا، كان الأطفال الآخرون يلعبون ويصنعون عالمًا من الأحلام وهم يتسلّقون الأشجارَ. لا يمكنك تخيّل ما كان يكبر في نفسي من كراهيةٍ وحقدٍ على الموسيقى.

قالتْ باولا وهي تداعب شعره:

- لكنْ لماذا كانوا يفعلون ذلك معك؟

- عرفت السّببَ في سنٍّ مبكّرة، واشتكيتُ لحزني البالغ من العمر ثماني سنوات: «هذا لأنّهم لا يحبّونك، لأنّك لست ابنَهم، لم يرغبوا بك لأنّهم أرادوا صبيًّا، بل أحضروك لأنّك كنت أجملَ الأطفال في الشّارع. لو أنّك ابنُهم، لما أجبروك على تعلّم البيانو. ولو كنت قبيحًا، لما أحضروك أيضًا».

نهض منزعجًا وجلس على السّرير ينظر إلى المرأة.

ثمّ ابتسم وهو يتأمّلها.

- ما الذي يضحكك، حبيبي؟

- كم يبدو وضعك سيّئًا في هذا المشهد!

جال ببصره في غرفة الفندق المتواضعة: أرضيّةٌ متّسخة، وسجّادٌ ذو لونٍ مبهم، وطاولةٌ دون مفرش، وإبريقٌ لفّه الغبار، وكرسيٌّ صلب، وبالوعة، ومنشفةٌ مهترئة. عاد إلى النّظر حولَه مرّةً أخرى. لا شيء سوى السّرير وباولا. كانتْ ملفوفةً في غطاءٍ خشن، ويداها النّاعمتان تحكّان ظهر الشابّ.

- أخبرني بباقي الحكاية.

- قريبًا، قريبًا، لكنّي كنت أفكّر في شيءٍ آخر.

- مثل ماذا؟
- هل سبقَ لكِ أن كنت في مثل هذا الوضع؟
- إذا قلت لك الحقيقة، هل تغضب؟
- لا.
- لا أذكر سوى أنّي في إحدى المرّات كنت عائدةً من باريس، وقد تعرّضت السّفينة لمشكل في داكار. كنت منهكةً جدًّا، إذ شربتُ حتّى الثّمالة، وانتهى بي المطاف في غرفةٍ شبيهةٍ بهذه الغرفة... مع ملازمٍ من الشّرطة، ذي عينَين زرقاوَيْن وجذّاب. لم يكن من فرقٍ بين الغرفتيْن سوى أنّ السّجّاد حينها كان أجمل، وكان ثمّةَ ساترٌ للحفاظ على بعض السرّيّة. نعم، كانت الغرفة مشابهةً لهذه، لكن لا مجال للمقارنة بين الرّجال...
وضحكت وهي تخدش بقوّةٍ جسدَه ذا العضلات المفتولة.
- أوه، أنت تؤلمينني هكذا!
- لا يعجبك خدشي؟
- ليس أثناء المحادثة.
أخذَ يدَيْ باولا وقرّبهما من وجهه، ثمّ قال بشكلٍ عفويّ:
- لا أحبّ أن تكون للأيدي أظافر.
- تقصد يديَّ أنا أو أيّ أيادٍ أخرى؟
- بل يدَيْك أنتِ تحديدًا، لأنّ المكان الوحيد الّذي لا أستطيع تقبيلك منه هو ما تحت أظافرك.
تأثّرت باولا.

- أوه حبيبي! فتايَ الوسيم! لا أعرف ماذا سأفعل من دونك.

كان دوره أن يأخذ وجهَ باولا بين يدَيْه وينظر إلى أعماق عينَيْها الباسمتَيْن.

- هل تريدين أن أخبرك شيئًا يا باولا؟ لم توجد في حياتي امرأةٌ في مثل جمالك. أسلوبك في العيش على النّمط الفرنسيّ. وكلّ ما يميّز حياتك من تفاصيل، أشياء تمثّلك، حتّى لكأنّها صُمّمت من أجلك، أليس كذلك؟

- أصبتَ حبيبي. وأمّا أنا فأكثر ما شدّني إليك، وجذبني إلى عالمك هو ما يميّزه من صفاءٍ وتلقائيّة. لم تكن متكلّفًا في كلّ ما يصدر عنك، فكأنّك نهرٌ يجري. لقد أسرت قلبي في تلك الحفلة وأنت في زيّك الّذي يشبه...

- ماذا؟

- تقريبًا ايكزوتيكي.

- ولكنْ كيف ذلك؟ تأنّقتُ ما أمكنني الأمر!

- كنتَ أنيقًا لأنّك كنتَ أنتَ أيّها السّخيف، لو تعلّق الأمر بشخصٍ آخر، أوه «مون ديو»!

وضحكا مبْتهجَيْن.

- كدت أن أسألك عن سبب ارتدائك ذلك الزّيّ.

- لو فعلتِ ساعتها لأجبتُك غير متردّدٍ: «ليس لي ما أرتديه غير ذلك الزّيّ يا حبيبتي، فليس لمتشرّدٍ مثلي خياراتٌ كثيرةٌ إذا تعلّق الأمر باللّباس».

- وأمّا أنا فكنتُ سأعقّب حتمًا على إجابتك بقولي: «إنّك تحيا بالطّريقة الّتي اخترتها لنفسك، لا بالطّريقة الّتي يريدها لك الآخرون».

مرّر أصبعه على ذقنها.

- يا لحظّي، كيف لامرأةٍ في مثل نعومتك أن تفكّر بهذه الطّريقة المذهلة، وأن ترى الأشياء بهذا القدر من الاختلاف؟

- لا أملك في قربك إلّا أن أكون كذلك، على سجيّتي، وبلا أقنعة.

ضحكا مرّةً أخرى.

- طبعًا يا بو، هذا ما يجمعنا، ويؤلّف بين قلبيْنا. ترين ذاتك من خلالي، وأجدني معك مطمئنًّا. تتدفّق الكلماتُ بحضورك حرّةً، بلا ضوابط أو قيود، وتتخلّى الحياةُ عن قسوتها لتصبح شيئًا ناعمًا.

- أحسبُ أنّك تُجاملني، وتلقي على مسمعي ما تتوق كلّ امرأةٍ إلى سماعه.

- ليس الأمر على ما ذهب إليه ظنّك، فأنا لا أتخيّر الكلمات. إنّني أنطق بما أنتِ أهلٌ له. أعرف ما يصنعه الرّجالُ بنسائهم، وما يغدقونه عليهنّ من أكاذيبَ. لكنّي لستُ مضطرًّا معك إلى ذلك.

- إذَن أنت مُكرهٌ على أن تكون معي؟

- هل تعتقدين ذلك؟ أو تشكّين في صدقي؟

نهض من مكانه، واتّجه نحو الطّاولة.

- أنا ذاهبٌ لتدخين سيجارة.

- وواحدة لي أيضًا، أريدك أن تبادر بإشعالها، وأن تجعلها بين شفتيّ. لكنّي أتساءل، أين يمكننا أن نضع الرّماد؟

ضحك.

- على الأرض، لا توجد منفضةُ سجائر في هذا الفندق السّاذج.

- للمرّة الثالثة تنعتُ الفندق بالسّاذج، أنت الّذي شككت في قدرتي على أن أشاركك العيش فيه.

- أطلق تلك الصّفة على الفنادق الّتي تشبهه. مسكينٌ صاحبه، لعلّه يعتقدُ في غير شكٍّ أنّ الحوضَ لا يُستخدم إلّا لغسل اليديْن، والوجه.

أطلقتْ ضحكةَ ابتهاج.

- تتخيّل أيضًا كلَّ شيء ...

كانا يدخّنان في صمت، ويلقيان بأعقاب السّجائر كيفما اتّفق، غير عابئيْن.

- كم عدد الملائكة؟

- لم أعدّها، أظنّ أنّ الوقت تأخّر، كم السّاعة؟

- لا أدري.. الثّالثة أو الرّابعة.

- أليستْ لكَ ساعة؟

نظر إلى باولا مندهشًا:

- هل كنتِ تنتظرين أن يكون لرجلٍ مثلي ساعة؟ لقد أخطأت التّقدير يا عزيزتي، فأنا أحيا خارج الزّمن، هو لا يكادُ يعنيني في شيءٍ. تجدينها في التجمّعات، في سنترال دو برازيل، في ميسبلا، في الساحات العامّة وفي فصول المدرسة، لدى أولئك المهووسين بالوقتِ في أدقّ تفاصيلهم، في حلّهم وترحالهم، وحتّى لتحديد وقت التّبرّز.

- وهل لمثل ذلك الأمر وقتٌ محدّد؟
- أيليق برجلٍ محترمٍ في مثل تلك الوضعيّة أن يستأذن من سيّداتٍ يشاركنه المكان، وهو في دعةٍ من أمره؟

ضحكت باولا بسعادةٍ مرّةً أخرى.

- إنّك تمنح أبسط الأشياء معنًى، وتهبها بريقًا. أجد المتعة يا حبيبي في كلّ ما تنطق به، ويروقني أسلوبك في حكي الأشياء... متى عيد ميلادك؟
- في يونيو.
- إذَنْ، لقد مرّ؟
- نعم.
- هل تتلقّى واحدةً مع تأخير؟
- أيّ واحدة؟ ساعة؟ أيمكن أن أعتبر الأمر من باب الصّداقة؟
- أوه، حبيبي، لماذا تعقّد الأمور وهي بسيطة. ثمّ إنّك لم تجبني عن سؤالي.
- نعم أرغبُ في ذلك دون شكّ. ولكن بشرط أن تكون فريدةً من نوعها.
- لو تفسّر لي الأمر.
- أريدها على شكل مربّع.
- مربّع؟
- أُمضي ساعاتٍ في النّظر إلى نوافذ المتاجر حيث توجد ساعاتٌ مربّعة.

- سأنتقي لك واحدةً تناسبكَ، تكون أنيقةً وجذّابة.

- لا تعنيني أناقتها في شيء. أريدها مربّعةً وهذا كلّ ما في الأمر.

- على الأقلّ انتظر.

- مربّعة، مربّعة أو لا شيء.

نظرت إلى الشّابّ نظرةَ استنكار.

- تستحقّ بعض الضّرب.

- اختاري عقابًا آخر يا بو؟ لقد كنتُ طيلة حياتي أتلقّى الضّربات واحدةً تلو أخرى... ألا تريدين المغادرة؟ لا يوجد في هذا المكان القذر غير حمّامٍ متروكٍ تفوح منه أبشع الرّوائح.

- سنغادر إلى شقّتي.

- والمدرسة؟

- لن تذهب إلى هناك إلّا إذا كنت تريد الرّسم. من فضلك، لنتجنّب النّقاش، حبيبي، رجلٌ مثلك يستحقّ حياةً أفضل، حياةً تُصاغ على صورة أسطورة.

- هكذا كانوا يفكّرون أيضًا عندما كنت صبيًّا.

أظلمت عيناه، إذ ضاعت في ضباب الماضي.

- غوم! ... غوم! أين ذهب ذلك الولد اللّعين؟

ظهرت أختُه غلوريا في الفناء الخلفيّ وهي تجفّف يدَيْها بمئزرٍ متّسخ.

- غوم! ... غوم!

في ذلك الوقت لم أبلُغ الثّامنةَ من العمر بعدُ. بيد أنّي كنتُ قادرًا على إشاعة الرّعب في الشّارع والمدرسة العامّة. كنت الأكثر شغبًا، والأكثر

وقاحة، والأكثر في كلّ شيءٍ. أمارس التّسلّطَ من الصباح إلى حلول اللّيل، أهرب إلى طريق ريو-ساو باولو وأمشي في كلّ زاوية، أرمي الحجارة على الخفافيش الملتصقة بمؤخّرات السيّارات والشّاحنات. كنت صاحبَ كلّ الكلمات البذيئة حيثما حللتُ، وأعرف أسرارَ البيوتِ وما تواريه الجدرانُ. في تلك السّنّ المبكّرة أمكنني أن أجعل من الحيِّ جحيمًا، وأن أفسدَ الحياة على الصّغار والكبارِ، أوزّع شتائمي على الجميع، وأُقِضُّ مضاجعهم في اللّيل والنّهار. لكن عندما يجيء يوم الأحد، أتحوّل إلى ملاكٍ لطيف، ألتقط صندوقَ تلميع الأحذية، وأنتقلُ بين البيوت راسمًا على محيّاي أجملَ ابتسامة، متحدّثًا إلى أصحابها بصوتٍ رقيق.

-ألا تريد أن تلمّع يا سيّد ميرو؟ الجميع يطلبون أربعمائة ريال، أنا أطلب مائتين فقط، وليس عليك حتّى مغادرة منزلك.

كان ينظر إلى سليل السوريين، وهو زبون قارٌّ لأخيه الأكبر الّذي لم يتوانَ عند اكتشافه للأمر عن ضربه وتقريعه، رغم ما كان يميّزه من تهاونٍ في أداء عمله، ومن قدرةٍ خبيثةٍ على جني المالِ في وقتٍ سريع. حتّى إنّه وفّر ما يكفيه لحضور العرض الصباحيّ في سينما بانغو. اتّخذ له موقعًا في المقدّمة بين أطفالٍ ودودينَ، كانوا يغيّرون أماكنهم من حينٍ إلى آخر، وسط صراخ رعاة البقر وإطلاق نار قطّاع الطرق، يذهبون إلى زاوية حائطٍ ويفرغون عليها بولهم الذي ينزل كأفعى كريهةِ الرائحة. عندما خرجوا، كان من الضروريّ تطهير المكان بالكثير من الكريولين قبل بدء العرض اللّيليّ.

كان على السيّد ميرو أن يمشي بسرعة، لكنّ جسده السّمين أخذ يتمايل، فذهب للجلوس تحت شجرة اللّوز.

- الجوّ هنا أفضل، وحرارة الشّمس أخفّ.

فكّ قميصَه، وجلس على المقعد، ورفع قدمَيْه للتلميع.

بين فينةٍ وأخرى كان الصّبيّ يرفع رأسَه مبتسمًا، باحثًا في وجه زبونه عن علامةِ رضًا. فيبتسم له السيّد ميرو وهو يروّح عن نفسه بورقةٍ من شجرة اللوز ويمسّح على صدرِه.

كان كلفًا بالأحاديث، شديدَ الاهتمام بأشياء كثيرة، كالكريّات الزجاجيّة والخذروف والطائرة الورقيّة والقوس. وقد سأله بفضولٍ عن المدرسةِ، وعن كرةِ القدم.

بعد أن أنهى عمله سلّمه الأربعمائة ريال وسأله:

- أين ذهب أخوك؟

- ذهب قرب موروندو، إنّه يلمّع هناك.

- من الآن فصاعدًا، سأواظب على طلب خدماتك. أنت تمنح لمعانًا أكثرَ، والحديث معك ممتع. أخوك لطيفٌ جدًّا، لكنّه صامت جدًّا أيضًا.

يا إله السّماء! إذا بلغ الأمرُ مسمع أخيه توتوكا فسيكيل له ضرباتٍ دون شكّ. ولكن لا ضيرَ لأنّه تعوّد منه ذلك، مثلما تعوّد الأمر من إخوته الأكبر سنًّا، غلوريا، وروزا، ومن والدته كلّما عادت من المطحنة الإنكليزيّة، ومن والده عندما يتلقّى شكاوى من المصنع. كان يصنع المقالبَ، ويتفنّن في القيام بشتّى أنواع الخُدع. نشر في الأرجاء أكثر من إشاعة، وأوهم النّاسَ بأشياء لا وجودَ لها. لم يكن تعرّضه للضّربِ حدثًا طارئًا، بل أمرًا بديهيًّا، لأسبابٍ معلومةٍ وأحيانًا دونها سبب، في صحوه وحتّى في منامه، إذ يهوي عليه والدُه وهو في عمق أحلامه، بالحزام

ويشعل مؤخّرته جلدًا، فيبكي من الألم، لكنّه سرعان ما يعودُ إلى النّوم من جديد.

- غوم! ... غوم!

لقد اكتسب تلك الكنيةَ بسبب تهوّره وشقاوته الّتي عبرت الآفاق. فإذا ضاق عليه الخناقُ وتوالت عليه الشّتائمُ من كلّ صوبٍ، كتم غيظَه، وأحدث تلك الغمغمة... غوم.

جاء يركض عبر حفرة، إذ هرب بعد سرقة ثمار الجوافة من حديقة بريتا أوجينيا، وهي امرأةٌ سيّئةٌ وشرّيرة، اعتادت عملَ الشّعوذة.

قبل صعوده إلى الحديقة المنزليّة، انزلق ووقع أرضًا، فوَجَد نفسَه جالسًا في المياه القذرة. كان على وشك أن يُستَدعى ليخبروه بأنّه لن يتعرّض للضّرب. أمّا الآن فلديهم كلّ الأسباب لضربه.

اصطدم بأخته الّتي ظلّت ترمقه بنظرات توبيخٍ وهي ترى جيوبه المحشوّة بالفواكه.

- مرّة أخرى يا غوم؟

لم يعرف ما إذا كان التوبيخ بسبب سرقة الجوافة أو بسبب سرواله المتّسخ. فبقي حائرًا، لا يدري ما يفعل. لكنّه كان يفكّر بالرّكض والاختباء في حفرة، رغم أنّه لم يكن في يد غلوريا لا عصًا ولا قبقاب ولا حزام، بل على العكس من ذلك، كانت عيناها حزينتَيْن جدًّا.

- لنذهب إلى المطبخ، أريد أن أتحدّث إليك.

اشتبه في الأمر، وقدّر أن يكون في المطبخ فخٌّ، أو أنّها تريد جرّه إلى هناك قصد محاصرته.

- ألا تريد الذّهاب؟

بلغ اندهاشه إزاء ما يحدث ذروتَه، ولم يعد قادرًا على فهم الأمور.

- أَلَنْ تضربيني يا غلوريا؟

تفاجأ برؤية الدّموع على وجه أخته، دون أن يكون ثمّة ما يُجيز البكاءَ. انحنت قليلًا وأخذته بين ذراعيْها.

- أوه! غوم... أخي الصّغير المشاغب.

بكت قليلًا، ثمّ أبعدته وأمسكت وجهه بيدَيْها.

- أخي الصّغير، قرّة عين أخته، صاحب الذّكاء الحادّ، والعقل الوقّاد! أنت شيطان، لكنّي سأفتقدك كثيرًا.

نهضت وأخذته من يده إلى المطبخ.

جلس على كرسيٍّ بجوار الموقد، وأثبت بصره على قدر الفاصوليا.

قالت ملتمسةً:

- أريد حبّة جوّافة.

أخذ حفنةً ووضعها على الطّاولة، وبإصبعه اختار واحدة.

- تناولي هذه يا غلوريا، إنّها الأحلى.

- كيف عرفتَ ذلك؟

- قضمتُ كلّ الجوّافاتِ وأجّلتُ أحلاها.

ضحكت وهي تتفحّص الثّمرات الّتي ظهرت عليها آثارُ أسنانه.

- فعلًا حلوة!

- أليست أحلى وأكثر حُمرةً من تلك الموجودة في بيت ديندينيا؟

- نعم، أفضل بكثير.

نالت استراحةً، واستنشقت الهواء وهي تحاول جاهدةً ألّا تبكي مرّةً أخرى.

- غوم، غدًا عليك أن تستحمّ جيّدًا، وتغسل أذنيك وتقصّ أظافرك.

- لكن أَلَمْ أستحمّ يوم الأربعاء؟

- لا يهمّ، غدًا هو السّبت، يجب أن تبدو جميلًا لأنّهم سيأتون من أجلك، غدًا سترحلُ عنّا إلى مكانٍ آخر، وإلى حياةٍ أخرى.

لم يتبيّن ما أرادته بقولها، وتساءل عن سبب رحيله المباغت.

- هل تذكُر الدّكتور باريتو، عرّابَك الّذي كان هنا الأسبوع الماضي؟

أومأ برأسه، لقد تذكّر زيارةَ عرّابه الغنيّ، ذلك الرّجلِ الوسيمِ ذي اللحية الكثيفة الّذي أجلسَه في حجره وقبّله. لم يسبق لأحدٍ أن قبّله من قبل عدا أخواته والفم الذّابل واللزج للجدّة ديندينيا. فشعر بلحية الرّجل كأنّها فرشاةٌ تلسع خدَّيْه.

- حسنًا، سيفعلُ معك ما فعله مع أختنا الأخرى، سيأخذك ويجعلك تدرس، ويعطيك ملابس جميلة، وكلَّ شيءٍ لم نحصل عليه من قبل.

فكّر مرّةً أخرى في عرّابه وهو يمسح على شعره ويثني عليه بنبرة أهل الشّمال.

- أنت فتًى جميلٌ جدًّا، أنت لا تشبه حتّى أشقّاءك الّذين يجري فيهم دمُ هنود البيناغي، أنت بالفعل جميلٌ جدًّا، ستحصل على شيءٍ جميل يا غوم، في موسم عيد الميلاد ستحصل على هدايا كثيرة.

حينها مرّتْ أمامه ذكرى عيد الميلاد الماضي. فتذكّر ما فعله مع والده

من شرٍّ سيرافقه بقيّةَ حياته، من شأنه وحدَه، أن يُبعدَ عن تلك المناسبةِ كلّ فرحٍ ممكن.

في اليوم الرّابع والعشرين، وقبل الذّهاب إلى الفراش، اتّفق مع توتوكا على ترك الحذاء خارجَ باب غرفة النّوم. ولأنّ الأطفال الفقراء ليستْ لهُم أوهامٌ بشأن بابا نويل، إذْ كان يعلم أنّ شخصًا من عائلته سيأتي ليقدّم له الهدايا. كذلك يجري الأمر دائمًا.

في الصّباح، قفز من سريره وذهب يهزّ توتوكا ليستيقظ، وركضا لرؤية الهدايا، فوجدا الأحذيةَ فارغةً تمامًا.

نظر أحدُهما إلى الآخر، ثمّ قال لأخيه:

- ما أسوأ أن يكون لك أبٌ فقير ...

عندئذٍ فحسب لاحظا أنّ الوالد يقف أمامهما. كانت عيناه دامعتَيْن وفي نفسه غصّة. ثمّ رأياه يمشي بعيدًا، منكسرًا.

- ما كان عليك أن تقول ذلك يا غوم.

- لم أرَه!

- والدُنا مسكين يا غوم، هو عاطلٌ عن العمل منذ ستّة أشهر، ولا مال عنده حتّى لشراء الطّعام، أنت لئيمٌ يا غوم.

أحزنَه الأمر، ورغبت نفسه في البكاء. لكنّ الرّجال لا يبكون. فخرج بصندوق تلميع الأحذية إلى الشّوارع، وتملّكه الغيظُ وهو يرى غيرَه من الأطفال بألعابهم الكثيرة، من كراتٍ وسيّاراتٍ ملوّنة. ابن الدّكتور فاولهابر حصل على درّاجةٍ ملوّنةٍ بالأزرق والأحمر وكان يتجوّل بها في الفناء الإسمنتيّ. توقّف وبقي يراقبه بين القضبان، فنزل سيرجينيو عن درّاجته وجاء ليحادثه.

- هذه هديّتك؟

- نعم هي هديّتي.

- إنّها جميلةٌ جدًّا.

- في أحد الأيّام سأدعك تركبها، هل تريد ذلك؟

- الأفضل أن ندعها تكبر أوّلًا، حتّى لا أسقط بها وتنكسر.

- وماذا تفعل الآن؟

- مازلت أحتاج إلى كسب مائتي ريال إضافيّة.

- لكنّه يوم عيد الميلاد، ولا يجب على أحدٍ أن يلمّع أحذيةً في هذا اليوم.

كان حزينًا وهو يفكّر في عينَيْ أبيه.

- لا أحد يحتفل بعيد الميلاد في منزلنا، أبي عاطلٌ عن العمل منذ مدّةٍ طويلة.

شعر الولد الآخر بالحزن من أجله.

- ألم يكن عندكم كستناء أو بندق أو لوز؟

- خبز محمّص لا غير، تصنعه لنا ديندينها لنأكله مع القهوة!

- هل تريد أن أطلب لك شيئًا كهذا؟ سأتحدّث إلى أمّي.

- لا، لا أريد، درّاجتك جميلة! سأذهب لأرى إن كنتُ أجد من ألّمع أحذيتهم.

- انتظر يا غوم، هل تحتاج إلى مائتي ريال فقط؟

- ذلك كلّ ما أحتاج إليه لاكتشاف...

- سأقرضك إيّاها، لقد تلقّيت حصّةً جيّدة. وإذا لم تجد مالًا لتسديدها،

فادفع لي بالكريّات الزجاجيّة، لأنّك بارع في اللعبة، اتّفقنا؟

- نعم.

سارع إلى متجر «بؤس وجوع»، واشترى ما يريد. ثمّ ركض إلى المنزل وهو يهزّ صندوقَ تلميع الأحذية. كان الظّلام قد حلّ، ووجد الفانوسَ مضاءً في المطبخ لأنّهم قطعوا الضّوء.

وجد والدَه يجلس واجمًا، متّكئًا بمرفقيه على الطاولة، يحدّق في خواء اللّيل الّذي يقترب.

- أبي.

نظر إليه، وشعر بالإحراج أمام عينَيْه الحزينتَيْن.

- ما الأمر يا غوم؟

- أبي... هل تعلم... أنا أحبّك كثيرًا، ومن الآن فصاعدًا يمكنك أن تضربني بقوّةٍ أكبر، ولن أغضب.

ابتسم لسماع ذلك.

فاقترب منه، وسحب يدَيْه من خلف ظهره وقدّم له العلبة المغلّفة.

- أريد أن أقدّم لك هذا هديّةً.

فتح الأب العلبة وظهرت حافظةُ سجائر.

ودمعت عينا والده، لكن هذه المرّة من الفرح.

- كانت أجمل حافظةٍ معروضةٍ للبيع عنده.

فمرّر والده يدَه على رأسه.

أمّا الآن فغلوريا هي مَن يداعب رأسه.

- بمَ كنتَ تفكّر؟ لم تسمع حتّى ما قلته لك يا غوم؟

- بل سمعت، سأغادر المكان، سأحصل على أشياء كثيرة.

ألقى نظرةً فاحصةً على أخته.

- غلوريا، إلى أين أنا ذاهب؟

- إلى الشّمال، إلى ريو غراندي دو نورتي.

شعر بشمسٍ تشرق بشكلٍ باهرٍ داخل أحلامه. ولمّا جاء اللّيلُ خرج للقاء صحبه، مثلما اعتاد أن يفعلَ. جلس رفقتهم عند الأبواب المغلقة لكاسينو بانغو، ودارت أحاديثهم حول البذاءات. كانوا يتلونها بكثيرٍ من الحماسة والانتشاء. وربّما امتدّ بهم الأمرُ إلى استمناءٍ جماعيّ. في الأثناء حكى لهم ما بعثَ الذّهولَ في أنفسهم، وبدت معالمه واضحةً على وجه الطّفل أبيل، واتّسعت له عينا بيركينيو.

- سأفارقكم غدًا إلى أمريكا الشماليّة. وسيكون هناك بوسعي أن أرى بأمّ عينيّ كلّ نجوم السينما. ومن نافذة منزلي سأرى باك جونز وهو يمرّ، وأرى أيضًا فريد تومسون مع حصانه «شعاع القمر».

* * *

- سترحلُ يا شقيق الرّوح، يا شيطاني الأصغر والأجملَ. ستتركنا أيّها المشاغبُ وسيكون افتقادك مؤلمًا.

وحتّى تحبسَ دمعها، طلبت حبّةَ جوّافة أخرى...

* * *

صمتَ، ونظر إلى باولا.

- لا تخلو قصص الفقراء من مثل هذا الغباء.

- إنّها حقًّا كذلك.

- ولِفرط ما فيها من غباءٍ أحرصُ على إخفائها إذ ليس يجدر بأحدٍ أن يطّلع عليها. إنّ مجرّد استحضارها يزعجني، ويشعرني بالبلاهة. وتزدادُ لوعتي كلّما تذكّرتُ غلوريا، شقيقتي الشّقراء، طيبتَها وجمالَها اللّذين تبخّرا إلى الأبدِ.

- ما الّذي حلّ بغلوريا؟

- تعرّضت إلى حادثٍ مروّع، أثناء عودتها من رحلةٍ إلى بتروبوليس، أدّى إلى تشوّهها بشكلٍ رهيب، وأُجريتْ لها عمليّةٌ جراحيّةٌ لتجميل وجهها، بلا جدوى. فقدت أسنانها، وتأذّت عيناها. خارت قواها بمرور السّنواتِ وتمكّن منها الوهنُ، فأقعدها عن كلِّ فعلٍ. ثمّ إنّها رفضت أن تخضع للعلاج بعد أن أصيبت بالسّلّ، بسبب ما سيطر عليها من إحباطٍ، واستسلمتْ للموت...

ثمّ صمت.

- أصبحت رائحة الموتِ يا باولا مقترنةً عندي بالجوّافة. ويكفي أن أفكّر به في مقابل ذلك لأتمّ رائحتَها. الموتُ والجوّافةُ سيّان عندي. جنَّ اللّيلُ يا باولا، ولا بدّ من الذّهاب.

- لنذهبْ إلى شقّتي، وهناك ستخبرني بالباقي، حبيبي، يجب أن تخبرني بالباقي.

مرّرت أصابعها في شعر الشّابّ وهي تقف.

- كم عانيتَ يا حبيبي!

***

في ركنٍ حميمٍ من الشّقّة، جلسا إلى أريكةٍ وثيرةٍ ينظران إلى البحر، مُنتشيَيْن بكأسيْهما ونسيا سذاجةَ الفندق القديم في ساحة الجمهوريّة، وكانت الأضواء المعدَّلة تضفي على الأجواء بهاءً، وتشحن العواطف بكثيرٍ من البهجةِ والسّكينة.

- ها أنت في واحدةٍ من الزّوايا الّتي تحبّ.
- لطالما أحببت الزّوايا في حياتي!

أشعلت باولا سيجارةً ومالت برأسها إلى الوراء على الأريكة، ثمّ قالت:

- هل فكّرتَ يومًا في ما يمكن أن يكون معنى ذلك؟ إنّه الخجل، حبيبي، أو هي أحيانًا تلك الرغبة في أنّك لم تولد.
- ربّما هي كلا الأمرين معًا، أن تولد هو أن تحيا، وأن تحيا هو أن تتألّم، بحسب صديقي غوس.
- ومن يكون هذا؟
- القدّيس أغسطين. أن تحيا يعني أن تتفتّح روحك في عزلة جسدك، يتوهّم المرءُ الرّغبة في أن يُشارك الآخرين، مشاركةً تامّةً، لكنّه كلّما اقتربَ منهم، أحسّ أكثر بالغربة، وتحوّلَ حضورهم إلى نوعٍ من الغيابِ. فإذا تقدّمت في معرفتهم عشر خطواتٍ، وجدتَ أنّك في واقع أمرك لم تخطُ إلّا واحدة.
- هذا فظيعٌ يا غوم.
- وكذلك هو غوس. كانَ قدّيسًا فظيعًا وواضحَ الرّؤية بشكلٍ بائس. عندما كنت في الثّامنة من عمري أيّامَ المدرسة، مرضَ الأخ المعلّم في صفّنا ولم يستطع الحضور. فأُرسِلْنا لحضور درسٍ

دينيٍّ في صفٍّ أعلى درجة. ووجدتُ أنّي أواجه للمرّة الأولى ما في حكمةِ غوس من قسوة. لم يَدُرْ بخلد الأخ في الصفّ الأعلى أنّ للأطفال القدرةَ على أن يتعلّموا بشكلٍ يتجاوزُ تصوّرهُ. نصّص خلال ذلك الدّرسِ على أنّ دقيقةً واحدةً من السّعادة تستلزم ألفَ دقيقة من المعاناة. صار بوسعي بعدها أن أتأوّل حياتي عبر ذلك المنظور. فحتّى يتسنّى لي الذّهاب إلى الشّاطئ يوم الأحد، يجب أن أحصل على درجاتٍ جيّدةٍ في كلّ شيء. ولم يكن أشدَّ على نفسي من الرّياضيّات. كنت ألقى في محاولة استيعابها عناءً لا يوصف، يتحوّلُ معه الأسبوعُ إلى جحيمٍ حقيقيّ. لكنّي كنت أظفر بغايتي في آخر المطاف، وأُجهِدُ نفسي في سبيلها لأنال الرّضا، إذ يتوجّبُ عليّ حضور القدّاس، والاستماع بتركيزٍ إلى الموعظةِ، ويظلُّ الأمرُ بعد ذلك متوقّفًا على إرادةِ والدي من جهةٍ، وعلى جاهزيّة السّيّارة من جهةٍ أخرى. ولم يكن الأمرُ ليتوقّف عند ذلك الحدّ، إذ كثيرًا ما أضطرُّ، بعد ما أسلفتُ ذكرَه، إلى انتظار عودة والدي من استشارةٍ طبّيّةٍ لم تكن في الحسبانِ. وإذا عاد، فمن الضّروريّ أن يكون مزاجه جيّدًا، ليكون لي ما أريدُ.

وإذا تمّ الذّهابُ فمن المرجّح في أكثر الأحيانِ أن نشارك النّاس الأمكنةَ نفسها، لأقبع في الزّوايا مضطرًّا. عادةً لا نُطيل المكوث، إذ سرعان ما يدعونا إلى المغادرة، يحدث ذلك على حين غرّة، فنذعنُ. فإذا عُدنا فُرِضَ عليّ أن أكون آخر من يستخدم الحمّام. ولم يكن الانتظار ليستقرَّ عندَ ذلك الحدّ. فمن الواجب بعد منتصف النّهار أن ألتحقَ في غير جدالٍ بصفّ خاصٍّ تُشرف عليه خالتي لتعليم العقيدة المسيحيّة،

تعدّنا من خلاله للمناولة الأولى... يا لها من سلسلةٍ لا تنتهي. لكنّي استطعتُ بتواترها أن أفهم حقًّا أنّ دقيقةً واحدةً من السّعادة تفرض علينا أن نقايضها بساعاتٍ مقيتةٍ من الانتظار.

-توقّف حبيبي! يا له من شيءٍ مروّع لطفل صغير!

-لم تُتح لي الحياة أن أكون طفلًا كالآخرين. لكنّي أجدني ممتنًّا لكلّ شيءٍ. جعلني الإحباطُ والشّعور الدّائمُ بالاختلافِ قادرًا على الامتلاء بلحظتي، وعلى خوض الأشياء بشراهة، وبشغفٍ نادر. أن تحيا يعني أن تتألّم، باولا، باولا، أن تحيا يعني أن تتعرّض للألم ولو في حدّه الأدنى، «ما الّذي يهمّني في قطع ساق فلانٍ إذا تعرّضت أصبعي للثقب؟ أصبعي هي الّتي تؤلمني، ألمي هو الذي يؤلمني، وإذا لم أشعر بالألم، أجد آنذاك معنًى لآلام الآخرين، لألم ساق الآخر. لكن على سبيل المقارنة، ماذا لو أنّي أنا من قُطِعَتْ رجلُه، ماذا لو كنتُ أنا بدلًا من الآخر؟»، كلّ هذه أمثلة لأفكار غوس عن العزلة.

-ألا تعتقد أنّ الحياة نعمة؟

-لعلّها كذلك أحيانًا. لا خيار لنا أيًّا كانت حقيقتها، إلّا أن نستمرّ، وأن نعيشها، أن نأخذها كما جاءتنا، دون أن نرهق أنفسنا بتعريفها، ربّما كان الهندوس محقّين في قولهم إنّ الحياةَ خُلقت من أجل المتعة. فدأبُ الطّبيعة البشريّة أنْ ترتكب إبادةً جماعيّةً كي يحيا كائنٌ بشريّ، حيوانٌ منويٌّ واحدٌ كفيلٌ بأن يُلقّح بويضةً واحدةً لتظهر نعمة الحياة، ليذهبَ الباقي سُدًى. ومنذ ذلك الحين تزاوجت معجزة الحياة مع الحكم بالموت، الإنهاء والألم.

- أين اكتشفت كلّ هذا؟

- كنتُ ألتهم الكتبَ متأمّلًا. عندما تُمنَع من الحركة ساعاتٍ في اليوم، يمكنك التفكير. إنّها حريّتك الوحيدة، وفرصتك لتنهلَ ممّا جادت به عبقريّة الإنسان من معارف ودروسٍ وحكمٍ وفلسفات، ومن تمثّلاتٍ للحياة.. ومن جمال الرّوح البشريّة!...

- هل تصدّق ذلك؟

- طبعًا، لأنّي أؤمن بالإله. أنْ نصدّق أسهل من ألّا نصدّق، الفهم شيءٌ آخر. ضمن حدود الذّكاء البشريّ، حتّى غوس لم ينجح في فهم الربّ. اقتصر إدراكه على المشاركة في الحضور الإلهيّ مشاركةً متواضعة. أنا أؤمن بجمال النّفس البشريّة وإمكان تنقيتها. ما دامتْ قد خبرت كنهَ الأشياء، فإنّها تشارك في كلّ أنواع التحلّل البشريّ لإذابته من أجل المشهد الجميل المتمثّل في خلقها على صورة الإله، وإلّا فسيكون كلّ الرّجال أنقياء وعفيفين، مبتذلين وشائعين كما كان القدّيس لويس غونزاغا، زنبق الإله ...

- حبيبي، حبيبي، أنت تجعلني أرتجف.

- لا أرى سببًا لذلك. نحن نتحدّث من دون عواقب، ثمّ إنّكِ فتاةٌ طيّبة.

مرّر يده على ذقنها وأكمل كلامه:

- أنت جميلةٌ جدًّا يا حبيبتي، أن تمتلكي كلّ شيء فذلك لا يهمّ، لأنّ ميزة الحظّ الكرمُ لا العدالة. إذا كنتِ محظوظة، فعلى من يقع اللّوم؟ على حظّك نفسه.

كانت باولا تفكّر.

- وأنت ألا تعطي أيّ فرصةٍ للعزلة؟ ربّما كنتَ قادرًا على أن تولد من جديد؟

- يُمنح المرء في حياته فرصةً واحدةً تجعل من وجوده ذا معنى، وتهبه الدّلالة. فرصةٌ واحدةٌ لا نكادُ ننتبه، بسبب شيوعها، إلى مدى جسامتها. وإذا ما نالها الإنسان وحظي بها، كانت ولادتُه من جديدٍ. ليست تلك الفرصةُ يا باولا، شيئًا آخر غير الحبّ. ولهذا السّبب قرّرت أن أعيش من جديد، وأولدَ من جديد، من أجلك يا باولا..

خيّم الصّمتُ من حولهما، وراحا ينصتانِ إلى الملائكة الّتي كانت تمرّ في الظّلام، ثمّ أخذها في حضنه، واحتواها، وهمّ أحدهما بالآخر، في طقسٍ من الحبّ والدّفء والحنان، قطعَه عليهما رنينُ الهاتف الملعون.

- يجب أن أردّ، لا شكّ أنّها السيّدة تبحث عنّي.

انفلتت منه وذهبت إلى الصّالون للرّدّ على الهاتف.

عادت بعد وقتٍ وجيزٍ، وسألته في قلقٍ:

- تبًّا، إنّها السّيّدةُ تريدني أن أشاركها العشاء، وأن نتسامر قليلًا، فهل تسمحُ لي بالذّهاب يا حبيبي؟

عانقته وهي تتنهّد وهمست في أذنه:

- لا تريدُني أن أتركك، أليس كذلك يا حبيبي؟ أنا أريد بشدّةٍ ألّا تريد، أحبّك يا عزيزي، لكن يجب أن تقرّر، أنت لا تريد؟ إذا أخبرتني بباقي القصّة كما وعدتني، فلن أذهب، في الحقيقة لن أذهب، حتّى إن لم تخبرني...

كانت تتحدّث بحنانٍ وشغف، ثمّ قبّلته بلينٍ كما لو أنّها تتعامل مع بتلات ورود.

- كلانا لا نريد الذّهاب، أليس كذلك يا حبيبي؟ لكنْ يجب أن تقرّر.

- باولا، عزيزتي توجور، لا أنت، ولا أنا ولا ملائكتنا الحارسة نريد منك أن تذهبي.

- كنت أعلم أنّك لن تحبّ ذهابي.

نهض وعاد إلى غرفة الجلوس ليقرّر ما كان قرّره بالفعل وهو راغبٌ فيه، ثمّ عاد سعيدًا وجلس إلى جانبها.

- كلّ شيء بخير، حبيبتي؟

- كنّا نحن الأربعة في وضعٍ جيّد، والآن وقد جئتم أنتم الأربعة أصبحنا في وضعٍ رائع.

- ما قصّة النّاس الكثيرين هذه؟

- انظر!

وأشارت إلى صورتهما وهي منعكسةٌ على الجدران الزّجاجيّة الثلاثة من الحديقة الشتويّة.

- ما أجملنا على الزّجاج، حبيبي!

- على الزّجاج فحسب؟ سنرى، سيسألك هذا الشّخص هناك، إنّه دوره، هل تحبّينني؟

وقبّلها ببطء.

- الآن ذلك البعيد.

- هل تحبّينني يا بو؟

وقبّلها مرّةً أخرى.

- الآن ذاك الّذي هناك، وهو الأقرب، هل تحبّينني يا بوبينيا؟

أخذتها النّشوةُ بعيدًا، فما من أحدٍ غيره يعرف مفاتيح جسدها، ووحدَه القادرُ على أن يهبها فرصةً للتّحليق، يحرّك بركها السّاكنةَ، ويثير أنوثتها كأجمل ما يكون.

- ها نحنُ معًا، الآن، الآن وهنا... باولي، باولي. هل تحبّينني يا باولا؟ هل ستكونين دائمًا لي وحدي؟

- حبيبي، حبيبي، كنتُ أبحث عنك منذ ميلاد النّجمة الأولى.

***

أنهكته شمس الظّهيرة الّتي لفحت وجهه، وأزعجت عينيه المغلقتين. وأحسّ مرّةً أخرى بثقل الحياة. لقد قضّى وقتًا طويلًا وهو على الوضع نفسِه، ووجد صعوبةً وهو يحاول أن يحرّك جسدَه. قبالتَه كانت زيفينيتا «ب» تسير بعصبيّةٍ ذهابًا وإيابًا على الحائط. بلغت أرضيّة الشّرفة، وتنفّست الصّعداء، حين لمحت الرّجل يتحرّك، واطمأنّ قلبُها، بعد توجّسٍ حسبت معه أنّ مكروهًا أصاب صديقها.

لاحظَ بما لا يدعو إلى الشّك أنّ صديقتَه الصّغيرةَ تراقبهُ وتتعقّبُ حركاته.

- أوه! جميلتي زيفينيتا «ب»، لقد شارفتُ على موتٍ محقَّقٍ، وإنّها لمعجزةٌ أن أعودَ إلى الحياةِ من جديدٍ، بعد أن أطبق اليأسُ وخبا الأمل. مازلتُ حيًّا يا صغيرتي، مازلتُ أنبضُ بالحياة... كم تكون السّاعة؟

تطلّع إلى الشّمس بعينيْه المتعبتيْن، وخلُص إلى أنّها منتصف النّهار.

- أريد الذّهاب لتناول الغداء يا عزيزتي، أنا منهكٌ جدًّا، حتّى إنّي لا

أشعر بالرّغبة في الاستحمام، ولا رغبة لي في التحدّث إلى السّمكات، ربّما يتسنّى لي ذلك في طريق العودة. ما أسعدك يا ملكتي الغنيّة، لأنّك غير مضطرّةٍ إلى التذكّر، ففي العودة إلى الوراء بعضُ الموت دومًا، أراك لاحقًا، زيفينيتا.

غادر منهكًا، وركضتْ زيفينيتا في الفناء، وقد بدا عليها القلقُ والتّوتّر، وهي تصعدُ أحد أعمدةِ السّياج. هاتفت بورتيرينا وأبلغتها أنّه ذهب.

- من فضلك بورتيرينا، عامليه بحنانٍ أكثر. منذ فجر اليوم وعيناه حزينتان كأنّهما تريدان البكاء، من فضلك صديقتي، فأنا لم أرَه من قبل في مثل تلك الحال.

الفصل السّادس

الوداع، الدّموع والمرآة

استبدّ بصدره إحساسٌ بالضّيقِ لم يستطع مقاومته، شيءٌ مّا كان يستوطن قلبَه، ويُفسدُ عليه بهجةَ الحياة، لم يعدْ يجدُ المعنى في كلّ ما يحيطُ به، وصار في غربةٍ مقيتة، حتّى عن نفسه وجسده. تآمر عليه شعورُه بالقلق، ووحدتُه، ليكون فريسة لاكتئابٍ لم يشعر به منذ زمن. سار على طول مجرى البوساو، لكنّه لم يجد حتّى ما يكفي من الشّجاعة ليتحدّث مع الإخوة الأسماك. أحضر لها الطّعام، لكنّه بقي في صمتٍ طويلٍ حتّى إنّ السمكات الصّغيرات بدا عليها القلق، لأنّها لم تعتد على ذلك وشعرت بالألم.

عاد إلى غرفة الرّسم، ونظر إلى الأعمال المكتملة والموقّعة. كانت كلّها مثبّتةً على الحائط بمسامير.

-كلّ ما ترسمُه عن الهنود، يمكنك إحضارُه إلى هنا في المعرض الّذي اشتريناه.

كان صوتًا مألوفًا في المدينة. والرّاجح أنّ هذه الرّسومات بلا قيمة. عندما رسمها، ظنّ أنّه فعل أجملَ شيءٍ في العالم. أمّا الآن، وهو ممتلئٌ بالمزاج السيّئ وأفكار الخراب، فإنّها لا تكادُ تساوي شيئًا.

التقطَ ورقةً وانحنى على الطّاولة. لكنّ إرادته لم تطاوعْه، وهرب منه

الإلهام بعيدًا. التقى وجهًا لوجهٍ مع زيفينيتا وهي بين الأقلام الرّصاص والفرشاة، تراقب كلَّ حركاته.

- صديقتي الصّغيرة، يبدو أن لا شيء يسير على ما يرام مع الأحمق الّذي ترَيْنه. لكنْ هل تعرفين ما الأمر؟ تمرّ عليّ أيّامٌ من حسن الحظّ أنّها نادرةٌ، يتعكّر فيها الصّفوُ، وأتحوّلُ خلالها إلى حطام. لا أدري إن كنت تفهمينني يا زيفينيتا «ب»، لا أدري إن كنتم تمرّون بمثلِ هذه الخطوبِ في عالمكم الجميل المملوء بالثّقوب الصّغيرة على الحائط، حيث الولائم الفخمة من البعوض. ليس للمسألةِ صلةٌ بما بلغته من وعي. بيد أنّ لي من كلّ سنةٍ يومَين، تتحوّلُ فيهما الحياةُ إلى كابوس، وإلى عبءٍ ثقيل، اليوم ويوم عيد الميلاد.

هرع إلى المطبخ، وأخذ جرعاتٍ كبيرةً من ويسكي كاشاسا في المطبخ، حتّى إنّه أنهى ما في الكأس دون أن يشعر. نخرت الوحدةُ روحَه، وتنامى إحساسُه بالغربة. ومرّةً أخرى نظر إلى زيفينيتا، ثمّ أطلق ضحكةً مرتبكة.

- اليوم يا حبيبتي، أميلُ إلى الويسكي أكثر من ميلي إلى القدّيس فرنسيس الأسيزي، الفتى العجوز، ولهذا سأتناول جرعةً جيّدةً أخرى.

عاد وهو يهتزّ تقريبًا من كثرة الشّرب، وأطلق ضحكةً مجنونةً أفزعت السّحلية.

- هل صادف أن سمعتِ من قبلُ عن عيد الميلاد يا زيفا؟ حسنًا، عيد الميلاد هو ألعن الاحتفالات على الإطلاق! ينبغي ألّا يكون الأمر كذلك، لا، لكنّه كذلك، إنّه احتفالٌ غير عادل. أنا أحبّ الكرنفال لأنّه ممتعٌ وهو مُتاحٌ للجميع، يتناولون فيه جرعاتٍ من

الكاشاسا ويلعبون، غنيُّهم مع فقيرهم، المقتدرُ منهم وصاحبُ الحاجة. وأمّا عيد الميلاد فلا، إنّه احتفالٌ مشوّهٌ وتجاريّ، كلّ شيءٍ فيه باهظ الثّمن، يملأ فيه الخبزُ طاولات، ويغيب عن غيرها، وتزدانُ فيه موائدُ بأبهى المفارش، ويزدان غيرها بالبؤسِ والفراغِ فرقع أصابعَه.

- ومع ذلك، زيفا، لم يكن يُفتَرَض أن يسير الأمر على هذا النّحو.

لاحظت زيفينيتا أنّه كان خارج طوره. فهذا الرّجل الثّمل ناداها في ثلاث مرّات بـ«زيفا». وقد تعوّدت منه إذا ناداها بتلك الطّريقةِ أن يكون في أفضل حالاتِه، جذلانَ طرِبًا. ولم يكنْ ذلك شأنه اليوم، إذْ بدا لها حزينًا، على نحوٍ لم يسبق لها أن رأته عليه من قبل. وحزّ في نفسها، ما استشعرته باعتبارها كائنًا صغيرًا وعديمَ الجدوى، من عجزٍ عن مساعدته.

- سأحكي لك قصّةً جميلةً جدًّا. في هذا الكون ذاتٌ عظيمة، تُدعى «إله»، خلقت العالم والبشر والطّيور والسّحالي، وأوجدت الشّوق والحبّ والهجران.

بدا عليها العبوس.

- يبدو أنّني تحدّثتُ إليك بطريقةٍ معقّدة، وربّما استعصى عليك الفهم. لكنّ تلك الذّات العظيمة فَعَلَتْ كلَّ هذا، وتوجد أراضٍ كثيرةٌ أكبر من موقع بوساو مليئةٌ بالكثير من البشر، وبعددٍ أقلّ بكثيرٍ من السّحليات. هل الأمر أسهل بهذه الطّريقة؟ أظنّه كذلك، لكن انتظري، سيكون لي مزيدٌ من البركة لتوضيح أفكاري وإعطاء قلبي هدايا أكبر.

استمعتْ بخوفٍ إلى خطاه المتردّدة، وبَلَغَها صوتُ فتح سدّادة الزّجاجة وقرقرةُ السّائل في الكأس. بعد ذلك عادت بخطواتٍ أبطأ وتوازنٍ أقلّ.

- حسنًا، أين كنّا؟

وجلس بلحيةٍ شبه حليقةٍ على زاوية الحائط.

- آه نعم! ثمّ إنّه بدا لتلك الذّات العظيمة أنّ البشر حادوا عمّا فُطروا عليه، فنبذوا الحقّ وتعلّقت أنفسهم بالباطل، وزاغوا عن سُبل الخير، وصاروا يميلون إلى التّقاتل والحروب، واعتداء بعضهم على بعض. فاصطفت تلك الذّاتُ امرأةً جميلةً، ذات عينَيْن مستديرتَيْن، ويدَيْن ناعمتَيْن كالأزهار، وصاحبةَ ابتسامةٍ أكثر إشراقًا من تجمّع يراعاتٍ مضيئةٍ في ليلةٍ غابَ عنها القمر، هي العذراءُ. ورغم تفرّق النّاس حول الأمرِ بين معتقدٍ في حقيقته، ومنكرٍ لها، فإنّ العذراءَ مريم، كانت تنتظر ابنًا سيجيء ومعه أفكارُ خيرٍ كثيرة علّمَتْها إيّاه تلك الذّات العظيمة، ليزرعها بين النّاس. فأمام ذلك الكمّ من الحماقة البشريّة، كان من الضروريّ أن يبعث الرّبّ في النّاس رسولًا، حتّى يُفهِم الجميعَ أنّ الحبَّ أفضلُ من الشّرّ والغضب. لذلك ذهبت العذراء مريم في رحلةٍ وبطنُها منتفخٌ حتّى إنّها لم تستطع التنفّس. لم تلقَ ترحيبًا في الفنادق، لا هي ولا القدّيس يوسف، وهو نجّارٌ عجوزٌ وحنونٌ جدًّا، لأنّهم كانوا فقراء، وأصحابُ الفنادق الطيّبون مثل العمّة استيفانيا لم يظهروا إلّا بعد مجيء ابن مريم. مشَيا ومشَيا حتّى بلغا بيتَ لحم. لكنّها لم تعد قادرةً على التحمّل، فلاذا بمغارة. وبين القشّ، بالقرب

من ثورٍ صغيرٍ وحمار، وُلد الرّجل الذي سينقذُ البشريّة بالحبّ. في تلك اللّيلة جمعت السّماءُ كلَّ النّجوم وصنعت منها باقةً كبيرةً حتّى إنّها بدت مثل مذنّبٍ كبير، لتحيّة المولود الجديد. جاء ثلاثة ملوكٍ حكماء، لكلٍّ منهم لون، محمّلين بهدايا كثيرة. جاؤوا من بعيد، جذَبَهُم نجمٌ مضيء، ومن ثَمَّ وُلِدت عادةُ تقديم الهدايا في هذه الأيّام. أعرف أنّ هذه القصّة طالت بما يكفي، ولكنْ سأقول لإنهائها إنّ الفتى كَبُر وجاء بنصٍّ جميلٍ جدًّا اسمُه «الأناجيل»، تكلّم بشكلٍ رائعٍ ومؤثّر، حتّى إنّه أزعج الآخرين، فأمسكوه وضربوه وقتلوه. وبعد أن أقدموا على كلّ تلك الشّرور، فكّروا وفكّروا ثمّ قرّروا: «يمكننا أن نبدأ تجارةً مربحةً جدًّا بهذا الأمر»، فباعوا النّبيذ، والمكسّرات، واللّوز، والشّمبانيا، ولُعَبَ الأطفال وأشياء أخرى كثيرة. إنّها فكرةٌ ذكيّة! وهذا هو عيد الميلاد.

نظر إلى السّحلية الصّغيرة الّتي كانت منبهرةً بخطابه:

- يؤسفني أنّي نقلتُ القصّة بكثيرٍ من الخلط يا زيفا. ولعلّي لم أحسن سردَها، بما من شأنه أن يُشعرك بجمالها، ويوقفك على ما فيها من لحظاتٍ جليلةٍ. لكنّك تعلمين يا عزيزتي أنّي واحدٌ من البشر، وقدرُنا أن نولد وفي قلوبنا قطعةٌ من المسيح. وتلك القطعة مجرّد نموذجٍ مصغّر يُحقَن في قلوب الأطفال. بدأ يسوعي الصّغير يخطو في داخلي واتّضحت معالمه في تلك الآونة كأجمل ما يكون. بيد أنّ ذلك لم يُكتب له أن يمتدّ. أجهز عليه كاهنٌ من أولئك الّذين نصّبوا أنفسهم أوصياء على الدّين. لم أستطع أن أردّ الفعل تجاهه، وحاولت تطويق الأمر بكثيرٍ من الصّبر والذّكاء. لم أسمحْ له أن

يكون سببًا من شأنه أن يفقدني صلتي بالإله. سرتُ في ركابه، ولم أحدْ قيدَ أنملةٍ، فذلك ما تفرضه الطّاعة، وجمعتني في الأثناء علاقةٌ حميمةٌ بثلاثةٍ من أكبر العارفين، توم، غوس وشيكو. وبقيت على هذا المنوال طيلة حياتي، أقاتل معه وأصنع السّلام، وأستغلّ رحمته، وأوزّع دون ادّعاءٍ شيئًا من ابتسامته بين الوجوه البشريّة حتّى لا يغضب الربّ.

وضع مرفقَيْه على ركبتَيْه واتّكأ بذقنه على يدَيْه، وكان الحزنُ باديًا على ملامحه أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. ثمّ لم يعد بإمكان قلبه التحمّل أكثر، فسقط على ركبتيه، وفتح ذراعَيْه وأطلق صرخةَ ألم، حتّى إنّ زيفينيتا، صعدت إلى الحائط مذعورةً، وهو يُطلق شكواه:

- إلهي! إلهي! قليلًا من الرّحمة اليوم، اليوم فحسب، ساعدني. أنت تعرف نزاهةَ قلبي، وتعرف صدقَ اعترافاتي، أكشف لك عمّا في النّفس من أشياء دفينة، وأعرّيها، بكلّ نزقها، وبما خفي عن الأنظار، وبما تغفل عنه عنايتُك المطلقةُ، أمثل في حضرتك، بما دنّس الرّوحَ، وبما شوّه يسوعي. أمثُل في حضرتك بما في جسدي من لعنات، وبما اقترفه من آثام، بطُهره، وبصبره على الأذى، وبعهره، بحبّ باولا، الّتي أعادت إليّ الإنسانَ، وانتشلتني من تيهي بين النّساء، ومن فجوري. أمثُل عندك برهبانيّتي وصفائي، وبما بذلته من أجل الهنودِ. إلهي... إلهي.. إلهي... «كُنْ رحيمًا بي، ابتسامة فحسب حتّى لا ينفجر قلبي من الوحدة، كُنْ رحيمًا، لهذا الألم الّذي تعرفه...

غير أنّ الرّبّ لم يقبل صلاته بعدُ، لكنّه على الأقلّ تركه هناك، يعود ببطءٍ إلى وضعه السّابق.

عندما خمدت تنهّداتُه وتركت الدّموعُ بين خدَّيْه آثارَ وادٍ جافٍّ ومضيء، نزلت زيفينيتا ببطءٍ على الحائط.

-أنا آسف يا صديقتي الصّغيرة، ليس للرّجل من حقيقةٍ سوى ضَعفه.

ثمّ تمتم بعضَ كلمات ببطء، حتّى لا يتحطّم قلبُه من الألم.

-يؤلمني أمرٌ آخرُ يا زيفينيتا، ويُضاعف من إحساسي بالوحدة هذا اليومَ. إنّه ذكرى ميلادي، وها أنتِ ترَيْن حجمَ المأساة، فليس أقسى على المرء، من وحدته في هذا اليوم الاستثنائيّ، أقضّيه بلا أهلٍ وبلا صحب. سعيتُ بصدقٍ كي أجعل من المقرّبين منّي عائلتي الأخرى، ويبدو أنّي فشلتُ. كنت فحسبُ أخادع نفسي، وأوهمها، فلا شيء يعوّض دفء العائلة الأولى لا شيء يا زيفينيتا.

تخفّف من وطأة سُكره قليلًا، وأشرقت في ذهنه فكرة.

-انتظري سأعود حالًا، وسأحتاج إلى مساعدتك.

ذهب إلى المطبخ من جديدٍ. وعاد ومعه صحنٌ فيه قطعةٌ من مربّى الجوّافة، وشمعةٌ صغيرةٌ غُرِزَتْ في الحلوى.

سحب كرسيًّا قُرْبَ الطّاولة وجلس، ثمّ أشعلَ عود ثقاب أوقدَ به فتيلَ الشّمعة وابتسم في حزنٍ مع زيفينيتا.

-احتفالًا بعيد ميلادي، سأكون سعيدًا يا زيفينيتا، بمشاركتي الغناء. ليكن خيالك هذا اليوم شاسعًا وحُرًّا. نحن في واحدةٍ من أكثر القاعات فخامةً بقصرك تملؤها الدّروع اللّوامعُ، وتحيطُ بها الشّموع. وها أنت تسيرين إلى جانبي، نوزّع الابتسامات على الحشود الحاضرة. انظري يا ملكتي، على أحد الجوانب يُوجَد

كلّ المنحرفين، عاهرات، عاهرون، عجائزُ وقحات، عجائزُ شهوانيّات، والكثير من المخلوقات من وحلٍ وعفن، تلعق جوّافة جسدي. وعلى الجانب الآخر مجموعةٌ من الفقراء، بلا وجوهٍ ولا معنى، وأعتقد أنّي قدّمت لهم بعض الخير، بدلًا من أن أكون طيّبًا... لِنَحْنِ رأسَيْنا باحترامٍ أمامهم، فكلّهم من خلقِ إلهنا العظيم.

لسنا نحن من سيحاكمهم، فهم موجودون، لأنّهم خرجوا من الإبادة الجماعيّة للكروموسومات، تلك الّتي سمح الربّ نفسُه للطّبيعة بفعلها.

أطلق ضحكةً أكبر.

- حسنًا، دعينا نطفئ الشّمعة وننهي الحفلة، ما إن أعطي إشارة، حتّى تبدئي الغناء معي...

عيدَ ميلادٍ بهيجًا في هذا التّاريخ السّعيد.

أمنياتٍ جميلةً وعمرًا مديدًا.

- شكرًا، شكرًا يا صديقتي الجميلة والعزيزة.

اغرورقتْ عيناه بالدّموع وهو يتأمّل الغرفةَ الّتي تحوّلت مرّةً أخرى إلى حيطانٍ مليئةٍ بالحفر في مزرعة، وينظر إلى الشّموع العملاقة وهي ذائبةٌ في وهجٍ صغيرٍ من عينَيْن دائريّتَيْن لسحلية صغيرة.

وضع وجهَه بين يدَيْه، ولم يرغب في أيّ شيءٍ آخر.

***

في اللّيل، في عالم القرميد، كانت زيفينيتا تتحدّث إلى رانغلابيانا

وأوندروبليغو ومعهم فأرٌ رحّالة، جاء لقضاء إجازةٍ في المزرعة، وجذبته رائحة الطّعام والسّكّان.

- كان يومًا فظيعًا وشاقًّا، لا يوجد مؤمنٌ يمكنه تحمُّل ذلك! لا ينقصني سوى شخصٍ آخر من هذا القبيل حتّى ينتهي بي الأمر في مصحّةٍ للأمراض العقليّة.

عدّلت رانغلابيانا نظّارتَيْها في أعلى أنفها وتأمّلتها.

- أنت تبالغين أيّتها الغبيّة. هو في نهاية الأمر مجرّد سكر هوميريّ، اعتاد عليه رجالٌ كثيرون. وفضلًا عن ذلك يجب ألّا تعتادي على هذا الرّجل، قريبًا يرحل وستبقين بعد رحيله تُعانين مثل مجنونة.

قالت ذلك وهي تشعر بالأسف من أجل زيفينيتا.

وعندما لمحت على وجهها شديدَ تأثّرها، حاولت تجاوز الأمر باللّعب.

- وفوق ذلك، عليك أن تحذري شيتيتينيا، إنّه يمنحها اهتمامًا كبيرًا.

تأفّفت زيفينيتا بانزعاج:

- هي تتظاهر بالبلاهة معي، غدًا أهتمّ بأمر عديمة الحياء تلك.

ساد بعض الصّمت ثمّ علّق الفأر:

- عندما يقطعُ الصّمتُ محادثةً، يكون السّببُ مرورَ خفّاش، خفّاشٍ جميل، بضفائر شقراء وأجنحةٍ ذهبيّة.

سأل أوندروبليغو الّذي كان يغفو أكثر ممّا يتكلّم:

- ألم تقولي إنّك ستخبريننا بقصّة عيد الميلاد الّتي أخبرك بها اليوم؟

- وما الفائدة؟ ستكون نائمًا قبل أن أنتهي منها.

- لا يهمّ ذلك، سأعتبر الأمرَ مثل المسلسلات، وغدًا تخبرني رانغلابيانا بما لم أسمعه. إذا رأيتموني أشخر فيمكنكم تنبيهي.

تساءلت زيفينيتا: كيف لها أن تترجم القصّة الّتي رواها لها يَقْ وأن تختزلها لتلك العقول الصّغيرة، بعباراتٍ أقلّ، وأكثر بساطةً.

اتّخذت وضعيّة حكّاءة كبيرةٍ وبدأت:

- كان الأمر هكذا، تقول الأسطورة إنّه وُجِد في البدء حرباء عظيم، وكان حزينًا جدًّا، أحزنه قتالٌ جهنّميٌّ بين الكائنات الّتي تسكن الأنهار العظيمة. فبسبب الصّيد والمياه، تقاتلت التّماسيح، العاديُّ منها مع تماسيح القاطور، وتماسيح القاطور مع الكايمان، والكايمان مع ضربٍ آخر يُدعى الغافال. كانت معركةً كبيرةً حتّى إنّ لون النّهر تحوّل إلى الأحمر من كمّ الدّماء، وفقدت المياه صفاءَها...

نظرت حولها ورأت اهتمام المستمعين. إذَنْ، الأمر يستحقّ المتابعة.

- لم يكن الحرباء راضيًا عمّا يحدثُ، «في النّهاية، هذا العالم يدمّر نفسه بنفسه، وهذا غير مقبول». أخذ يفكّر، وقرّرَ منح العالم فرصةً بإرسال تمساحٍ لإحلال السّلام. وهكذا فعل، أخذَ سحلية إيغوانا شديدةَ الخضرة، بارزةَ الجمال، بعينين في غاية الاستدارة، وزوّجها من تمساحٍ عجوزٍ قال لها: «ستكونين أُمًّا لطفلي».

سمعتْ صوتًا خافتًا من بعيد:

- لم يقل شيئًا مِن هذا الّذي تروينه!

كادت زيفينيتا تنفجر من الغضب، بينما قال رانغلابيانا موبّخًا:

- أغلقي فمك شيتيتينيا، لا تتدخّلي في محادثات مَن يفوقونك سنًّا، هيّا يا فتاة واصلي، القصّةُ جميلةٌ جدًّا.

-تمّ الأمرُ، تقول الأسطورة إنّ السّحلية كانت تنتظر أن يفقس البيض. وهي في الحقيقة بيضةٌ واحدة، منها يولد طفل الحرباء العظيم. وذهبت للبحث عن فندق، لأنّ وزنَها ثَقُل، لكنّ كلّ التلال الرّمليّة الكبيرة في النّهر كانت مشغولةً. وبعدها لم يتمكّنوا من الدّفع لأنّ التّمساح كبير السنّ، ولا حوْل له على الصّيد، وليست له أيّ سمكةٍ ميّتةٍ لدفع الإيجار. فمشوا ومشوا حتّى وصلوا إلى مكان مشهور.

كان أوندروبليغو مفتونًا.

-أيّ مكان؟ ذاك الّذي في بارا؟

-أظنّ ذلك، نعم.

-لا أدري، لكنّ لي ابنَ عمٍّ جاء من هناك مسافرًا غيرَ شرعيٍّ في أحد القوارب، وهو يعرف تاريخ ذاك المكان بالكامل، ولم يتحدّث عن هذا الأمر مطلقًا.

-حسنًا، قالت الأسطورة إنّها ذهبت هناك. وهذا يعني أنّها ذهبت هناك. لكن هل أستمرّ أم لا؟

توصّلوا إلى اتّفاق، والتزموا الصّمت.

-لم يجدوا غير ملجإٍ بكهفٍ تعيش فيه السّحالي. وهناك ولد الابن الّذي جاء ليدعو إلى التّفاهم، كما تقول الأسطورة. وأُقيمتْ حفلة، فأخذوا تمساحًا كبيرًا، وألصقوا عليه اليراعات المضيئة وعلّقوه في السّماء مثل فانوسٍ كبيرٍ ليعلنوا ولادةَ ابن الحرباء العظيم. جاء ثلاثة ملوك، وهم تماسيح عظيمةٌ لكلّ واحدٍ منهم لون: أصفر وأخضر وبنّيّ، وأحضروا هدايا باهظة الثّمن: قطعًا من سمك أرابايما،

وسمكًا كهربائيًّا، وزيتَ دولفين بوتو. وأقاموا حفلة. جاؤوا من بعيدٍ وكانوا ملوكًا عظماء.

- لو أنّهم جاؤوا من بعيد، لما كان بإمكانهم إلّا أن يأتوا من ماناوس، وينزلوا أسفل الأمازون.

لم تعرف زيفينيتا كيف تشرح ذلك التّفصيل:

- أعتقد أنّه كان كذلك.

- ثمّ ماذا؟

- ثمّ كبر ذاك المخلوق ليكونَ التّمساحَ الأجملَ في العالم، بعينيْن خضراويْن، ورموشٍ ذهبيّة. ينطقُ بالحكمة، ويُلقي تعاليمَه، وكانت له أفضال باديةٌ على من حولَه. ولكنّه لم يحظَ برضا الأشرار فكادوا له بغاية قتله، وكان لهم ما رغبوا في تحقيقه. رموه بحرابٍ، وتخلّصوا منهُ، وصنعوا من جيّد جلده أحزمةً وحقائبَ، ومحافظَ. ولهذا السّبب صار النّاسُ في عيد الميلادِ، يحتفلون بشرب كؤوسٍ تُسكرهم، وبإهداءِ حقائبَ من جلد التّمساح، يتودّدون بها للنّساءِ، يُحيون بها ذكراهُ.

علّقت رانغلابيانا:

- النّهاية كانت مفكّكة قليلًا. لكنّ ما أظهرته هذه الفتاةُ من ذاكرةٍ عظيمةٍ وطريقةٍ مشوّقةٍ في حكي الأشياء يستحقّ الثّناء.

أمّا أوندروبليغو، وكان لا يزال منبهرًا بالقصّة، فقال متذمّرًا بنبرةِ تشكيك:

- أمّا أنا فيبدو لي أنّ صديقك هذا كان مشوّش الذّهن قليلًا، وهذا من أعراضِ إفراط المرءِ في الشّرب.

علّق الفأرُ الرحّالة بخيبة أمل:

- هو ذاك.

لكنّ شيتيتينيا كانت تغلي غضبًا من فوق:

- لم يقل أيَّ شيءٍ من هذا! إنّها غيّرت كلَّ شيء! كانت القصّة التي رواها الرّجل جميلة!

كان على رانغلابيانا أن تمسك زيفينيتا من ذيلها حتّى لا تدخل في قتالٍ مع السّحلية الصّغيرة.

- غدًا أمسك بك أيّتها النّمّامة الكاذبة!

- اهدآ أيّتها الفتاتان، اهدآ، لا داعي إلى كلّ هذا. هيّا لنذهب جميعًا إلى النّوم، ذلك أفضل.

انسحب كلٌّ منهم إلى نومٍ بلا أحلام.

لم تستطع زيفينيتا النّوم، وبقيت متأثّرةً باليوم الرّهيب الذي مرّتْ به. كان بوسعها، من أفضال الله، أن تسمع الرّجلَ يشخر بهدوءٍ تحت النّاموسية، وأسهم ذلكَ في التّهدئةِ من روعها. ولكنّه لم يمنعها من أن تتذكّر حقيقةَ أنّه سيغادر عمّا قريب، وبذهابه، سيفقد عالمها الصّغير سحرَه، أيّامًا.

كان يشخر تحتها. وإذا كان يحلم، فلا شكّ أنّ موضوع حلمه هو تلك المرأة الّتي تطارده مثل شبح. وعلى أيّة حالٍ، ماذا كان اسمها؟ آه نعم، باولا. وإذا لم تخنها الذّاكرة مستقبلًا فإنّها عندما تُرزَق بابنةٍ ستسمّيها بهذا الاسم، وسيكون جميلًا أن تصرخ فيها وقت المساء لكي تأتي وتنام:

- باولا ... باولا ... باولا ...

***

- هل أعجبتك الغرفة؟

- امم.

- والبيجاما؟

- لم أحلم بأكثر منها، لطالما كان منايَ أن ألبسَ بيجاما من الحرير الأزرق، الأزرق لون عينيّ، لكنّي أحبّ الأصفر أيضًا.

- هو أيضًا لون عينيك؟

- بالضّبط.

ضحكا من تلك السّخافة، وكانا يفركان أقدامهما للاستمتاع فحسب.

- باولا.

- امم.

- يجب عليّ العودة إلى الفندق.

تدحرجت على بطنها فوق السّرير، وداعبتْ وجهَه بقطعةٍ من سيلوفان علبة سجائرها.

- من أجل ماذا؟

- أنا أعيش هناك، هل ستأخذينني؟

- لا، لقد أوقفت سيّارتي في المرآب.

واصلتْ دغدغتَه برفقٍ وهي تستخدم السيلوفان.

- سأذهب بالحافلة.

- يا له من شيءٍ مبتذلٍ وغير أخلاقيّ، تمشي في مكانٍ بجوار أشخاصٍ لا تجمعك بهم أيّ معرفةٍ أو قدّمك إليهم أحد.

- لكنّ العالم مليءٌ بهذه الأشياء.

حاول الجلوس، لكنّها وضعت يدَيْها على كتفَيْه وأجبرته على الاستلقاء، ثمّ انحنتْ على عينَيْه وابتسمتْ لهما.

- اسمع يا حبيبي ذا العينين الزّرقاوين، والعينين الصفراوين، وعينيْ لون اليقطين، من الآن فصاعدًا، لا وجود لأيّ فندقٍ ساذج، لا في حياتك ولا في حياتي.

- أنت مجنونةٌ يا بو.

- أنا حقًّا كذلك. بعد ظهر هذا اليوم ذهبتُ إلى هناك، وأنهيت كلَّ شيء. تخلّصتُ من كلّ تلك الملابس الفظيعة، ولتكنْ للبوّاب أو لأيّ شخصٍ يريدها.

- لم يكن عليك فعل ذلك!

- لكنّي فعلتُ يا عزيزي، لا تغضب. وإذا لم تكذب، فستعترف بأنّك تحبّ هذه الغرفة. أليس كذلك؟

- في حياتي، لم أرَ شيئًا أكثر جمالًا من قبل.

- مرّةً أخرى، إذا لم تكذب، فأنت تحبّني. أليس كذلك؟

- باولي، باولي، لا يمكنك حتّى الشكّ في ذلك، أنتِ أجمل شيءٍ في حياتي.

- حبيبي، لا يجدرُ بكَ أن تظلّ في هذا البؤس. آن لك أن تعيش حياتَك الأخرى، وأن تهنأ بأيّامك. إنّه ليحزّ في نفسي أن تُنفق عمرك بين أماكن موحشة. ستكونُ معي، وليس لك إلّا أن تقبلَ، لا يحتاجُ الأمرُ إلى تفكير، أعدُك بحياةٍ أفضلَ سيكون بوسعنا فيها أن نحيا سعادتَنا، دون حسابات، وخارجَ دائرة الخوف. ولن

يقتصرَ الأمرُ على مجرّد الانتقال إلى غرفتك الجديدة، فيوم الجمعة المقبل، سترافقني إلى ساوباولو.

قال لها، وهو لا يكادُ يبالي بالأمر:

- ماذا لو لم أرغب في الذّهاب؟

- لا شيء يمنعُك من أن تُعربَ عن رغبتك، ليس الأمرُ معقّدًا إلى هذه الدّرجة، فأنا أدعوك لحياةٍ ننعم فيها بما يجمعنا من حبّ.

- تريدينني أن أكون مجرّد سببٍ للتّسلية، لا غير، أليس كذلك؟

- أنت أرفع من أن تكون كذلك، ولو أردتُكَ على تلك الشّاكلة، لفعلتُ. كان بوسعي منذُ البداية أن أتّخذك للمتعة. ولكنّي أحببتُكَ، وأريدُ لك حياةً كريمةً ووظيفةً محترمةً في واحدةٍ من الصّحف الّتي يملكها ابن عمٍّ لي. وسيكون لأيّامك إيقاعها الهادئ، في بيتك الجديدِ بساو باولو. لقد رتّبتُ لك الأمر مع السّيّدة، وستجدُ مفاتيحَه في انتظارك حالَ وصولنا. سوف تكسب ما يكفي لدفع نفقاتك، ومن الطّبيعيّ أن تكتشف سبلًا جديدةً لتحسين وضعك الخاصّ، فلن يعوزك بما تمتلكه من مؤهّلات، أن توسّع من دوائرك وأن تشكّل لك شبكةً من العلاقاتِ المهمّة والنّافعة. ولإيماني العميق بموهبتك إيمانًا حقيقيًّا لا مجاملةَ فيه، سيكون علينا بجهد مشترك، أن ننفض الغبارَ على رسوماتك، وأن ننبّه النّاسَ إلى قيمتها. يستحقّ الأمر شيئًا من الصّبر وكثيرًا من الذّكاء.

أمام حيرته، نهضتْ وسارت في أرجاء الغرفة، بصلابةٍ وغطرسة، وهي تشبك ذراعيْها وتضغط على مرفقيْها.

توقّفتْ مرّةً أخرى بجانب الشابّ المتّكئ على ظهر السّرير، وقطّبت حاجبيْها.

- تعال إلى هنا!

نسي في ثانيةٍ واحدةٍ كلّ تلك الاستقلاليّة الّتي صنع بها حياته، فقام ووقف بجانب باولا.

- انظر في وجهي نظرةَ رجل، وأخبرني حالًا: ألدَيك الرّغبةُ في أن تنقذَ حياتَك، وأن تنتشلَ وجودك من هذا المستنقع؟ هلّا تكرّمتَ بقبول مساعدتي، من أجل حياةٍ أخرى، تحظى فيها بما تستحقّه من هدوءٍ ومن احترام؟ أجب مرّةً واحدة، لا تزال الفرصة أمامنا، وبهذه الطّريقة لن نضيّع وقتنا.

سألها بصوتٍ خفيض:

- كيف تريدينني أن أجيب؟

- إذا كنت ترغب، فاحملني بين ذراعَيك. وإذا كان الأمر على خلاف ذلك، فاصفعني على وجهي كي أعرف أنّي تخلّصت من آخر أوهامي في الرّجال.

أحاط بها وذراعَاه ترتعشان. فأطلقت باولا تنهيدةَ من يكاد يموت من الفرح. ثمّ مرّر أصابعَه في شعرها النّاعم وداعبَه ببطء، فشعرت بدموعٍ تنزل على وجهها، ولم تكن دموعَها.

- أنت تبكي يا حبيبي، أوه، حبيبي، حياتي!

بدا عليه التأثّر، وبعدها قال مُعترفًا:

- باولا، طيلةَ حياتي، لم يكن النّاسُ من حولي أكثر من وحوشٍ ضارية، كنت مجرّد فريسةٍ لغرائزهم، ومجرّدَ جسدٍ جميلٍ للتّسلية.

أحسّت بتوتّره، وتركت له الفرصةَ لاستعادة توازُنه، ثمّ استجمعت ما بداخلها من حنان، وقالت:

-لن أفرّط أبدًا في النّجمةَ الّتي بحثتُ عنها طيلة حياتي، وسأخوض من أجلها كلّ المعارك، لن أسمح لك بالاختفاء وكأنّك مجرّد شهابٍ بلا وجهة.

ثمّ انفصلت عنه.

-لنذهب ثمانيتُنا إلى الحديقة الشّتويّة. ومعنا ملائكتنا الحارسة، نحن بحاجةٍ ماسّة إلى بعض الشّراب.

***

-ستمنحك ساو باولو أفقًا آخر، ريو مدينةٌ مكشوفة، دعنا نرفع النّخب.

وتصادمت الكؤوس.

-الآن بعد أن انتهى كلّ شيء، حبيبي، سأعترف لك بخوفي، لو أنّكَ غادرت، لأصابني الجنون، أقسم أنّك كدت تقتلني ...

أدار الكأس بين أصابعه، وهو يتأمّل أناقةَ استدارتها ويستمتع برؤية الشّراب يرقص داخلَها.

-ربّما كان من الأفضل الخروج من هنا، عندما تُهيننا مدينةٌ مّا، ويستبدُّ التّفّهُ بشوارعها ومقاهيها، وتكونُ لهم اليدُ الطّولى، في دقائقها وتفاصيلها، فهذا يعني أن لا فرصة لنا فيها ولا مقام...

شربَا مدّةً طويلة. وكان في أثناء ذلك يحلّل شخصيّة باولا باحترامٍ لم يشعر به تجاهها من قبلُ، ابتسم.

- أنت تُشبهين مافيرو، لا عجب أنّ لديك شَعرًا أسود وناعمًا مثل مافيرو.
- ومن تكون مافيرو؟
- تلك قصّةٌ من شينغو، ومافيرو امرأةٌ هنديّةٌ في مطلعِ شبابها، متزوّجةٌ، كانت تعيش في قرية هنود الكامايوراس. جاءت لزيارتنا رفقةَ والدها في مركز حماية الهنود، وهناك صادفت كاناتو، وهو شابٌّ من قبيلة إيوالابيتي، نشأ بيننا في المركز، وكان يصغرها سنًّا، ويُحسِنُ التّحدّث بالبرتغاليّة. وقعت مافيرو في حبّ الفتى كاناتو، من أوّل نظرة، وشعر كلٌّ منهما بالارتياح إلى الآخر. حتّى إنّها أوّلَ ما وطئت قدماها أرض قبيلتها، اجتمعت بزوجها، في حضرة والدها، وواجهته في غير حرجٍ بالقول:
- سأنفصل عنك وأتزوّج كاناتوَ.
سألها الأب:
- وماذا لو أنّ كاناتو لا يريد ذلك؟
- هو يريد، وإذا لم يرد ذلك، فلن أستمرّ مع زوجي بعد الآن.
ثمّ حزمت ما لديها وذهبت لتعيش عند كاناتو.
- وبعد؟
- بعد ذلك مرّ الوقت. ومع تقدّم النّساء الهنديّات في السنّ بسرعة، فكّرت: «يجب أن أكون ذكيّةً حتّى لا يتركني كاناتو، سينتبه إلى أنّني أتقدّم في العمر». ولذلك خرجت مع كاناتو والأطفال، وجابوا القُرى، بحثًا عن امرأةٍ صغيرةٍ وجميلة. ولمّا ظفرت بغايتها عاد جمعهم، وعاشوا في غاية السّعادة.

ضحكت باولا.

- القصّة تشبهني جدًّا، فأنا أيضًا منفصلةٌ عن زوجي، وأنا أيضًا أكبر منك سنًّا... لكن انظر هنا، أيّها المحتال، يمكنني أن أصبح مسنّة، عليلةً ومنهارةً كحطامٍ لكن لن أتقاسمك مع أحد!

وعضّته من أذنه لتثبت ما كانت تقوله.

- بو.

- اممم.

- اجلسي هنا.

- لماذا؟

- سترَيْن.

فعلت ما طلبه. ومثلَ قطٍّ، تمدّدَ على الأريكة واستلقى في حجرها، وسأل بتهكّم:

- هل هذا جيّدٌ يا باولي؟ إذا كان كذلك، مرّري يدك على صدري.

أطاعتْه مُندهشة.

- وماذا أيضًا؟

- استمعي الآن، سأتألّم.

- لن أتركك تتألّم كثيرًا.

- لهذا السّبب طلبتُ منك فعلَ أشياء كثيرة.

كانت عيناه المغمضتان تبحثان في ضباب المسافات البعيدة، ثمّ توالت الذّكريات شيئًا فشيئًا.

***

لم يكن ارتباط والدك بوالدتك إلّا ضربًا من الإصرار على خطإٍ كان بوسعهما ألّا يقعَا فيه. ولكنّه الحبُّ، ومشيئةُ القدر. كان والدُك أشقرَ، نال حظّه من الدّراسة، وشكّل لنفسه رصيدًا من الثّقافة، فضلًا عن كونه ابنَ برتغاليّ. وفي المقابل فإنّ والدتَك كانت سمراءَ، أمّيّةً، فضلًا عن كونها ابنةَ واحدٍ من هنود البيناغي. كان لقاؤهما الأوّل في واحدٍ من المصانع الّتي عملا بها فترةً من الزّمنِ. ولأنّها كانت كلفةً بالتّرحال، فقد كان عليه أن ينتقلَ بين أماكن كثيرة، فلم يستقرّ على موردٍ واحدٍ للرّزق، ولم يثبت على عمل. ومن الطّريف أنّ حديثها بصوتٍ مرتفعٍ كان السّرّ الّذي جعله ينجذبُ إليها ويهيم بها. رُزقا بأحد عشر طفلًا، فَقَدَا منهم اثنيْن. عاش العطالةَ لفترةٍ طويلة، وساءت حالُه، ممّا أرغمها رغم تقدّم سنّها على أن تعودَ إلى أنوال المطحنة الإنكليزيّة، ودفع بالأخواتِ الأكبر سنًّا إلى العمل. ولأنّ أعباء الحياةِ كثيرة، فقد اضطرّتْها الفاقةُ إلى التّفويت في إحدى الفتيات لابنة عمٍّ متزوّجةٍ من طبيبٍ ثريّ، ولم يُرزقَا أطفالًا. حظيت البنتُ بعنايةٍ لا مثيل لها، ونشأت نشأةَ أميرةٍ مبجّلة، في الوقت الّذي قاسى فيه إخوتُها صنوفًا من البؤس والحرمان، وتعرّضوا إلى أبشع أنواع الاستغلال، فرضوْا بملاليم قليلةٍ في أعمالٍ مهينةٍ رغم حداثة سنّهم. ليكون من بعد ذلك انتقالُه إلى الشّمال، حالمًا بنجوم السّينما والخيول البيضاء ...

كان مستلقيًا في إحدى السّفن، من أثر الدّوار الّذي سيطر عليه، ولم ينهض إلّا عندما شعر بتوقّف السّفينة في الميناء.

في اللّيل، عندما كان يشعر بدوخةٍ من النّوم، رأى عرّابه الّذي أُجبِر على الاعتراف به أبًا آخر، ينحني عليه، ليسأله:

- هل صلّيت؟
لم يكن يعرف حتّى معنى الصّلاة.
- ألا تذهب إلى القدّاس؟ ألم يسبق لك تلقّي دروسٍ في العقيدة؟
تذكّر ذهابَه غير راغبٍ إلى صفوف التّعليم للأب فاسكونسيلوس. كانت مملّةً للغاية، ولم يكن الفوزُ بمجسّمٍ لقدّيسٍ صغيرٍ أو بميداليّة، يستحقُّ ذلك القدر من التّضحية، وذاك العناء. كان المساء وقته المفضّل، وحين تكون الرّيح قويّة يعجبه اللّعب بإطلاق الطّائرات الورقيّة، أو بإيقافها.

- لا سيّدي.
- إذَنْ دعنا نتعلّم... فمن دون تعلّم الصّلاة، لا أحد يذهب إلى السّماء.

كان ذلك لقاءه الأوّل بتلك الكلمة الّتي تبدأ هي أيضًا بحرف «س» وتنتهي بـ «ء»، وتحتوي على خلاص الإنسان. حتّى تلك اللحظة، لم تكن السّماء عنده أكثر من مكانٍ تطير فيه الطّائرة الورقيّة، أو على أقصى تقدير، مكانًا يحمل النّجوم في اللّيل.

البيت الكولونياليّ الكبير، جدرانٌ ضخمةٌ برماحٍ مدبّبةٍ فوق السّياج الّذي يعلو الحائطَ الكبير، أشجارُ نخيلٍ مصطفّةٍ بمظهرٍ إمبراطوريّ، حديقةٌ مرتّبة، فيها أزهارٌ من جميع الأصناف، نافورةٌ في الوسط، كانت تحفةً جميلةً عندما تهتزّ، الشّرفاتُ، والقاعات الرّائعة، غرفة الطعام، مع طاولةٍ بيضويّةٍ لامعةٍ من خشب الجاكارإندا، ضخمةٍ بما يكفي لتناسب جميع أفراد الأسرة. بستانٌ مليءٌ بفاكهةٍ لا تحتاج حتّى إلى السّرقة. أشجار مانغو، أشجار سابوتي وأشجار جوز الهند. الكنيسة الصّغيرة لقدّاس

الآحاد، بجمالها الأخّاذ، ترعاها العمّة راكيل، بإخلاصٍ مُنقطع النّظير، تلك المرأة العزباء، الّتي تختزلُ الحنانَ وتشعّ بالمحبّة. الإسطبل الّذي كان به حصانان عجوزان تقريبًا، بلا أيّ فائدة، أحدُهما أبيض والآخر بنّيّ. تجويفٌ فيه تمثال سان جوزيه داس بالميراس، ذاك الّذي يقولون إنّهم كلّما وضعوه في الكنيسة، فرّ إلى ذلك المكان. جدّةٌ جميلة، بشعرٍ مفروق، أبيض، أبيض جدًّا، ترفلُ في لباسها الأسود بجلالٍ ووقار، بتميمةٍ لا تكادُ تفارقُ صدرَها. وبالإضافة إلى هذه الجدّة، اكتسبَ أعمامًا جددًا وبعضَ أبناء العمّ. لكنّ لكلٍّ منهم حياته الخاصّة، ومنازلهم كانت بعيدة.

في المساء، كانوا يأتون لصلاة المسبحة على السّاعة السّادسة.

كان منزل الأب الجديد أشبه بشاليه جميلٍ على الجانب الأيمن من أرضٍ كبيرة، مع شرفةٍ كبيرة هي أيضًا، مظلّلةٍ بأشجار المانغو المورقة، وأشجار السابوتي العطرة الرّائحة. في المنزل الكبير، كان يعيش ابن عمٍّ له، وهو ولدٌ كثير العراك، كالَ له صفعاتٍ قويّةً ليصبح أقوى.

وماذا أيضًا؟ كان هناك جروٌ صغيرٌ اسمُه تولو، مشوّهٌ بشكلٍ لافتٍ للنّظر، لأنّ عربةً دهسته، صار بمرور الوقتِ صديقًا مقرّبًا إليه، كلّما صادفَه هرع نحوَه، بأطرافه الخلفيّة غير المتوازنة، كما لو أنّه درّاجةٌ هوائيّةٌ تُقاد بطريقةٍ سيّئة، يلعق وجهه أو يحاول مرافقتَه في ألعابه.

-هل تعلم يا تولو، سيكون بوسعك أن تركض ما شئت، وأن تتعلّم اللّعب، وتلتقط الكرةَ ببراعة. سيكون بوسعك أن تصعد السّلالم، غير مكترث، ستتعافى يا تولو ستتعافى.

وذلك ما حدث بالفعل.

حالما وصل إلى المنزل عائدًا من المدرسة، بعدَ درْسٍ محبّبٍ إلى نفسه، تناول الغداء، ولعب قليلًا، ثمّ أكمل واجباته الدّراسيّة وحاول ربطَ صداقاتٍ مع الأشجار الجديدة، بتذوّق الفواكه الّتي لم يسمع بها من قبل في حياته.

لقد قايضَ عالمه الجديد، بكلّ ما يحمله من أسماء، وأشياء، بحياة الشّارع، بالغبار، والشّمس، وبالعراك والشّتائم، وهي أمورٌ بدأ يفتقدها. ورغم ما كان يسوّر حياتَه من أسبابٍ للبهجة، كان يفتقرُ في عمقه إلى ما هو أبسطُ وأقلُّ تعقيدًا. يفتقرُ إلى حرارة المشاعر، وإلى النّاس، وإلى الحياةِ في بعدها البديهيّ والأكثر إدهاشًا.

بَعْد أن تجاوز مرحلة الفضول، أصبح مجرّد صبيٍّ زائدٍ عن اللّزوم، دون أيّ أهمّيّة، لا ينتبه إليه أحد، ولا يراه أحد. كان مجرّدَ شيءٍ لا قيمة له في آلةٍ منظّمة، لها قوانينُها الصّارمة والنّهائيّة، وتحوّلَ مع الأيّامِ، إلى كائنٍ نظيف، مُنعّم، شديد التّحضّر.

جعلته جاذبيّة المنزل الكبير يُصابُ بالدّوار، فتجوّل عبر تلك الغرف الضّخمة، دون أن تطأ قدمه الجزء العلويّ، حيثُ تعيشُ إحدى العمّات، وكانت متزوّجة. كان الجدّ والعمّة راكيل يقتسمان معهم المكان لاتّساعه، وينعمانِ بقدرٍ من الاستقلاليّةِ والرّفاه. ضلّ طريقَه في غرفة اللّعب، إذ كانت لابن عمّه طاولة بلياردو، لم يجرؤ على لمسها، ودرّاجةٌ لم يتكرّم، مثلما هو الحالُ مع سيرجينيو، بدعوته إلى ركوبها، والقيام بجولة. وجد نفسَه بغتةً وهو يغادر غرفة اللّعب، قبالةَ الباب الممنوع، ولم يجد بدًّا من أن يفتحَه، ليظلَّ مشدوهًا أمام المشهد، إنّها قاعة الحفلات، بكلّ بهائها. يا له من شيءٍ جميل! الأثاث الأسود مع الوسائد. سجّادٌ ملوّنٌ وآخر داكن،

مرايا طويلةٌ عليها رسوم طيور مالك الحزين بلونٍ ورديٍّ وبزخارفَ من أوراق الشّجر الخضراء، ستائر حمراء مخمليّة، ناعمةٌ جدًّا، تتدلّى من السّقف إلى الأرض، وآلتَا بيانو، واحدٌ صغيرٌ وآخر بذيلٍ مُستدير. وفي مكانٍ أبعدَ آلةُ بيانولا، يبدو أنّها أكثر ذكاءً، فهي تعزف الموسيقى بمفردها. كانت الآلات الثّلاث بسواد فاحم، له ألقُه الخاصّ. للكبيرة أسنانٌ بيضاء وطويلة، مغطّاةٌ كُلُّها بقطعة قماشٍ من اللّباد فوقَها أوراقٌ خاصّة بالموسيقى عليها نوتات. صار كثيرَ التّردّد على المكان، فكلّما تسنّى له الأمرُ، وتيقّن أنْ لا أحدَ يتعقّبه، داعبَ المفاتيحَ بخفّة.

مشى إلى غرفة مكتب الجدّ، فألفاها فارغةً تمامًا. ممتاز! تسلّل إلى القاعة، وفتح البيانو، وبأصبعه راح يبحث عن النّوتات الّتي تجتمع معًا لتشكّل الموسيقى. كان ذلك أمرًا محيّرًا. فبلمسةٍ من أصبع يغنّي البيانو غناءً جميلًا. وشيئًا فشيئًا، بدأ يصلُ النّغمةَ بالأخرى. وهكذا أخذ يكتشف الأشياء، حتّى إذا أخطأ، عاد إلى البحث كي يحصل على النّغمة الصّحيحة. هكذا كان ضياعه في عالمٍ لم يكن يعرفه قبلَ أسبوع.

كان مُنشغلًا بذلك عندما دارَ مفتاحٌ في الباب المركزيّ بسرعةٍ وظهر لباس الجدّة الأسود.

تجمّد في رعبٍ وهو يشاهدها تقترب ببطء، ولم يجد حتّى الوقت للفرار، فشعر بشفتيه ترتجفان وامتلأت عيناه بالدّموع. وقال متوسّلًا:

- جدّة إيناس، لا تضربيني، لا. أعلم أنّي ولدٌ غير مُطيع، لكنّي أعدك بألّا أفعل ذلك بعد الآن.

وانفجر باكيًا وهو يضع وجهه على المفاتيح.

لكنّ اليدين اللّتيْن لمستَا كتفَيْه كانتَا لطيفتَيْن بشكلٍ لا يصدَّق.

- ما هذا يا بنيّ؟ لن يضربك أحد، لم تكن تفعل أيَّ شيءٍ سيّئ، تعال إلى هنا، اجلس معي على الأريكة.

أخرجت منديلًا ناصع البياض، ومسحت به وجه الطّفل.

- الآن، اسحب تلك السّتارة وعُدْ إلى هنا.

أطاع، وهو لا يزال يشهق. ومع أشعّة الضّوء، ظهرتْ ملامح طيبةٍ وهدوءٍ على وجه الجدّة، فحاول التحقّق من نواياها ببعض الرّيبة الّتي لم تفارقه كلّيّة.

- ألن تغضب السيّدة منّي؟ ولا حتّى تعاقبني؟

ابتسمت وهي تهزّ رأسَها الأبيض.

- ولن تحكيَه لأحدٍ في المنزل؟ لا شيء من ذلك، ما جئتُ إلى هنا إلّا لأنّي وجدتُ الأغنيةَ لطيفةً جدًّا وأردت أن أرى الملاك الّذي يعزف بشكلٍ جميل.

كان صوتُها مختلفًا، هادئًا وطريفًا. بل إنّها كانت تتحدّث في بعض الأحيان بطريقةٍ منغّمة.

- لكن أليست قاعة الحفلات ممنوعة؟

- إنّها كذلك بطريقةٍ مّا، هي مغلقةٌ وعلى أثاثها أغطيةٌ حتّى لا يفسد. لكنّنا لا نفعل هذا إلّا لتكون جميلةً دومًا عند كلّ حفلة. ألا ترى أنّها ستكون قذرةً وقبيحةً إذا واظب النّاس على دخولها؟

- نعم سيّدتي.

- ألا تحبّ العزف على البيانو؟

- إنّه جميلٌ جدًّا...

- لماذا لا تعزف على البيانو في منزلك؟

- ثمّة أشياء كثيرةٌ ممنوعةٌ على الأطفال يا جدّتي، البيانو مقفلٌ بمفتاح.

- أيّ موسيقى تلك الّتي كنت تعزفها؟

- إنّها من المكان الّذي عشتُ فيه. كان هناك رجلٌ يسير في الشّوارع ومعه أوراق، ثمّ يتوقّف ويغنّي الإعلان... من يحبّون الرّسائل سيذهبون إلى هناك ويشترونها... قضّيت اليوم أتبع الرّجلَ في كلّ زاويةٍ توقّف عندها للغناء، هذه هي الطّريقة الوحيدة الّتي تعلّمت بها.

توقّف لحظةً، ثمّ قال:

- كلّ شيءٍ كان جميلًا جدًّا!

- ألم يكتشفوا في المنزل ما كنتَ تفعله؟

- لا، لأنّي كنت تلميذًا جيّدًا، وقد ظنّوا أنّي في المدرسة الحكوميّة، وكان الرّجل يأتي من المدينة أيّام الثّلاثاء فحسب، وقد مرّت أيّامٌ لم أذهب فيها حتّى لتناول الغداء.

- ألم يشتاقوا إليك؟

ضحك بطريقةٍ بلهاء.

- لا شيء من ذلك يا جدّتي إيناس. كانت عندنا أفواهٌ كثيرةٌ وطعامٌ قليل. وعندما يغيب أحدُنا، فذلك لأنّه وجدَ الطّعامَ في مكان مّا، وهكذا يحظى الحاضرون بمزيدٍ من الأكل.

شعرت المرأة العجوز بالتّأثّر.

- ألا تريد أن تلعب الآن؟

- أين يا جدّتي؟

بقيت مندهشةً.

- في منزلٍ به حديقةٌ كبيرةٌ مليئةٌ بالأشياء، لا يُمْنَع فيه سوى قتل الطّيور ...

- ذهبتُ بالفعل للتّحدّث إلى الخيول، لكنّها غير مهتمّة. ثمّ ذهبت للّعب مع تولو، غير أنّه يتعب بسرعة، لأنّه مريض. لقد مررتُ اليومَ بكلّ زاوية.

عندئذٍ لاحظت الجدّةُ شعورَ الطّفل بالوحدة. إنّه يفتقد إلى الشّارع والإخوة وإلى عالمه الّذي سُرِق منه فجأةً. ولا شيء يعوّض ذلك.

- إذَنْ دعنا نفعل شيئًا مّا. أَغْلِق السّتارة، أغلق البيانو ولنذهبْ لزيارة شُجيرات الورد. أتحبّ ذلك؟

- أراك دائمًا تمشين بينها سيّدتي، لماذا؟

- لأنّ لديّ صديقاتٍ كثيراتٍ بينها.

- وهل تعرفك؟

- كلّها، ولكلّ واحدةٍ منها اسم، سترى.

نزلا الدّرج يدًا في يدٍ واختفيا بين منعرجات الحديقة ...

***

تحرّك في حجر باولا وسأل:

- ألستِ متعبةً يا باولي؟

- أنا سعيدة، يا لها من حياةٍ تلك الّتي عشتها يا حبيبي! أَشْعلْ لي سيجارةً بما أنّك جعلتني سجينةً عندك.

ثمّ سألته:

- أين كانت أختُك كلَّ ذلك الوقت؟

- في مدرسةٍ داخليّة، ووجدتُ ذلك أمرًا جيّدًا، لأنّي لم أرَ قطُّ شخصًا مملًّا أكثر منها. خلال طفولتي، كنتُ أراها جحيمًا، وحتّى اليوم ما تزال علاقاتي بها مقطوعة. إذا وُجِد شخصٌ واحدٌ أكرهه ...

- لكن كيف يمكن لأحدٍ أن يتحدّث بهذه الطريقة عن أخته؟ كيف لشقيقَيْن أن يكره أحدهما الآخر؟

- هذا أقدم من وضعيّة التبرّز ...

ضحكت باولا.

- ها قد جئت بعباراتك. يبدو أنّك عدت إلى شخصيّة الطّفل المشاغب.

- نعم صحيح، هذه الأمور تحدث منذ قابيل وهابيل، عيسى ويعقوب، الكتاب المقدّس مليء بمثل هذه الحالات.

- هل كلّ إخوتك يشبهونك؟

- إطلاقًا، متى استثنيتُ غلوريا، الّتي اختطفها الموتُ. وأمّا البقيّة فبشَرتهم سمراء، وفي ملامحهم شيءٌ من القسوة. لقد تمحّضوا للجزء الهنديّ، فيما أمكنني أن أجمع في آنٍ بين الجزأيْن، ببشرةٍ فاتحةٍ أتقاطع فيها وأبي، وبدمٍ هنديٍّ صرف.

فكّ ساقَيْه لتغيير وضعيّته، وواصلَ حكيَه:

- حسنًا، لم يكنْ ما أطلعتُ عليه جدّتي مجرّد اكتشاف، أسعد قلبَها،

وأدناني أكثر منها، بل جحيمًا سيرافقني على مدى سنوات، اسمه البيانو ببساطة، أو حسّي الموسيقيّ الّذي زاد من غربتي في المكان، وعمّق من شعوري بالوحدة، لينتهي بذلك أملي في ما كنتُ أتوق إليه من سلامٍ داخليّ. صارت الموسيقى تشغل كلَّ وقتي بعد المدرسة، حتّى إنّني لم أعد قادرًا على ممارسة أيّ تمرينٍ رياضيّ، ولم أعد أجد الوقتَ لتسلّق الأشجار، لانشغال يديّ بما هو أثمنُ وأشدُّ أهمّيّةً. وتحوّل شغفي بالعزفِ إلى كرهٍ مقيتٍ للبيانو، نشأ معي، وتحوّل إلى وحش. أصبحتُ مجرّد فتًى منطوٍ على نفسه، صامتٍ ومتجهّم. لم أجدْ بين الجموعِ ما كنتُ أحتاج إليه في مثل تلك السّنّ، من العطف والحنان، ولم أستطعْ في المقابل أن أتعلّق بأحد، كنتُ جزيرةً معزولةً في محيطٍ عظيم. كان من الصّعب اكتشاف خطإِ جغرافيّتي الصّغيرة. وكان عليَّ أن أطرد أحلامي ورعاةَ البقر المفضّلين عندي بعيدًا. بدأت أعجب فحسب بأفلام الحبّ والقبلات، وقد تسبّب ذلك في خلق صداماتٍ داخل الأسرة كلَّ يوم أحد. وفي سنّ الثّانية عشرة، حدثَ شيءٌ كان من شأنه أن يغيّر مسارنا جميعًا: ماتت جدّتي.

أتذكّر أنّها ذهبت إلى ريو لإجراء عمليّةٍ جراحيّة. وعند عودتها أقام العمّ أبيل استقبالًا كبيرًا في قاعة الحفلات. تدرّب على مسرحيّة قصيرةٍ ألّفها عددٌ من أبناء العمومة وشاركوا فيها. ثمّ كان هناك جزءٌ موسيقيّ، إذ يُفتتح البرنامج بعزفِ مقطوعةٍ صغيرةٍ تسمّى «التوليب»، ووجدت الجدّة المبتسمة كلّ شيء جميلًا، وكلُّ مَن يُنهِ دورَه يحصلْ على قبلةِ شكرٍ منها...

لكنّها لم تكن بخيرٍ على الإطلاق. بدأت تشعر بألمٍ أجبرها على أخذ الحقن باستمرارٍ والبقاء في السّرير، ولم يعد الأحفاد يصعدون لرؤيتها تقريبًا. وعندما فعلوا ذلك، لاحظوا أنّها ضعُفتْ ونحفتْ، وأصبح وجهها الجميلُ جافًّا، وعليه أخاديد.

- ما بها جدّتنا؟

قال أحد أبناء العمومة أمرًا بدا للآخرين لغزًا.

- هي مصابة بالسّرطان.

- وما هذا؟

- ألم تسمع به من قبل؟ إنّه مرضٌ شرّير يأكل الإنسانَ الحيَّ ويسبّب ألمًا كثيرًا. إذا فتحت فمك وقلت إنّي أخبرتُك، فسأوسعك ضربًا.

في إحدى اللّيالي، وحين لم يعد الكبار يغادرون المنزل، بدأت الجدّةُ تموت، ودام احتضارُها حتّى السّاعة الثّانية من ظهر اليوم الموالي.

جاء الصّمت ليسكنَ كلَّ شيء. بعدها جاءت الأزهار، وهي كائناتٌ مسكينةٌ تملأ الحدائق، وأخذت تبكي المرأةَ المحسنةَ الّتي ظلّت كذلك طوال حياتها. كان جسدها في الكنيسة، والعائلة تبكي في صمتٍ لتقبيل وجهها المنهك والهزيل. لقد أصابَه الرّعبُ وهو يفكّر في أنّ دورَه سيأتي، وصَدَمَه أنّ الموتَ يمكن أن يُدمّر مثل هذا الوجه الجميل، إنّه الآن يرقد هناك، باردًا وصامتًا، ميّتًا وحزينًا.

توقّف بعضَ الوقت.

- أوه يا بو، لا أريد أن أرى أبدًا أيَّ شخصٍ يموت بالسّرطان. لو تعرفين كم هو قبيحٌ ومثيرٌ للاشمئزاز. وحْدها الجدّة كانت مَن يمنحني بعض الحنان...

- على أيّة حال، ليس في وجه الموت أيُّ جمال.

- ليس دائمًا، هذا يُردّ إلى طريقة الموت، لكنّ السّرطان فظيع.

قام ليمسح علامات التأثّر من الذّكرى. فصبّ لنفسه شراب براندي وعرض آخر على باولا، ثمّ تمطّى.

- جعلتِني أبحث في جزءٍ قديم من الذّكريات، لا أظنّ أحدًا غيرك يستطيع ذلك. حسنًا، ليس للباقي أهمّيّةٌ تُذكَر، لقد أصبحتُ متمرّدًا، وكان لكلّ شيءٍ هناك مقطعٌ رتيبٌ يرافقني «لا تنكر أنّك هنديّ»، «لا تنكر أنّك بيناغي». و«هنديّ» هي أكثر الأشياء إثارةً للاشمئزاز من بين تلك الّتي يمكن تسميتي بها. كنت ودودًا جدًّا مع والدي وأحببته حقًّا. لكنّه لم يحبّني، لم أعنِ له شيئًا قطّ حتّى الآن. والنّتيجة أنّ لي أُمَّيْن ولا أملك أيّ واحدةٍ منهما، ولي أبوان ولا أملك أحدًا منهما، هكذا أفضل. لكنْ لنعد إلى نقطةٍ مهمّة، عندما أنهيت دراستي في المدرسة الثّانويّة، وهناك كنتُ الطّالبَ الأوّلَ دائمًا، أضافوا إلى عمري سنواتٍ حتّى أتمكّن من اجتياز امتحانات الالتحاق بالكلّيّة، وتلقّيتُ دروسًا طبّيّةً رائعةً إلى غاية الامتحانات النهائيّة من السّنة الثّانية. بعد ذلك، وبقدرة التّدمير نفسها الّتي كانت عندي دائمًا، تخلّيتُ عن كلّ شيء، ربّما لأسبّب الألمَ لأبي الّذي توقّع منّي أن أخلفه في عيادته، لكنّ الطّبَّ لم يكن قدري. اجتزتُ مسابقةً في البحريّة التّجاريّة ونجحت في المركز الأوّل، وأبحرت إلى سواحل البرازيل بصفة ضابط سطح سفينة، ومراقب شحنات، وما إلى ذلك...

- لا تزال هناك نقطتان أودّ معرفتهما، ثمّ أتركك تنام بسلام، هما...

- قولي.
- كيف تغيّر حال العائلة بعدَ وفاة الجدّة؟
- شيئًا فشيئًا، أهدر الإخوة الكبار الثّروة. وبعد ذلك بقليلٍ لم يتبقّ منها شيء. كانت المرأة العجوز ذكيّةً في وصيّتها. فلِتجنُّب الخلافات بين الأبناء، تركت البيتَ الواسع للآباء السّاليسيّين، كي يجعلوه مدرسةً للأطفال الفقراء. ومَن يرَ التّعديلات التي أجراها الكهنةُ يشعر بشيءٍ من الألم، فقد أزالوا الحدائقَ لتوسيع الجزء الخلفيّ من المنزل، وتعديلِ الكنيسة الصّغيرة وزيادةِ طولها. أمّا ما بقي من بعض الأراضي والمنازل فقد قُسّم على الجميع، وذهب كلٌّ واحدٍ إلى جهته. وماذا بعد؟
- وكيف أصبحت نموذجَ تعرٍّ محترف؟
- مع تحرّري من كلّ شيء، تملّصتُ من أداء الخدمة العسكريّة، ولم أستطع عملَ أيّ شيءٍ.
- ألا تعطي البحريّة التجاريّة أيّ حقٍّ لاحتياطيّي البحريّة؟
- نعم، لكنّي وصلت إلى ريو في وقت إجازتي، يومٌ واحدٌ على الأقلّ لرؤية المدينة والأصدقاء، وحتّى الأقارب. ووجدتُني على الفور في مشكلة. ففي الميناء لقيتُ بائعةَ هوًى قبلت أن تنام معي مجّانًا، لكنْ كان أحدُ رؤسائي هناك...

ثمّ أطلق قهقهةَ ابتهاج.
- في ذلك الوقت يا باولي، كنت مطلوبًا جدًّا، بطلَ سباحةٍ في كلّ المسافات، بصدرٍ كان جنّةً لأيّ امرأة.
- مغرور.

- نعم كنت كذلك، لِنَعُدْ إلى الموضوع. بدافع الانتقام كلّفني ذلك المسؤول بالعمل، فاحتججتُ، ثمّ تناقشنا، وشتمني. فرفعتُ الرَّجل الصّغير من كتفَيْه وكنت على وشك الإلقاء به في القبو. لكنّهم أمسكوا بي في الوقت المناسب. بعد ذلك حصلتُ على إجازةٍ بلا نهايةٍ وضيّعتُ الوقتَ الّذي أمضيتُه على ظهر المركب، لأنّهم لم يسجّلوه في الدّفتر الخاصّ بي. ثمّ جاء الأسوأ، فعندما بلغت الحادية والعشرين من عمري، تقدّمتُ إلى الجيش بغضبٍ شديد، وكم كرهتُ الزّيَّ الرّسميّ.

هل تعرفين ما حدث لي؟ بقيت هاربًا من الخدمة مدّةَ شهر. تمَّ اقتيادي إلى المدينة العسكريّة، وكنتُ أدرك أنّي إذا خدمت في الجيش، فسوف أُنْقَلُ إلى مركز تحضير ضبّاط الاحتياط، وهي مشكلةٌ أكثر إزعاجًا لأنّي لم أكن أملك حتّى المال لشراء الزيّ الرّسميّ. ذهبتُ للفحص الطّبيّ واكتشفوا خللًا في القلب، فمنحوني شهادةً في عجزٍ مؤقّتٍ لمدّة عام، وعدتُ سعيدًا إلى وحدتي العسكريّة، فخلال سنةٍ قد تحدثُ أشياء كثيرة. لكنّ مفاجأةً كانت في انتظاري، واضطررتُ إلى إمضاء شهرَيْن في السّجن عقوبةً على عدم الانصياع. تحمّلتُ خمسة عشر يومًا، وأُجْبِرْتُ على البقاء عاريًا في الحمّامات أثناء النّهار لغسل ملابسي. يا لها من قذارة! كانت الكتيبة مليئةً بأناسٍ كريهي الرّائحة، متعرّقين ومتّسخين دومًا. لا أعرف ماذا حدث بحقّ الجحيم، ولا أريد أن أعرف. هل كانت منظومتي البيولوجيّة تعمل بدقّةٍ أم لا؟ لكنْ اتّضح أنّ العلّة في تكويني، إمّا أنّ نسبة الثلاثين في المائة من الغدد الأنثويّة أو السّبعين في المائة من القدرة الذّكوريّة، أو ربّما كلاهما معًا، لا تتحمّل رائحة العرق من أيّ نوع.

كنت أشعر بالاكتئاب، ولا رغبة لي في الأكل... تخيّلي، ماذا حدث؟

- مرضت ؟

- لا، بل تسلّقت الحائط وهربت. هربتُ إلى الحرّيّة والمغامرة، وأصبحت فارًّا. ألقيت بنفسي إلى الغابة، ومكثت هناك أكثرَ من عام. مرّ وقتُ المطر والجفاف، وأنا أعمل بالفأس والمجداف لأفتح الطّرق وأقطع أشجار المانغابا من أراضي المطارات. كان الأمر جميلًا! لو أمسكوا بي، لكانت عقوبتي قاسية، لكنّي تخلّصتُ الآن من الأمر كلّه، فلم تمرّ حتّى عشرون يومًا منذ وصولي.

- إذَنْ أنت بالفعل جنديٌّ احتياطيّ؟ كيف حصلت على ذلك؟

- أعرف هذا مسبقًا، لا بدّ لك في مثلِ هذا الوضعِ من واسطةٍ في الجيش.

- لقد سرقت تفكيري.

- لقد حصلت عليه بأكثر الطّرق قذارة.

- على أيّة حال، أريد أن أعرف.

- باولي، أنت تعلمين أنّي لا أحبّ الأكاذيب، ولا حتّى من باب التهكّم. حسنًا، عندما وصلت محمرًّا جدًّا، قويًّا جدًّا، في إحدى الحانات التقيتُ برجلٍ في غاية التهذيب، انجذب إليّ. كان أحدَ أولئك الّذين لهم هرمونات نقيضة، وبما أنّه ينحدر من جَدٍّ هو جنرالٌ عظيمٌ في تاريخ البرازيل، وكان والدُه أيضًا جنرالًا نافذًا في البلد، فقد قال إنّه سيحلّ مشكلتي دون أن أتعرّض لخطر الاعتقال، ولكن...

- طلب تلبية نزواته.

- بالضّبط.

- كم هذا فظيع!

- لو عرفتُ أنّي سأكون النّجمَ الّذي تبحثين عنه منذ ميلاد النّجمة الأولى، لانتظرتُك. ومن بين كلّ ما حصل لي، لا شيء دنّسني، لأنّه كان مثل بيجاما حريريّة زرقاء يرتديها مواطنٌ من البرازيل الشّرعيّ، لحظةَ القسَم أمام العلم. لقد كنتُ مُعرِضًا في الدّاخلِ عن تلك الأشياء الّتي يقسم الآخرون على الانضباط لفعلها بحماسةٍ زائدة. كيف أقاتل وأحارب، إذا كنت دائمًا ضدّ الحرب، والموت والكراهية؟

- أنت وحشٌ صغير!

- لكنّي منسجم مع ذاتي.

- وهو؟

- هو مَن؟ آه! ذلك الشّيء، طلب منّي العودة مرّاتٍ أخرى، بشكلٍ طبيعيّ، لكنْ بعد حصولي على أوراقي القانونيّة، نظرت إليه وقلت بهدوء: «هل أقول لك أمرًا؟ اذهب إلى الجحيم!».

ضحكت باولا طويلًا.

- ثمّة شيءٌ لم أستطع فهمه، بعد أن حصلت على أوراقك واصلتَ الظّهور بصفة النّموذج.

- إنّها مسألة انضباط. كان عليّ أن أؤدّي تلك الوضعيّات حتّى لا أفسد عمل أيّ شخص. ومع ذلك، لم أكن متأكّدًا من قدرتي على تغيير حياتي. ولم أكنْ راغبًا في أن أكون شيئًا محدّدًا. فالأمور عندي سواء، لا يختلف بعضها عن بعض.

قبّل باولا بلطفٍ وتثاءب.

-إنّها الحياة! هي الحياة!

***

كان من الصّعب تجاوز ما تتركه بعضُ الأيّام من مذاقٍ مُرّ. ربّما هي الشّيخوخة. فمع استمرار الحياة، تزدادُ حدّةُ تلك المرارة المزعجة أكثر. مرّ يومان منذ أن عانى من نوبةِ غضبٍ كبيرة، وها هو الآن يتجوّل بين الزّوايا كمَن يمشي أثناء النّوم تقريبًا، يبحث هنا وهناك عن أيّ شيءٍ من شأنه أن يُعيدَ إليه حماسه للحياة، الّذي قتلته الكوابيس.

-اذهب إلى الأمام يا راهب يقطين، عِشْ كأنّك لن تموت أبدًا، توم العجوز، توم العجوز مع كرش حكمته الكبيرة، ربّما كان العصر الحديث أكثرَ صعوبةً على الرّجال ليكونوا قدّيسين، لو كان تشيكو، وتوم وغوس على قيد الحياة الآن، فهل ستكون لهم مؤهّلات القدسيّة كما فعلوا في الأزمنة الماضية؟ ربّما كان لـشيكو أن ينجح لأنّ إنسانيّته لا تزال حاضرةً بيننا، وربّما أفلح توم في ذلك المسعى، لأنّ الأشخاص البدينين يذنبون بقدرٍ أقلّ. ولكنّ الأمرَ سيكون مختلفًا مع غوس. فلو جاء الآن، لاحتاجَ إلى عزمٍ أسطوريّ، وجهودٍ مضنيةٍ حتّى يتجاوزَ ما سيلقاه من عقبات، في عصرٍ تحكمه الإغراءات... هراء، هراء، أنا أطلق أحكامًا، ومن أنا لأحكم؟

مرّ يومان لم يرَ فيهما شيتيتينيا. ماذا يمكن أن يحدث للفتاة الصّغيرة؟ لعلّها ماتتْ دون أن يلاحظ ذلك أحد، مثل آلاف السّحليات الّتي تختفي دون أن ينتبه إليها أحد. خرج إلى الزّوايا المألوفة، ينادي بعذوبة:

- شيتيتينيا!... شيتيتينيا!

تجوّل في المطبخ، ودخل غرفةَ الرّسم. في ذلك الوقت كان من عادتها أن تغفو في حفرةٍ خلف صندوقٍ قديم.

- شيتيتينيا!

سحب الصّندوقَ جانبًا وأطلّ على الحفرة، فرآها تغادر شيئًا فشيئًا.

- آه أيّتها المخادعة، أين كنت مختبئة؟

لكنّها لم تجرؤ على ترك الحفرة، كانت في عينيها ملامحُ إحراج.

- يمكنك الخروج أيّتها السّخيفة. هل كنت خائفةً لأنّ الرّاهب يقطين شربَ كثيرًا؟ انتهى ذلك، وأقسم أنّي لن أؤذيك.

ومع ذلك، ظلّت متردّدة.

- هيّا عزيزتي، ها أنا أودّع كلَّ واحدٍ منكم، غدًا تمرّ طائرةٌ كبيرةٌ لتأخذَني بعيدًا، ألا تريدين توديعي؟

بعد سماع ذلك، تشجّعت شيتيتينيا وخرجت من مخبئها.

لم يستطع يَقْ منعَ نفسه من صرخةِ صدمة، إذ كانت شيتيتينيا غيرَ مكتملة، ينقصها جزءٌ من الذّيل.

- يا للمسكينة، ألهذا السّبب اختبأت؟ لا بدّ أنّه أمرٌ مؤلمٌ كثيرًا، لكن لا يهمّ، سيولد لك آخر قريبًا، وبما أنّك مازلتِ صغيرة، فستتعافين. اسمعي، غدًا عندما يُغادر الرّاهب يقطين، عليك أنت والأخريات توخّي الحذر الشّديد. للأسف، ليس كلّ البشر يحبّون رسمَ ابتسامة الملائكة على وجوه الآخرين. سمعتِ؟ احذروا أطفالَ الشّوارع والهنود الصّغار، ربّما يأتون إلى هنا لاصطيادكنّ

بالمقاليع والأقواس، حذّري الآخرين أيضًا، تذكّري هذا جيّدًا، أخبري الطّيور، أخبري السّحالي، اتّفقنا؟

ابتسم للمخلوقة الصّغيرة المعطوبة. لكنّه لم يستطع أن يصدَّ عن نفسه إحساسًا باغته بانزعاجٍ غريب.

ذهب إلى البوساو ليقول للأسماك وداعًا، وكان الأمر معها أسوأ، حيثُ اتّسعت مساحة المياه الضّحلة، بما من شأنه أن يجعلَ من إمكانِ صيدها أوفرَ وأشدّ يُسرًا. وقريبًا ستنقص المياه الّتي تغذّي التيّار، بسبب ما تشهده مياهُ البركة من شحٍّ آخذٍ في الازديادِ بمرور الأيّام، وسيُفضي الأمرُ مجتمعًا إلى أن تفقدَ البئر أسبابَ وجودها، وإلى أن تتوقّف النّافورةُ عن الغناءِ، إلى الأبد. لن تكون مياه البوساو نفسَها، إذ يُحتملُ أن تفقدَ عنفوانَها، وأن يتحوّلَ لونُها عن طبيعتِه فيخضرّ، ثمّ تؤولَ إلى العدم. وإذا كان من منتفعٍ من هذا المصير المأسويِّ الّذي يُحدق بالمكان، فإنّها طيورُ السّماءِ الّتي ستجد الفرصة سانحةً، للقضاءِ على الأسماك دون عناء.

ملأ يديْه بالدّقيق، والأرزّ المطبوخ، وببقايا الشّوفان، ووزّعها في صمت، وهو يتابعُ بناظريْه كلّ ذلك الدّفق المنذور للفناء. اجتمعت سمكاتُ الماندي حولَ يديْه، في طقسٍ احتفاليٍّ بهيج، لم يجدْ إزاءَه ما يمكنُ قولُه. إنّها لحظةُ الوداعِ بكلّ ما تكتنزه من عواطفَ ومن أحاسيس متعارضة. وبعد ثلاثة أيّام فحسبُ، ستعيشُ السّمكاتُ ألَمَ الفقد، وعنفَ الغياب، ستنتظرُ عودتَه فإذا يئست، بحثت عن شأنٍ آخر.

صعد الوادي الضّيّق ونظر إلى المزرعة، إلى أشجار جوز الهند وخضرة المانيهوت. كان يرغب في حفظ المنظر الطّبيعيّ، وحفره في قلبه، كي يستعيد صورة ذلك الاخضرار والحنان ذكرى في وقت الشّدّة.

ثمّ جاء الأمر الأصعب... زيفينيتا، لم يدرْ بخلده أن يكون وداعُها بكلّ تلك القسوةِ، وهو يستعدّ له، مثل من يستعدّ لمعركةٍ بلا جيشٍ أو عتادٍ. سارَ إليها حيث يتوقّع أن يجدها في انتظاره.

خلال شهرٍ تقريبًا، كبرت زيفينيتا، حتّى إنّها أصبحت سحلية ممتلئةً، وقريبًا تتزاوج وتصنع عشّها عند شجرة كانجيرانا. بدأت بالفعل في خطوات بناء جذعها، كي تخطّط للمستقبل.

من خلال الأسى الواضح في عينَيْه المستديرتين، خمّنت كلَّ شيء، شعر بتأثّرٍ شديدٍ وامتلأت عيناه بالدّموع. هذه المرّة كان يبكي بهدوء، أوه، أيّها الرّجل الكثير البكاء!

- انظري ...

كان من الصّعب عليه إيجاد الكلمات.

- اسمعي... أنا لم آتِ للتّشاجر معك بسبب ذيل شيتيتينيا، لم تكوني بحاجةٍ إلى الغيرة الشّديدة، لأنّك يا عزيزتي، كنتِ المفضّلةَ عندي دومًا. ورغم علمي بأنّ ذيول السّحليات تنمو وتتشكّل من جديد، لم يكن من الضّروريّ أن تفعلي ذلك معها، لأنّها في نهاية الأمر طفلةٌ صغيرة... ولا شكّ أنّ ذلك آلمها كثيرًا ...

صمت قليلًا ليلتقط أنفاسَه ثمّ أضاف:

- لكنّي لم آتِ من أجلِ هذا.

بعدها اندفع فجأةً يقول:

- غدًا في الصّباح الباكر أرحل من هنا، زيفينيتا.

مسح دمعةً عنيدةً نزلت رغمًا عنه.

- أردتُ أن أشكركِ على كلّ شيءٍ فعلته من أجلي، كلّ شيء. لقد كنتِ ملكةً باستحقاق وأهلاً للاسم الجميل والفريد زيفينيتا «ب». لولا تعاطفك وتفهّمك الكبير، كيف سيكون حال رجلٍ ليس له من الغنى سوى الظلّ ومن الصّحبة سوى الحزن الإجباريّ؟ نعم يا صغيرتي الجميلة، من المؤسف أنّك لا تستطيعين الشّعورَ بكلّ ما يفكّر فيه قلبي. غدًا أذهب، وعندما أكون بعيدًا، سأتذكّر دومًا صداقتَك يا ملكتي.

أصبح أكثر عاطفيّة، ولم يعد يستطيع الكلام بسهولة.

- كوني حذرةً مع الأولاد، ومع الرّجال، نبّهي الطّيور إلى أنّي لن أترك لهم أيَّ شيء، وليغفروا لي.. سيجدون الأوعيةَ مقلوبةً والنّوافذَ مُغلقة. ليس من ذلك بُدٌّ يا زيفينيتا، حتّى لا يتعلّقوا أكثر بالمكان. عليهم أن يبتعدوا بأسرع ما يمكن، لأنّ الأولاد سيأتون بالمقاليع والفخاخ. اعتني بنفسك واستمتعي بحياتك!

مرّر ظهرَيْ يدَيْه على عينَيْه، وحين رأى أنّها لم تبلغ القصد، مسحهما بطرف قميصه.

- يا لني من غبيّ! أليس كذلك زيفينيتا؟ ما أسعدك، فأنتِ لا تحتاجين إلى البُكاء. غير أنّه من تلك الأشياء الّتي يحتاج إليها البشر حتّى لا ينفجروا. لكن انتبهي يا صغيرتي الجميلة، إذا عدتُ إلى هنا يومًا، فأريد أن أرى هذا العالم مليئًا بالكثير من «زيفينيتا» المشاغبات. وداعًا.

***

استيقظ مبكّرًا جدًّا ليترك وصيّة بؤسه. كان الهنود يأتون للحصول على ما تبقّى من طعام، وصندوقَيْن من أعواد الثّقاب، ونصفَ لترٍ من الكيروسين. لقد جمع كلَّ شيءٍ فوق الطّاولة وحرص على وضعه بجوار المرآة حيث اعتاد أن يَحْلِق.

أغلق بوّابةَ الدّخول وغادر دون أن يُحدِث أيَّ ضجيج.

كانت الحياة ناعسةً بعْدُ، لكنّ زيفينيتا «ب» هناك فوق السّقف، تراقب رحيلَه بقلق.

وضع الحقيبة الصّغيرة على الأرض، وباركَ بعينَيْه كلَّ شيءٍ في المزرعة مباركة عطفٍ، ثمّ سأل الرّبّ قائلًا:

- خفّف عن كلّ واحدٍ معاناته مع الموت. من جهتي، أشكرك يا إلهي، أشكرك كثيرًا، شكرًا من أجل الطّيور، شكرًا من أجل الأسماك والحيوانات الصّغيرة الّتي لا تعدّ ولا تُحصى، لقد ساعدتْني كثيرًا.

قلب الأوعية وخرج نحو الطّريق، مختفيًا ببطءٍ بين شجيرات المانيهوت.

لم تعرف زيفينيتا ما تفعل. فنزلت من السّقف إلى الحائط. وهناك بقيتْ تراقب المشهد الّذي سيفقد كلَّ جماله الآن، ستغيب تلك الموسيقى، الّتي كانت تأتي من أعماقٍ مدهشة، سيغيبُ النّايُ، ستغيبُ حياةٌ في صورةٍ رجلٍ. ويعود كلّ شيء كما كان من قبل: عالمًا غير مأهول، يتردّدُ عليه النّاسُ في أوقاتٍ متباعدة، بوجوههم الشّاحبة، ونظراتهم المستاءة، سيجيئون لقضاء حوائجهم، ولن يجلبوا معهم روح الطّيبة، نفسها، والشّاعريّةَ نفسَها.

هزّت ذيلها إلى الجانب في حيرة، واستمرّت في النّزول ببطء على الحائط. مات شيءٌ مّا في روحها، لكنّ شيئًا آخر وُلِدَ، شيئًا يؤلم بطريقةٍ

لم تتوقّعها قطّ. كان الوداع أسوأ شيءٍ رأته حتّى الآن في الزّمن القصير من عالمها.

سارت على الأرض، محاولةً الاستماع إلى رقّة خطواته. لكن لا شيء من ذلك. نظرت إلى لون الغابة الأخضر الدّاكن وهي تنغلق عليه، وكانت تعلم أنّه لن يعود مرّةً أخرى.

صعدت إلى الطّاولة لتفحَص الأشياء الّتي تركها لأصدقائه الهنود. كم كان صديقها فقيرًا! هذا كلُّ ما لديه ليتركَه. لم تكن تحسن البكاء، لكنّ روحها دمعتْ حزنًا. كان حزنُها مثل نهرٍ كبيرٍ يمتلئ في موسم المياه الغزيرة. رأت المرآة تعكس عوارضَ السّقف، فصعدت فوقها وانزلقت على سطحها، ثمّ توقّفت لتنظرَ إلى نفسها.

«ما أسعدك إذ لا تحتاجين إلى البكاء»...

لا، لم تكن سعيدةً. كانت بحاجة إلى البكاء ولم تعرف كيف تفعل ذلك. أرختْ جسمَها وبقيت مستلقية، تتألّم بشدّةٍ فوق برد المرآة. ثمّ نظرت إلى العينين، وعندئذٍ زارها ذلك الألم الشّديد. لقد فهمت أنّ البشر يعيشون طويلًا لأنّ البكاء يجنّبهم ذلك الألم، لكنّها لم تكن كذلك. فهي مجرّد سحلية صغيرة، لا حول لها ولا قوّة، بلا شيء، بعينَيْن صغيرتَيْن مستديرتَيْن، ولا دموع. كان الألم يتزايد وينتشر في كلّ مكانٍ من جسدها، من عمودها الفقريّ إلى أطراف أصابعها. وعندما وصل إلى الحدّ الأقصى، توقّفت عن المقاومة.

عندما جاء الهنود للحصول على الأشياء مباشرةً بعد أن سمعوا هديرَ الطّائرة وهي تقلع، أخذوا المرآة وهم مذهولون من المكان الغريب الّذي اختارتْه السّحلية لتموت.

الجزء الثاني

قِطعٌ من الذاكرة

الفصل الأوّل

زَبَدُ النّجاح

اقتربتْ باولا، وهمسَت في أذنه:

- هل توقّعتَ كلَّ هذا يا حبيبي؟

كان في عينَيْه وهجٌ مسترسلٌ من الفرح والابتهاج.

- إطلاقًا يا بوبينيا.

سارا بين الجموع المحتشدة في قاعة العرض، واتّخذا لهما مجلسًا في إحدى الزّوايا.

أخذ يدَيْها في يده، ونظر إلى الفتاة بحنانٍ لا حدود له.

- هل لي أن أبوحَ لك بأمرٍ أجده في داخلي لا أحسب أنّي قد أخبرتك به من قبل؟

- اممم.

- باولي، أنا أحبّك!... كم أحبّك يا بو!

بكثيرٍ من الدّلال، ردّت عليه، وقد بدا عليها الارتباك:

- إذا ما واصلت غزوك لمشاعري، فلن أتوانى لحظةً عن أن أكون بين ذراعيكَ، غيرَ مباليةٍ بالآخرين، ارأَف بقلبي أيّها المجنون.

- بو...

- ماذا بعد؟

- لم نحظَ خلال يومِنا هذا بغير هذه الدّقيقةِ لنكون معًا.

- وإنّها لن تطولَ يا حبيبي، سيكون علينا استقبال دُفعةٍ جديدةٍ من المشاهير، من أجلِ وُعودٍ أخرى بالاقتناء.

- يا إلهي، سيكون ذلك ثقيلًا على النّفس، وعبئًا على القلب. فأنا لم أعد أقوى على البُعد، ولا طاقةَ لي على احتماله. فليطوِ اليومُ سجلّه، حتّى نكون معًا في شقّتي، زوّدتُها بأشياء جديدةٍ ومثيرة، لا أشكّ في أنّها ستحظى باستحسانك.

- ولِمَ لا يكونُ المسيرُ إلى شقّتي؟

- لنؤجّلْ ذلك إلى يومٍ آخرَ، باولي، باولي، هل تفهمين؟

فضاحكتْه بمحبّة.

- أفهم ذلك.

همّت بالنّهوض، فصدّها بلطف.

- عُذرًا بوبينيا، ولكنّني أجدُ بعض الصّعوبةِ في أن أتوازنَ، ولا أدري إذا ما كان الأمرُ ناجمًا عن نشوةِ ما نحنُ فيهِ من فرح، أم أنّها نشوةُ الشّمبانيا.

- كلاهما يا حبيبي، إنّها ثمالة النّجاح.

- تبدين أكثر جمالًا يا بو، ورغم أنّني لا أميلُ إلى الورديّ مثلما تعلمين، فإنّه منحَ بشرتَك نضارةً لا مثيلَ لها.

ابتسمت.

- إنّها أقدم حيلةٍ للمرأة منذ اختراع الألوان. فاللّون الورديّ يجدّد شبابَها بشكلٍ كبير. أيّها الغبيّ الصّغير، عندما تفقد النّساء شبابهنّ،

يتعيّن عليهنّ استخدام بعض الخدع الملوّنة. أيُّ رسّامٍ يجهل مثل هذا الأمر؟

- أنا جاهلٌ بكلّ شيءٍ يا حبيبتي، ولك من وقتٍ إلى آخر، أن تتفضّلي بالتّوضيح، وبالإجابة أساسًا عن أسئلةٍ من قبيل ... باولي، باولي، هل تحبّينني؟

- دون شكٍّ يا حبيبي، حتّى إنّني من فرط ما أكنّه لك من حبّ، أجدني مضطرّةً إلى أن أتركك في ركنك الجميل. عليك فحسْب أن تنظر إلى القادم هناك.

عبرت القاعةَ، وابتسمت ابتسامةً مُشرقة. كانت جيما تقترب بصخب، ثمّ قبّلت خدَّيْ باولا.

- اعذري تأخّري يا عزيزتي، إنّها مدرسة الباليه عليها اللّعنة، لم أعد أجد بسببها ثانيةً واحدةً للرّاحة. أين العبقريّ؟

قام، وتلقّى قبلةَ الصّديقة على خدّه.

- كنت أبحث عن العبقريّ.

- فقط إذا كان العبقريّ...

وبّخته باولا.

- ليس اليوم حبيبي، إنّه حفلٌ خاصّ ...

أطلقت جيما إحدى قهقهات الابتهاج، وجلست بجانبه.

- اعتني به، سأذهب لإلقاء نظرةٍ هناك.

حدّقتْ جيما باستمتاعٍ إلى عينَي الشّابّ اللّتين كانتا تُخفِيان ابتسامةً ثابتة، وراقها ما بدا عليهما من أثرِ جميلٍ للشّراب.

- جيموكا، كم جميلٍ أنّك أتيتِ!
- مبيعاتٌ كثيرة؟
- لا أدري، لم أستطع الانتباهَ إلى أيّ شيء. تقول باولا إنّ هناك حجوزاتٍ كثيرة، وكلّ ما أعرفه أنّ عضلات وجهي تؤلمني من كثرة الابتسام.
- سأكون سعيدةً باستدعائكما غدًا على العشاء في منزلي.
- ليس لديَّ اعتراض. وعليك إذَن أن تضمني مُوافَقَةَ باولا.
- تواصلتُ معها في الغرض صبيحة هذا اليوم، واتّفقنا... لكن، هل لك أن تفسّر لي سببَ ضحكك الآن؟
- لا أدري على وجه التّحديد. ولكن، لعلّها الغبطة ممزوجةً ببعض الحيرة، فكما ترين، ثمّة حشدٌ كبيرٌ من النّاس، وصورٌ تُلتقط هنا، وهناك، ومبيعاتٌ لم تخطرْ لي على بال. الأمر أشبه ما يكون بالحلم، ولا أملك إلّا أن أعيشَه، ويلحّ عليّ في قرارتي تساؤلٌ، يجعلني أضحك... هل تستحقُّ رسوماتي ببساطتها تلك، كلّ هذا الخطب؟
- مثلُ هذا التّساؤل، وما ينطوي عليه من شكٍّ، وريبةٍ، متأصّلٌ في كلّ ذاتٍ مبدعةٍ منذ القدم. وهو بديهيٌّ، بل إنّه واحدٌ من أكبر الأدلّة على عبقريّتها وصدقها، أَوَتَحسبُ مثلًا أنّ كلًّا من رينوار وغوغان وفان غوغ، كانوا أكثر منك ثقةً بشأن ما أنجزوا من أعمال؟ إنّك قسيمهم في حيرتهم، ولا تكادُ تختلفُ عنهم في شيء.
- ممتنٌّ لمجاملتك اللّطيفة.
- هل جاءت السيّدة؟

- تخيّلي! عدوّتي الحميمة أرسلتْ زهورًا وبطاقةً في غاية اللّطف. وأن يأتي ذلك منها فهو يعني الكثير!

استغرقهما الحديثُ في أشياء ذاتِ صلةٍ بالمعرض. وربّما توسّعا في أمورٍ تتجاوزُ المناسبة. وكانت باولا في الأثناء تذرع أرجاءَ القاعة، وتجول في فضائها، تحيّي النّاس، وتشرحُ ما في اللّوحات من أبعادٍ ومزايا، مُثنيةً على بعضها ثناءً خاصًّا، مُبينةً عن أوجه فرادتها، وكان يتابعها من رُكنه الأثيرِ بعينيْن شبه مغلقتيْن، تتمعّنان مشيتها، وتنتشيان بإيقاعها، دون أن تفوّتا أيَّ تفاصيل من حركاتها.

- جيموكا، ألا تعتقدين أنّ باولا جميلة؟

- كانت دومًا جميلةً ومحبوبة.

- إنّها لتبدو كذلك حتّى في الورديّ. وبالمناسبة فأنت كذلك تتمتّعين بجمالك الخاصّ، ولي من الجمالِ نصيب، بل إنّ لكلّ امرئٍ، في هذا اليوم، سحره الخاصّ، حتّى تلك الهزيلة باللّون الأبيض، إنّها رقيقةٌ وشفّافةٌ مثل غلاف الهواء.

- اصمتْ أيّها الأحمق! تلك هي دينيز لونشو، وهي امرأةٌ فاحشة الثّراء، ولا شكّ أنّها اشترت على الأقلّ اثنيْن من أعمالك.

- هل تعرفين ماذا سأفعل الآن يا جيموكا؟

- لا يمكن أن يكون شيئًا جيّدًا.

- كنت سأدفع الجميع بعيدًا وأذهب لأرقص معك رقصةَ فالس شتراوس. ننزل درج المعرض، ونرقص مثل زوجٍ من المجانين أسفلَ شارع القدّيس لويس. أوف، يا لَهُ من حَرّ! هل يمكنني فكّ الطّوق؟

ساعدته جيما في ذلك.

- من الغباء أن تخترع البشريّة شيئًا من هذا القبيل! أكّدت لي باولا أنّني سأكون أكثر تحرّرًا، لأتجوّل كما أريد، متى صرتُ فنّانًا ذائع الصّيت. ألا تشربينَ شيئًا؟ يوجد كوكتيل شمبانيا اخترعتْه لنا إليزابيث تايلور، سيأخذنا بعيدًا، لنحلمَ ونحلّق، إنّه مزيجٌ من الشّمبانيا وعصير البرتقال، وأشياء أخرى لا أعرفها. عندما يمرّ النّادل نأخذ واحدًا.

- أنا من سآخذ واحدًا، أمّا أنت فلا تكاد تفتح عينَيْك من الشّرب!

- لا أقوى على فتحهما يا جيموكا. ولكنّني عاجزٌ رغم ذلك على أن أتبيّن الكابوسَ الّذي يُطاردني: اليوم شمبانيا، وفي اليوم السّابقِ اكتفيتُ بقطعةِ خبز، لا غير، لا غير..

- انتهى ذلك، انسَ الأمر.

- نعم، انتهى والحمد لله.

* * *

أفرطَ في الشّرب، وفقَد كلَّ قدرةٍ على التّوازن، فقرّر المغادرةَ إلى البيت، تاركًا باولا مع أصدقائها، تعيشُ مُتعتَها. أخذ منه فتحُ الباب جُهدًا عظيمًا، واضطرّه الأمرُ إلى أن يضعَ الورودَ الّتي أرسلتْها السّيّدةُ على الأرضِ ليعيدَ الكرّة، بعد أن فشلت محاولته الأولى. وحالَ دخوله أشعلَ ضوءَ الرّدهة، وفرك عينيْه بقوّة، كما لو أنّه بذلك يستنهضُ همّمَه، ليتجاوزَ ما ألمّ به.

«وماذا عن الورود؟»، فكّر، ومضى باحثًا في أماكنَ مختلفةٍ عن إناء، يحفظها من الذّبول، ويمدّ في أنفاسها، له من الاتّساعِ ما يسمحُ بوضع

قدرٍ ملائمٍ من الماء. تعذّر عليه الأمر في الصّالة، وفي المطبخ، حيثُ تبيّن له أنّ باولا قد سبقته إلى استعمال ما كان متاحًا، وتعلّقت آماله في النّهايةِ بجرّةٍ في مرسمه، وُضعت فيها الفرش، ولكن هيهات، فالجرّة شأنها شأن غيرها لم تنجُ. كان يشعر بالنّعاس، وبثِقلٍ في جسده منَ الدّوار، والورودُ ما تزال بين ذراعَيْه، لا يعرف ما يصنع بها. باولا مجنونة، مجنونةٌ وسخيّةٌ في كلّ شيء، ولا شكّ أنّ شقّتَها مزيّنةٌ بأزهارٍ أكثر. فجأةً تذكّر الحمّام، فاتّجه نحوَه، وتفحّص وضعَه. كان حوضُ الاستحمام أكبر بكثيرٍ من أن توضع فيه الزّهور. وقريبًا سيحتاج إلى الحوض، لأنّه ما إن يتقيّأ في المرحاض، حتّى يكون عليه أن يغتسل. ولمّا يئس من الحلولِ كلّها، لم يجدْ بُدًّا من أن يملأ حوض الشطّافة، ثمّ وضع الأزهار فيه، واحدةً تلو أخرى. لقد بدا له منظرُها جميلًا، وكأنّما صُنِعَ هذا الوعاءُ لتوضَع فيه أجمل أزهار العالم. وهكذا ابتسم بارتياحٍ وهو يتخيّل ضحكةَ باولا إذا اكتشفت طريقتَه الجديدةَ والمبتكرة. دخل غرفةَ النّوم وألقى سُترتَه على الأرض، ولم يجدْ ما يكفي من القوّةِ لخلعِ ملابسه فعدلَ عن الأمر، وحاولَ جاهدًا بعد جلوسِه أن ينزعَ حذاءَه، ولكنّه فشلَ في مسعاه، ولم يترك له الدّوارُ أملًا في السّيطرةِ على الموقف.

غادرَ غرفةَ النّومِ إلى الحمّامِ حتّى يُنفّذَ أفكارَه الأولى. وشعر بعدها بارتياحٍ أكبر، ثمّ طفقَ يبحث عن حبّة أسبرين. وجدَ واحدة، فابتلعها بعد أن أذابها بما يكفي في لسانه. ثمّ عاد إلى الفراش، وحاول خلعَ حذائه، ثانيةً، ليكون الفشلُ من نصيبه مرّةً أخرى. فكّر أن يرجئ المهمّةَ إلى وقتٍ أنسبَ، يكونُ فيه الدّوارُ أقلّ ضراوة.

تهالك بكاملِ جسده على الفراش، وكان عرقُه يتصبّب باردًا. جعلَ

يديْه على مستوى الصّدغيْن، وارتفع أنينُه، حتّى صار مسموعًا. كان السّريرُ مثلَ بندول ساعةٍ حائطيّة. في رأسه، استنفر كلّ قواه للسّيطرةِ على الأمر، ولم يُنقذه غير استسلامه للنّوم. لم تطُل غفوتُه ولكنّه استفاقَ بعدها وقد تخفّف من وطأة الدّوار. عندما فتح عينَيْه، وجدَ باولا قريبةً منه، وقد رتّبتْ الأمورَ كلّها حالَ وصولِها. ثمّ أطفأتْ ضوءَ غُرفةِ النّوم، ولم تتركْ غير ذاك المتسلّل من الرّدهة.

- بو!

- ماذا حدث يا عزيزي؟

- أنا أموت، بوبينيا.

- اصبر، سينتهي كلُّ شيء.

ذهبت إلى الصّالة، فأحضرتْ قرص ألكا سيلتزر، وتركته يذوب في الماء.

- خُذ هذا الآن، ذكرى صديقتِنا جيما التي خمّنت من بعيدٍ كيف أجدك.

شرب ببطءٍ خوفًا من أثرٍ سيّئٍ غير متوقّع. أمّا باولا فاستلقتْ على السّرير.

- الآن، ضَعْ رأسك على صدري، وثِقْ أنّك ستكون أفضل بعد وقتٍ وجيز.

أطاع وهو يئنّ مثلَ طفلٍ صغير. وأخذت باولا تداعبُ شعرَه وجبينَه برفق، لإبعاد الألم الّذي كان يشعر به.

- بو!

- ما الأمر؟

- أكرهك!

ابتسمتْ بسعادة.

- تكرهني كثيرًا أم قليلًا؟

- انظري ماذا صنعتِ منّي، رجلًا ميّتًا.

- ابقَ هادئًا ونَمْ قليلًا، أو تطول معاناتك.

بقي ساكنًا بضعَ ثوان، لكنّه لم يستطع المقاومة. بلغ من السّكرِ ما تجاوزَ قُدرتَه على التّحمّل، وازدادَ توتّرُه بتقدّم اللّيل.

- بو!

- ماذا؟

- حسنًا، هل تعرفين سببَ خوفي؟ لقد خشيتُ ألّا يباعَ شيء، فلا نستطيع دفعَ مصاريف المعرض، وكوكتيل الشّمبانيا ...

- غبيّ صغير! لقد بعت كلَّ شيءٍ تقريبًا، والآن دعنا نستعدّ لمعرضٍ آخر في ريو.

- بو!

- والآن، ماذا هناك؟

- لم تتركي لي أيَّ شيءٍ أضع فيه الزّهورَ الّتي أرسلتها السيّدة والدتك.

أطلقتْ ضحكةَ ابتهاج.

- لقد وضعتَها يا بو في المكان الأنسب، ووجدتُها أكثرَ من جميلةٍ حيث قرّرت وضعَها، تخيّل لو أنّ السيّدة ترى ذلك!

- أعيتْني الحيلةُ ولم أجدْ مكانًا غيرَه. لم يكن لديَّ خيارٌ أفضل، حتّى إنّني انزعجتُ، وكدت أيأسُ. في النّهايةِ تصرّفتُ. وما دام الأمرُ

قد راقك، فهذا يُشعرني بالرّضا... أنا فاشل، بوبينيا، فاشلٌ بكلّ المقاييس، لطالما انتظرتُ ليلتَنا هذه، وها إنّني في أرذل أحوالي، أكابدُ الأمرّيْن. كم السّاعة يا بو؟

- الواحدة صباحًا.

- لديّ رغبةٌ شديدةٌ في الخلود إلى النّوم، بوبينيا.

- نمْ يا حبيبي. ذلك جيّدٌ لك.

- مازلتُ أحتاجُ إلى قولِ شيءٍ آخر. هل هذا ممكن؟

- ألا ترى أنّه ممكن؟

- لا أملك إلّا أن أحبّك أكثرَ بوبينيا، وحدك تغمرين قلبي بالدّفء، ووحدك تحوّلينه إلى فيضٍ لا ينضبُ من الجمال، ومن اللّطف، والمودّة الصّادقة... للحنان معك امتداده في العمق، إنّه أبديٌّ بلا نهاية، وحدَه يمنحني القدرةَ على أن أستمرَّ، وأن أقاوم شبح الموت... لا تتركيني بو، لا تتركيني... هل تعدينني؟

أسندتْ باولا رأسَها على شعره، ووجدتْ في قلبِها تلكَ البهجةَ الّتي تجعل صدرَها يرتجف من الحرارة والحياة. كانت تلك هي صورة السّعادة الناطقة.

- نعم أعدك. والآن، عليك أن تنام.

بدأ يتنفّس ببطء، ثمّ استسلم للنّوم.

بقيت باولا في هذا الوضع دون أن تتحرّك، غير مباليةٍ بالوقت، ولا بما يمكن أن ينجرَّ عن الأمرِ من إحساسٍ بالملل، والانزعاج. كانت تشعر بنوعٍ من الرّضا، وبضربٍ من السّعادةِ لم تألفه. حتّى إنّها لم تكنْ تُريدُ من الحياةِ أكثر ممّا هي عليه، لا شيءَ أكثرَ، لا شيءَ.

نامتْ هي أيضًا ورأسُها يميل على كتفه، أمّا يدُها فظلّتْ مدفونةً في شعره.

سحبَ نفَسًا عميقًا وفتحَ عينَيه، ثمّ حرّرَ نفسَه برفقٍ من حضن باولا، وأضاء المصباح المنعكس. فاستيقظتْ في شيءٍ من الخوف.

- أنا بخير، بوبينيا.

ثمّ قبّل وجهَها، وشعرَها وجبينها.

- عدتُ قويًّا من جديد، هل أنتِ من خلعَ حذائي؟

- ومن يكون إذَن؟ ملاكك الحارس؟

- هل تعرفين ماذا سأفعل، بوبينيا؟

- لا أعرف ما يمكن أن يكون ذلك، ونحن في السّاعة الرّابعة والرّبع صباحًا.

- أنا ذاهبٌ لأخذ حمّام لطيف، وبعد ذلك أجهّز لك العشاء الّذي تركته في الثّلاّجة. هل ترغبين؟

- أظنّ أنّي أحتاج إلى النّوم أكثرَ من حاجتي إلى الأكل، كان يومًا مثيرًا.

- سيكون لنا وقتٌ كثيرٌ للنّوم بعد أن نموت، لكنْ مادمنا على قيد الحياة، فلنَنْعَمْ بالعيش!

أخذَ باولا من ذراعها.

- تعالَي معي، بوبينيا، ستساعدينني.

نهضت وهي لا تزال ناعسةً، وتبعت الشّابّ.

جلست في المطبخ قربَ الطّاولة الصّغيرة وتثاءبت.

- أنا ضيفتك اليوم، إذا كنتَ تريد هذا. فعليك إذَن أن تُعدّ كلّ شيء بنفسك، هيّا، يا حبيبي!

- انتظري هناك، خُذي سيجارة، ولكِ أن تضعي الرّمادَ هنا في هذا الصّحن...

ثمّ دخل الحمّام، وابتسم للورود وفتح الدشّ. ثمّ صرخَ من هناك:

- ألا تريدين أخذ حمّام؟

لم تُجِبْ بشيء، وبقيتْ هناك تتأمّل الأجواءَ في كسل، انتشرَ في كاملِ جوارحها، وخيّم على روحها كالضّباب. تناهى إلى سمعها صوتُ الماء، وهمهة الشّابّ، وبدا لها أنّهما قادمان من مكانٍ بعيد، ومن عوالمَ أخرى قصيّةٍ ومُدهشة، لا تراها العينُ وتُدرك بالقلب. كانت سعيدةً، سعيدةً جدًّا حتّى إنّها مستعدّةٌ لمنحِ حياتها مقابلَ أن تجدَ نفسَها ممدّدةً على سريرها، مثل تلميذةٍ نجيبةٍ حصلت على درجاتٍ جيّدة، أو فتًى كشّافةٍ أنجز عملًا يثير الإعجاب. وسيكون السّرير هو الجائزة الفوريّة التي تريدها. كانت تنتظر حتّى ينتهي من الاستحمام، لترسمَ قبلةً على جبينه وتأخذَ سيّارتها كي تعود إلى المنزل.

وصلتها رائحةُ الصّابون وهي تغزو المطبخ، الصّابون الذي كانت تشترط أن يحمل علامةً تجاريّة.

توقّف صوتُ الماء في الحمّام، وخلال ثوانٍ ظهر الشابّ برداءٍ أصفر من الحرير على جسده. فلفّ ذراعَيه حولَ رقبة باولا ليهمسَ بصوتٍ حنون:

- هل استغرقت وقتًا طويلًا يا حياتي؟

تركتْه يداعبها دون أن تردّ، أو أن تُبدي تفاعلًا.

- ماذا هناك يا بوبينيا؟

- لا شيء.

جلس أمام الفتاة متفاجئًا بحالة اللّامبالاة التي أظهرتها.

- هل أنت غاضبة، عزيزتي؟

هزّت رأسَها بالنّفي، لكنّ عينَيْها كانتا على وشك الدّمع.

- أوه، باولا! ماذا هناك؟

جَثَا بجانبها ورفع ذقنَها الحزين.

- أدرك جيّدًا يا حبيبتي حجمَ ما تبذلينه من أجلي، الأمرُ مرهقٌ حقًّا. ولعلّي لا أستحقّ كل ذلكَ، ولكن ثقي أنّ قلبي ممتنٌّ شديدَ الامتنانِ لوجودك في حياتي، سندًا ونبعَ محبّةٍ لا ينضب.

وأخيرًا تمكّنت من الكلام:

- لا شيء من ذلك، حبيبي، لا شكّ أنّ الأمر عائدٌ إلى ما كان على عاتقي خلال الأيّام الماضية. لم يكن الخطبُ هيّنًا يا عزيزي... ضغطُ الدّعوات، وطلباتُ الصّحف، والتّلفزيون والرّاديو، فضلًا عمّا يتربّص بالنّفس من هواجسَ كثيرة، ومن خوفٍ ومن احتمالات...

- سارت الأمورُ كلّها على خيرِ ما يُرام، وأثبتّ اقتدراك وتميّزك يا عزيزتي.

- حسنًا، لا أعرف كيف أشرح ذلك، لعلّها السّعادة جعلتني أبكي هكذا.

كانت الدّموع تبلّل وجهَها، فنهض الشّابّ وجلسَ على كرسيٍّ قربها، ثمّ سحبَها إليه بعاطفةٍ فيّاضة، وأجلسَها في حضنه.

- من هي طفلتي الصّغيرة الآن؟

مرّر على شعرِها يدَيْه اللتَيْن لا تزالان دافئتَيْن من الحمّام، ورفعه إلى أعلى، ثمّ أخرج منديلًا من جيب ردائه ومسحَ دموعها.

هدهدها كما لو أنّها طفلةٌ صغيرةٌ فعلًا.

- أنت مُتعبةٌ، ألا تريدين تجربة بعضِ ما يوجد في الثّلاجة؟ شيء من الوليمة الّتي أعدتها لكليْنا؟

- لا تغضبْ يا حبيبي، لكنّي أريد العودةَ إلى المنزل.

- أنت في منزلك يا بو، قلبي هو بيتك، وهذا كلّ ما يمكنني تقديمُه لك الآن. لن أسمح لك بالذّهاب في هذا المزاج، ضَعِي ذراعَيْك حول رقبتي، هكذا، أوبا!

ونهض وهو يحملها بين ذراعَيْه باتّجاه غرفة النّوم، ثمّ وضعها برفقٍ على السّرير.

خلعَ رداءه الحريريّ واستلقى إلى جانبها. ثمّ استدار ووجهُه على عضلة ذراعه، وحدّق في وجه باولا التي كانت عيناها مغمضتَيْن.

- كنت أفكّر، يا باولا، أنّك جعلتني في عامين شخصًا آخر، أصبحت إنسانًا جيّدًا.

- لقد كنت دائمًا جيّدًا يا حبيبي، لقد كُنت كذلك في قرارة نفسِك، ولكنّ النّاس من حولك لم يقدّروا الأمرَ، بل إنّهم لم ينتبهوا إليه.

ابتسم.

- هل لاحظتِ يا بوبينيا أنّنا اعتدنا إغلاق أعيننا في مناسباتٍ معيّنة؟

لم تُجِب، واكتفتْ بتمرير أصابعها على ذراعه.

توقّفا قليلًا، ولم يشعرا بالملائكة الّتي كانت تطير في شبه الظّلام.

وضع الحريرَ على أطراف أصابعه ليداعب باولا، فملأ بالمخمل كلَّ حركة التملّك تلك.

بعدها صمتَا مرّةً أخرى، وقبّلت باولا خدَّه.

– شكرًا لك يا عزيزي، كان ذلك كلُّ ما أردتُ، وأمكنني فعلَه اليوم. هل فهمت؟

– اممم، والآن أنتِ بحاجة إلى النّوم قليلًا.

– حاولت، لكنّي لا أشعر بالنّعاس.

– وأنا كذلك، هل تريدين الاستمرار في الحديثِ إلى أن يأخذنا النّعاس؟

– ليكنْ ما أردتَ يا حبيبي، على ألّا توقظَني صباحًا أيًّا كان السّبب. فليس لنا في ما أعلم ما نفعلُه.

– ليس في نيّتي أن أفعلَ ذلك قطّ، ولكن ربّما احتجتُ إلى الذّهاب ...

– الذّهاب من أجل ماذا، حبيبي؟

– لاقتناء الصّحف، أليس لديك فضول؟

– أو تحسَبُ أنّي سأسهو عن أمرٍ من هذا القبيل، لا تكترث يا حبيبي، وليمتدَّ نومُنا هانئيْن، كلّفتُ دامبرواز باقتنائها كلّها.

– لا يفوتك أيُّ شيء.

كانت تداعبه بشيءٍ من الارتباك، كأنّها تكتشفُه لأوّل مرّة.

– كنت قلقةً جدًّا بشأن المعرض، لا أعني نجاحَه، بل أقصدك أنتَ.

– هل كان وضعي بهذا السّوء؟

- على العكس من ذلك، وهو ما أزعجني. لكنّ ما أقلقني هو ما رأيتُه في عيون بعض السيّدات من نظرات اشتهاءٍ حقيقيّة، ومن ابتساماتٍ لم تكن بريئةً بالمرّة، تفاصيلُ صغيرةٌ من ذاك القبيل، ليس بوسعك أنْ تتوقّف عندها ولا أن تنتبه إليْها، تميّزها المرأةُ، وتشعر بها من بعيد... لا أعرف.

- لم ألاحظ ذلك إطلاقًا. بوبينيا لا تقولي لي إنّك شعرتِ بالغيرة؟

- امم ألم تتساءلْ أيّها الغبيّ الصّغير، عن حرصي الدّائم على أن أخفيك عن الجميع باستمرار؟ إطلاع الأخرياتِ على جوهرتي الثّمينةُ مخاطرةٌ بكلّ المقاييس، ويحقّ لي أن أتهيّب من عواقبها، فيك سحرٌ جامح، يا عزيزي وخجلٌ عفويٌّ من شأنه أن يهزّ كيانَ أيّ واحدة ...

- لا أكادُ أرى غيرَك، باولي، باولي، ولا يكدْن يعنينني في شيء، لك أن تطمئنّي يا حبيبتي، ولا ضمانةَ لي إلّا ما أكنّه لك من حبٍّ.

- نعم، لكنّك سرعان ما تنسى أشياء كثيرةً.

- أوه، بوبينيا! لا تكوني قاسيةً، هي هفواتٌ لم تكن مقصودةً، وزلّاتٌ لا قيمةَ لها، فاغفريها لي، كانت الأجواءُ مغريةً. ولكنّها في كلّ الأحوالِ لم تأخذني عنكِ.

- ماذا لو أنّي أنا مَن تعرّضَ لتلك الإغراءات الصّغيرة؟

- سيكون الأمر مختلفًا، حينها سأشتري أكبرَ مدفعٍ في العالم وأطلق قذيفةً على مؤخّرة كلِّ نذلٍ ستسوّل له نفسُه الاقترابَ منك.

ابتسمت باولا.

- أنتم الرّجال متشابهون دومًا.

تثاءب طويلًا.

-هل النّعاس قادم؟

-نعم، نعم، لو أنّك تحكين لي أيَّ قصّة، فسأنام بالتّأكيد دون أن أعرف النّهاية.

صمتَ بُرهةً، ثمّ أضاف:

-هل لي أن أتحدّثَ حتّى حلولِ النّوم؟

-لك ذلك... وأودُّ لو أنّك تُحدّثني عن أكثر ما أثار إعجابَك، وأنتَ ترى بأمّ عينيْك ما وجدتْه أعمالك من حفاوةٍ، ومن إكبار.

-ستجدينه غريبًا، لكنْ في لحظةِ تأثّر بالغ، وسطَ حركةٍ كثيفة، وبين الصّخب والضّجيج، تمكّنتُ وأنا جالسٌ في زاوية... هل تعرفين في أيِّ أمرٍ كنت أفكّر تلكَ اللحظة؟

-لا.

-تذكّرتُ رحلةً أدّيتُها إلى غوياس. عندما وصلت مع قافلةٍ إلى عاصمتها القديمة... جاءت شاحناتٌ مغطّاةٌ بالغبار. أتذكّر ذلك جيّدًا. كان موسمَ جفافٍ والطّرقُ لم تُعَبَّدْ بعدُ. ومن الأرض، يخرج دخانٌ ورديٌّ خانقٌ يرافقه برقٌ ورعدٌ يسودان الجوّ، بسبب اقتراب هطول الأمطار الغزيرة. كان الوصولُ إلى غوياس القديمة ساعة المغيب، وكانت المدينةُ مُحاطةً بجسورٍ راسخةٍ في الزّمن، تحملُ ذاكرةَ المكان، والنّهرُ الأحمر يسترجع عاداته وهو يتلوّى بين الصخور، لينتهي نائمًا بين الجبال المحيطة.

نزلَ الجماعةُ في فندقٍ قديمٍ ومتّسخٍ بشكلٍ فظيع. وبعد الاستحمام وتناول وجبةٍ سيّئةٍ جدًّا، قال أحدهم:

- ماذا لو تنزّهنا في المنطقة بحثًا عن مكانٍ للّهو؟
- ألمثلِ تلك الأمكنة من وجودٍ في هذا المكان؟ ردّ عليه آخر.
- لا شكّ في ذلك، وأحسبُ أنّها متوفّرةٌ على أطراف المدينة.

لم يولِ الجمعُ الأمرَ أهمّيّةً، وواصلوا في صبيحة اليوم الموالي رحلتَهم الشّاقّةَ، وكانت للطّريق المؤدّية إلى ضفاف نهر أراغوايا سُمعةٌ سيّئة.

بيد أنّ مُراسلًا من أصولٍ يابانيّةٍ ألحّ على الأمر، إذ توجّه بالقولِ إلى بعضهم:

- وأنتم يا أهالي السيرتاو، ألا تريدون أداءَ جولةٍ معي؟ أعرفُ أنّكم خُبراءُ بالمكانِ، عارفون بتفاصيله.

ساروا على طول الشّوارع الحجريّة الواسعة، تلك الّتي شهدت عبرَ القرون مرور الغزاةِ يحملون راياتهم. كان الضّوء المنبعثُ من مصابيح الشّوارع شبهَ معدوم، لكنْ بدا من الرّائع السّيرُ مع رؤية النّهر المتعرّج بين الصّخور.

أقفلَ الجماعةُ بحثًا عن السّوق، وقد سكَبَ اللّيلُ المظلم نجومَه الكثيرة. إنّه عالمٌ تسوده العزلة، عالم البشر الغريب!

- لا شكّ أنّه هناك، كان في أحد تلك المداخل ملهًى.

قال أحدهم.

- لا شكّ في الأمر، فوقوف رجالٍ بهذا العددِ جانبَ البابِ يُرجّح ذلك، وبقوّة.

عقّب آخرُ.

- يمكننا أن نسأل، لن يكلّفنا الأمر شيئًا.

قال أحدهم، بنبرةٍ لا تخلو من بعضِ الحماسة.

اقتربوا وسألوا. كان هناك نصفُ دزينةٍ من الرّجال الملتحين، يرتدون قمصانًا عليها أشكال مربّعات شطرنج، لم تكفَّ أعينُهم عن مراقبةِ الغرباء وهم يقتربون.

لم يجيبوا عن السّؤال، واكتفوا بالإشارة إلى الباب، حيث يُظهِر الضّوءُ الخافتُ ممرًّا طويلًا.

ساروا ببطءٍ وحذر، وتوجّهوا إلى قاعةٍ كبيرةٍ فيها أضواءٌ كثيرةٌ رغم أنّها خافتة. وعلى زوايا الجدران اتّكأ رجالٌ ملتحون بوجوهٍ متشابهة. وكانت بعض الطّاولات مغطّاةً بمفارش مائدةٍ فارغة، رُسِمَت عليها مربّعاتٌ زرقاء وحمراء.

في إحدى الزّوايا تجمّع عددٌ من النّساء. وكنّ يرتدين في العادة شعرًا أشقر مصبوغًا بشكلٍ رديءٍ وعليهنّ ملابسُ داكنةُ اللّون، مع تجويف الكمَّيْن لإظهار الإبطيْن. وفي الاتّجاه المقابلِ اتّخذت الأوركسترا موقعها من المكان. وكان يُمكن للرّائي أن يُلاحظَ بساطتَها: غيثار، دُفّ، أكورديون وساكسيفون.

وما إن وطئت أقدامُ الجماعةِ تلك القاعة حتّى بدأت الموسيقى، وكأنّها كانت موصولةً بخيط كهربائيّ. انطلقوا في عزف بوليرو... نوسوستروس.

مع إيقاع البوليرو، أمسكت إحدى العاهرات يدَ صاحبتها وتوجّهتا نحو الزوّار، مخمِّنتَيْن أنّهم سيّاح وزبائنُ. وبابتسامةٍ غبيّةٍ تُظهِر أسنانًا ذهبيّة، سألت إحداهما، مُتصنّعةً في حديثها اللّطفَ والدّلال:

- أللسّادةِ رغبةٌ في الرّقص؟

كانوا متردّدين بشأن الإجابة. لكنّ أحدَهم اتّخذَ القرارَ دون انتظار موافقةٍ منهم:

- لا أظنّ ذلك يا فتاة، فنحن مُتعبون، وقد وصلنا السّاعةَ من رحلتنا وأتينا لإلقاء نظرةٍ خاطفةٍ فحسب. سيكون بوسعنا بعد أن ننالَ ما نحتاج إليه من الرّاحة، أن نحضر في الغدِ بمزاجٍ أفضل.

تخلّت فتاةُ الهوى عن ابتسامتها، وعلت وجهَها ملامحُ انزعاج:

- غدًا لن نستطيع ذلك، لأنّنا استأجرنَا الأوركسترا لهذه اللّيلة فحسب.

فاعتذروا في حرج:

- سيّدتي، لا فرصةَ اليوم. تصبحون على خير.

كانوا يغادرون القاعة بالفعل عندما قال لهم رجلٌ مُلتحٍ:

- هؤلاء النّسوة تعوزهنّ السّبلُ الكفيلةُ بإغراءِ رجالٍ مثلكم.

غادروا. وقبل أن يبلغوا نهايةَ الممرّ، توقّفت الأوركسترا فجأةً كأنّما قُطعَ عنها خيط الكهرباء...

- هذا ما خطر لي خلال أكثر اللّحظات إثارةً للإعجاب في معرضي الأوّل يا بو، إنّه عالمٌ شاسعٌ ومُختلف، ملوّنٌ وحزين، قبيحٌ ولا يمكن تفسيرُه... لا أدري ماذا... هل نمتِ؟

- ليس بعد، يا للمسكينات!

- أنا ذاهبٌ لإطفاء الأضواء. هل تريدين ذلك؟

قرّبت منه خدَّها ليطبعَ عليه قبلةَ «ليلةً سعيدةً» أو «أحلامًا سعيدةً»، لأنّ ضوء الصّباح سيُلقِي بأشعّته قريبًا فوق طُرق الحياة.

الفصل الثّاني

سيلفيا

لّما كانت السّعادة شيئًا سخيفًا جدًّا، فقد عرفت باولا كيف تعيش داخل مربّع تقويم: إنّها حقيقة، حقيقةٌ محزنة، حقيقةٌ لا تُقال، السّعادة هي أن تقفَ على ما من شأنه أن يُفسدَ عليكَ سعادتَك، وأن تسعى جاهدًا لتجنّبه.

ومع ذلك، كانت سعادتها البسيطة تحمل شعار «لنكن سعداء!» ثمّ تأتي بعدها عناصر السّعادة الأخرى:

- تجنّب رتابةَ الوقت بأيّ طريقة.
- وإذا تعذّر عليكَ أن تفعلَ، فلتُراوغْ تلك الرّتابة، بما أمكنك من سُبُل.
- أخيرًا، اسع إلى استغلال الوقت في أجمل الأشياء.

وفوق ذلك، كان الأمر مستحيلًا. أمّا باقي ما انفلتَ من هذه الأقوال فهي تنظر إليه بحبٍّ أكبر. وبطريقة التفكير هذه، يكون النجم الذي حلُمتْ به منذ ميلاده قد ظهر في حياتها لحظةَ تاقتْ إليه.

لذا، ولّما كان الحبُّ هو الفهم قبل كلّ شيء، فقد أسّست قواعدَها لتنتصر ضدّ «اللّاسعادة». وعندما تعترف بأنّ رتابة الزمن بدأتْ تتحكّم في حياتها، تضعُ رأسَ حبيبها في حجرها وتعلّق بسهولة أنّها تعرف أيضًا كيف تستقبل الأشياء.

- نحتاج إلى إجازةٍ أخرى عزيزي.

وإلّا:

- أشعر بأنّك متلهفٌ إلى زيارة هنودك.

ابتسم ابتسامةً كشفت عن رغبته العميقة والكامنة:

- ولماذا لا تريدين الذّهاب معي إلى هناك يا بوبينيا؟

- للسّبب نفسِه الّذي جعلك لا ترغب في الذّهاب معي إلى أوروبّا.

ضحكًا في آنٍ واحدٍ.

- ثمّ إنّ غابتي الحقيقيّة، كما تعلم يا عزيزي، هي باريس بعطورها ومسارحها وعروض الأزياء فيها.

- وأنت تعلمين أنّ باريس ليست غابتي، لا هنودَ فيها، ولا بعوض، ولا شمس، ولا حرّيّةَ ولا أنهارَ كبيرةً مليئةً بالغابات والقوارب.

- إذَنْ، نحن متعادلان.

- نعم نحن كذلك.

- وأنت تحبّني؟

- أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

والحقّ أنّها كانت تجد بين حينٍ وآخر طريقةً لأخذ إجازة، بمعدّل خمس مرّاتٍ في السّنة، لتُجدّدَ العهدَ مع شهر العسل الّذي بدأت تتهدّده رتابةُ الزّمن.

تخيّلت أشياء رائعةً تُكسِب جسدَ الشابّ لونًا برونزيًّا، وهو ما يمنح إحساسًا بالحرّيّة والمتعة. واكتشفت مزرعةً بعيدة، على ملك أحد أقاربها، فاستأجرت قاربًا بجميع أفراد طاقمه، وأمضيَا أيّامًا في أعالي البحار، بين

الشّمس والسّحب والماء. وكانت تلجأ أحيانًا إلى كابو فريو، حيث تملك مزرعةَ صيد، فيها كلّ متطلّبات الرّفاهية والرّاحة...

أمكنَ لها بفضل ما اكتسبته من مهارةٍ لا تخلو من روح المغامرةِ والجُنون، أن تجعلَ الوقتَ يمرّ في موجاتٍ من النّعومة والسّلاسة. وسارتْ حياتُهما بشكلٍ جيّدٍ حتّى مرّتْ ستّة أعوامٍ دون أن ينتبها إلى ذلك. كانت تكرّس وقتَها لإنجاح معارض الشابّ، وقاتلتْ بشراسةٍ من أجل قاعات عرضٍ جيّدةٍ لأعماله في ريو وساو باولو، لإظهار قيمة لوحاته، وإبرازِها للنّاس.

أثبتت أنّها لم تخطئ في ما يتعلّق بالنّجوم والقدر، ولكن...

للقدر مزاجُه الخاصّ. والغالبُ أنّه يعاكس نفسَه عندما يرى من النّاسِ تدخّلهم في مخطّطاته أكثر من اللّازم.

ذاتَ صباحٍ من صباحاتِها المتأخّرة، أخبرها دامبرواز بأنّ حبيبها قد اتّصل بها ثلاث مرّات، لكنّه طلب عدم إيقاظها، وقال إنّه سيتّصل بعد نصف ساعة لأنّه لم يكن في المنزل.

انتظرت المكالمة القادمة بصبر. ففي تلك الظّهيرة، لم تكن على عجلةٍ من أمرها. جرّبت بعضَ الملابس لسباق الجائزة الكبرى في ريو. لن تتأخّر المدلّكة في المجيء. فتناولت غداءً خفيفًا، ثمّ أصابتْ غفوةً قصيرة. لم يكن نومًا حقيقيًّا بل استرخاءً عاديًّا. ثمّ ابتسمتْ وهي تفكّر في ما احتاج إليه حبيبُها حتّى يطلب التحدّث إليها بشكلٍ عاجل. في أحيانٍ كثيرة، حين تراوده أفكارٌ مجنونة، يستخدم هذا النّظام: يخترع آلاف الذّرائع، وعندما يأتي، يطلّ بأجمل وجهٍ في العالم، مستغلًّا جاذبيّته الباهرة.

- ماذا حدث؟

أظهرت قسوةً بسبب ذلك الظّرف.

جاء من هناك، مع تلك الوداعة اللّذيذة التي تجعله يبدو كجروٍ مدلّل.

- لم يحدث شيءٌ يا بو، كنت أموت شوقًا إليك، وأردتُ أن أعرف ما إذا كنتِ تحبّينني بعدُ، في هذا الوقت من الظّهيرة. هذا كلّ ما أردته.

أخذها بين ذراعَيْه وضغط بشفتَيْه على شفتَيْها.

- هذا كلّ ما في الأمر. والآن، سأرسم قليلًا.

- هذا فحسب؟

- أظنّ أنّ هذا كلّ شيء. أحتاج إلى الذّهاب للعمل.

- هل تحتاج إلى الذّهاب للعمل فعلًا؟

- ألا تعتقدين أنّي أحتاج إلى العمل؟

- أعتقد أنّ كلينا نظنّ أنْ لا ...

رنّ الهاتف

- بوبينيا!...

- ما الأمر؟

- أريد التّحدّث إليك بشكلٍ عاجل.

- الهاتف لا يعمل؟

- لا، بل أشياء نحتاج حقًّا إلى التحدّث فيها، ألا يمكن أن أراك؟

- أنا في انتظار المدلّكة، وبعدها يجب أن أفعل بعض الأشياء التي لا يجب على رجلٍ أن يكون حاضرًا فيها.

- مثل ماذا؟

- هذه الأشياء لا تحكى.

- وهل ثمّة أيّ شيءٍ بيننا لا نفعله معًا؟

- مغرور.

ثمّ أصبح يتوسّل بشكلٍ لطيف.

- أوه! باولازينيا، يا روحي، هل لك من الشّجاعة ما تفعلين معه أشياء تخفينها عنّي؟ فضلًا عن قولكِ إنّك تحبّينني وإنّي كلّ شيءٍ في حياتك ...

- لكنّك لن ترى هذا أبدًا، ثمّ إنّ المدلّكة ستصل خلال ثوانٍ.

- إذَنْ نترك ذلك بعد المدلّكة. كم من الوقت ستبقى معك؟

- نصف ساعة.

- هل يمكنني أن أذهب بعدها؟

ابتسمت بسعادة.

- هل هو حقًّا أمرٌ عاجل؟

- قضيّة حياةٍ أو موت.

- هل تناولت الغداء؟

- أكلتُ مثل الأسد ليو، لكنّي سأشرب معك فنجانَ قهوةٍ إذا كان بالمجّان.

وفي ومضةِ تفكير، تذكّر أنّه عندما كان نموذجَ تعرٍّ في ريو، دعتْه رسّامةٌ ليعرض بشقّتها في كوباكابانا، مقابلَ خمسة آلاف ريالٍ للسّاعة. وفي منتصف العرض سألته عمّا إذا كان يرغب في تناول فنجان قهوة،

فأجاب بنعم. وجاءت الخادمةُ ومعها الصينيّة، فجحظت عيناها وهي ترى الرسّامةَ العجوزَ مع رجلٍ شبه عارٍ في ورشة الرّسم. فلمّا كان في طريقه للخروج، خصمت الرسّامة مائتي ريال ثمنَ القهوة...

- إذَنْ تعالَ بسرعة، لي أشياء كثيرةٌ لأفعلها.

* * *

في انعكاس المرآة، كانت تشاهدُ حبيبَها جالسًا في حوض الشطّافة، وتتأمّل جسدَه العاري.

- أيّ أمرٍ مهمٍّ هذا الّذي لم يستطع معه انتظارَ ساعة العشاء؟

واصلت النّظر إلى وجهه المفتون بمنظر ظهرها.

- هيّا حبيبي أخبرني، ما الخطبُ؟ ثمّة أمرٌ ينتظرني... تَحَلَّ بشيءٍ من العقل، وأخبرني ماذا حدث؟

فَقَدَ صوتُها نبرةَ التسلّط، إذ كانت سعيدةً وهي تجد نفسَها مشتهاةً بكلّ ذلك الدّفق السّاري في أصابعه، وذلك التّوهّج.

* * *

جلسَا إلى طاولةٍ صغيرة، وبدأت باولا تتناول وجبَتها القليلة. بدا وجهُها النّاعم نضِرًا بشكلٍ رائع، من دون أن تكون عليه أيّ مادّة تجميل.

- هل طعامُ العصافير هذا جيّد؟

أوقفتْ باولا شوكتَها في الهواء، وركّزت عليه عينَيْها.

- ما الأمر المستعجَل الّذي كنت فيه وتبدو الآن كأنّك تنكره؟ هل لك شيءٌ تخبرني به أم تريد رؤيتي فحسب؟

ابتسم قليلًا في شيءٍ من الارتباك.

- توقّفْ عن التصرّف مثلَ قطٍّ يتمسّح بالأقدام وأخبرْني بما عندك.

- هل تعلمين ماذا حدث يا بوبينيا؟ لقد تلقّيتُ رسالةً من شبح.

مدّ يدَه إلى جَيْبِه، وأخرج ظرفًا مُوقَّعًا.

- هل يمكنني أن أرى؟

- انتظري لحظة، هل سبق أن أخبرتك أنّه كان لي في مراهقتي حبٌّ كبير؟

- أيُّها؟

- لا باولا، أنا أتكلّم جادًّا، ولستُ أمزح في هذا الوقت. حسنًا، كان لي في شبابي حبٌّ عظيم، لكنّ جميع أفراد الأسرة عارضوا ذلك بشدّة: أبوها، أبي، إخوتي...

- نعم أذكُرُ أنّك حدّثتني عنها لمامًا فلم تُطنبْ، ولا أنا اهتممتُ، اسمها سيلفيا أو شيءٌ شبيهٌ بهذا.

- حسنًا. بعد انضمامي إلى البحريّة التّجاريّة، تزوّجتْ هي من أميركيٍّ وذهبت إلى الولايات المتّحدة.

مدَّ الرّسالةَ إلى باولا الّتي تردّدتْ لحظة، وفقدتْ كلّ إحساسٍ بالغرور، حتّى إنّها لم تستطع أن تُخفي ما استبدّ بها من فُضول.

- دمبرواز!..

ظهر الرّجلُ كما لو أنّه ساحر.

- من فضلك دامبرواز، انظر إذا كان يمكنك العثور على نظّارتيّ.

ضحك الشّاب. شيئًا فشيئًا، ومع التعايش الحميم، بدأتْ باولا

تسمحُ له بأن يراها كما هي، وهو أمرٌ لم يكن في البداية مقبولًا. عاد دامبرواز، واستعدّتْ هي لقراءة الرّسالة القصيرة.

عَلَتْ وجهَ باولا ملامحُ قلق، إذ قطّبتْ حاجبَيْها قليلًا، فظهرَ انزعاجُها. وبعد أن أنهت قراءةَ الرّسالة، طوَتْها وسلّمتها إلى الشّاب.

- إذَنْ تلك الفتاة أرملة، كانت في ريو وجاءتْ إلى ساو باولو لرؤيتك... بشكلٍ ودّيّ، هذا ما تقوله الرّسالة.

- بوبينيا، أنتِ مَن يقرّر. كان يمكنني أن أخفي عنكِ كلَّ شيء، لكنّي لا أريد أن تكون بيننا أيّ أسرار أو خيانات.

- ماذا قلت؟ لم أسمع جيّدًا، أودّ منك أن تكرّر هذه الجملة ببطء.

بدا مرتبكًا تمامًا.

- حسنًا، أنت تعرفين أنّي لا أحبّ سِواك، بوبينيا.

ضحكتْ في ابتهاج، لكنّها عادت إلى شيءٍ من التحفّظ بعد ذلك، إذ انتبهتْ غريزتُها الأنثويّة.

- هل تريدُ رؤيتَها؟

- لقد ضحّت الفتاةُ تضحيةً كبيرةً من أجل رؤيتي، حتّى إنّها بحثتْ عن والدتي وعائلتي، رغم معرفتها بكلّ العداوات القديمة، لتعثرَ على عنواني.

- كم كان عمرك عندما كنتُما...؟

- كنت في التّاسعة عشرة، وكانت تصغرني بسنتيْن اثنتيْن.

- وكم مضى من الوقت على كلّ هذا؟

- لا أدري تحديدًا، فلنقل عقدًا ونصفَ العقد من الزّمان.

وضعت سيجارةً في حامل السّجائر الطّويل وانتظرت أن يُشعلها. ثمّ أطلقتْ سحابةً إلى أعلى وتابعتْ بعينَيْها رقصةَ الدّخان.

- تريد رؤيتها، أليس كذلك؟ هذا أمرٌ عاديّ.

-لكنّي لا أريد أن أثيرَ شكوكًا بيننا من أجل ذلك، إذا كنتِ لا تريدين، فلن أراها.

كانت باولا تفكّر بسرعة. أَهِيَ الغيرة؟ لعلّها غير ضروريّة، رغم أنّها كانت تلدغها لدغًا خفيفًا. إذا قالت لا، فستُظهر بينهما انعدامَ ثقةٍ استمرّتْ أكثرَ من ستّ سنواتٍ رغم هزّاتٍ طفيفة. وإذا قالت نعم، فلعلّها تُواجه خطرَ اشتعالِ جذوةِ الشّغف القديم من جديد. وإذا حرمت الشابَّ من الفرصة، فقد يسارع إلى إحدى تلك الإغراءات الخبيثة الّتي تختبئ دائمًا في غرائز الذّكور.

حدّثت نفسَها: بقولِ نعمْ، يُمكنني التّحقّق من الأمر بالكامل، وتحصيل دليلٍ آخر على حبّه. الحقيقة أنّ الأخرى... أو سيليفيا، فهي في قرارتها لا تميلُ إلى ذلك التّصنيف، لا بدّ أنّها أصغر منها بكثير. وهذا، بالخصوص هذا، يشكّل بعض الخطر.

ثمّ اتّخذت قرارَها:

- حسنًا، سأدعك ترى هذه الفتاة، لا شيء يمنع من ذلك، لكنّ لي شرطًا واحدًا: أن تبلغني بكلّ ما يحدث بينك وبينها.

- لا أظنّني أحتاج إلى القسَم، لكنّي أقسم أنّي سأخبرك بكلّ شيء، كلّ شيء.

-لذلك دعنا نعقد الاتّفاقيّةَ التالية حتّى يكون كلُّ شيءٍ مثاليًّا في إيقاع حياتنا: الأحد المقبل هو سباق الجائزة الكبرى في ريو،

وأنتَ لم تُرِدْ قطُّ مرافقتي في هذه الأشياء، يمكنني الذّهاب قبل الموعد بثلاثة أيّامٍ والعودة يوم الثّلاثاء، وتلك مساحةٌ زمنيّةٌ كافيةٌ لتتذكّر الماضي معها. اتّفقنا؟

- بلا ندم؟ بلا غضب؟ بلا أيّ شيء؟

- اممم.

- هل تُقسِمين؟

- أُقسِم.

- لكنْ سنفعل ما يلي: لن أردّ على البرقيّة حتّى يوم غدٍ، وأمامك حتّى وقت العشاء لتغيير رأيك.

- أيّها القرصان! أنت تعلم أنّي لا أغيّر رأيي أبدًا. أنا شخصيًّا أشعر بشيءٍ من الفضول لمعرفة نتيجة تجربتك. لكنّ شيئًا واحدًا سيبقى واضحًا: أنا لست زوجةَ... ما اسم الرّجل؟

- كاناتو.

- حسنًا، أنا لست زوجة كاناتو، ولن أتقاسَمَك مع أحد، أليسَ كذلك؟

- لن يكون الأمرُ أكثر من صداقةٍ قديمةٍ تُسْتَعاد...

- آمل ذلك. والآن تعال إلى هنا.

التفّ حول الطّاولة، ولم يكن يحتاج إلى دعوةٍ كي يعانق باولا بحنان.

- قطّي، طفلي الخائن، صغيري القذِر. هل تريد أن تكون ملاكًا، حبيبي؟

- تريدينني أن أذهبَ، أليس كذلك؟ عليكِ انتظارُ عاملة الأظافر، وتجريبُ زيّ الجائزة...

-نعم، من الأشياء الّتي تجعلني مُعجبةً بك هي أنّك لا تدع لي مجالًا لأفكّر.

لكنّه ظلّ متمسّكًا بها.

-بوبينيا، أنا أحبّك حقًّا، وحدَه الموت سيسلبني حبّي لك، أنا أحبّ حتّى الطّريقة الّتي تمسكين بها حاملَ السّجائر.

-أنت طائشٌ يا حبيبي!

انسحب إلى الباب، لكنّه عاد وقبَّل فمَ باولا بنعومة.

-نسيتُ أن أقول إلى اللّقاء وشكرًا جزيلًا.

***

أمضى اليوم في مللٍ، ولم يكن يعرف ماذا يفعل أو إلى أين يذهب. فتوجّه إلى إحدى دور السّينما، لكنّه وجد الفيلم مملًّا بشكلٍ كبير، فانسحب قبل نهايته.

مشى يبحث عن حانة، واهتدى أخيرًا إلى واحدة. طلب حالَ دُخولِه كوكتيل جين تونيك، مثلّجًا. كان قلقًا بشأن ذلك الأمر. رتّب لمقابلة سيلفيا في حانةِ الفندق الّذي نزلت فيه، ولم يجد رغبةً في الذّهاب، فالفضول الشّديد الّذي تملّكه في البداية بدأ يتلاشى بمرور السّاعات، تاركًا مكانَه لإحساسٍ بخيبة أمل. عاد إلى التّفكير في الشّيء نفسه، بعد كلّ تلك السّنوات... فما عادا الشّخصَين نفسَيْهما، وقد تجده سيلفيا عجوزًا، مُنهكًا. هو لم ينتهِ تمامًا، لكنّ مرور الوقت ترك خطوطَه أيضًا. وبدأ يتعوّد بالفعل على قسوة الزّمن. كان بطنه قد شكّل طبقةً من الدّهون استدعى التّخلّص منها جُهدًا ليس باليسير ومكابدةً شاقّة. وظهرت حول عينَيْه تجاعيد، لا ينتبه إليها النّاظرُ إلّا بصعوبةٍ، ولكنّها كفيلةٌ متى

لاحظت سيليفيا وجودَها بإجراء مقارنةٍ لن تكون مُريحةً بالماضي. وثمّة تحت الذّقن انتفاخٌ لحميٌّ مُزعجٌ، في أوائله. هذا ما طرأ على جسده من تحوّلاتٍ لم يرغب البتّةَ في أن تكون موضوعًا في لقاءٍ من ذلك النّوع. ولكن ماذا عنها؟ لقد تذكّر جسدَها المنتصبَ والجميلَ: نهديْها الصّلبيْن المُدببيْن، ذقنَها الصّغير، وغمّازَتَيْها. كانت تمشي ورأسُها مائلٌ جهةَ اليسار عندما جاءت لتنتظره تحت شجرة التّين الباكي في ساحة ناتال الصّغيرة، والآن؟ هل ستكون هي نفسها؟ أو لعلّها أصبحت أرملةً سمينةً بعروقٍ بارزة؟... ليس من الجيّد التّفكيرُ في خيبةِ أملٍ يُحتملُ حدوثُها عندما يتواجهان، ولا من الحكمة المقارنةُ بين الأضرار الّتي سبّبتها الحياة...

قرّر في خاتمة هذا الجدل، بينه وبين ما خيّم عليه من افتراضات، أن يرجئ أمر لقائها إلى اللّيل، فساعتها سيخرجان إلى العشاء، أو ينفقان الوقت في حانةٍ أو ملهًى، وللّيل بركاتُه، وللضّوء القليلِ نعمةُ الكتمان.

عَبَّ جرعةً كبيرةً، وركّز بصرَه على حركة الشّارع وما ميّزَ نسقَها من لامبالاة. ورغمَ الّذي بذله من جهدٍ لإلهاء نفسِه، فإنّ تفكيرَه المعنطَ، كان يعودُ إلى النّقطة غير المريحة نفسها.

دفع ثمن الشّراب وخرج يمشي بلا هدف، محاولًا الاهتمام بواجهات المتاجر. لكنّ المساء تكاسل في إحضار اللّيل. لقد قبل دعواتٍ عديدةً لشرب القهوة مع عددٍ من الأصدقاء التقى بهم صدفةً، ثمّ زار معرضَيْن للرّسم. لكنْ ما تزال تفصله عن الثّامنة ساعتان. لمّع حذاءه، واشترى صحيفةً، وعلى غير عادتِه راح يبحث عن الصّفحةِ الأخيرة، تلك الّتي دأبَ على قراءتها ليلًا بعد عودته إلى البيت. كانت معنيّةً بأخبار الجرائم الأكثرَ خطورةً. كلِفَ بما فيها من عناصرَ مُدهشة، وأخذت متعةُ قراءتها

تزيدُ كلّما كانت أكثر غرابةً وإثارة. ثمّ مشى في الشّارع مرّةً أخرى، والجريدة تحت ذراعه.

مرّ فوق فيادوتو دو شا، ببطءٍ، ليتجنّب تصادمات المارّين ويراقبَ العالم السفليّ، حيث مباني البؤس الظّاهرة هناك، في أكشاك الحلوى، وأصوات صغار الباعة، وفي التسوّل المحموم بحيٍّ معجزاتٍ حقيقيّ.

نزل السّلالم المُجاورة لشركة الكهرباء. ثمّ عبر منطقة أنهانغاباو وصعد السّلالم المتحرّكة في غاليريا بريستيس مايا. أخيرًا مرّ شيءٌ من الوقت، ولحسن الحظّ، لم تتبقَّ سوى خمسٍ وأربعين دقيقة، عليه أن يهيّئ فيها نفسَهُ.

عاد إلى شارع السّابع من أبريل، وصعد سلالمَ حانة «أصدقاء الفنّ المعاصر»، إذ كان شريكًا لهم. فتناول مشروبًا سريعًا، وقبلَ أن يُغادرَ المكان، دخل الحمّام، حيثُ غسل وجهه، وسرّح شعرَه، بعنايةٍ فائقة. بدتْ له المرآةُ الّتي اختارَ أن يقف قبالتها ماكرةً، فقد بدا له وجهه منتفخًا، ومترهّلًا بعض الشّيء، بل إنّها أرادت الوشاية ببداية الصّلع في رأسه. ومهما يكن من أمر، ليسَ له بدٌّ من الذّهاب، فقد حُسم الأمرُ.

ابتسم ابتسامةً حزينةً وباردةً لحظةَ غَمْغَم:

- هذا أنا يا سيلفيا. لم أعد ذلك المراهق، والوقت يا صديقتي يمرّ بشكلٍ عادلٍ بين الجميع.

توجّه إلى الفندق، وهناك سيطر عليه إحباطٌ تامّ. آه لو كانت باولا معه، لتشجّعه على الأقلّ... ضحك من ذلك العبث، لأنّه تعوّد على فعل كلّ شيءٍ بمساعدة باولا... لكنّ بوبينيا ستكون في ريو لتناول عشاءٍ سعيدٍ مع صديقاتها. ستذهب إلى كلّ ملهًى ليليّ، ستشاهد مختلفَ

العروض، وستنتقل بين المسارح... اللّعنة! كان عليه في مثل ذلك الوقتِ أن يركّزَ تفكيرَه على سيليفيا، وأمّا باولا فقلبه مُطمئنٌّ بشأنها.

استسلم لسلوك اللّامبالاة، وذهبَ إلى الفندق، بعد أن نظر إلى ساعته، على أملِ أن يجد بضعَ دقائقَ قبل الموعد.

لم تكن لامبالاتُه قادرةً على أن تُخفي ما استبدّ به من خوف، وهو يقف أمام المصعد. نظرَ إلى ساعته ممنّيًا نفسَه بدقائق قليلة قبلَ الموعد، ولكنّها الثّامنةُ تحديدًا. دخل المصعدَ، ومضى بعد خروجه صوبَ الحانة. وحتّى قبل أن تعتاد عيناه على الجوّ المظلم، نهض طيفٌ من طاولةٍ وجاء للقائه.

- غوم!

تعانقا في اندفاعٍ واحدٍ، ووجد في قلبه شيئًا من الارتياح، بل نوعًا من السّعادة، لم يكن يتوقّعه. ها هي سيلفيا تحافظ على نفسها كما كانت من قبل، شابّةً وجميلةً بشكلٍ يثير الإعجاب.

انفصلا قليلًا، وبقيَا يتبادلان نظرات تأمّلٍ وإعجاب. ثمّ عانقته مرّةً أخرى ووضعت وجهَها على لحيته، فجعله ذلك أعزلَ، بمعنى الكلمة الإيجابيّ... كان إحساسًا جيّدًا.

- هل تريدين البقاء هنا؟

- لا عزيزي، أنا مع بعض معارفي، سأودّعهم وأُحضِر حقيبتي. هل تنتظرني قليلًا؟

ابتسمتْ فظهرت الغمّازتان على وجهها.

كان الوجه هو نفسه، لم يتغيّر شيءٌ من قسماتِه، وملامحه، عدا أنَّ لونَ شعرها مالَ إلى الحمرة.

-المتحلّقون حول الطّاولة يقتلهم الفضول لمعرفة من تكون، لكنّي قرّرت إخفاءك.

كانت تتحدّث لغةً برتغاليّةً جميلةً بلكنةٍ إنكليزيّةٍ خفيفة.

وقد علّقت على ذلك:

-أنتَ لا تعرف الصّعوبات الّتي وجدتُها في البداية. من الجيّد أنّي قضّيت شهرًا في ناتال، بمنزل أمّي، لأستعيد بعضَ ما يجمعني بالبرتغاليّة، ولم يكن ذلك بالهيّن، لطول العهدُ. إلى أين تأخذني؟

-إلى أين تريدين أن نذهب؟

-لا أعلم، لا أعرف ساو باولو، ثمّ إنّك ملِكُ اللّيل.

فكّر قليلًا، وأجرى بحثًا جغرافيًّا في رأسه عن مواقع الحانات والمطاعم.

-توجد حانة فنّانين، لطيفةٌ جدًّا. ولكلّ فنّانٍ خصمٌ بخمسين في المائة من الثّمن. الطّعام من النّوع الممتاز والأجواء هادئة. يستمرّ ذلك حتّى حلول منتصف اللّيل تقريبًا، وحينها تبدأ العروض ويظهر حشدٌ من الفنّانين.

-لنذهبْ إلى هناك، وإذا لم يرُقْ لنا المكانُ بحثنا عن غيره.

-اتّفقنا، نستقلّ سيّارةَ أجرة؟

-هو بعيد؟

-عشر دقائق مشيًا.

-إذَنْ دعنا نمشِ، لا يمكننا اكتشاف مدينةٍ أبدًا ونحن داخل سيّارة أجرة، اللّيل منعشٌ وممتعٌ للمشي.

مشيًا في شارع ساو لويس دون أيّ عجلة. كان الأمر كما لو أنّهما يسيران مرّةً أخرى بين شجيرات الورد وقتَ الشّباب، في براسينيا. وفي كلّ خطوةٍ سحرٌ لا يمكن احتواؤه. اتّكأت سيلفيا على ذراعه في سعادةِ مَن لا يبالي بشيء، لا يبدو أنّهما ينتميان إلى العالم الّذي كانا يمشيان فيه.

عبرا شارعَ كونسولاساو، ووصلا إلى جسر ماريا باولا وهما يتحدّثان عن أشياء لا معنى لها. صعدَا إلى الرّصيف المتضرّر من شارع سان أنطونيو، ودخلَا إلى شارع الرّائد ديوغو. كانا مُنتشييْن حتّى إنّهما لم يلاحظا قبحَ الشّارع، ولا الحفرَ في الأرصفة، أو الترامَ الصّاخبَ الّذي كان يمرّ ويهزّ كلّ شيءٍ في طريقه.

- إنّها هناك.

دخلَا وبحثَا عن مكانٍ خفيّ، ثمّ جلسَا وجاء النّادل.

- نأخذ شرابًا أوّلًا، وعندما نشعر بشهيّة الطّعام، نتناول العشاء.

- شراب؟ إذَنْ ليكن كوكتيل جين تونيك.

ضحك غوم.

- كنت سأطلب الشّيء نفسَه، أحبّ شراب جين تونيك.

نظرَ أحدُهما إلى الآخر. وتلك هي المرّة الأولى التي يتبادلان فيها النّظرَ وهما جالسَان. كانت سيلفيا ترتدي الأسود، مع عقدٍ من اللّؤلؤ وقرطَيْن صغيرَيْن، وُضِعا بشكلٍ جميلٍ وجذّاب.

- أنت رائعة!

فابتسمت.

- لماذا تضحكين؟

- كنت أفكّر أنّك لم تتغيّر في أيّ شيء، وكلّ ما في الأمر أنّك تكاد تصبح أكثر نضجًا وأكثر وسامة.

- أنتِ محظوظة، كان يُفترض بي أن أكون خارج ساو باولو في مثلِ هذا الوقتِ من كلّ سنة، إذ تعوّدتُ أن أقضي موسمًا في الغابة.

غطّتْ وجهَ سيلفيا ملامحُ حزن.

- لم أكن لأتردّد ساعةً في اللّحاق بك حيثما كُنتَ، فحاجتي إلى رؤيتك أكبرُ من كلّ المصاعب والمسافات.

امتلأتْ عينَا سيلفيا بالدّموع.

- والآن، ماذا يجري؟

أخذتْ منديلًا من حقيبتها ومسحت عينَيْها.

- ما زال الوقت مبكّرًا للحديث عن ذلك.

حاولتْ أن تبتسم بقوّةٍ أكبر، وأبعدت الحزن الذي حضر بشكلٍ غير متوقّع.

- كان ذلك من تأثّري برؤيتك.

ظهر النادلُ مع المشروبات. ثمّ وضعها، وذهب.

- هل أستطيع اقتراحَ شيء؟

- قُل.

- على أحدنا أن يغيّر مكانه كي نجلس جَنبًا إلى جَنب.

استدار، وجلس بجانبها.

- هذا أفضل، لقد فرَّقَتْنا الحياة بما يكفي، ولا يجدرُ بنا أن نُساعدَها على ذلك...

فكّر لحظةً في باولا، يا إله السّماء! لو تراه وسيلفيا مائلةٌ إليه، تكاد تحتضنه. أوه! قلبُه جاحدٌ كقلوب كلّ البشر! إنّها المرّة الأولى التي يتذكّر فيها باولا، فاعتذر في داخله محاولًا إقناع نفسه: تلك الجاحدة أيضًا ستتخلّى عنّي في لحظةٍ كهذه ...

- الحقيقة يا غوم أنّني لم أستطعْ نسيانَك مطلقًا، كنت طيلة هذه السّنوات مشغولةً بأمركَ، أيّما انشغال.

- لكن ألم تكوني سعيدةً في زواجك؟

- كثيرًا، بل أكثر ممّا يُمكنُ أن تتصوّر. لكنْ لا علاقة لهذا بالمنزل أو الزّواج. كنتَ أجمل قطعةٍ في حياتي احتفظتُ بها في عالم أسراري العزيزة.

كان ذلك هو خطر سيلفيا الحقيقيّ، إنّها طبيعتُها في قول الأشياء وفعلِها. وتلك الطّبيعة هي نفسُها التي جمعتهما عندما كانا صغيرَيْن. وها هي تُحْيِيها الآنَ بطريقةٍ لا يمكن مقاومتها.

ساعاتٌ معدودة، ساعاتٌ معدودةٌ فحسب، ولن يتمكّن غوم بعدَها من تحمّل مسؤوليّة ضعف قلبه. فكلّ ما تزوّد به من حياد، وما تصنّعه من دفاعٍ زائفٍ كان ينوي الاحتماء به أخذَ يتلاشى مثل الدّخان.

- وأنت؟

- أنا؟ أنا ماذا؟

كان يعرف جيّدًا ما أشارتْ إليه، لكنّه حاول تجنُّبَ الموضوع ما استطاع.

- أليس لك أحد؟ لا تقل لي إنّ قطعةً رجاليّةً جيّدةً مثلك بقيت بمعزل عن النّساء؟

خدشتْ ذراعَه بأظافرها المطليّة باللّون الأحمر.

- أنا... تزوّجتُ على مراحل، إذ أحسب أنّنا في الحياة لا نتزوّج أبدًا مع الحبّ الكبير، إلّا نادرًا.

- في طريقنا، نجد عداواتٍ كثيرةً بشكلٍ غير عادل ...

- ربّما لأنّ ذلك ما يجب أن يكون.

- ربّما... وفي تلك المراحل، هل وُجِدَتْ واحدةٌ دامت أكثر؟

لن يحدّثها عن باولا أبدًا. سيكذب بهدوءٍ ووعي. وفي مقابل ذلك وَعَدَ باولا بأن يخبرها عن سيلفيا. وعلى الرّغم من العواقب الوخيمة التي من شأنها أن تترتّب على ذلك، لن يخفي عنها أيَّ شيء.

- ربّما وُجِدَتْ واحدةٌ دامتْ أكثرَ من ذلك بقليل. كان للأخريات شخصيةُ المغامِر فحسب، إذ يصعب على المرأة قبول الفنّان عمومًا، لذلك سرعان ما يتعبن من مبالغاته. لا يمكن لأيّ امرأةٍ أن تتحمّل رجلًا يقرّر فجأةً إمضاءَ شهورٍ وهو يتجوّل في الغابة، بعيدًا ودائمًا في حالة هروبٍ تقريبًا.

- دمُك الهنديّ لم يتوقّف قطُّ عن الحديث في داخلك يا حبيبي؟

- أنا أكثرُ إخوتي اهتمامًا بهذا الأمر. يعودُ ذلك في بعدٍ منهُ إلى أنّني الوحيدُ من بينهم الّذي لا ينتمي إلى النوع الهنديّ انتماءً خالصًا...

شربَا ونظرَ كلٌّ منهما في عينَي الآخر.

- هل تذكرُ جدارَ منزلي؟ وعددَ الثّقوب الّتي فيه؟ وأنّي كنتُ أنتظرك عندما تذهب للتدرّب على سباق القوارب بسروال سباحةٍ من تلك الأنواع غير اللّائقة؟...

- مازلتُ أستخدم سراويلَ سباحةٍ من ذاك النّوع، وأجدها رغمَ طولِ العهدِ مُريحة، بيدَ أنّني لم أعد داخلها أحافظُ على تلك الأناقةِ نفسِها.

- ألا تتذكّر أيَّ شيءٍ آخر، يا غوم؟

- عن الثّقوب و...

- القبلات السّريعة.

- بسبب الخوف من قدوم النّاس، حتّى إذا أَتَوْا اختلقْنَا على الفور تلك المحادثة الفارغة من الحديث...

- لقد كبرنا الآن، وأمامَنا العالم مفتوحٌ على مصراعَيْه، دون حاجةٍ إلى ثُقوب. فهل سنكون ما كنّا؟

- لو أنّي رجلٌ ذكيٌّ، لرأيت في هذا دعوةً...

- ما دمتَ لا تريد أن تفهم، فأنا امرأةٌ عمليّة.

قرّبَ شفتَيْه إلى شفتَيْها المبلّلتَيْن الباردتَيْن من المشروب الّذي تناولته.

- غوم، انتظرتُ هذه اللّحظةَ طوالَ حياتي. هل أخطأت؟

- لا، كان يمكن أن يجري الأمر على نحوٍ أفضل، لكنّي سأعالج هذا الخلل.

قرّب الفتاةَ أكثر، وقبّلها قبلةً لاذعةً ولذيذة.

- يُحسَبُ لنا أنّنا كنّا عفويَّيْن بما يكفي.

تعانقا وقتًا طويلًا. كانت سيلفيا مائلةً بخدّها وشعرُها على وجهها، دون أن يقولَا أيّ شيء، كأنّما أرادَا استعادةَ سنواتٍ كثيرةٍ لم يعشْها الآخرون. كانَا يتأرجحان بين ثلاثة أحاسيس مختلفة: الحنان، واللّامبالاة ببقيّة البشر، والانجذاب، وهي كلُّ ما بقي بعد انقطاع سنواتٍ عديدة.

- متى تعودين إلى ريو؟

- هل أنتَ مستعجلٌ جدًّا يا حبيبي؟

- بل أنا منذ الآن منشغلٌ بغيابك.

- خلال ثلاثة أيّام، وهناك سأنتظر رسالةً منك أو مكالمةً هاتفيّة.

ثلاثة أيّام! كان الاثنان يلعبان اللّعبة نفسَها في آنٍ واحد. عليه ألّا يفكّر في باولا وأن يستمتع بالوقت الّذي منحتْه إيّاه. ما أغرب تعرّجات القلب! كانت فكرةُ فقدان باولا أو تعويضها بسيلفيا مستبعدة، لكنّه سيشعر أيضًا ببعض الوحدة لو تتركه سيلفيا في تلك اللّحظة.

- أردت أن أسألك شيئًا، يا صغيرتي.

حتّى تلك الكلمة اللّطيفة الّتي استخدَمها في مخاطبتها وقتَ المراهقة عادت بشكلٍ عفويّ.

- ولمَ لا؟

- عن وفاة زوجك.

توقّفت لحظاتٍ مليئةً بالحزن، وتأخّرت في الردّ. لم تستطع الإجابةَ لأنّها لم تتوقّع ذلك. لكنْ فيمَ السّؤال؟ لقد أجابَ الوقتُ قولًا وفعلًا. وعلى أيّة حال، ما كان لتلك الفترة أن تعود إلى سيلفيا، فقسوةُ الحياة دفعتها دائمًا إلى مكانٍ أبعد.

- تريد حقًّا أن تعرف؟ حسنًا إذَنْ. عندما تُوفّي زوجي وجدْتُني تائهة، وشعرتُ بالوِحدة. كانت بيننا سنواتٌ طويلةٌ من العيش المشترك ومن التّفاهم الّذي من شأنه أن يجعل الزّواجَ أكثر استقرارًا، ومثّل موتُه حدثًا مفاجئًا حقًّا. لا أريد التحدّث عن ذلك.

ابتلعتْ بعضَ المشاعر وتابعت:

- لم يكن زواجًا عن حُبٍّ كبير. لكنّ استمرارَ التّفاهم في الزّواج يكون أكثر فاعليّةً من الحبّ نفسه. حدث كلّ ذلك بعنفٍ محيّر: يومٌ جميل، لمسةٌ صامتة، جسدٌ نازلٌ على الأرض وعلَمٌ أمريكيٌّ بين ذراعيَّ الفارغتَيْن... كان ضابطًا في الجيش الأمريكيّ، وتزوّجنا خلال الحرب... وهذا كلّ شيء.

لم يعُد يجدُ طريقةً للسّؤال عن أيّ شيءٍ آخر، ولو تبقّى شيءٌ مّا لأخبرتْه به سيلفيا، لذلك لا فائدة من تحريك رماد الأشياء الميّتة.

- أودّ العودة إلى الفندق.

- هل أخطأتُ في السّؤال؟

- لا، لا علاقةَ للأمر بذلك. أنا متعبةٌ فحسْب، ثمّ إنّ مشاعر الالتقاء بك بعد سنواتٍ عديدةٍ تضغطُ على أعصابي.

رفع ذراعَه للتّحقّق من الوقت. لكنّ يدَ سيلفيا غطّت السّاعةَ وامتلأتْ عيناها بالدّموع.

- لا تخبرني أبدًا عن السّاعة، لا تحدّثني عن الوقت أبدًا، باسم حبّ السّماء.

أخذتْ المنديلَ من حقيبتها ومسحتْ عينَيْها. ثمّ بقيت متجهّمة، تنتظر رجوعَه بعد دفع الفاتورة.

في الخارج شعرَا برياح اللّيل الّتي جلبت البرد.

سأله البوّاب عمّا إذا كانتْ بهما حاجةٌ إلى سيّارة أجرة. لكنّ سيلفيا أصرّت على المشي.

بعد أن مشيا طويلًا، أحسّت ببعض التّعافي.

- حبيبي!

- ماذا يا صغيرتي؟

- كيف هو وضعك المادّيّ؟

- جيّد حقًّا.

- يمكنك أن تكون صريحًا معي، أنت تعرف...

- ألا يكفي ذلك الوقتُ الّذي كنتِ تدفعين لي فيه ثمنَ شوكولاطة في سينما رويال؟

ضحك الاثنان بمحبّة.

- لا، لقد تحسّن وضعي المادّيّ كثيرًا. في بداية مسيرتي المهنيّة التّافهة، سارت الأمور بشكلٍ سيّئ. لكنّ الأمرَ مختلفٌ الآن.

على الرّغم من حزن اللحظات الماضية، همسَ كشيطانِ شهوةٍ في أذنها:

- هل تريدين الذّهاب إلى الفندق قريبًا؟

فابتسمت.

- اليوم أريد الذّهاب إلى الفندق، وغدًا...

- ماذا سيحدث غدًا؟

- غدًا يومٌ جديد... نحتاج إلى ترتيب شيءٍ للغد.

***

بعد تلك الرّحلة إلى ريو، كانت باولا أكثرَ إبهارًا من أيّ وقتٍ مضى. فقد تلوّن خدّاها بلونٍ موسميٍّ رائع. وما كان يؤلم الشابَّ هو اللّامبالاة التي أظهرتها تجاه كلّ شيء.

- نعم، ذهبنا إلى الشّاطئ جماعةً، وسبَحْنا قليلًا. كانت شمسُ ريو الّتي بدأت تبرد بسبب الشتاء ممتعة.

جلست على الأريكة وأشعلت سيجارةً بطريقةٍ لا يُحسِنها. كانت تقطرُ أناقةً حتّى في أدقّ التّفاصيل. وبعد مجَّةٍ طويلةٍ خلّفتْ غيمةَ دخانٍ كبيرة، نظرت إلى الشّاب أمامها. تملّكها شعورٌ بأنّها مجروحةٌ وخائفة، لذلك احتمتْ بهذا المظهر الدّفاعيّ الأنثويّ الّذي يجعلها تبدو آمنة.

لم تستطعْ التّخلّصَ من إحساسِها العميق بأنّ خطبًا مّا قد استجدّ في غيابها، ولا التّوقّف عمّا ألمّ بها في الدّاخلِ من ارتعاش، ومن توجّسها. ظلّت ترمق وجهه، مرتابةً، وقد بدا عليه الحزن وعدمُ الارتياح. ثمّ إنّه خلال ثلاثة أيّامٍ فحسبُ فقد الكثيرَ من وزنه بشكلٍ لا تخطئه العين.

- ما هذا يا بو! تغيبين عن ناظريّ أيّامًا، ولا أحظى منك عند عودتك بقبلةٍ واحدة.

- هذا صحيحٌ، هذا صحيحٌ، لقد نسيت.

وبحركةٍ راقيةٍ مدّت يدَها ليقبّلها.

- اجلس هناك لنتحدّث.

أطاع بسرعة.

- إذَنْ، يا فتى؟

لم ينبس ببنتِ شفةٍ، وظلّ يحدّق في باولا يائسًا، حتّى إنّ الدّموعَ، قد بلّلت وجهه، ولم يستطع مداراتَها. ولم تجد باولا إزاء المشهدِ بُدًّا من أن تتخفّف من قسوتها، فتحرّكت تجاهه وكسرت طبقة الجليد الّتي لازمتها منذ لقائه:

- ما الأمرُ يا حبيبي؟

ألقى بنفسه على الأريكة، إلى جانب باولا. فأخفت رأسَه المنتحبَ في حجرها، ومرّرت يدَيْها بخفّةٍ تُخَلِّلُ شعره. غالبت ما في داخلها من أحاسيس متناقضةٍ، ودنت منه مُشفقة.

-إذَنْ، الأمور تسير بشكلٍ سيّءٍ يا حبيبي. هيّا، أَخْبِرْ بوبينيا بكلّ شيء.

ظلّتْ تمسّد رأسَه بضعَ دقائق، حتّى عادت إليه ثقتُه واستعادَ قُدْرَتَه على التّنفيس عن اعترافه.

-بو... يجب أن تعرفي الحقيقة كاملة.

شعرت بوخزٍ يخترق روحَها.

-الحقيقةَ كلَّها، قلتَ إنّك لم تكذب عليَّ قطُّ ولن تفعل ذلك الآن...

-لم أكذب قطُّ أمام اثنَين، واعترفتُ لهما بأخطائي: أنت والرّبّ.

رفع عينَيْه المتوسّلتَيْن إلى أعلى، يستدرّ تفهّمها، وصفحَها. أمّا هي فاستجمعتْ شجاعتَها لمواجهة الأمرِ، وكانت على يقينٍ من ضراوتِه.

-لقد جاءت. كنّا نلتقي كلَّ هذه الأيّام وكلَّ تلك الليالي، لا تزال امرأةً جميلة، عندما رأى كلٌّ منّا صاحبَه كان الأمر مثل... لا يمكنني حتّى شرح الأمر يا باولا، أقسم أنّي لم أرغب في حدوث ذلك. لم يكن كلُّ ما جمعَنا في طفولتنا محتاجًا إلى أكثر من ثوانٍ قليلة، ليشهد ميلادَه من جديد، بشكلٍ رائعٍ عنيف، أوقفنا تحت طائلةِ حبٍّ متأخّر، لم نحسب له أيّ حساب.

كانت باولا مستغرقةً في التّفكير.

-لم نجد حتّى الوقت لتجنّب ما حدث، وغرقنا في دوّامةٍ غامرة.

- أيّ نوعٍ من النّساء هذه المرأة؟

- لعلّها ليست استثنائيّةً كما يمكن أن يخطر لك. ولكنّها قادرةٌ رغم بساطتها على أن تحرّك ما في رجلٍ مثلي من بركٍ ساكنة، ولا رغبةَ لي يا بو، في إجراء أدنى مقارنةٍ بينكما، لكنّها ليست امرأةً مثلك بأيّ معنًى من معاني تحقيق الإنجازات.

- هل أخبرتها عنّي؟

- ولِمَ ذاك يا بوبينيا؟ نحن عالمٌ منفصلٌ عن العالم الّذي نعيش فيه، نحن دائمًا نحتفظ بنفسينَا لنفسَيْنا، أليس كذلك؟ سألتْني بسرّيّةٍ عمّا إذا كانت توجَد امرأةٌ واحدةٌ أو عددٌ من النّساء في حياتي، وكذبتُ بسرّيّةٍ أيضًا وقلتُ إنّهنّ كثيرات. ومرّ الموضوع بعيدًا وبطريقةٍ غير واضحة ...

- ألم تَجِدْ طريقةً للهروب من هذا الانجذاب؟

- حين ذهبتُ، ظننتُ ذلك ممكنًا. لكن عندما رأى أحدُنا الآخر، جرفَنا الحنينُ، وعُدنا صغيرَيْن في مراهقتهما الأولى، مليئَيْن بالأوهام والافتتان. كنّا ننجزُ كلَّ شيءٍ لم يسمح به عالَمُنا البائس في صغرنا. هل تفهمين يا بوبينيا؟ كان يجب أن أخبرك بكلّ شيء ...

- باختصار، أنت...؟

- نعم، نمنا معًا في شقّتي.

- قلت «شقّتي».

- ما كان يمكنني أن أقول «شقّتنا» يا باولا، لأنّني بذلك أعطي قلبي انطباعًا بأنّي كنت أخونك عن قصد.

ضحكت من طريقته النّقيّة في صياغة عُذره. فرغم كلّ شيءٍ كانت له طريقةٌ خاصّةٌ جدًّا في حكي الأمور، كي يخفّف الإحساسَ بالألم قدرَ الإمكان.

-إذَنْ تنام أيّامًا وأيّامًا مع امرأةٍ أخرى وتعتقد أنّك لا تخونني؟

-لا أحد يستطيع تصديقَ هذا، لكنّي لا أكذب، باولي، باولي. كنّا نتزوّج من أحلامنا المحطّمة التي وهبتنا إيّاها الحياة الآن، كان ذلك زواجنا، واستمرارًا لأشواقنا، قبل أن يحاصرنا قُبْح الحياة بشكلٍ مفاجئ.

أصابت باولا موجةُ حنان، فقرّبت عينَي الشّاب من عينيها وقالت:

-لولا أنّ كلَّ هذا حدث لي، لوجدْتُها قصّةً طريفةً ونادرةً من النّوادر.

-لكنْ لا شيءَ طريفٌ في باقي القصّة.

وها هو صدقُه يُدمِع عينَيْها مرّةً أخرى.

-إذَنْ يا عزيزي، كان الأمر خَطِرًا إلى هذا الحدّ!...

خَدشَتْ روحَ باولا مشاعرُ رهبة. وكانت متأكّدةً بعد ذلك من أنّ مزيدًا من القتال ينتظرها. وجعلها الخوفُ من فقدانه تشمّر عن ساعد الحذر.

-ما هو الشّيء الفظيع الّذي حدث بينكما يا طفلي الصّغير؟

وضعَ وجهَه الباكي في حضن باولا، بينما كانت إحدى يدَيْه تداعبها.

-بو، كان عليها أن تأتي لرؤيتي، كان عليها أن تأتي لرؤيتي، هل تفهمين؟

كان يتحدّث بانفعال، كما لو أنّ الاعتراف الذي كادَ يُدلي به مؤلمٌ على نحوٍ فظيع.

بدتْ باولا مقتنعةً بأنّه صادق، فهو لم يكن قطّ رجلَ ألاعيب مسرحيّةٍ أو مآسٍ زائفة. لا شكّ أنّ الأمرَ خَطِرٌ فعلًا.

- لم أستطع النّوم مدّةَ ثلاثة أيّام، وعندما تمكّنتُ من ذلك رأيتُ كوابيس جنائزيّة، لم أعد أقدر حتّى على تناول الطّعام يا بو...

أخذ يدَي الفتاة وضغط عليهما بفمه كأنّه يرجو المغفرة بسبب فظاعةٍ مّا كان على وشك الاعتراف بها.

- بو، كان عليها رؤيتي، إنّها تودّع، ومن أجل ذلك كانت ستذهب إلى نهاية العالم، إنّها تحتضر يا بو، لقد قُضِي أمرُها.

نسيت باولا مشاعرَها واهتزّت فَزَعًا.

- هل ذلك صحيحٌ عزيزي؟ هل كلّ هذا صحيح؟؟

- كلّ شيءٍ صحيحٌ يا بو، لقد حُكِمَ عليها بالموت، ولا تعرف كم وقتًا تبقّى لها كي تعيش، ستّة أشهر أو سنة... وحده الإله يعلم، هي مصابة... بالسّرطان.

شعرت باولا بحزنٍ شديد. ففي نهاية الأمر، هي امرأةٌ صغيرة السنّ، لا تستحقّ الموتَ بطريقةٍ سخيفةٍ ومأسويّةٍ كتلك.

- يبدو أنّ هذا المرض يطاردني يا بوبينيا، أنا مرعوبٌ منه. منذ أن كنت صبيًّا، ورأيتُ نهاية جدّتي، أقسمتُ أنّي لن أرى أيَّ شخصٍ يموت بسبب السّرطان مرّةً أخرى. لكنّ الأمر يبدو مثل عقاب.

- عزيزي، الأخبار الّتي أطلعتَني عليها حزينةٌ وقاسيةٌ جدًّا، حتّى

إنّي أنهار. لا أدري ما أقول. انتظرْ لحظةً، سنتناول جرعةً قويّةً من الكونياك لرفع معنويّاتنا، لا يهمّني أثر ذلك، أنا محطّمة.

سَكَبَا الشّرابَ وجلسَا في صمت، دون أن يعرفَا أيّ قرارٍ يتّخذان. وتطلّب الأمرُ من باولا استحضارَ الشّجاعة لتقول شيئًا. كان من الأفضل معالجةُ هذا الموضوع الشائك مرّةً واحدةً وإلى الأبد بدلًا من الاستمرار في تأجيله طوال العمر.

- أَمَا زَالتْ هنا؟

- عادت إلى ريو.

- وماذا قرّرتما؟

- الأمرُ كلُّه يعود إليك، هذا في ما يخصّني. هل تذكرين أنّي أردت دائمًا أن ترافقيني في رحلةٍ إلى الغابة؟ حسنًا، هي تريد ...

- أَلَنْ يكون ذلك تهوّرًا وهي بهذا المرض؟

- بالتأكيد، لكنّ أولئك الذين اقتربَ موتُهم يريدون أن يعيشوا الحياة بشكلٍ مكثّف.

- كم من الوقت؟

- شهران.

فكّرتْ باولا فترةً طويلة. فهي لم تُرِد فقدانَ حبيبها لأيّ سببٍ من الأسباب. بدأت الآن تفهم مشكلةَ تلك المرأة الهنديّة التي أخبرها عنها. كلّ ما في الأمر أنّ دوافعه كانت أكثر مأسويّةً وقسوةً من دوافعها. محاربة السّرطان أسوأ من محاربة الشّيخوخة، رغم أنّ الشيخوخة مثّلتْ أيضًا سببًا للحزن وخيبة الأمل.

لم تُرِد للمرأة أن تموت قبل أن تتمكّن من احتضان الرّجل بين ذراعيها مرّةً أخرى، ولم تكن تريد لأحدٍ أن يموت، ولاسيّما بهذا المرض الرّهيب. لكنّها لا تريد في الآن نفسِه أن تفقِد وجودَه في حياتِها. ابتسمت ابتسامةً حزينةً، وعلّقت:

- ينتهي الأمر بالنّاس إلى أن يدفعوا ثمنَ ما تقوله ألسنتُهم. لم أعتقدْ قطّ أنّي قد أُجْبَر يومًا على تقاسُمك مع شخصٍ آخر.

- إن شئتِ، تركتُ سيلفيا إلى الأبد.

- سيكون ذلك بشعًا بعد كلّ ما أخبرتني به.

- وماذا يمكننا أن نفعل إذَنْ يا بو؟

- ثمّة شيءٌ واحدٌ واضح، سأعطيك حبّةَ دواءٍ وتذهب للنّوم. سأغادر بعد قليل، وفي اللّيل، وقتَ العشاء، نتحدّث بهدوءٍ وتركيزٍ أكثر. اتّفقنا؟

ساعدتْه على الاستلقاء كأنّه طفلٌ صغيرٌ عاجز، واحتضنتْه في سريره. أعطته الدواء وانتظرتْ ظهورَ الأثر. كان محطّمًا جدًّا ومُنْهَكًا، بشكلٍ لم تره عليه من قبل. قدّرت أن يكون ذلك بسبب ما ألمّ به من حزن، وما بذله من مجهودٍ غيرِ هيّنٍ على النّفس، حتّى يخبرها بحقيقة ما حدث. سرعان ما أظهر الدّواء نجاعَتَه، فاستسلم للنّوم.

تأمّلت باولا الوجهَ المحبّب إليها. ثمّ غادرت الغرفة دون أدنى ضجيج. لكن قبل ذلك، سحبت الستائرَ لتغطّي الأجواء بظلٍّ عميقٍ يُساعد على إراحة آلام القلب.

في غرفة الملابس بدأت تستعدّ للخروج. ففتحت الخزائنَ الكبيرةَ المليئة بالثّياب. لكنْ يبدو أنّها لم تجد أيَّ زيٍّ يوافق خيبةَ الأمل المريرة في

روحها. في أوقاتٍ كهذه، كانت تذهب إلى جيما للحصول على المشورة، كما تفعل دومًا في ظروف الحياة الحرجة ...

***

كانا مستلقيَيْن على الشّاطئ، ينتظران شروقَ الشّمس، وسطَ بردٍ رهيب، ولاسيما أنّ ضفّةَ النهر مكشوفةٌ دومًا، وتهبّ عليها رياح اللّيل باستمرار.

أخرج يدَه من داخل الفراش وفكَّ البطّانيّة. ذاك الشّيء هناك، يُشير دائمًا إلى الحقيبة الميدانيّة. كان أفضلَ اختراعٍ يُستَعمَل في الغابة، فلا بردَ يمكنُه المرور عبره.

تحسّس بأصابعه رمالَ الشّاطئ الجليديّة، وكان من الأفضل أن ينتظرَ ارتفاعَ الشّمس حتّى تمنحَه حرارةً تساعده على النّهوض.

كانت سيلفيا تنام إلى جانبه، ورأى أنّها قد غاصت بكلّيّتها في الفراش، فلم يتبيّن منها غيرَ خصلةٍ حمراءَ من شعرها في الخارج.

ثمّ ألقى نظرةً على النّار المنطفئة الّتي ماتت في ندى الصّباح. كان ذلك اليوم، مثل كلّ أيّام الغابة، يَعِدُ في ذلك الوقت من العام، بحرارةٍ شديدة.

يُستحسَن أن ينتظر ارتفاعَ درجة جرارة الشّمس حتّى يكتَسِب الشّجاعة لصنع القهوة. ثمّ إنّه لم تعد للوقت أهمّيّة. لقد جاءا وفقًا لهذا الشّرط: رحلة متشرّدَيْن، رحّالتَين بلا شكّ، ولن يتعجّل أيُّ واحدٍ منهما شيئًا. وحيثما وجدَا مكانًا جميلًا، خيّما فيه، ماداما يشعران برغبةٍ في ذلك.

وضع يدَيْه تحتَ رأسه وبقي يشاهد الغيومَ تتكوّر في السّماء. كانت

العصافير تتقلّب وسط تيّارات الرّيح، وقد جاءتْ طيورُ الصّيد إلى الشّاطئ، باحثةً عن مياه النّهر الضّحلة حيث يمكنها أن تجدَ طعامها.

مرّ عليهما شهرٌ عندما نزلا النّهرَ، الصّديق القديم، نهر أراغوايا، رفيق الكفاح والأحلام.

سلكا الطّريق الأقلّ وُعُورَةً كي يصلا إلى هناك. إذ ذهبَا إلى غويانيا، ومن هناك إلى أروانا، على ضفّة النّهر. بقيَا بضعة أيّام يستعدّان لذلك، فحصلا على زورقٍ جيّد، وببطءٍ، بدآ في النزول. وعندما وصلا إلى بانانال، كانا ينتظران رحلة نقلٍ من طائرة القوّات الجوّيّة البرازيليّة إلى شينغو. سيبقيان هناك فترةً قصيرة، ثمّ تكون رحلة العودة.

شهرٌ واحد، شهرٌ واحدٌ فحسْب على مغادرة باولا أيضًا، باولا توجور، باولا الحبّ المطلق والحقيقيّ.

- ألا تريدين منّي أن أرافقك إلى المطار؟

كانت ترتدي القفّازَين بتلك الجاذبيّة التي تميّزها.

- لا حبيبي، أحتاج إلى التعوّد على غيابك منذ الآن.

حاول أن يأخذَها بين ذراعَيْه، لكنّ باولا أبعدته بحزم.

- هذا أيضًا غير ممكن، حبيبي، لا بدّ أن أركّز على البقاء دونك بكلّ الطرق.

وضعت قبّعةً صغيرةً على رأسها، وبأطراف أصابعها أنزلتْ فوق عينيْها حجابًا أسود صغيرًا.

- لا شكّ لي في أنّ الغابة الخاصّة بك حقًّا عجيبةً يا عزيزي، لكنّ الرّبيع في باريس شيءٌ جميلٌ جدًّا، وآمل أن يساعدني قليلًا. أمّا

الباقي -وقالت تلك العبارة بتشديدٍ متعمّد- فأتمنّى أن يسير على ما يرام، وأنت تعرف عنواني في باريس.

ثمّ داعبت وجهَ الشّابِّ الحزينَ المحبطَ.

- الحقائب موجودة في السيّارة والسّائق ينتظرني.

ابتسمتْ في لامبالاةٍ مقصودةٍ وقاتلة.

- تشاو عزيزي.

مرّ شهرٌ، شهرٌ واحد...

كانت سيلفيا قد استيقظت وأخذت تنظر إليه مبتسمةً، ثمّ قالت:

- كم تريدُ مقابل الأفكار؟

- لم تكن ذاتَ قيمةٍ كبيرة، كنتُ أفكّر في من سيكون رئيسَ خدمة الحماية الهنديّة في بانانال.

- هذه ليست مشكلة، بانانال مازالت على بعد أيّامٍ قليلة، أليس كذلك؟

- هي كذلك.

ابتسمت سيلفيا ابتسامةً أظهرتْ غمّازتَيْها الآسرتَيْن:

- ما زلتَ غاضبًا يا غوم؟

- أتمنّى فعلًا ألّا تكرّري ما قلتِه لي في اللّيلة الماضية. إنّها المرّة الثّانية الّتي تفعلين فيها ذلك، وأصبح من المزعج سماعُ الأمر...

- حسنًا يا غوم، أمسِ كنّا سعيدَيْن، ولعلّنا بالغنا في الشّرب قليلًا... أيّ تجاوزٍ حمَلَه كلامي؟

- الكراهية الّتي أشرتِ بها إلى والدي لم تكن إنسانيّة، وهذا لا يحدث إلّا عندما تسكرين...

- هل غضبتَ إذ قلتُ إنّي أتمنّى أن يُحترَق في جمر الجحيم للضّرر الّذي تسبّب فيه لنا؟

كان وجه سيلفيا منقبضًا.

- ألستَ أنتَ مَن يحبّ الصّدقَ والصّراحة؟ حسنًا، سأتوقّف عن قول ذلك. لكنّي متأكّدةٌ من أنّ هذا ما أشعر به. أشعر به مِلْءَ روحي، وأن يكون والدَك لا يعني أن أنسى القسوة الّتي عاملني بها. كنتُ فتاةً صغيرة، وعاملني هو وعائلتُه الكاثوليكيّة كما لو أنّي عاهرة... هذه هي الحقيقة.

- سواء أكُنتِ على حقٍّ أم لا، يا سيلفيا، فهو والدي، وأنا أحبّه، وهو الآن ميّت.

- مات وعليه اللّعنة! لطالما سمعتك تكرّر: «لأنّ النّاس يموتون، فليس لهم الحقُّ في التّقديس».

وقف، ثمّ مشى وتركَ الكيسَ غير مرتّبٍ على الرّمال. وبعد ذلك ذهبَ وجلس بعيدًا، على ضفّة الشاطئ الّتي تلامسها أشعّة الشمس الدّافئة. وضع قدمَيْه في الماء البارد وانتظر الانجذابَ الّذي سيصيب أسماكَ الميغيلينيو الجائعة والوقحة. فجاءت للسّباحة في المياه الضّحلة حول قدمَيْه، تريد قرصَهما. خفّفت برودةُ الماء من توتّر المحادثة قليلًا، وكان يكره تلك الاحتكاكات الدّاخليّة والعقيمة. حينها أمكنَه أن يدرك بوضوحٍ ما تستخدمه باولا من فارقٍ لتنمية جاذبيّة الأشياء والحفاظ عليها، حتّى في فترات الانفصال المؤقّتة. وهذا عكسُ ما حدث الآن، كانت باولا تعرف كيف تعيد إحياءَ الحبّ والصداقة وكيف تثبّتهما.

شعر بالرّعب يسيطر عليه. كان الاكتشاف كبيرًا، حتّى إنّه سحب قدمَيْه من مياه النّهر فزعًا. فحضور باولا يعود إلى ذهنه باستمرار، رغمَ محاولته نسيانَها. حاول دائمًا عدم التمسّك بأيّ شيءٍ له علاقةٌ بها. لكنّ باولا توجور عادت إليه بطريقةٍ مفاجئة، وهذا يعني... هذا يعني... أنّ...

شعر بغصّةٍ في حلقه ورفعَ يدَيْه إلى شعره، وتلك حركةٌ دفاعيّةٌ رافقته منذ أن كان صبيًّا.

أخذ الافتتانُ بسيلفيا يتلاشى بمرور الأيّام، حتّى خَبَتْ جذوتُه، وفَقَد ما كان له من بريق، ومثَلت الحقيقةُ أمامَه عاريةً وناطقةً عن نفسها. لقد التقيَا بعد فوات الأوان، أو قُلْ إنّ الحياةَ قد أعادت جمعَهُما في الوقت الخطإ، وبتأخيرٍ كبير. وإذا كان للجنسِ أهمّيّتُه في الحبّ، فإنّ ذلك لا يُعدُّ اكتشافًا جديدًا، في حدّ ذاتِه. لكنّ الفراشَ لا يقومُ بديلًا وحدَه عمّا تقتضيه العاطفةُ من وَهَج، ومن تعلّق، يتجاوزُ حدودَ السّرير، وغرفَ النّوم. ولا بدّ من ذاك الفراش الرّوحيّ لدعم ما في الحبّ من أهمّيّةٍ هائلة. كلاهما موصولٌ بالآخر. وكانت باولا أَعْرَفَ النّاس بذلك.

في البداية افتتانٌ، فجنون، فرغبة، رغبةٌ في التخلّص ممّا تراكمّ في النّفسِ عن إحباطاتٍ سابقة. لم يكنْ الأمرُ أكثر من لقاءٍ بين جسديْن، يرغبُ أحدُهما في أن يثأر من مرحلةٍ محبطةٍ سوّرت شبابَه، ويسعى الثّاني إلى استعادة شغفٍ لم يُكتب له أن ينموَ ويشقّ طريقَه في مراهقةٍ بائسة... كان صدامًا وحشيًّا بين إرادتَيْن تلتهم كلٌّ منهما الأخرى في الوقت نفسِه وبالشدّة نفسها. لذلك لم تكن الليالي والأيّام سوى علاقةِ تملّكٍ وتملّكٍ إضافيّ. في لحظات الاستراحة، كان كلٌّ منهما ينظر في عينَي الآخر، متعبَيْن، لكنّ الرّغبة لم تفارقهما.

- حبيبي، كلٌّ منّا ينظر إلى الآخر بعينَين تتحرّقان شهوةً، إنّه ما نسمّيه نحن الأمريكيّين «بيدروم آيز».

- هذا صحيح يا عزيزتي.

كانت ذراعاه تطوّقانها، والأنف يستنشق رائحة الشّعر. ومرّةً أخرى عكست المرآة عيونَهما مع دوائر سوداء تحتها، لكنّهما نسيَا ذلك بسهولة.

- نحتاج إلى الخروج قليلًا يا عزيزي.

- نعم نحتاج إلى ذلك، بعد قليل.

- هذا صحيحٌ، بعد قليل.

كان لا بدّ من تعويض كلّ السنوات الضائعة في دُوار بضعة أيّام. تلك هي الحياة، وكانت تلك حياتها. احتاجتْ إلى الابتعاد عن الأمر المحتوم وإمتاع نفسها ما استطاعت، حتّى لو نقص الوقت المخصّص لذلك.

الشّواطئ الرّائعة، اللّيالي الحالمة، مياه النهر بكاملِ سحرها...

كانت الشّمس رائعةً، وكذا الرّياح الّتي دفعت أسرابَ البعوض بعيدًا.

كان وقت الغروب رائعًا، وهو يأتي في كلّ مرّةٍ أجملَ من السّابق.

* * *

وسط الأشياء الجميلة، وعلى فتراتٍ تتقارب كلَّ مرّة... ظهرت الخلافات.

كانا منتهيَيْن، حتّى إنّ كلًّا منهما ما عاد يستطيع تقبُّلَ الآخر وفهمَه تمامًا. فقد بلغَا كلاهُما مرحلةَ التعفّن بفعل الحياة. أصبح من المثير للأعصاب تكرارُ فكرة أنّ كلَّ ما هو أمريكيّ أفضلُ وأكثرُ كفاءة...

لعلّ تلك الرّحلة طالَت أكثر ممّا ينبغي... وسواء أكان انطفاءُ الشّعلة ناجمًا عن عزلةِ الغابة، أم عن تلك المشروبات الّتي تشتريها سيلفيا، كلّما مرّت بالقرى، وتُكثر من استخدامها ليلًا، فإنّ المللَ قد تجلّى بكلّ ندوبه، وبما يثيره في النّفس من إحساسٍ باللّامعنى. وقد تغذّى على التّدريج من أشهر العسلِ الّتي أقحمت الحبّ في قمقم، ونزعت عنهُ شاراتِه ووهجَه الأوّل، حيثُ لا غرابةَ، ولا دهشةَ، ليتحوّلَ إلى صفحة ماء آسنة، وعاديّة، فلا جرأةَ، ولا تنويعات، ولا تطرّفَ في الحميميّة.

***

في بانانال جُنَّتْ سيلفيا من الفرح، فلأوّل مرّةٍ في حياتها تكتشف عنصرًا جديدًا... إنّه الهنود. وبدت كأنّها تلميذةٌ في إجازةٍ أو طفلةٌ حول شجرة عيد الميلاد.

أرادتْ أن يلتقطوا لها صورًا في كلّ الوضعيّات الممكنة، رفقةَ كلّ واحدٍ منهم.

- في شينغو، سوف يعجبك الأمر أكثر.

- لماذا يا غوم؟

- هناك يمشي الهنود ولا شيءَ عليهم.

- يعرضونَ كلَّ شيء؟

أومأ بيده لتأكيد فضولها.

- كلّ شيء.

لفّت يدَيْها بسعادةٍ حول رقبته.

- أوه غوم! هل تعدني بالتقاط صورٍ معهم؟

- أعدك، لكن لماذا؟

- لأنّ صديقاتي في نيويورك طلبنَ منّي التقاط صورٍ مع هنود لديهم...

فضحك.

- ذلك بالفعل أمرٌ منتشرٌ بين الأمريكيّات.

ثمّ قال محتارًا:

- ولكنْ كيف عرفت صديقاتُك أنّك ستكونين في شينغو وأجزاء أخرى من الغابة؟

شعرت سيلفيا ببعض الانزعاج، وأجابت في قلق:

- أخواتي كُنَّ يزوّدنني دومًا بأخبار حياتك ورحلاتك في الأدغال.

- إذَنْ، فقد خطّطت لكلّ شيء، كلّ شيء، والأسوأ أنّ كلَّ ما خطّطت له كان يحدث تمامًا كما تخيّلته.

***

كانا يمارسان الصّيدَ على الشّاطئ. والحقّ أنّه هو من كان يتكفّلُ بالأمر، وتكتفي هي بمراقبته مندهشة، فيأخذ أسماك البيرانيا المفترسة ويقضي عليها قبل أن تترك الخطّاف، مع ضرباتِ سكّينٍ في الدّماغ، حتّى تفقد خارج الماء ضراوةَ فكوكها.

كانت سيلفيا تنظر مرعوبةً، وارتجفت من النّخير الّذي تطلقه الأسماك آكلةُ اللّحوم، وهي تقفز بغضبٍ فوق الرّمال.

- هل ستأكل من هذا؟

- كملاذٍ أخيرٍ فحسْب.

- إذَنْ لماذا تصطادها بكثرة؟

- للأرامل والنّساء اللّواتي لا يملكنَ أقاربَ يصطادون لهنّ في البرّ أو النهر، ولا آكل سمك البيرانيا إلّا في اللّحظات الأخيرة، أي عند الحاجة.

كانت سيلفيا مستلقيةً على الشاطئ تأخذُ حمّامَ شمس. وأكسبها طول التّعرّض لأشعّتها لونًا بنّيًّا ذهبيًّا مذهلًا، ولاسيّما ثدياها اللّذان ظهرا منتصبَيْن بشكلٍ جميلٍ من أثر اللّون البرونزيّ. وكانت خطوط فخذَيْها محترقةً ومتناسقةً على نحوٍ جذّاب.

- إلامَ تنظر يا غوم؟

- لا شيء.

ابتسمتْ، ورقصتْ بجسدها المحترق على المنشفة الخضراء الباهتة الّتي كانت فوق الرّمال.

جثَا إلى جوارها طمعًا في جسدها.

- والصّيد المخصّص لهنديّاتك المسكينات؟

- ثمّة وقتٌ كافٍ لذلك.

لفّت سيلفيا ذراعَيْها حول رقبته وجذبته إليها.

ثمّ همست في أذنه ذلكَ السّؤالَ الّذي يودّ سماعَه دائمًا ويردّ عليه دومًا بالتأكيد:

- هل أُعجبك؟

- بالطّبع يا حبّي، أنت امرأةٌ رائعة.

ثمّ غادر جسدها بتكاسل، وغاص في النّهر. فصرخت سيلفيا قلقةً:

- البيرانيا يا غوم!

- إنّها بيرانيا مُصابة، وهي الآن خاضعةٌ ومروَّضة، لا تهاجم، بل تهرب من الضّجيج الّذي نحدثه.

من داخل الماء، واصل النّظر إلى بنية جسد سيلفيا الرّائعة. وعندئذٍ خامرته أولى ظلال الشكّ، على الأقلّ ذلك الشكّ الأوّل الّذي تمكّن من اختراق شبكات التكتّم. فطرح على نفسه سؤالًا قاسيًا مليئًا بالسمّ: هل هذه المرأة... مريضةٌ حقًّا؟ أو هل يمكن أن ...

غطسَ في الماء ليُبعِد عينَيْه عن ذلك الجسد الّذي بدا له غضًّا وسليمًا جدًّا وحيًّا أبعدَ ما تكون الحيويّة وأشدّ ما يكونُ النّشاط، جسدٍ يدفئ نفسَه باشتهاءٍ وفرح، تحت أشعّة الشّمس النّاعمة.

***

كانت الطّائرة تهبط في حركةٍ دائريّةٍ فوقَ الأرض المكشوفة. ثمّ ظهر المسار الأحمر في الأسفل.

- هنا يبدأ ما نسمّيه «شينغو»، وهو مركزُ موضعٍ متقدّم. وهنا، ستجدين كثيرًا من المتعة.

ما إن هبطت الطّائرة حتّى عادت إلى المسار الّذي يؤدّي نحو المركز. وما إن توقّفت المحرّكات، حتّى ركض الهنود العراةُ لرؤية مَن وصل.

اتّسعت عينَا سيلفيا من الدّهشة، وبقيت ملتصقةً بنافذةٍ صغيرةٍ من خشب الزّان، تشاهد العالَم المختلف الّذي وجدته. قبل شهورٍ كانت وسطَ صخب نيويورك وضجيجها، والآن يبدو أنّها سقطت في الزّاوية الأكثر بدائيّةً وغرائبيّةً من الأرض .

- ما هذا يا غوم؟

وأشارت إلى مجموعة هنودٍ محترقين من الشّمس، حتّى إنّهم بدوا ببشرةٍ سوداء، وكانوا يضعون موادَّ زينةٍ على شفاههم.

- هم أصدقاؤنا التشوكاراميس، أقارب الهنود الكايابوس. والّذي على الشّفاه يُسمَّى باتوكي، وكلّما كان كبيرًا رأوه أجمل.

- لا أريد أن أنزل هنا يا غوم، لِنَعُدْ.

كانت بالفعل خائفة.

- كلام لا معنى له، إنّهم لطفاء جدًّا هنا في المركز، سترَيْن.

أسرعوا إلى معانقة غوم بسعادةٍ غامرة، وسألوه عن المرأة فأوضح لهم الأمر. بعد ذلك أظهروا مودّةً كبيرةً لأنّها المرّةُ الأولى التي يُحضِر فيها صديقُهم زوجتَه، وأحاطوا سيلفيا بلطف. أمسكت النّساء بيدها ودفعنَها إلى المركز لما رَأَيْنَ من خوفها الكبير.

- هيلب غوم!

- أنا قادمٌ وراءك يا عزيزتي، لا يوجد أيّ خطر، إنّهم يعبّرون عن حبّهم لك لمّا عرفوا أنّك زوجتي، تمسّكي!

ومع انتشار الخبر كبر الموكب، واقترب مزيدٌ من النّاس لرؤية المرأة.

في المركز لم يكن هناك لا أورلاندو ولا كلاوديو. والشّخص الّذي وجدَه أمامه كان صديقًا زنجيًّا وعاملًا قديمًا هناك، اسمُه مانويل جورجي.

- من الجيّد حقًّا أنّك أتيت، إذ لم يبقَ في الصيدليّة أحد، ولا يوجد من المتحضّرين هنا سوى الهنديّ شيرينتي الّذي تعرفه، وفيرمينو والزنجي كيلومو. أمّا السيّد أورلاندو والسيّد كلاوديو فذهبَا إلى نواحي نهر باتوفي، يتبعان آثارَ الهنديّ الطيّب تيكاو.

- هل سيستغرقان وقتًا؟
- بالنّظر إلى الطّريقة الّتي خرجَا بها، أعتقد ذلك يا سيّدي.
- وما الّذي تحتاج إليه الصيدليّة؟
- أشخاص يفهمون مثلك، هذا كلّ شيء. لا بدّ من القيام بجولةٍ إلى قرية ميناكو، وقرية أوايتي وكامايور، هناك أناسٌ كثرٌ واقعون أرضًا.
- إذَنْ، لنذهبْ غدًا.
- للتوّ وصلتُ، وأنا أكلّفك بأعمال.
- أنا هنا من أجل ذلك، وماذا عن العوّامة؟
- سيّئة كالعادة، لا يوجد لحمٌ جيّد، ولا سكّرٌ ولا شيءٌ آخر يصلح.
- الأغنية المعتادة نفسها، أليس كذلك؟ لكنّي أحضرت بعض العلب لتخفيف البؤس.

خطرت له فكرة.

- أخي جورجي، أخبرني، هل توجد قهوةٌ للطّاقم؟
- هذا إذا لم يزعجهم خلطُها مع القليل من السّكّر البنّيّ.
- لا أعتقد ذلك.

بعد نصف ساعة، كانت سيلفيا أقلَّ خوفًا، تشاهدُ الأجواء والهنودُ يلازمونها ويحيطون بها، مدفوعين بفضولٍ كبيرٍ إلى رؤية زوجةِ الرّاهب يقطين.

أعلن هدير الطّائرة عن رحيلها، فشحب وجهُ سيلفيا فجأةً، وأدركت أنّها أصبحتْ سجينةً في تلك الغابة مدّةَ أسبوعٍ على الأقلّ.

-كوني على طبيعتك عزيزتي، هذا هو شينغو، كلّ ما ترينْه، لا شيء آخر. عندما تريدين الاستحمام في النّهر، انزلي عاريةً مثلهنّ، لا ترتدي بذلةَ السّباحة، وإلّا فسيعتقِدْنَ أنّك مختلفةٌ وتريدين إخفاءَ شيء، سيرغبن في معرفة ذلك وسيضعن أيديهنّ للتأكّد ...

***

بعد أسبوعٍ من ذلك، تلاشى كلُّ خوفها، حتّى إنّها أُعجِبتْ بمدى سرعة تكيّفها مع الأجواء. أصبحت صديقةً حميمةً للتشوكاراميس ذوي الأفواه الكبيرة، وتعلّمت أغانيهم، وعلّمتهم أغانيَ باللّغة الإنكليزية رائعةً جدًّا وقديمة. استحمّت بلا ملابس في نهر تواتواري، وسط الهنديّات، واستمتعت كثيرًا معهنّ، لكنْ بعد مرور الأيّام الأولى من الافتتان والمتعة، بدأت تلاحظ غيابَ غوم، إذ كان يغادر عند الفجر ويعود متعبًا في آخر النّهار، ممتلئًا بالقراد. كان يطوف بين القرى ويعالج الهنود المرضى.

كان شينغو جميلًا، لكنّه لم يكن ببهجة أراغوايا. وبدأت أولى علامات الملل تظهر ببطء.

الفصل الثّالث

في ذلك الجزء من الغابة

رغم ما اكتسبتْه سيلفيا من صداقاتٍ كثيرةٍ مع الهنود، وما جمعها بغالبيّتهم من لعبٍ وغناء، وحرصها على أن تعلّمهم أغانيَ باللّغة الإنكليزيّةِ فإنّ الرّتابةَ قد بدأت تعرف سبيلَها إلى نفسها، ولم تعد قادرةً على إخفاء علاماتِها.

أخذت تمشي وحدَها مسافاتٍ قصيرة، بالقرب من المخيّم، إذ طلبوا منها ألّا تبتعد كثيرًا، أو أن يرافقها هنديٌّ موثوقٌ به عندما تفعل ذلك. لقد أصبحت زوجةُ يقطين، كما كانوا ينادونها، محبوبةً لدى الجميع ويرغبون في خدمتها بكلّ سرورٍ في آنٍ واحد. اكتفت في أغلب ساعات النّهار بمعاينةِ ما يفعله الشّابّ، مُنتظرةً لكثرة انشغالاته أن يُنهي ما عليه من مهامّ ليكونَ معها، ولم تكن لتتوقّف عن الشّكوى عند لقائه:

- عزيزي، أنت لا تهتمّ بي كثيرًا. فنحن في منتصف شهر العسل ومع ذلك تُقايضني بأيّ هنديّ.

- عزيزتي، الأمر ليس كذلك، لا يوجد أحدٌ في المركز يفقه أمور الصّيدلة، ولا يكلّف المرءَ شيئًا أن يمدَّ يدَ المساعدة للمرضى. ليسَ من ذلكَ بُدٌّ يا عزيزتي، وسيكونُ لنا دائمًا زمنُنا الخاصّ، وإنّه لا يوجدُ في واقع الأمر ما يبرّر جزعَك.

لفَّ ذراعَيْه حول خصرها واستنشقَ رائحةَ شعرها بمتعة.

- إلى أين تُريدين أن نذهب؟ هل تشعرين بشيءٍ من الوحدة بعد مغادرة هنود التشوكاراميس؟

- يا لَه من أمرٍ غريب! أليس كذلك يا غوم؟

- وما ذلك الأمرُ، هلّا أوضحتِ؟

- لقد كانوا ودودين جدًّا وفي غاية اللّطف، وعند الفجر غادروا دُون أن يقولوا حتّى وداعًا.

- إنّهم جزءٌ من الغابة، ويلتقون في أشياء كثيرةٍ ممّا يصدرُ عنهم، بأمطارِها وبريحها، يأتون متى أرادوا ويغادرون بالطّريقة نفسها. ذلكَ من صميم طبائعهم باعتبارهم هنودًا. عليكِ أن تتقبّلي الأمر، مثلما هوَ، دون أن تذهبي بعيدًا في تأويله. وعلى أيّةِ حالٍ فالأمرُ لا يشملُهم كلّهم، ولكنّه الغالبُ على تصرّفاتهم. ماذا تريدين أن تفعلي؟

انفلتتْ من بين ذراعَيْه.

- أن أقوم بجولةٍ في الغابة. يبدو أنّ شمسَ اليوم حارقة، وسيكون من المُجدي أن أظفرَ بقسطٍ من الظّلّ وببعض الانتعاش.

- سنذهب، لكنْ لا تشتكي بعد ذلك من القراد والبعوض.

- ما هذا! كأنّك هنا لتفسد المتعة.

كانت سيلفيا شديدة الانفعال والعبوس.

- سأحضر سلاحًا ونذهب للتجوّل في الغابة مرتاحَيْ البال.

عاد ببندقيّته وقميصه ليحمي نفسَه من بعوض الكارابانياس الموجود في الأحراش الكثيفة.

- أنا جاهزٌ، أين سنذهب؟

فأشارت إلى جهة الجنوب الشّرقيّ.

وظهرَ على وجه الشّاب انزعاجٌ غامض.

- ما الأمر؟

- لا شيء.

- بدا عليك الوجومُ.

- الأمرُ لا يستحقُّ، هيّا نذهب.

مشيَا جنبًا إلى جنبٍ صامتَيْن. وكان يفكّر في داخله: «لعلّها لم ترغبْ في الذّهاب إلى هناك بالتحديد. أَيُمكِن أن تكون اكتشفتْ ذاك الجزء من الغابة بمفردها؟».

عبرا أرضَ المطار، وظلّ الصّمتُ سائدًا بينهما.

- ما هذا يا غوم؟

- ما الخطبُ يا عزيزتي؟

- يبدو أنّك لا تشعر بالسّعادة في المشي معي. أبدأتَ تملُّني؟

- يا لَه من هُراء يا سيلفيا. أنا متعبٌ قليلًا فحسب، لأنّي بذلت جهدًا كبيرًا، كي أرتّب الأمور في الصيدليّة، هل رأيتِ عددَ الأشخاص الّذين حضروا؟

- نعم.

عادَا إلى الصّمت مرّةً أخرى. لكنّ سيلفيا لم تنتظرْ طويلًا.

- لماذا لا تريد الذّهاب إلى حيث طلبتُ؟

- في الغابة جزءٌ يذكّرني بأشياء محزنة، لا أريد العودةَ إلى هناك.

- كنتُ متأكّدةً من ذلك، يكفي أن أرغبَ في شيءٍ معيّنٍ حتّى تقرّرَ أنتَ عكسَه.

مثلُ ذلك النّوعِ من الجدالِ العقيمِ صار يُتعبه، ويُباعدُ أكثرَ بينهما، ليجدَ أنّه من دونِ قصدٍ يفكّرُ في باولا مرّةً أخرى. كانت باولا خلافًا لذلك شديدةَ التّرفّع عن تلك السّفاسف، وعن تافه الأمور. لا شكّ أنّ السيّدة المجنونةَ المحبوبةَ تستمتع في باريس، كما ذكرتْ هي نفسُها. وخدشتْ قلبَه فجأةً لمسةُ غَيرةٍ قادمةٍ من بعيد. ماذا لو أنّها فعلتْ، على سبيل الانتقام، ما يفعلُه هُوَ منذ ما يناهز شهرَيْن؟ لا، هي لن تفعلَ ذلك بسهولة.

ثمّ ابتسم.

- لماذا تبتسم الآن؟

- عزيزتي، إذا تصرّفتُ بجدّيّة تغضبين، وإذا ابتسمتُ تحتجّين. لا يُمكن أن يسير الأمرُ هكذا.

سارَا جنبًا إلى جنبٍ عابسَيْن، وكلٌّ منهما يتحسّسُ سبيلَه في الحياة بطريقته الخاصّة. كانت سيلفيا تمشي بخلاف الاتّجاه الّذي أرادته. فدخلا إلى حقلٍ نَبتَ فيه عشبٌ أصفر، ثمّ قطعا غابةً من المانغابايرا لا نظام فيها، وفجأةً توقّفا عند باب الغابة الكبيرة.

- كيف اكتشفتِ كلَّ هذا؟

- أمس، جئتُ إلى هنا وحيدةً.

- أنت مجنونة! هذا خطير، ففي أحيانٍ كثيرةٍ وجدنا داخل هذه الغابة آثارَ نيرانٍ أشعلها هنودٌ غير مسالمين، جاؤوا لمراقبة المخيّم أثناء اللّيل. الأمر خطيرٌ جدًّا، لقد اختفت في هذه الغابة كلابٌ كثيرة، وكانتْ ضحيّةً للنّمور.

لم يبدُ على سيلفيا المتشنّجة أنّها تريد استيعابَ التّحذير.

- حسنًا، لقد جئت وحدي، ماذا كنتَ تريد منّي أن أفعل وأنتَ بعيدٌ تمشي بين القرى؟ أن أتعفّن من النّوم على الأرجوحة أو أموت من الملل وأنا أحملق في النّهر؟

لعلّ الفتاة كانت على حقّ. لكنّه لم يكن يستطيع تركَ ما دَأَبَ على فعله طوال حياته، مثلما أنّه لم يكن يجدرُ به أن يجعلها تُشاركه المشيَ تلك المسافات الطّويلة كي تعبر أراضي مُعشوشبة، غارقةً جرّاءَ المياه الأخيرةِ في الوحْل، ولا أن تقطعَ الأدغال الشّائكة، وتبقى دون شرب الماء ساعاتٍ كاملةً أحيانًا.

- لهذا انتظرتُ وصولَك لننفَذ من هناك، أريد أن أعرف ذلك المكان الغامض.

- أعتقد أن لا جدوى من ذلكَ، والأفضلُ لنا أن نعودَ من حيثُ جئنا.

- لا، لقد وصلتُ إلى هنا وسأمضي قُدُمًا. إذا كنت لا تريد مرافقتي، فيمكنك العودةُ.

ثمّ حسمت الأمرَ ودخلت الغابة، متّبعةً الطّريقَ الضيّقةَ بين الأشجار.

- سيلفيا!...

لم تُكلّفْ نفسَها عناءَ الالتفات، ومضتْ بعيدًا.

- يا لَها من مجنونةٍ، يا إلهي!... كلُّ ذلك من أجل نزوة.

هروَل كي يلحقَ بها، لكنّ كلّ ما سمعَه هو خطواتها السّريعة وهي تسحَق أوراقَ أشجار الغابة وأغصانها. وكان عليه أن يركض كي يصل إليها.

عاد يصرخ باسمها مرّةً أخرى، قلقًا من الجهد الّذي بذلته سيلفيا. كان يُدرك أنّه لا يستطيع المخاطرةَ كثيرًا، لكنّها لم تُجِبْ وواصلت الجريَ داخل الغابة.

لا شكّ أنّه يقتربُ من الأرض المكشوفة المشؤومة. وهو مكانٌ أقسمَ ألّا تطأه قدماه مرّةً أخرى. فركض أكثرَ، وكان ضوءُ النهار يتسلّل عبر منافذَ بين الأشجار. هناك كانت الأرض المكشوفة بكلّ روعتها.

وقفت سيلفيا هناك، تلهث ويداها على وركيها، تحدّق في عظمة الأشجار وارتفاعِها من حولها. ثمّ التفتت إليه متحدّية:

- هل كنت تريد إخفاء كلّ هذا وإبقاءه لك وحدك؟

مشت إلى جذع الجاتوبا وجلست على فروعها العظيمة الّتي امتدّت كمخالبَ معقوفة.

فأطلق تحذيرًا مخيفًا:

- من فضلك لا تجلسي هناك!

كانت عيناه تبدوان كأنّهما أشعّةٌ متوهّجة، واهتزّ جسدُه كما لو أنّ به مسًّا، وتصبّب عرقُه، وتدفّق من فمه لعابٌ لزج.

- ماذا حدث يا غوم؟

نهضت فزِعةً، وحاولت الابتعادَ عن المخلوق الّذي بدا كأنّه يقترب من نوبةِ صَرع. كانت عيناه مثل كُرتَيْ زجاجٍ ملتهبتَيْن، ولم يبدُ أنّ تلك الملامح المنتفخة للرّجل نفسه، لا شكّ أنّه كان بعيدًا، بعيدًا جدًّا...

حدثَ ذلك قبل أكثر من ثلاث سنوات، عندما منحتْه باولا استراحةً في إحدى المرّات حين رأتْ الحزنَ بدأ يسيطر عليه. في تلك

اللحظات أدركتْ أنّ صرخةَ الغابة الغريبةَ تناديه، فأرختْ مخالبَ الحبّ وتركتْه يذهب. وبتلك الطّريقة، كانت واثقةً من أنّها لن تخسره أبدًا.

جاء كعادته إلى مقرّه العامّ، جزيرة باننال. ومن هناك كان يختار كلَّ مرّةٍ منطقةً من مناطق الغابة ليزورها. في تلك المرّة اختار شينغو، وشعر بالرّضا والسّعادة، إذ كان شهر مايو يبشّر بجوٍّ رائع، وليالٍ منعشةٍ خاليةٍ من البعوض، وبأيّامٍ طويلةٍ حارّةٍ مع سماءٍ زرقاء، وبمياهِ النهر الباردة والممتعة وهي تستعدّ للصيف.

لم تكن في القرية ولا في المركز أمراضٌ، عدا بعض الأشياء اليسيرة، وغير المقلقة. وفي المركز اكتمل العدد بحضور كلاوديو وأورلاندو، وكان كلّ شيء عبارةً عن بهجةٍ وموسيقى. والأمرُ الجيّد أنّه لم يوجد سائحون يزعجون سلام البيئة ويفسدونه. وكان متأكّدًا من أنّ حبَّ باولا ينتظره بحنانٍ في مكانٍ بعيد.

في ظهيرة أحد الأيّام، وبعد فترة استلقاء، شعر بالملل من الأرجوحة، فقفز إلى الأرض.

استحمَّ في النّهر، وشرب قهوةً بعد أن أعاد تسخينَها على الموقد، ثمّ ذهب ليرى الحياة، ويتأمّل الأشجارَ، ويستمع إلى غناء الطّيور.

لم يبحث عن بندقيّة، بل عن مسدّسٍ صغيرٍ من طراز سميث ويسون 32، كان لوالده. ولم ينوِ الصّيد، ولا القتل، بل الدّفاعَ عن نفسه عند الحاجة.

عبَر أرضَ المطار، ومشى بين أشجار المانغابا، ثمّ نفذ من مدخل الغابة. كانت من أجمل الغابات، وكثيرًا ما ذهبَ إلى هناك مع بداية اللّيل لاصطياد طيور الجاكوبين والقراز، هذا إذا لم يكن يرافقه هنديٌّ لقتل أحد القرود.

كانت الغابة تنبض بالحياة. وفي كلّ مكانٍ غناءٌ وأصواتٌ أثارَها حضورُه المتطفّل، وفراشاتٌ ذات أجنحةٍ زرقاء تطير تقريبًا في مستوى سجّادة الأوراق الموجودة عند كلّ شجرةٍ معمّرة. في بعض الأحيان يبدو أنّ الجوّ أظلم، لأنّ ضوء النهار لا يكاد يتسلّل عبر الغطاء النباتيّ الكثيف.

كانت جميع أنحاء جسده تستقبل راحةً نفسيّةً غير عاديّة.

- وحدَهم أولئك الّذين سيموتون يمكنهم بلوغُ مثل هذا السّلام!

ابتسمَ مندهشًا من تلك الفكرة الغريبة.

- يا لَها من فكرة!

تقدّم أكثرَ في الدّرب النّاعم. وصار على مقربةٍ من الأرضِ المكشوفة. سمع خطًى حَذِرَةً خلفه، فاستدار والمسدّس في يده، مستعدًّا لأيّ طارئ، لكنّه ابتسم. كان كلبَ الصّيد العجوزَ الخاصّ بالمركز، تركه هناك قبل بضع سنواتٍ ضابطٌ جاء به موسم الصّيد، وشعر الكلب بخروجه، فتبعه في صمت.

رحّب بالحيوان وأخذا يسيران معًا.

- لم تُرِدْ لي أن ألتهمَ كلَّ ذلك الجمال وحدي، أليس كذلك يا صديقي القديم؟

هشّ الكلبُ لما وجدَه من اهتمام، فهزَّ ذيلَه كالممتنّ.

ها هي ذي الأرض المكشوفةُ الملكة، وكلّها جمالٌ واتّساع. عبَرَها قاطعًا تلك الدّائرة من الضّوء الّتي تتسرّب بين السّتائر العظيمة. ثمّ جلس فوق جذور الجاتوبا الطّويلة وخلع قبّعتَه، ليحرّرَ شعرَه المتعرّق. وبقي يُراقب ما تعيشه صغارُ المخلوقات من حياةٍ متواضعة: كفاح النّمل الّذي يحمل أوراقَ الشّجر أو الحشرات الميّتة الصّغيرة. ثمّ رفعَ رأسَه

ليستمتع بسقوط الأوراق الّتي تحاكي الفراشات في رقصاتها. كانت السّماء الزرقاء تسيطر على كلّ شيءٍ بلا بقعةِ غيومٍ واحدة، وانبعثْ آلاف الصّيحات وأصواتُ الغابة فأشعرتْ قلبَه براحةٍ أكبر.

استلقى الكلبُ في مكانٍ قريب، ورأسُه مستندٌ إلى إحدى قائمتَيْه الأماميّتَيْن الممدودتَيْن.

تسلّل الشّيطان من خلال الأغصان واقترب من أذنه:

- وحدَهم أولئك الّذين سيموتون يمكنهم بلوغُ مثل هذا السّلام.

ابتسمَ للفكرة الّتي تُطارده.

- لكنْ لماذا الموت؟

- الموت وكفى، إنّه الموت ببساطةٍ، الموت من السّعادة، على عكس الآخرين، الموتُ دون ألم، ودون أيّ شعورٍ بأنّ الحياة كانت تستحقّ أن نَعيشَها.

- أموت الآن؟ لكنّي مازلتُ شابًّا، طموحًا، ولا تخلو حياتُه من أسبابٍ وجيهةٍ للسّعادة، وثمّة فضلًا عن ذلك من يُحبّني، وأمكنَ لي أن أحقّقَ ما يمكنُ أن نسمّيَه نجاحًا ولي أصدقاء كُثْر.

- إنّها الوضعيّةُ الأمثلُ لميتةٍ جديرةٍ بالاعتبار، أم تودُّ أن تشيخَ، وأن تبلغَ ذلك العمر الّذي لا يرحم، ليذهبَ عن جسدك كلُّ ألقٍ وتنطفئ جذوتُه، وليكون وجهك مرتعًا للتّجاعيد، ويذهب عن عينيْك ما لهما من بريق.

بدأتْ تلكَ المحادثةُ تبهره. لكنّه حاولَ ألّا يلتفت إلى إغراءات الشّيطان.

-سيكونُ من المحزنِ أن تكون شأنك شأنَ الآخرين، أولئك الّذين يقضون أيّامهم في انتظارِ أن تتعفّنَ أجسادهم، وتبلى أرواحهم، وتضيق أنفسهم، لتنهار حياتهم أمام أعينهم، وعلى رؤوسهم، وليذهب هدرًا كلّ ما أفنوا أعمارَهم من أجله. من المحزن أن تنحصر أحلامُك في شيخوخةٍ طويلة، تتربّص بها العللُ والأمراضُ، شيخوخة بلا حبّ، ستُدرك خلالَها أنّ مواهبك الفنّيّة آخذَةٌ في الزّوال.

شعر بغصّةٍ في حلقه، وتأثّرَ تأثّرًا كبيرًا. كانت الغابةُ تنشرُ مخالبَ سحرِها، مثيرةً حمّى الوحدة. لكنّ كلَّ شيءٍ بدا هادئًا جدًّا ولم يسبّب قلقًا ولا خوفًا.

-أو قد تحتفظ بالحياة، لتسلّمها في المستقبل إلى مخالب السّرطان، أو لتنفجرَ في جذورها نوبةٌ قلبيّةٌ مزمنة... لكن أن تموت هكذا، وأنتَ ترى السّماء، وترى السّلام، مع قلبٍ يزداد اتّساعًا من الهدوء والنّعيم الّذي تشعر به الآن، نعم، أن تموتَ وأنت تعلم أنّهم سيفتقدونك، وكلّك اطمئنانٌ وثقةٌ من أنّك لم تضايق أحدًا ولم تسطُ على حقّ غيرك، ماذا يكلّفك ذلك؟ الحبّ نفسُه سوف يتسامى إلى لغزٍ لا ينكشف ويمكنك أن تبقى في أبديّة الوجود البائسة. ولمَ لا أيّها السّخيف؟ إنّها مسألة ثوانٍ، الموت نومٌ عظيمٌ بلا ألم! في يومٍ من الأيّام سيأتي إليك، على أيّة حال. ثانيةٌ واحدةٌ فقط، ولن يعود الموت مؤلمًا بعدها، ولن يكون ألمًا كبيرًا مثل ألم العيش، لا أحدَ يذكر ألمَ الولادة، ولا أحد سيذكر ألم الموت...

كانت عيناه مفتوحتَيْن من الدّهشة، وبلغت الحمّى ذروتَها. رأى خضرة الأشجار، والسّماءَ الزرقاء، وسمع غناء العصافير. وأصبح كلّ شيءٍ يشكّل سمفونيّة جميلة، تحوّلت إلى نشيدٍ يدعو إلى النّوم.

كان يدركُ ما يفعل. لكنّه لم يشعر بأيّ ندمٍ أو ذنب. وحدَها تلك الرّغبة الهائلة في النّوم تسكنه. أن ينام طويلًا، ألّا يعاني من تهديد القلق بعد الآن، أن ينسى أنّه عاش وأنّ الحياة هي الألم.

غمرته سعادةٌ من نوعٍ خاصّ، لم يسبق له أن أحسّ بها، حتّى إنّه لم يفكّر قطُّ في ما يُحتملُ حدوثُه بعد ذلك. كان خاليَ الذّهن، من تلك الأسئلةِ الّتي طالما رافقته عن العالم الآخر، وعمّا ينتظرُ الإنسانَ من مصير، لم يتساءلْ عمّا سيؤولُ إليه جسدُه، ولا عمّا ستلوكُه الأفواهُ بعد موته من كلماتٍ بائسةٍ ومكرورة، وما سيبديه النّاسُ من آراء ومواقف، إذ لا شكّ أنّهم سيعبّرون عن صدمتهم، وسيعتبرون الخطبَ مأساةً، وما هو في تقديرِه بمأساة، إذا جعلنا في اعتبارنا أنّ من يريد أن ينام تمامًا، لا يتنفّس إلّا من خلال مسام الرّوح، الرّوح فحسب...

في حالة ثمالةٍ من السّلام، رفعَ يدَه ووضعَ فوّهة المسدّس فوق قلبه. لم يغمض عينَيْه لأنّه أراد أن ينام وهو يستمع إلى أغاني الحياة ورغب في أنْ يرى، حتّى اللحظة الأخيرة، اللّونَ الأخضر المهيمن على الغابة والأزرقَ الرّائع لسماءٍ عديمة الفائدة.

ضغط على الزّناد... لكنَّ الطلقة لم تغادر المسدّس. كان ما يزال غارقًا في النّشوة، فعاد إلى الضّغط على الزّناد مرّةً أخرى، وحاول مجدّدًا، لكن لا شيء.

عندئذٍ فحسب، وقع في رعب الواقع. وأصابتْه رعشةٌ عنيفة، ونَفَثَ

من صدره عُواءَ توجّع. ففقدت الغابةُ كلَّ هدوئها وأخذتْ تندفع في عاصفةٍ جنونيّةٍ غير متوقّعة، وبدت الأشجار كأنّها تتصادم في ما بينها، فاهتزّت الأغصان بعنفٍ حتّى تشابكتْ، وغطّت اللّونَ الأزرق في الأعلى.

بدأ يبكي بكاءً يائسًا. لقد سبّب الشّيطان كلَّ ذلك الدّمار تعويضًا عن فشله الذّريع.

- يا إلهي، ماذا كنت أفعل؟

وقف الكلب على قائمتَيْه وشَعْرُ خاصرته منتصبٌ كلُّه، وبكى مثل حيوانٍ يتعرّض لمعاملةٍ سيّئة، ورفع خطمه إلى السّماء. فجأةً هدأت الغابة تمامًا وسادت رائحةٌ قويّة جدًّا من ثمار الجوافة، غلبتْ على رائحة الدبال والنّسغ البرّيّ.

عند حافّة الغابة ظهرَ ضوءٌ مصفرّ، كان يقترب ببطء.

عوى كلبُ الصّيد أكثر من شدّة الخوف، ثمّ ابتعدَ مذعورًا، واختفى في الغابة.

داخلَ الضّوء الأصفر رأى خيالَ والده المتوفّى يدنُو منه. كانت نظرته مشدودةً إلى جسده، ورآه يرتدي ملابسَ نومٍ زرقاء فاتحةً وفي رجليه النّعل الجلديّ ذاته. كان النّعل يكرّر الضّجيج الذي اعتادَ إصدارَه عند المشي فوق طوب الحمّام ومخزن المطبخ في منزلهم القديم، على الرّغم من أنّه لم يكن يلامس غير الحشائش الرّقيقة على الأرض.

انتصبَ أمامه، وفي عينَيْه حزنٌ تبلّله الدّموع. كان حليق الذّقن، مع ذلك الظلّ الدّاكن الّذي يتركه الشّعر المحلوق على وجهه. خرجت من بين شفاهه كلمةٌ واحدةٌ في البداية، وبدا صوتُه حزينًا:

- مجنون!

ثمّ فتح ذراعَيْه على شكل صليب، وواصلَ التحدّث إليه:

- ماذا دهاكَ يا بنيّ، ولمَ كلّ هذا؟ أتُجادلُ الرّبَّ في مشيئته؟

أنزل ذراعَيْه وذهب للجلوس بجانبه، فوق أحد الجذور الكبيرة.

فأخفى يقطين وجهَه المبلّلَ بين ذراعَيْه المستندتَيْن إلى ركبتَيْه.

واستمرّ والده في التحدّث إليه، لكنْ هذه المرّة بهدوء أكبر:

- لا أحد يُلغي الحياةَ من باب الهواية يا بنيّ. الحياة أكبر من مجرّد نعمة. إنّها أثمنُ من الموت، وأشدُّ منهُ، وما من مُنتحرٍ ضمنَ لنفسه الخلاصَ، من أولئك الّذين اختاروا إنهاءَ الرّحلةِ بدافع عدم الاهتمام. وحدَهم أولئك الّذين يعدمون الحياة بدافع الحبّ أو اليأس يمكنهم أن يجدوا إمكانيّةَ الخلاص. الحياة خلقت لتُعاش حتّى اللحظةِ الّتي يراها الربّ مناسبة...

وقف على قدمَيْه وتابع:

- أنا حزينٌ يا بنيّ، حزينٌ في نومي الأبديّ، انظر إلى عينيّ.

أطاع دون أن يجد قدرةً على رفض هذا الانجذاب.

- لا تدع عيني بعلامةِ الحزن هذه فترةً لا متناهية. هل تعدني بذلك؟ والآن التقط سلاحك.

فنفّذ الأمرَ دون تردّد.

- سأغادر، يجب عليّ الذّهاب، ليكن الربّ رحيمًا بروحك.

واختفى مع الضّوء المصفرّ في الاتّجاه الّذي جاء منه.

عادت الغابة إلى حياتها العاديّة مرّةً أخرى، غير مباليةٍ به وبالمأساة الرّهيبة الّتي مرّت بالمكان.

كان السّلاح في يده، وركبتاه لا تزالان ترتعشان من الانفعال. وبجهدٍ كبيرٍ تمكّن من النّهوض. ووضع قبّعته على رأسه ومضى باحثًا عن طريق العودة.

عندما وصل، ألقى بنفسه في الأرجوحة الشّبكيّة وتفاجأ الجميع بالحمّى الغريبة التي أصابته مدّةَ ثلاثة أيّام.

بعد خمسة عشر يومًا من ذلك، كانوا جميعًا يتحدّثون عن الأسلحة، وقد مثّلتْ دائمًا شغفًا كبيرًا لكلاوديو، فقال معلّقًا:

- في مجموعتي ينقص سميث ويسون 32، مِن ذلك الّذي يفتح من الأعلى، وهو نوعٌ يسمّونه زنادَ الكلب. مازلتُ لم أحصل على قطعةٍ منه.

قفز يَقْ من تلك المصادفة.

- لكنْ عندي واحدٌ من ذاك النوع، ألم ترَه قطّ؟!

- لا، هل تريد أن تريني إيّاه؟

ذهب يبحث بين أمتعته، وعاد بالمسدّس المشؤوم.

- إنّه مثل هذا بالضّبط.

شعر يَقْ بالقشعريرة من أثر الصّدمة.

- حسنًا، يمكنك الاحتفاظ به، لقد ورثته عن والدي.

- أنت مجنون! كيف تُفرّط في هذه التّركةِ الثّمينة، بمثلِ هذه السّهولة، لا يجدر بك أن تتخلّى عن شيءٍ يحمل ذكرى أبيك.

- إنّها خدمةٌ تقدّمها لي... لكنّه يحتاج إلى إصلاح، لا شكّ أنّ به خللًا، لأنّه لا يُطلق النّار.

- هل لديك رصاصاتٌ؟
- الخَمسُ الّتي تناسب الأسطوانة.

رفع كلاوديو السّلاحَ إلى عينَيْه، وأغلق إحداهُما، ثمّ نظر إلى جذعٍ كبيرٍ لشجرة الجاتوبا كان أمامه، وضغطَ على الزّناد مرّةً وأخرى، فخرجت الطّلقات الخمس...

***

كانت سيلفيا لا تزال مذهولة، تحدّق في ملامحه المضطربة. وفي لحظةٍ مفعمةٍ بالعاطفة، أخذتْه بين ذراعَيْها.

- غوم!... غوم!... عزيزي... ماذا حدث؟! لم أكن أعرف أنّ الغابة ستسبّب لك كلَّ هذا الضّرر.

- ما كان علينا أن نأتي، لكنّك أصررتِ، لا يمكنك الجلوس هناك.

وأشارَ إلى جذر الجاتوبا.

- ليس هناك، أبدًا!

- لماذا يا عزيزي؟

- هناك رائحةُ الدّم، هناك جذرُ والدي، كنتِ دائمًا تكرهينه، كراهيةً مازالتْ مخزّنَةً في أعماق قلبك.

الفصلُ الرّابع

حقيقةُ كلّ واحدٍ

- أنا حاملٌ!

بعد تلك العبارة شحُبَ وجهُه.

- ما الأمر؟ أنا أقول حقيقةً، أنا حامل!

بقي واجمًا لا يعرف كيف يردّ، وذلك ما أثار حفيظة سيلفيا.

- ليس في الأمرِ ما يحملُ على الاستغراب، إنّها طبيعةُ الأمور ومآلها الحتميُّ... أن ينام رجلٌ مع امرأة، ثمّ يحدثُ أن تتوقّف دورتُها الشّهريّة شهرَيْن متتاليَيْن، وهكذا...

تلك الطّريقة الباردة في إعلان الأمر جعلت كلَّ التحفّظات العبثيّة تنفجر بشكلٍ نهائيّ، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا، فإنجابُ طفلٍ في ذلك الوقت، وفي تلك الظّروف، أشبه باقتراف جريمةٍ خسيسة. إنّ ابنًا مثل هذا لا يمكنه إلّا أن يعجّل بالموت المكتوب إلى أجلٍ مُسمّى.

حكّ رأسَه وهو حائر.

بدأت سيلفيا تُظهِر الغضبَ النّاجمَ عن موقفه الّذي لم تجد ما يبرّره.

- أَبهذا البرود، وبهذا القدرِ من اللّامبالاة، تتلقّى خبرًا مثل هذا؟ ألا يعنيك في شيءٍ أن يكونَ لك من صلبك ابنٌ يسكنُ أحشائي؟

حاول أن يجد تبريرًا لنفسه:

- ليس هذا يا عزيزتي، أنتِ لا يمكنك إنجابُ طفل، يجب ألّا يكون لك طفلٌ أبدًا!

أطلقت ضحكةَ تحدٍّ.

- مهمّة حمله وإنجابه شأنٌ يخصّني وحدي، وليس من حقّك أن تقرّر ذلك من عدمه!

كانت عيناها تشتعلان غضبًا.

- حسنًا، إذا كنت لا تريده، فأنا أريده. سوف أنجب هذا الابن حتّى لو متّ، حتّى لو كان عليه العيش في الولايات المتّحدة دون أن يعرف والده.

أغلقت قبضتيْها في حَنَقٍ وقالت مهدّدة:

- يمكنك أن تكون واثقًا يا غوم، هذا الابن سيكون لي وحدي، وحدي، هل تسمع؟ سيذهب بعيدًا ولن تعرف شكله أبدًا...

أدارت ظهرَها، وهرولت باتّجاه الضفّة الّتي تؤدّي إلى نهر تواتواري.

شعر بارتباكٍ، ثمّ تبعها. كانت تجلس على جذعٍ قديمٍ من شجرةِ نخيلٍ وقدمَاها في الماء. أمّا نظرتها فتسرح بعيدًا على مدى اخضرار الغابة.

اقترب بحذرٍ، ولمس كتفها.

- أصابني الذّهول من الخبر حتّى إنّي لم أعرف كيف أعبّر عن ردّ فعلي.

هدأت سيلفيا قليلًا:

- لا يبدو ذلك، عرفتَ جيّدًا كيف تُظهِر لامبالاتَك.

- لم يكن كذلك، أنتِ تعقّدين الأمور. لا يمكنني نسيانُ أنّك لا

تستطيعين إنجابَ أطفال. ألا تفهمين ذلك يا سيلفيا؟

- إنّها مشكلتي وحدي يا غوم، مشكلتي وحدي. إذا كنتَ لا تُريده، كما يبدو ذلك جليًّا، فسوف أنجبه وأتحمّل المسؤوليّة كلّها وحدي. قلتُ إنّ الموضوع انتهى.

نهضتْ وبدأتْ تعود بطيئًا، لتُظهِر له بوضوحٍ أنّها لا تريد منه مرافقتَها. لكنّه صرخ قائلًا:

- مهما يكن قرارك أو رغبتك، الأكيد أنّنا سنعود في الطّائرة القادمة!

***

فكّر في أنّ حالةً كهذه تحتاج إلى طبيبٍ. وإذا كان من طبيبٍ يُمكن الوثوقُ به، فهو صديقٌ له، على علمٍ بكلّ تعقيدات حياته، وسبق أن أخبره بكلّ شيءٍ قبل انطلاق الرّحلة الّتي تحوّلت إلى تضحية.

تعرّفت إليه الممرّضة فابتسمت:

- أنت محترقٌ! ونحيفٌ جدًّا.

- لقد قضّيتُ وقتًا طويلًا تحت الشّمس في الغابة.

- أنا أشعر بالغيرة! ونحن هنا في هذا البرد اللّعين، لا يصلنا حتّى القليل من حرّ الشّمس. أنت فعلًا تعرف كيف تعيش الحياة.

- هل الدّكتور ألفونسو هنا؟

- أنت محظوظ، فكلّما ظهرتَ، يكونُ إمّا متفرّغًا أو على وشك التّفرّغ. سأخبره.

بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ ظهرَ الدّكتور ألفونسو عند الباب بوجهٍ سعيد.

- آه! أمس فحسْب فكّرتُ في حياتك، وأنا قلق.

وتعانقا بمودّة.

-لنذهب إلى كرسيّ الاعتراف.

جلس خلفَ طاولة العيادة، وقدّم له كرسيًّا بجانبه.

استراح قليلًا، وقال معلّقًا وهو يشير إلى شارب الطّبيب:

-بدأ لون شاربك يتغيّر إلى الرّماديّ، ستحتاج إلى حَلْقه. عندما تكون المرأة على طريق التقدّم في السنّ، تلجأ إلى استخدام اللّون الورديّ. أمّا الرّجل فيحلق شاربَه.

-سأحلقه يومًا مّا، أشكرك على النّصيحة.

ثمّ اتّخذا وضعيّةً أكثر جدّيّة.

-كانت رحلةً جيّدة؟

-ليس كثيرًا، تبعنا طريقَ أراغوايا، وبعدها شينغو. لكنّي لم أسلك في حياتي طريقًا بمثل ذلك الملل. كنت قلقًا جدًّا حتّى إنّي لم أستطع النّوم، وأصابني أرقٌ شيطانيّ.

-لم يكن لسببٍ هيّن، أليس كذلك؟

-ألفونسو، أنا تائهٌ تمامًا، تيهًا حقيقيًّا.

-ماذا حدث؟

-موضوع سيلفيا.

أظلم وجهُه من القلق.

-هل ساءت حالتها كثيرًا؟

-على العكس تمامًا، رغم المرض الّذي تعاني منه، يبدو أنّ وضعَها يتحسّن بفعل الشّمس والتّدخين والشّرب.

- هل أخذتْ معها أيّ دواءٍ للألم الّذي تشعر به؟

- كانت تتناول بعضَ الحبوب البيضاء، من وقتٍ إلى آخر. ولكنّ ذلك كان قليلَ الحدوث، إذ تكتفي في الغالبِ بواحدةٍ لا غير، تركنُ بعدها للرّاحةِ ساعاتٍ عديدة. لا أذكر أنّها اشتكت آلامًا ذاتَ بالٍ خلال كاملِ المدّة.

- يبدو هذا غريبًا. لكنْ في بعض الأحيان يمكن أن تقلّ شدّةُ المرض، بسبب ما يعيشه المريض من أجواءٍ عاطفيّة.

- استعدّ لهذه الضّربة إذَنْ! إنّها حامل!

لو أنّها كانت ضربةً حقيقيّة، لما كان لها أن تتسبّبَ في كلّ تلك الصّدمة الّتي ظهرت على ألفونسو لدى سماعه الخبر، حتّى إنّه قفز من كرسيّه.

- لا!!

- نعم... هكذا هو الأمر.

- ولكنْ كيف ذلك؟ إذا كانت لديها ...

- لهذا السّبب أنا هنا، هل يمكن أن تكون حاملًا بالفعل؟

- مع السّرطان الّذي قالت إنّها مصابة به، وفي المكان الّذي ذكَرتْه، تكون فرضيّةُ حملها أمرًا مُستحيلًا.

- هل يمكن لهذا أن ينقص من أيّام حياتها؟

- ليس هذا فحسْب، بل إنّ الحملَ نفسَه، متى سلّمنا بوجوده لن يصمد.

- آه صحيح؟

- لنبدأ من أبسط مبدإ، ألم تلاحظ ما إذا كانت.. تؤدّي بشكلٍ طبيعيّ؟

- لم أفكّر في ذلك، كان من السّهل جدًّا إخفاء الأمور. كانت لنا، مثلًا، خلافاتٌ واحتكاكاتٌ فظيعة، وأحيانًا نبقى مثل أولادٍ متخاصمين. في إحدى المرّات بقينا ثلاثة أيّامٍ دون أن يلمس أحدُنا الآخر. وفي شينغو، قضّيتُ بضعة أيّامٍ بعيدًا عنها، كنت أزور قرًى بها هنودٌ مرضى، ربّما في واحدة من تلك اللّحظات...

- من المحتمل أن يكون ذلك، لكنْ ألَمْ تستطع التّحقّق؟

- كيف يمكنني أن أتخيّل مثل هذه الأشياء؟!

أشعل ألفونسو سيجارةً وقدّم العلبةَ لصديقه.

- والآن يا دكتور، أريد أن أراك تُنْهِي هذه القصّة، بما عهدتُه عنكَ من الحكمة.

- الذّنب ذنبك. لكن دَعْنَا نفكّر في بعض النّقاط المهمّة الّتي لم توضّحها لي قطّ، على الأقلّ قبل صُعودكما الطّائرة.

- لعلّي نسيتُ شيئًا، لكنّي أجبتُ عن كلّ ما سألتني.

- تلك النّقطة الّتي لم تعرفها كانت مُهمّة. هل تمكّنت من معرفة سبب وفاة زوجها السّابق؟

- علمتُ بحذرٍ كبيرٍ أنّه ماتَ بسرطان أصابَه في الحلق والمريء، ذلك ما فهمته. وتفانتْ حسب قولها في رعايته، واعتنت به دومًا إلى غاية وفاته، لأنّها كانت ضمن الصّليب الأحمر الأمريكيّ.

- في هذا المفصل من الحكايةِ يكمنُ أكثرُ الأشياءِ أهمّيّةً على الإطلاق.

- أعرف، لكنّك طبعًا لن تصدّق فكرةَ أنّ السّرطان مرضٌ مُعْدٍ.

- لا، لا شيء من ذلك، أليستْ لك طريقةٌ كي تجعلها تأتي لزيارتي؟

- حاولتُ إحضارَها، لكنّها رفضت. وبدلًا من المجيء معي، بقيتْ تحزم حقائبَها لتغادر إلى ريو صباح الغد. تقول إنّها ستزور طبيبًا صديقًا هناك، يعرف كلّ شيءٍ عن حالتها...

- أمرٌ معقّد.

- ولكنْ هل هي مصابة بالسّرطان أم لا يا ألفونسو؟

- نعم هي كذلك.

رجع الشّابّ إلى الخلف في كرسيّه وعليه ملامحُ إحباط.

- الآن أنا من يقول «لا».

- نعم يا صديقي، الأمر معقّدٌ أكثر ممّا تتصوّر.

- لكنْ ألَمْ تؤكّد لي أنّها إذا كانت مصابةً بالمرض فلن تستطيع الحَمْل؟

- ذلك صحيحٌ بلا شكّ، نحتاج إلى دراسة فرضيّاتٍ ثلاث: هي حاملٌ وليس لديها سرطان، هي مصابة بالسّرطان وليست حاملًا، هي ليستْ مصابة بالسّرطان وليست حاملًا.

- الفرضيّة الأخيرة هي الّتي يدعمها بحماسٍ معظمُ أصدقائي الّذين حدّثتهم بالأمر وطلبتُ رأيَهم.

- لكن حتّى في هذه الحالة، هي لا تزال مصابةً بالسّرطان.

- لأجل يسوع المسيح، ألفونسو، توقّف عن دفعي إلى الجنون ...

- وهنا يكمن مفتاحُ كلّ شيء. قد يكون السّرطان من طبيعة ذهنيّة، سرطانًا نفسيًّا محضًا، وهذا ليس له علاج.

- لماذا؟ إن هي وجدت السّبب، يمكنها الشّفاء.

- حتّى إن تمكّن التّحليل النّفسيّ من الوصول إلى الأسباب، فليس

بإمكانه أن يعالج المريض دائمًا، يمكنه أن يحسّن حالتَه، لكنْ لا يمكنه علاجُه. والآن انتبه إلى هذا الاحتمال الكبير، لا أستطيع أن أضمن صوابَه، ولهذا قلتُ إنّه احتمال، دعنا نرى، لقد كنتَ شغفَ حياتِها، شغفَ مراهقتِها، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- الجميع كانوا ضدّكما أنتما الاثنين، أليس كذلك؟

- تمامًا.

- ذهبتَ أنتَ إلى جهةٍ وذهبتْ هي إلى جهةٍ أخرى، وتمكّنتَ من نسيانها. صحيح؟

- كان ذلك أكثرَ الأشياء العمليّة الّتي قدّمَتْها لي الحياة، لماذا عليّ أن أستمرّ في تعذيب نفسي؟

- نجحتَ أنتَ، وفشلتْ هي، لذلك فعلت كلّ هذا بدافع الحبّ، الحبّ!

- لكنْ لم تكنْ بها حاجةٌ إلى اختراع قصّة السّرطان.

- لا تنسَ أنّ السّنين مرّتْ، ولم تكن متأكّدةً من قدرتها على استعادتك. لكنّها عزمت على فعل ذلك حتّى لو تحقّق الأمرُ بابتزاز الشّفقة، شفقتك، وحبّك الحصريّ يا صديقي. هذا السّرطان الّذي أصابها يسمّى الإحباط، ولنْ يكون له علاجٌ أبدًا لأنّها ستظلّ تراك دومًا شغفَ حياتها الكبير. وحتّى لو عرفتْ أنّك اكتشفتَ الحقيقة أو أظهرتَ لها كرهَك واحتقارَك، فلن تتوقّف أبدًا عن حبّك. إنّها حالةٌ مرضيّةٌ مزمنة.

- لا شكّ أنّ الأمر كذلك. لكنْ لماذا تغادر إذا كان هذا ما تشعر به؟

بإمكانه أن يعالج المريض دائمًا، يمكنه أن يحسّن حالتَه، لكنْ لا يمكنه علاجُه. والآن انتبه إلى هذا الاحتمال الكبير، لا أستطيع أن أضمن صوابَه، ولهذا قلتُ إنّه احتمال، دعنا نرى، لقد كنتَ شغفَ حياتِها، شغفَ مراهقتِها، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.
- الجميع كانوا ضدّكما أنتما الاثنين، أليس كذلك؟
- تمامًا.
- ذهبتَ أنتَ إلى جهةٍ وذهبتْ هي إلى جهةٍ أخرى، وتمكّنتَ من نسيانها. صحيح؟
- كان ذلك أكثرَ الأشياء العمليّة الّتي قدّمَتْها لي الحياة، لماذا عليّ أن أستمرّ في تعذيب نفسي؟
- نجحتَ أنتَ، وفشلتْ هي، لذلك فعلت كلّ هذا بدافع الحبّ، الحبّ!
- لكنْ لم تكنْ بها حاجةٌ إلى اختراع قصّة السّرطان.
- لا تنسَ أنّ السّنين مرّتْ، ولم تكن متأكّدةً من قدرتها على استعادتك. لكنّها عزمت على فعل ذلك حتّى لو تحقّق الأمرُ بابتزاز الشّفقة، شفقتك، وحبّك الحصريّ يا صديقي. هذا السّرطان الّذي أصابَها يسمّى الإحباط، ولنْ يكون له علاجٌ أبدًا لأنّها ستظلّ تراك دومًا شغفَ حياتها الكبير. وحتّى لو عرفتْ أنّك اكتشفتَ الحقيقة أو أظهرتَ لها كرهَك واحتقارَك، فلن تتوقّف أبدًا عن حبّك. إنّها حالةٌ مرضيّةٌ مزمنة.
- لا شكّ أنّ الأمر كذلك. لكنْ لماذا تغادر إذا كان هذا ما تشعر به؟

-لقد بلغتْ جزءًا من مرادها، ليست سعيدةً تمامًا، لكنّها راضيةٌ إلى حدٍّ مّا.

-اللّعنة! كم تشاجرنا حول هذه المشكلة! أقسم أنّي سأكون أكثر راحةً واطمئنانًا بعد خروجي من عندك.

-ليس قبل أن أطرح عليك سؤالًا صغيرًا، يا صديقي، ركّز معي.

ظهرتْ على وجه ألفونسو ملامحُ في غاية الجدّيّة، عكس تلك الّتي أظهرها عندما كان بثوب الطّبيب والصّديق.

-ماذا لو كانت حاملًا بالفعل؟

-تشاجرنا بما يكفي حول ذلك، وأقسمتْ أنّها ستأخذ الطّفل إلى الولايات المتّحدة ولن يمكنني رؤية وجهه بعدها أبدًا.

نهض ألفونسو، ودارَ حول الطّاولة، ثمّ وضع يدَه على ظهر صديقه المحبَط:

-تعاليَا لتناول العشاء معي اليوم. يمكننا التّحدّث طويلًا في الموضوع، النّفس البشريّة معقّدةٌ جدًّا يا صديقي.

-يتعذرُ عليّ تلبيةُ الدّعوةِ هذا اليومَ. لكنْ لا مشكل في ذلك غدًا، فاليوم هو اللّيلة «الأخيرة» من شهر عسلنا الغريب هذا.

-لي الآن موعدٌ مع مريض، سأمهلُك لتنالَ ما تحتاجُ إليه من راحةِ النّفسِ والبال. ولكن لتصدقْني القول، هل تريد هذا الابن؟

-لا أدري. ولكن لا يمكنُ أن نغضّ النّظرَ عن الطّريقة المأسويّة الّتي سيجيء بها إلى هذا العالَم، وإلى الظّروف الّتي حفّت بقدومه.

-إذا كان في الأمر طفلٌ بالفعل، فستتنازل. سيلفيا تحبّ الحياة كثيرًا.

ثمّ ما العذر الّذي قد تقدّمه لأصدقائها في الولايات المتّحدة إذا ظهرت فجأةً ومعها طفل؟

- لم أفكّر في ذلك.

- إذَنْ فكّر، أم تعتقد أنّ جميعَ أصدقائها هناك على دراية بالسّرطان الّذي تتخيّله؟ حتّى إنّي مستعدّ لمراهنتك.

- أيّ رهان؟

- قريبًا -أتوقّع مهلة شهرَيْن- ستتلقّى رسالةً تفيد أنّها فقدت الطّفلَ لسببٍ أو لآخر. وسواء أكان ذلك الطّفل حقيقيًّا أم وهميًّا لا وجودَ له خارج عقلها فإنّه لن يوجدَ أبدًا، يمكنك إراحة هذا القلب. والموضوع الآخر؟

- باولا! يا ربّ السّماء! سأحتاج إلى استجماع كلّ قدرتي على التّذلّل لأطلب الصّفحَ عن خطإٍ لم أقصد ارتكابَه. لقد جُرِرْتُ هذه المرّة جرًّا إلى هذا الفخّ.

تعانقَا، وغادر وهو مرتاح البال.

***

في السيّارة علّقت جيما مذهولة:

- يا ربّ السّماء! يا لَها من جرأةٍ أن يتعلّقَ مزاحها بأمرٍ جلَل، مثل هذا المرض! هذا وحدَه كافٍ ليجعل الإنسان يرتجف.

- الأمر كلّه نفسيّ.

- ذلك هو التّفسير الوحيد، لأنّه لا يوجد شخصٌ عاقلٌ يمكنه اختلاقُ مثل هذه القصّة.

لاحظتْ شحوبَ الشّابّ، فأخذت يده بلطف.

-أنت منهك، تبدو شاحبًا كأنّه سيغمى عليك.

-أمضيتُ ثلاثة أشهر في حالةٍ جهنّميّة من القلق والعصبيّة، دون أن أحصل على سلامٍ أو حتّى أستطيع النّوم. منذ خمسة عشر يومًا وأنا أنتظر وصول باولا، وهذا الانتظار يدفعني إلى الجنون واليأس.

-أظنّها قادمةً في الطّريق، إذا لم تتأخّر الطائرة، فثمّة احتمالٌ كبيرٌ أن تكون بيننا خلال ساعة.

-تقصدين أنّها ستكون بينكم.

أدار الوردةَ الصّفراء بين أصابعه في عصبيّة.

-جيموكا، ربّما يمكنك أن تُسدي إليَّ معروفًا. لا أعرف إذا كنت سأتمكّن من التحدّث إلى باولا، أو لعلّها لن ترغب في التحدّث إليّ اليوم. جئت كي أنظر إليها من بعيدٍ فحسْب، لا شيء أكثر. هل يمكنك أن تسلّميها هذه الوردة؟ ثمّ إنّ شخصًا آخر سيكون معها عند نزول الطّائرة.

-تقصد السيّدة والدتها؟ بالتأكيد... لكنْ لا تكن مرعوبًا هكذا كطفلٍ على وشك تلقّي أوّل حقنة. باولا ستدعوني إلى العشاء كما تفعل دائمًا، كي تحكي لي أخبارًا. لكن هذه المرّة، ستكون هي مَن يريد أن يعرف «الأخبار». وسأتحدّث عنك بكلّ دفءٍ إنسانيّ، فنحن صديقان ولا أعتقد أنّ أيّ شخصٍ يمكن أن يتصرّف في هذه القصّة بشكلٍ مختلفٍ عمّا فعلته أنت.

كانت السيّارة تقترب من المطار، وذلك سببٌ كافٍ كي يشعر بالتوتّر وترتجف يداه. وبدا الشحوب على وجهه حتّى إنّ شفتيْه فقدتَا لونَهما.

- وماذا عن الأخرى؟

- لا شكّ أنّها في الولايات المتّحدة الآن، تستعرض تلك الصّور ...

- يا إلهي! لا أستطيع تقبّل فكرة ادّعاء ذلك المرض. في هذا العالم أناسٌ مستعدّون لأيّ شيء. إذَنْ أحملُ إليها الوردة؟

- من فضلك نعم، ولنفترق الآن.

دفع أجرةَ التاكسي وخرج. ثمّ مدَّ يده إلى جيما كي يساعدها، وبعد ذلك قبّلَ خدَّها قبلةً ودّيّة.

- شكرًا عزيزتي، سأظلّ أراقبكِ من بعيدٍ وأنت تتحدّثين إلى السيّدة، وإذا رغبت باولا في رؤيتي، فسأكون بجانب أكشاك الهاتف ...

داخل المطار، رأى مجموعةً من أصدقاء باولا. وفي الوسط، وقفتْ السيّدة والدتها في أبّهتها العظيمة.

أعجبته فكرة أن يتجوّل في الجهة الخارجيّة. فأخذ ينظر بلامبالاةٍ إلى ماركات السيّارات. تأخّرت الطّائرة نصف ساعة، ونصفُ ساعةٍ يعني أن يبقى سجينًا زمنًا طويلًا داخل كلّ تلك المناظر المزعجة التي لا تنتهي أبدًا.

- ماذا حدث لك سيّدي؟ أنت محبَطٌ جدًّا؟ لم أرَك بهذا الحزن قطّ.

التقى وجهه مع وجه دامبرواز الودود المبتسم، وكان يعرف جيّدًا المأساة التي يمرّ بها.

- كنت مسافرًا... وأنت كيف حالك يا دامبرواز؟

- سعيد جدًّا لمجيء السيّدة باولا. أنتَ تعرف ذلك، لا؟

ابتسم له مشيرًا إلى أنّه يفهم كلَّ ما يريد قولَه بين السّطور. ثمّ ودّعه

ومشى بعيدًا دون عجلةٍ من أمره. قبل ذلك كان دامبراوز قد رافقه مسافةً قليلة، ولم يستطع مقاومةَ الرّغبة في أن يهمس له شيئًا في أذنه:

- سيّدي، أتمنّى أن أراك في وقتٍ قريب، وبشكلٍ أكثرَ حيويّة.

ابتسم وهو يشكره، ثمّ واصل سيرَه على طول الرّصيف.

عندما كانت الطّائرة على وشك الوصول، اقتربَ من قسم الهواتف وبقي ينتظر. طال نزول المسافرين بعضَ الوقت، كان هناك دائمًا أناسٌ كثيرون أمام الجمارك في انتظار تكرار تلك الحكاية الأبديّة، حكاية مراقبة الأمتعة. وفجأةً قفز قلبه، إنّها هي! باولا، كانت تزداد في كلّ مرّةٍ جمالًا وأنوثةً وأناقة. مرّت مبتسمةً بين صديقاتها، وفي يدها وردةٌ صفراء، لكنّها لم تكلّف نفسها حتّى النّظر إلى جهته.

كان يعرف باولا جيّدًا. وسنواتُ التعارف والعلاقةُ الحميمةُ الطويلة تؤكّد أنّها ستُظهِر له الاحتقارَ في البداية. لكنّ الحزن همس له أن يكون حذرًا، وألّا يبالغ في الأمل. فماذا لو أنّها سئمتْه؟ لا، في تلك الحالة، ما كان لها أن تقبل الوردة. لكنْ لعلّها وجدت حبًّا جديدًا في باريس، وذلك أمرٌ لا يصعب البتّةَ على امرأةٍ في مثل سحر باولا.

***

ظلّ على امتداد ثلاثة أيّام، يتقلّبُ من نفاد صبره. ولم يرفعْ في أغلبِ ما مرّ به من وقتٍ ناظريْه عن الهاتف. كان يرمقُه بكثيرٍ من القلق، متذمّرًا من جموده وصمته. طال انتظارُه، ولكنْ لا شيء! لم يجد الشّجاعةَ ليتّصل بها، ولا القدرةَ على أن يُقدم على مثلِ ذاك الأمرِ. كان لا بدّ أن يأتي القرار منها، فقد نالَه ما يكفي من العذاب، ولكنّ الهاتف بقي صامتًا، نائمًا، رغمَ حرصِه على أن يكونَ قريبًا منه في تلك الأوقاتِ الّتي اعتادت

باولا مكالمتَه خلالها، دون جدوى. مرّت بالفعل ثلاثة أيّامٍ وثلاثُ ليالٍ، قضّاها متسكّعًا بين الحانات، يُجالس أصدقاء، دونَ أن تكون له رغبةٌ في مشاركتهم الأحاديث، فكان صموتًا في أغلبِ الأحيان، مُغتمًّا على غيرِ عادته. وحتّى الشّرابُ ما عاد يجد له طعمًا، ومن كلّ شيءٍ تفوح رائحةُ الوحدة والانتظار. صار يتأخّر عن موعدِ عودتِه إلى البيتِ آملًا في السّاعاتِ الأولى من الفجرِ أن يجدَ تحت الباب رسالةً من باولا. لكنْ لا شيء! فيتهالك بكاملِ جسده على السّريرِ كما اتّفق، منتظرًا مرورَ حالة السّكر كي يهدأ وينام، لعلّ اليوم التالي يأتي بالجديد.

أخرج المفتاحَ من جيبه وأدخله بصعوبةٍ في القفل. ثمّ أشعل النّور في الرّدهة وراعه ما وقعت عليه عيناهُ، حتّى إنّه قد أحسّ بغتةً بما يشبه عودةَ الرّوح، واختفت آثار الشربِ دفعةً واحدة. فعلى المكتب، وفي إناءٍ صغير، كانت هناك وردة صفراءُ جميلة. لاحظ أنّ الضّوء في غرفته مضاء، وقد تسرّب بعضُه من تحت الباب، فدفعه مرّةً واحدة. كانت باولا متّكئةً على وسائدَ عالية، مميلةً رأسها بجانب المصباح وابتسمتْ له.

- مرحبًا حبيبي!

ردّ على التحيّة دون أن يقترب منها. وألقى بنفسه على كرسيّ، كما لو أنّه يريد التأكّد وهو في ذلك المكان من أنّ وجودَها حقيقيّ.

- مرحبًا... باولا.

- هناك فوق الأريكة توجد علبة، هي هديّة منّي إليك، رغم أنّك لا تستحقّها -ها قد جاء التّوبيخ الأوّل- ولكنْ على أيّة حال...

- إذا كنت لا أستحقّها فلماذا أحضرتِها؟

- ربّما لأنّ اللّون الأصفر يليق بك.

أخذ العلبةَ على مهلٍ وفتحها. وبشكلٍ غريزيٍّ، داعب وجهَه بحرير القميص الرّياضيّ، وعرفت باولا ما كان يفكّر فيه تلكَ اللّحظة. كان من أكثر اكتشافاته الممتعة: «الحرير هو الشّيء الوحيد الّذي يداعبنا دون مصلحة».

- هل أعجبك؟

- إنّه جميل، شكرًا جزيلًا.

ظلّا يتبادلان النّظرَ من مسافةٍ بعيدة. كانت تبدو جميلةً وواثقةً ممّا تفعل: ثمّ قرّرت أن تبدأ لعبةَ منح العفو، إذْ عرفت أنّها إذا لم تُبادرْ بمناداته، فمن المحتملِ أن يقضيَ ما تبقّى من حياته مُنتظرًا أن تفعل.

- تعالَ إلى هنا.

اقتربَ منها، فأشارت إلى الأرض قربَ السّرير، كما كان يحبّ أن يفعل. فأطاع من غير عجلة.

نظر إليها بتوسّلٍ وخرجَ صوتُه ضعيفًا جدًّا:

- كما الشّأن في السّابق؟

- ليس بعد، لكن دعني أراك قليلًا.

رفعتْ ذقنَه ونظرت إلى وجهه المنهَك.

- كان يجدرُ بك على الأقلّ أن تحلق، ثمّ إنّ وزنَك نقص قليلًا.

- لقد تأخّرتِ كثيرًا في المجيء يا بو...

- ماذا كنت تريد؟ ألم أنتظر أنا أيضًا وقتًا طويلًا؟

تراجع عن هجومه السّريع، وعادَ إلى وضعيّة العقوبة. ومع ذلك، لم يَسَعْه إلّا أن يشتكي:

- لقد تلقّيتُ دبّوسًا في المؤخّرة ...

لم تكد تُظهِر غيرَ ابتسامةٍ خفيفةٍ كي لا يراها، رغم رغبتها الدّاخليّة في الانفجار ضحكًا.

وبشكلٍ مبعثر، راح يسرد كلَّ ما حدث بينه وبين سيلفيا، مكتفيًا بالبحث عن النّقاط التي يدرك أنّها تهمّ باولا. ولم يجدْ بُدًّا من أن يحدّثها عن زيارته لصديقه الطّبيب وما توصّلا إليه من نتائج.

ارتجفت باولا وعلّقت تقريبًا بما علّقت جيما:

- تلك الفتاة التي ماتَ زوجها بذلك المرض، ألا تخاف الله؟ اللعنة! كيف تتسلّى بأمرٍ مثل هذا؟!

- من أجل الحبّ قد يفعل البعضُ أيَّ شيء. لقد درست وضعَ زوجها ونقلت لنفسها جميع أعراض مرضه. ويقول ألفونسو إنّها أقنعت نفسَها بالقصّة أوّلًا، كي تستطيع إقناعَ الآخرين في ما بعد بشكلٍ جيّد.

- ولكنْ هل صدّقتْ هي ذلك في مرّةٍ من المرّات؟

- العقل البشريّ معقّدٌ بشكلٍ رهيبٍ يا باولا. لا شكّ أنّها صدّقتْ ذلك بالفعل، كي تمتلك الشّجاعة الكافية لتنفيذ الخطّة. ولحسن الحظّ أنّ الأمر كلّه كان مجرّدَ كابوس.

- لحسن الحظّ، ذلك أكيد.

- عندي رعبٌ حقيقيٌّ من أن أكون مرتبطًا بشخصٍ قد يموت بالسّرطان... كان الاحتمال مروّعًا ...

- حسنًا، مرّ ذلك الأمر أيضًا.

نظرت إلى السّاعة في معصمها وتمطّتْ.

- يا إلهي! السّاعة تقترب من الرّابعة والرّبع صباحًا!

- وفيم جزعك؟ هذا ليس سيّئًا بالنّسبة إلى شخصٍ قادمٍ من باريس.

فابتسمت.

- كان الرّبيع جميلًا!... أتعرف ما أريد الآن، حبيبي؟

أدخلت أظافرها بقوّةٍ في شعرها، وابتسم هو. لكنّها بدّدت أوهامَه.

- لا، ليس ما تفكّر فيه، لكن تملّكتني رغبةٌ في أن تحضر لي فنجانًا مركّزًا من القهوة، إذا لم يكن الوقت متأخّرًا جدًّا طبعًا، فلعلّنا بذلك نزيل طعم قصّة الأشباح هذه.

- سأفعل، لكن في انتظار غليان الماء، هل يمكنني الاستحمام؟ لم أستحمّ منذ يومَيْن، أنا متعفّن.

- لماذا؟

- أَمَا زِلتِ تسألين؟ إنّه الإحباط، بسبب الحزن والقلق، لأنّي كنت أعاقب نفسي من وقتٍ إلى آخر.

- لو لم أكن غاضبة منك جدًّا، لوجدتُ هذا الاعتراف ممتعًا.

- أعلم أنّك على حقٍّ تمامًا يا بو. لكنْ منذ وصولك، لم أفعل أيَّ شيءٍ سوى جرّ مؤخّرتي على الأرض لأطلب منك الصّفح عن كلّ شيء، حتّى الطّريقة التي أخبرتك بها عن المأساة كلّها.

خرج متوجّهًا إلى المطبخ. ولمّا سمعَتْه يشعل الموقد الصّغير، نهضتْ وذهبتْ للجلوس على كرسيٍّ في مخزن المطبخ حتّى تتمكّن من مشاهدته بشكلٍ أفضل. وحدَها سيطرةُ عقلها حالتْ دون أن تتحوّلَ تلك العبارات التي ردّدتها فترةً طويلةً إلى كلماتٍ مسموعة: «لماذا تضيّعين

وقتًا كثيرًا؟» أو لعلّ ما منَعَها هو الرّغبة المقيّدة في أن تقول: «عزيزي، عزيزي أنا أحبّك... أنا أحبّك...».

عندما خلَعَ قميصَه كي يستحمّ، لم يستطع منعَ نفسه من التّعليق بانزعاج:

- غضبُك يشبه معزوفة بوليرو دي رافيل، تلك الّتي لا تنتهي أبدًا!

ترك بابَ الحمّام مفتوحًا حتّى تسمع صوتَ الماء وهو ينزل على جسده، وكي تبلغَ فتحتَيْ أنفِها رائحةُ الصّابون الّذي اختارَه.

- بو، يمكنك أن تغضبي، لكنّي سأقول لك...

- نعم؟

- أنا أحبّك...

- حقًّا؟ سوف يستغرق الأمر مائةً وستّين قرنًا لتصديق ذلك مرّةً أخرى.

اختلف الأمرُ الآن، وصار جوّ الصّراع الحلو من أجل الحبّ ممتعًا، ممتعًا جدًّا، ودافئًا، وحارًّا، إنّه إحساسٌ رائع .انتظرت حتّى يظهر بشعرٍ مبلّل، ملفوفًا في ثوب النّوم. فتوقّف كما لو أنّه رأى رؤيا، لم يستطع بعدها منعَ نفسه من النزول راكعًا على ركبتَيْه، ثمّ لفّ يدَيْه حول جسد باولا.

خرجت من حلقه صرخةٌ جامحة. كان صوتًا كلّه اعترافٌ بالحنان والشّغف:

- بو، بوبينيا، لقد عدتِ، عدتِ إلى حياتي.

تركها تشعر بجسده أكثر ومرّرت يدَها على قلبه بمودّة.

- عدتُ يا عزيزي، لقد عدتُ، لكنْ انظر إليَّ جيّدًا.

شدّت شعرَه بعنف، ورفعت رأسَه بالقرب من عينَيْها.

- لا أريد أن يحدث هذا مرَّة أخرى، أبدًا.

- لن يحدث يا بوبينيا، أبدًا، أبدًا. أقسم أن لا أحدَ سيأخذني منك أبدًا، لن أعاملك مرّةً أخرى أبدًا كما لو أنّك مجرّد حبّة «كافي أسبيرينا».

ثمّ ضحكت بحرارةٍ لأوّل مرّة. ففي أكثر اللّحظات أهمّيّةً وحنانًا، كان يأتي بمقارنةٍ مجنونةٍ ولذيذة، من تلك الّتي يعرف هو وحدَه كيف يكتشفها.

- ما علاقة «الكافي أسبيرينا» بهذا؟

- ألم تسمعي قطُّ إعلانًا إذاعيًّا يقول شيئًا كهذا: «لقد حاول التّغيير، جرّب نوعًا آخر، لكنّه لم ينجح، فعاد إليها، إنّها الكافي أسبرينا !». نغمةٌ من هذا القبيل، لإثبات أنّ الكافي أسبيرينا هي أفضل شيء.

ضمّته إلى صدرها، كما لو أنّها تضغط على قلبها كي لا ينفجر من السّعادة.

- هل تريدين القهوة حقًّا؟

- لا أعلم.

- أعتقد أنّ كلينا نعتقد أنّك لا ترغبين في ذلك.

- إذا كنتَ تعتقد أنّ كلينا نعتقد أنّي لا أريدها، فأنا أيضًا أعتقد ذلك.

أخذ باولا بين ذراعَيْه وحملَها إلى السّرير، فقبّل عينَيْها وشعرَها، ثمّ اعترف وهو يهلوس بالحبّ:

- باولا، أنا الشّخص الذي أحَبَّك منذ ميلاد النّجمة الأولى.

- إلى الأبد؟ توجور؟

- إلى الأبد، لن أتركك أبدًا يا عزيزتي، أبدًا، سنبقى معًا مدى الحياة، ونتقدّم في العمر معًا. ثمّ نتقدّم أكثر، وأكثر، كما نحن الآن. سنكون دائمًا نحن الاثنين، الاثنين نفسَيْهما.

- هل تؤكّد ذلك، حبيبي؟

- أقسم لك. ثمّ إنّنا لن نتقدَّم في العمر أبدًا، أبدًا. لا يوجد في الحبّ شيءٌ من هذا المعنى. ومن دونك أنا لا أساوي شيئًا، لا شيء يا باولا.

ضغط عليها أكثر، في نشوةٍ عميقة:

- أنت يا بو، أنت هي حياتي!

الفصل الخامس

باولا وباريس: توجور

وهذا الّذي نسمّيه الوقت!

كانت تلك الحقيقة أكثرَ الأشياء إيلامًا: أنّ باولا تتقدّم في السنّ. والأسوأ هو معرفة هذه الحقيقة المحزنة.

لم تكن ترغب في التّفكير بذلك. لكنّ الواقع كان واضحًا، كما هي نتيجتُه تمامًا.

أدركت أنّ الزّمن يتقدّم بلا هوادة على وجهها وجسدها القويّ: ملامحُ ترهّلٍ أكثر، وعضلاتٌ تميل إلى اتّخاذ أشكالٍ صلبةٍ ومُستديرة. لكن في وضعِ باولا ما يجعل الأمر أسوأ. فليس في أعصابها ما يكفي من القوّة لتحمّل الواقع، الغيرة المرضيّة تطاردُها مثل الظّلّ، وتجبرها على الاختباء أكثر داخل الحياة. كانت تريد التّدقيق في جميع أفعاله، بل حتّى مطالبته بإعلامها عن الطّريقة الّتي ينفق بها الأموال.

حاولت تعويضَ كلّ ذلك بمداعبات أكبر، بجرعةِ صبرٍ أكبر، بامتنانٍ كان دائمًا موضعَ اختبار. لقد ولّت أيّامُ الهروب والتجوال، واللّامسوؤلية والغزل العابر، تلك الأيّام الّتي كان كلّ شيءٍ فيها مليئًا بالحلم والمتعة. وكلّما خرجَا في المدّة الأخيرة مثّلَ ذلك سببًا في تعميق إثارة غضب باولا، حتّى إنّه كان يخشى اللّحظات التي تقرّر فيها الذّهابَ إلى

مكانٍ مّا، فيتجنّب الجدال ويلتزم الصّمت. وهذا يتسبّب أيضًا في إثارة مشاهدِ عاصفةٍ جديدة. وفي مرّاتٍ كثيرةٍ كان يأخذها بين ذراعَيْه، ويقرّبها منه وينظر إليها بعمقٍ في عينيها.

- لكنْ ما الأمر يا بوبينيا؟ لماذا كلّ هذا؟ أنا الشّخص نفسه، يجب أن نبقى دومًا مثلما كنّا عليه، الاثنين نفسَيْهما دومًا.

سمحت له بمداعبتها قليلًا، وحاولت لحظاتٍ أن تعود إلى شخصيّة تلك الباولا، لكنّ عينَيْها امتلأتا بالدّموع، ودون أيّ تفسيراتٍ مقنعةٍ ابتعدت عن ذراعَيْه.

- إنّها أعصابي، لا أعلم ما يحصل لي.

كانت تجلس على الأريكة في حالة كسلٍ مرضيّ، تدخّن سيجارةً تلو أخرى دون توقّف.

جَثَا على ركبتَيْه كما اعتاد أن يفعل في السّابق، وحاول وضع رأسِه على حجرها، ثمّ قال متوسّلًا بانكسار:

- باولي، باولي، أنتِ تحتاجين إلى زيارة طبيب. يجب إيجاد طبيبٍ مختصّ، لا يمكننا الاستمرار هكذا، نحن ندمّر حياتَنا، لا يمكن أن نخسر أشياء جميلةً كتلك الّتي عشناها معا... باولي، باولي ...

- من فضلك حبيبي، دعنا نتوقّف عن الأنين، سيكون من الأفضل أن تجلبَ لي أيّ شراب.

- إذا كان هذا ما تريدينه، فسأحضر اثنين، أنا أيضًا لي الحقّ في ذلك.

وبعد الأوّل جاء الثاني، ثمّ سلسلةٌ أخرى.

رغم أنّه سكران، كان عليه بذل جهدٍ كبيرٍ لينقل باولا إلى سريره، وهي شبه فاقدةٍ للوعي.

نامًا ساعاتٍ دون إيقاع. كان الوقت كتلةً من ساعاتٍ تتعاقب في طعم المرارة. وأخذت باولا تتقدّم في السنّ.

كانت الأشكال الجميلة تهرب من جسدها. وعلى التدريج، أخذتْ نحافةٌ شفّافةٌ تظلّل شكلَها المشرق، المليء بالظّلال الجميلة الأخرى.

لم يستطع مقاومةَ الأمرِ أكثرَ، فذهب لزيارة السيّدة، وشرح لها كلَّ شيءٍ بهدوءٍ وتركيزٍ ووضوح. فلم تكد تنظر إليه، وأظهرت بعضَ الحزن، ووعدته أن تقنع باولا بزيارة أخصّائيّ.

في اللّيل، عاشتْ باولا مشهدًا سيّئًا، إذ كانت عيناها تلمعان وسطَ بياض وجهها المتغيّر.

- ذهبت. هل هذا ما كنتَ تريد؟ حسِبْتَني مجنونة! هل ظننتَ أنّي سأنتهي في مشفى مختلّين؟! وبعدها يمكنك أن تصبح متحرّرًا، متحرّرًا منّي؟!

أمسك قبضتَي بولا الّتي كانت تهدّد بضرب وجهه:

- باولا!... باولا!... ما هذا؟ باولا تمالكي نفسك...

انهارتْ في موجة بكاءٍ هزّت جسدَها كلّه كما لو أنّها حشرجة الموت. وألقت بنفسها على أريكةٍ وصرخت صراخًا هستيريًّا، ثمّ نضَحَتْ شفتاها بلعابٍ خالط دموعَها.

- حبيبي، حبيبي، من فضلك، من أجل الإله، إذا بقي لي عندك شيءٌ من الحبّ، فأحضر لي شيئًا أشربه. أريد أن أشرب، حبيبي ...

نفّذ طلبَها. فأخذت الكأسَ من يدَيْه بلهفةٍ وشربت جرعةً كبيرة. ثمّ توقّفت بعضَ الوقت كي تتنفّس، ومسحتْ فمها بظهر يدها. ثمّ تناولت جرعةً أخرى وعيناها مغلقتان، كأنّها تحاول إخفاءَ ألمها في الظلام.

أمام عينَيْه المندهشتَيْن، وضعت الكأس على الطّاولة، وأخذت وجهَه بين يدَيْها.

- هذا ما يجعلني أشعر بحالةٍ جيّدة، حبيبي، هذا ما يهمّني في الوقت الحاليّ.

- لكنْ يجب أن تتوقّفي يا بو، يجب التوقّف، لا يمكن أن يستمرّ الأمر على هذا النّحو.

ضحكت بمرارةٍ، ثمّ قالت في شيءٍ من الحدّة:

- هذا ما أحتاج إليه يا حبيبي، وأحتاج أيضًا إلى أن تفهم أنّي أشرب نفسي.

أفرغت الكأسَ وسلّمته إيّاها بيدَيْن مرتعشتَيْن.

- مرّةً أخرى، مرّةً أخرى، أريد المزيد والمزيد، ليس ويسكي، بل أريد الآن كونياك ودون ثلج، لأنّه أقوى.

لم يكن يدري ما يفعل، وخشي أن يؤدّي رفضُه إلى إلقاء باولا في هذيانها السّابق. فأطاع بلا احتجاج. لقد بدأ يستسلم، وأخذتْ مقاومتُها تضعف بسبب الكحول الذي أدمنته بشكلٍ كبير، وكان يهوي بها في فراغٍ عميق.

مشى محبطًا، بيدَيْن مضمومتَيْن، وكأنّه بتلك الإيماءة يريد أن يحمي عشر سنواتٍ من السّعادة التي كانت تنهار تحت عاصفةٍ ظهرت ببطءٍ وتعاظمت في غضبٍ. بدا أنّ كلّ شيءٍ قد ضاع، بلا أملٍ في استرجاعه. عشرُ سنوات مرّتْ سريعةً كالبرق، سريعةً مثل دقيقة نعيمٍ تنتهي حزينةً، بإحساسِ أنّه عاش ألفَ عامٍ من الآلام.

***

جاء الأخصّائيّ الأوّل وتبعه آخرون. لكنّ باولا كانت تزداد سوءًا. لا دواءَ لوقف الشّيخوخة، ولا مواساةَ مناسبة. وهو ما جعلها تستسلم لليأس. لعلّها لم تكن شابّةً كما قالت في المرّة الأولى، لكن أوه! إنّه سرُّ النّساء الرّهيب!

اتّخذت قرارًا غريبًا كأنّها لا تزال تريد الاستمتاع بكلّ ما تبقّى من جمالها وشبابها الآيل إلى الزّوال. فلم تكتفِ بالشّرب في المنزل، وأخذت تخفي بدايات سقوطها عن أعين الآخرين. وبشكلٍ ساديّ، أصبحت تجد متعةً في استعراض ذلك، وفي إيهام نفسها بعباراتٍ خادعةٍ تتلقّاها من صديقاتٍ كثيراتٍ كنّ يهربنَ من المشكل نفسه.

- تبدين رائعةً يا باولا!

- أنت لا تتغيّرين أبدًا يا باولا!

- تمرّ السنوات وأنتِ كما أنت!

شربتْ ما يكفي لتصلَ إلى الشقّة شبهَ محمولةٍ. وقد تطلّب منه الأمر صبرًا عظيمًا. بعد ذلك، تناولتْ حبوبًا لتساعدها على النوم. وعندما استيقظتْ طلبت دواءً لعلاج مخلّفات السكر. وما إن تحسّن وضعها، حتّى بدأت تبحث عن الكحول مرّةً أخرى، دون توقّف.

لقد تضرّر رفيقُها أيضًا من آثار الكحول، وصارت عيناه تعانيان مع الحزن قلّةَ بريقٍ غير عاديّة. ورغم ذلك كانت منظومتُه الجسديّة، التي لا تزال شابّةً وقويّة، تستطيع التعافي بسهولةٍ أكثرَ من باولا.

ذات صباح، تحسّنت باولا قليلًا، ولم ترغب في الشُّرب عندما قامت.

نادته.

فحضر على الفور وهو واثقٌ من رؤية ما تعوّدَه في كلّ الأيّام الأخرى.
وكانت باولا تتّكئ على السرير وتراقبه.

- هل نمت هنا يا حبيبي؟

- كلّ هذه الأيّام والليالي قضّيتها هنا بجانبك يا بو.

- لماذا؟ ألا تهتمّ بأيّ شيءٍ آخر في الحياة؟

فكّر قبل أن يجيب. واستعادَ خمولَ الأشهر الماضية، فهو لم يقبل طلبات رسمٍ قطّ، ولا حاول إنجازَ أيّ عمل. لقد فَقَدَ الاهتمامَ بمعارض الفنّ ولم يشغل نفسَه حتّى بمعرفة أخبار مبيعات أعماله في صالات العرض.

- أمّا أنا فلا شيء عندي غيرك يا باولا، لا شيء آخر.

شعرت بموجة حنانٍ تغمرها.

- تعالَ هنا يا حبيبي.

فأطاعَ بلا تردّد، واقتربَ من السرير وأخذ يتأمّل خمول باولا.

- اقتربْ أكثر يا عزيزي.

ماذا سيحدث؟ هل كانت تلك هدنةً ظهرت بين ساعاتٍ طويلةٍ من الألم؟

داعبت ذقنَه، ومرّرتْ أصابعها النّحيلة عبر شعره غير المسرّح.

- حبيبي، انظر في عينيّ جيّدًا، هكذا. والآن أَجِبْني حتّى لو اضطررتَ إلى الكذب.

ابتسم ابتسامةً حزينةً قبل أن تطرح عليه السّؤال.

- حبيبي، أَمَا زلتَ تحبّني رغم كلّ شيء؟

امتلأت عيناه بالدموع قبل أن يجيب.

- باولا، باولا، ثمّة كلمةٌ لن تموت بيننا أبدًا، كلمةٌ اكتشفتِها أنت بنفسك... توجور.

- هل تذكُر كيف كنتَ تقبّلني في ما مضى؟ عندما أطلب قبلةً من ذاك القبيل، ما كنتَ تسمّيه قبلةَ الأوركيد، كانت في غاية الحنان.

- طبعًا أذكُر، ومن ينسى تلك الأشياء؟

- هل بإمكانك مَنْحي واحدة، واحدةً فحسْب من تلك القبلات الرّقيقة؟

قبّلها، ولم تكد شفتاه تلمسان شفتَيْ باولا الدّافئتَيْن. ثمّ نظر إلى عينَيْها وهمس بحنانٍ صادق:

- هذا حتّى لا تبكي عيناك الجميلتَان بعد الآن.

كانا صامتَيْن، يشعران ببقايا حنانٍ خفيفٍ أعيدَ إحياؤه، ربّما بدافع الشفقة.

- حبيبي، ما زلتَ رجلًا وسيمًا، رجلًا وسيمًا حقًّا!

- أنت أيضًا...

ضغطت يدا باولا على فمه.

- لا داعي إلى قول ذلك يا حبيبي، فأنا لم أعد أخدع نفسي، وما عدتُ سوى ظلٍّ عابرٍ لما كانت عليه باولا. ولكنْ رغم ذلك، أشكرك على هذه اللّحظة.

شيءٌ مميزٌ جدًّا كان على وشك الحدوث، إذ انفصلت باولا عن المرأة القاسية والمعذّبة التي لازمتها في الآونة الأخيرة، ومازال يؤلمها ما حدث

بعد تلك الظهيرة حين جاءته وأبلغته بقرار الذّهاب إلى النّوادي اللّيليّة. لقد عبّرت عن تلك الرغبة بقسوةٍ شديدة.

- خُذْ هذا من أجل نفقاتك. وعندما ينفَد، سأعطيك المزيد.

انهمرتْ كومةٌ من أوراقٍ ماليّةٍ فوق الطاولة، تراكمت وانزلقت إلى الحوافّ كما لو أنّها على وشك السقوط فوق الأرض.

- احتفظي بها يا باولا، إذا نفدت أموالي، فسأقترض منك قليلًا.

نظرت إليه ببرودٍ فيه بعض الخبث.

- وما الّذي جاء بذلك الآن؟ ضميرٌ ظهرَ في نهاية اللعبة؟

ابتلع الإهانةَ في صمت، وشعر باحمرارِ خدَّيْه من الخجل، ولم يجد أيَّ شيءٍ يجيب به. وكلّ ما تبقّى له هو متابعة ظلّ باولا النّحيلة وهي تدخل غرفة النّوم وتغلق البابَ بهدوء.

لقد ظلّ بلا حراكٍ أطولَ فترةٍ ممكنة، وبلا تنفّسٍ تقريبًا، حتّى لا يفقدَ توازنه في تلك اللّحظة.

- حبيبي!..

- ماذا؟

- كنت أفكّر في شيءٍ مّا، غدا أخرج مع أمّي طوالَ اليوم ولن أعود حتّى حلول الليل.

- لا بأس...

قد تذهب للبحث عن أخصّائيّ آخر. على الأقلّ، ستكون بجانب السيّدة، وستمنعها ولو بعضَ الوقت من الشّرب.

- بعد ذلك، خطر لي أنّنا لو نذهب لقضاء بضعة أيّام في ذاك المنزل

على الشّاطئ، في طريق ساو سيباستياو... فقد يكون ذلك جيّدًا لنا.

غريبةٌ هي معرفةُ القلب للأشياء. كان يميل تقريبًا إلى القول إنّها ليست فكرةً جيّدة، بالنّظر إلى حالة الضّعف والإرهاق الّتي كانت تعانيها.

-هل ستذهب معي؟ هل ستذهب معي كما في السّابق؟

-بالتأكيد حبيبتي.

-إذَن، اتّفقنا.

-نظريًّا، نعم. لكنّي أريد منك وعدًا بشيء.

-أوه يا عزيزي! لا تطلب منّي ألّا أشرب! سيكون ذلك مستحيلًا تمامًا.

-ليس هذا ما قصدتُ. كلّ ما في الأمر أنّي أريد منك ألّا تقودي السيّارة، يمكن أن يأتي معنا دامبرواز هذه المرّة.

-يمكن إيجاد حلٍّ لذلك، على الرّغم من أنّ دامبرواز صار يتقدّم في السّنّ قليلًا بسبب جهوده.

-لا تبالغي كثيرًا، لم يبلغ الرّجلُ السّتّينَ بعدُ. ويوجد أشخاصٌ أكبر منه بكثيرٍ يقودون السيّارات. أَلَيْسَ كذلك ؟

-حسنًا، والآن من فضلك كن ملاكًا مرّةً أخرى وأحضر لي بعض الشّراب.

نهض محبطًا، إذ علم أنّ باولا رجعت إلى عادتها مرّةً أخرى.

***

-السيّارة تنتظرنا في الأسفل يا سيّدتي. لقد أنزلتُ الحقائب، وسيكون من الأفضل لك ارتداءُ معطفٍ ثقيل، فالجوّ باردٌ ويهدّدُ بالمطر.

لبستْ معطفًا برقبةٍ عالية، ولفّتْ شعرَها في وشاحٍ حريريّ، بلونٍ أرجوانيٍّ فاتح.

نزلت عبر المصعد، ووجدتْ نفسَها في الشّارع حيثُ ينتظرها حبيبها. ثمّ ركبَا السّيّارةَ دون أن يقولا أيَّ شيء. وكان دامبرواز هو مَن يقود.

-كانت فكرةً جيّدةً أن تطلبي سيّارةَ السيّدة والدتك.

-هي أكثر مُطاوَعَةً.

-باولا، ألا تريدين الجلوس في الأمام؟ سيكون وَقْعُ اهتزازات السيّارة أخفّ.

-أنا بوضعٍ جيّدٍ هنا، تلك ميزة المرسيدس، في أيّ زاوية منها يمكنك السّفر بشكلٍ مريح.

طوال الرّحلة كلّها بقيت صامتة. كانت منطويةً في زاويتها، ومحتفظةً دومًا بوضعٍ يجعل نصفَ وجهها يختبئ في رقبةِ معطفِها العالية. مرّةً واحدةً فقط حاولت القيام بحركةٍ عاطفيّة، فوضعت يدَها على يده. وفي مرّاتٍ أخرى كان يلاحظ أنّها تنام أو تُغلق عينيْها مُتظاهرةً بالنوم.

كانت الرّحلة تحت هطول المطر، وبدا الطقسُ غيرَ مناسبٍ لقضاء عطلةٍ قصيرة. فدعا كي تحضر الشّمسُ في القادمِ من الأيّام لتخفّف من الحُزن، وممّا خيّم على علاقتهما من مظاهر التّوتّر وعدم الارتياح. في المرّات الأخرى، كانا يصلان وهما يفيضان بالفرح والابتهاج، على

عكس هذه المرّة. لكنْ من يدري؟ لعلّها فرصةٌ لاستعادة شيءٍ من تلك الأجواء...

لم يخالف الطّقسُ ما تمّ توقّعه، إذ لم تتوقّف المطرُ عن التّساقُط على مدى يومين كامليْنِ، بشكلٍ يثير الأعصاب، رفعَ منسوبَ التّوتُّرِ إلى درجةٍ لا تُطاق، فالقطراتُ لم تكفّ عن الانزلاقِ بلا هوادةَ فوق الزّجاج دون توقّف، مشكّلةً دموعًا تتّحِدُ في ما بينها.

كان دامبرواز صورةً حقيقيّةً من مَلاك، يمرّ في المنزل دون أن يُحدِث أيَّ ضوضاء مُزعجة. بذل قصارى جهده لإعداد أطباقٍ تُحيي شهيّةَ باولا. لكنّ كلّ ذلك ذهب سُدًى، فهي لا تكاد تقضم شيئًا منه. ثمّ تبتسم.

كان يضع الأغاني الرّومانسيّة على الجهاز الحاكي، مفكّرًا في إحياء أشباح الحبّ الميّتة الّتي طالما سكنت المكانَ في مناسباتٍ سابقة. دون فائدةٍ تُذكر، ظلّت الوجوه واجمةً وضاقت الأنفسُ بأصحابها، ولم يعد الواحدُ يحتملُ الآخر، إلّا من باب المجاملة، وما تقتضيه الضّرورةُ. حتّى الطقس البائس رفض التّعاون، وأصبحت باولا تميل إلى التأمّل والهدوء، وتُظهِر لامبالاةً رهيبةً بكلّ شيء. وأقصى ما تفعله أن تنادي دامبرواز وتطلبَ مشروباتٍ جديدة.

في الخارج، كان البحر الهائج يهوي بضرباته فوق الصّخور، ويرفع موجاتٍ عاليةً إلى السّماء.

لم يجلب فجرُ اليوم الثّالث أيَّ شيءٍ قد يبدو مشجّعًا. فالطّقسُ أبى أن يتحسّن ونسيت الشمسُ طريقَ العودة. وفي غياب التّغيّرات، واصل النهارُ سجنَ ثلاث حالاتٍ بشريّةٍ مختلفةٍ في منزلٍ فخم.

نهضت باولا، لكنّها لم تجد حتّى الرّغبةَ في تناول وجبة الفطور. وعندما عادت إلى الفراش كانت أكثر غضبًا.

- ماذا تريد على الغداء يا سيّدي؟

- عجّة صبر يا دامبرواز.

ضحك الرّجل من أعلى طمأنينة شيخوخته.

- هل يسمح لي سيّدي ببعض النّصائح؟

- لك مُنتهى الحقّ في ذلك بعد كلِّ هذه السّنوات.

- لو كنتُ مكانك يا سيّدي، لصبرتُ أكثرَ مع دونيا باولا.

- أكثرَ من هذا يا دامبرواز؟

هزّ رأسَه بحُزن، ثمّ نظرَ بتركيزٍ في عينيْه.

- إنّها تحتاج إلى كلّ الصّبر الّذي لديك يا سيّدي، وهي تستحقّ ذلك.

- سنبذل كلَّ جُهدنا يا صديقي.

كان دامبرواز على وشك المغادرة، لكنّه تذكّر شيئًا.

- سأترك طاولة اللّعب جاهزةً بعد العشاء، ربّما تجد لعبةَ الورق مهمّةً ومُسلّية.

- لعلّها فكرةٌ جيّدة. وعلى أيّة حالٍ، ستكون مُحاولةً جديدةً، شُكرًا.

لم تنزل باولا لتناول طعام الغداء. ووقتَ العشاء وجدَه وحيدًا أيضًا، يتأمّل المطرَ الّذي ازدادَ كثافةً وهو ينقر زجاجَ النّوافذ بقوّة.

هناك، في الخارج، أصبح البحرُ صرخةَ تهديدٍ لا تتوقّف.

- هل تحسّنت حالُها يا دامبرواز؟

-تناولت الشّاي فحسْب، وقالت إنّها ستنزل خلالَ نصف ساعة.

ولّما خرجتُ، سمعتُ صوتَ الشّراب يُفرَغُ في الكأس مرّةً أخرى ...

-إذا لم تنزلْ خلال المدّةِ المحدّدة، فسأصعَد حتمًا لإحضارِها، سأفعلُ ذلك حتّى لو اقتضى الأمرُ التّعسّفَ على إرادتِها، يجبُ ألّا نرضى باستمرارِ الوضعِ على هذا النّحو دون فعلِ أيّ شيء. من الأفضل أن نُغادرَ صباحَ الغدِ في وقتٍ مبكّر.

أخذ دامبرواز الأطباقَ واكتفى بالقول:

-وهذا الطّقس الّذي لا يُريد أن يتحّسن...

وما كاد ينهي كلامَه حتّى انفتح بابُ غرفة باولا، وظهرت وهي تنزل الدّرج. اكتسبتْ توازنًا مفاجئًا، إذ لم تتّكئ حتّى على الدرابزين، ونزلت بهدوءٍ وعلى وجهها تبرّجٌ فظيع، أمّا عيناها ذواتا الحوافّ الدّاكنة فبدتَا أكبر حجمًا وأكثر حرارة.

اتّجها نحْوَها، بنيّةِ مُساعدتها. لكنّها تجنّبتْهما، ومشت بعدَها إلى طاولة اللّعب، فجلست وبدأتْ تخلط الأوراق.

-أريد أن ألعب قليلًا.

جلس أمامها، ولم يجد الشّجاعةَ لتأمّل تلك المرأة التي أحبَّها كثيرًا، أو ربّما أحبّ فيها امرأةً أخرى؟

استدارتْ باولا وطلبت بحدّة:

-من فضلك دامبرواز، غيّر الموسيقى، فهذه العواطف الرّومانسيّة تُزعجني، ضع كونشيرتو بيتهوفن، وارفع الصّوت.

أطاعها الرّجل، واقتحم صوتُ الموسيقى الكلاسيكيّة تلك القاعة بعنفٍ حتّى إنّه غطّى على صوت هَيَجَان البحر.

- هل من خدمة أخرى سيّدتي؟

كان يقف بوقارٍ خلفَ باولا، في انتظار أوامر أخرى.

- أحضرْ لي شرابًا دون ثلج.

واصلت تقسيمَ الأوراق بأصابعها الرّقيقة.

- ماذا تريدين أن تلعبي؟

- أيّ شيءٍ أقلّ إزعاجًا من عدم اللّعب.

أعطته الأوراقَ ليقسمها، فوزّع إحدى عشرة بطاقةً لكلّ واحد.

- نلعب البوراكو؟

- ما هي اللّعبة الأخرى الّتي تعرفها بهذا العدد من البطاقات؟

لم يردَّ عليها تجنّبًا لمزيدٍ من النّقاشات والصّدامات. ثمّ اقترب دامبرواز وهو يقود عربةَ المشروبات.

- هل أخدمك مَادَامْ؟

- لا، شكرًا، سيخدمني هو. يجب أن يكون «نافعًا» في شيءٍ مّا، على الأقلّ.

أحرقَ وجهَه لونٌ شديدُ الحُمرة. وكان على وشك الوقوف عندما منعته حركةُ أصابع خفيّةٍ من يدِ دمبرواز، وعيناه تتوسّلان شيئًا واحدًا فقط... هو الصّبر.

راح يركّز نظرَه في كمَّيْ قميصه الأصفر، وهو يشعر بالإذلال. وظنّ أنّ ارتداء هذا اللّون سيُسعِد باولا في تلك اللّيلة على الأقلّ.

ألقى البطاقات على الطّاولة مُنزعجًا، وبدأ يصبّ الشّراب لباولا. لم يسألها عن عدد مكعّبات الثّلج الّتي تريدها، وصبَّ جرعةً رهيبةً من الويسكي، وصبرُه على وشك الانفجار.

-أيّ شيءٍ آخر مَادَامْ؟

- لا، شكرًا لك يا دامبرواز، يُمكنك الانسحاب.

صعد الخادم الدّرجَ ببطء، واتّجه إلى ترتيب فوضى الأسرّة، لعلّه يجد بعدها سبيلًا إلى الرّاحة. أخذت باولا الكأسَ دون أن تقول كلمةَ شكر، وتناولت جرعةً كبيرةً من الشّراب. أخذتْ بعدها في اللّعب ووضعت أوراقَها على الطّاولة. كانت الموسيقى على مشغّل الأسطوانات تبلغ حدًّا من عنفِ الألحان. وبدا أنّ كلّ شيءٍ يتناسب مع يأس الأجواء المحيطة: الموسيقى والبحر والمطر الرّهيب الّذي لم يتوقّف.

توقّفت باولا عند الرّسائل، وسألت بمرارةٍ من غير أن تُخرِجها:

- كم من السّنوات يا حبيبي؟

- سنوات ماذا يا باولا؟

- ونحن معًا.

- عشر سنواتٍ تقريبًا.

أطلقت ضحكةً عصبيّة.

- لماذا تضحكين؟

- ليس لسببٍ معيّن، عشر سنوات هي عشر سنوات، وقتٌ كثيرٌ لتحمّل دُميةٍ مثلك.

أدرك أنّها استأنفت الحرب. وفَقَد السّيطرة. لقد طال خضوعُه.

- يا للأسف! أليس كذلك؟

- ألا تشتكي من شيءٍ يا عزيزي؟

جاءت هذه الـ«عزيزي» حادّةً مثل رأس حربة.

- وأنتِ، لعلّك تشتكين من شيء؟

أصبحت يدَا باولا ترتجفان بشدّةٍ، وتصلّبتْ عيناها، كأنّهما تجمّدتَا في شراراتِ غيظٍ كبيرة. ثمّ التقطت الكأسَ وأفرغت الشّرابَ في جوفها دُفعةً واحدة.

- لا تريدين المزيد؟

التقط الزّجاجة وعاد إلى ملء الكأس.

- لعلّك تستطيعين بهذه الطّريقة أن تقولي، مرّةً واحدةً، كلَّ ما رَاكَمْتِه في الآونة الأخيرة.

- لست بحاجةٍ إلى الشّرب لأفعل ذلك. هل تعلم شيئًا يا حبيبي؟ لقد ارتكبتُ خطأً فادحًا، ينبغي ألّا يدّعي أحدٌ القدرةَ على تغيير مصائر الآخرين.

- إنّها واحدةٌ من أكثر الفلسفات توظيفًا. لا أحدَ يحتاج إلى ادّعاء فعلِ الخير. يكفي أن يكون صالحًا.

- ما كان يجب عليّ إخراجُك ممّا كنتَ فيه، فالمستنقعاتُ تترك آثارًا غير قابلةٍ للإزالة.

أصابَه من ذلك توتّرٌ شديد، ولم يعد يجد ما يكفي من قوّةٍ ليُسَيْطر على نفسِه. لقد طفح الكيل، ولن يكون في العالم امتنانٌ يستطيع منحَه ما يكفي من قدرةٍ لتحمّل كلَّ ذلك الإذلال.

- كفى يا باولا، من الأفضل أن نتوقّف هنا.

- سنتوقّف، نعم، لكنْ بعد أن نُوضّح أشياءَ حول ما نفكّر فيه عن أنفسِنا.

ألقى الأوراقَ بقوّةٍ على الطّاولة، وبدتْ على وجهه ملامحُ حادّة. أمّا العينان ذواتا الماكياج السيّئ فقد تظاهرتَا بأنّهما تريدان الخروجَ من مدارَيْهما.

- كان يجب أن تبقى هناك، وسط عاهراتك السّمينات، كلعبةٍ في يد العجائز المنحرفات، تتعفّن من تناول المورفين والسّموم الأخرى.

- ربّما كان للحال أن تنتهي بي في وضعٍ لائق، بعيدًا عن سماع الشّتائم من سكرانةٍ مُهسترة.

- هكذا إذَن، أنا الآن متأكّدةٌ من أنّك تكرهني. انتظرتَ أن أتقدّم في السّنّ لتخبرني بكلّ هذا. لقد أَفَدْتَ من كلّ شيء، وظلّت الحمقاء دومًا في لعبة «توجور»، تلك الّتي انتظرت دائمًا أن تَملَّ النّساء الأخريات، حمقاء انتظرتك دائمًا بقلبٍ مفتوحٍ وحقيبةٍ لترضي جميعَ أهواء ذَكَرٍ رخيص.

بهت لونُه، وسأل بسخريّة:

- أيّ نساء يا باولا؟

- تلك الغرينغا الّتي جاءت من الولايات المتّحدة كلّفتني وحدَها مصاريفَ كثيرة.

ارتبك، ولم يستطع تصديقَ ما سمع.

- تتكلّمين عن سيلفيا، باولا؟ تقصدين سيلفيا؟ لقد اختفت من

حياتي منذ أكثر من خمس سنوات، ولم أعتقد قطّ أن تخفي هذه المرارةَ وتحتفظي بها طوال هذا الوقت.

- لا أدري، ثمّ إنّي لست مُجبرةً على حفظ أسماء كلّ النّساء أو العاهرات اللّواتي نمتَ معهنّ.

- من اليوم فصاعدًا، أعتقد أنّه لن يبقى الكثير ليجمع بيننا، يا باولا.

سادَ الصّمت بينهما، وكانت نظرات الكراهية تتقاطع بشكلٍ حادّ.

- لا شكّ أنّ ملاكًا قاسيًا مرَّ في هذه اللّحظة، ملاكًا أحمرَ بجناحَيْن من نار، دمّر كلَّ شيءٍ مقدّس بيننا.

- مجرّد خيالٍ أدبيٍّ سخيف!

- إذَن، ما عاد يوجد شيءٌ للمناقشة.

- بل يوجد يا عزيزي ليوناردو دافنشي. لم أضيّع كلَّ هذه السّنوات من حياتي كي تتسلّى معي فحسْب. أنا أيضًا أَفَدْتُ من هذه القصّة ذلك الجانب البيتوريسكي الخلّاب، الجانب الطّريف من القصّة. وفيه أجسّدُ أنا شخصيّةَ بجماليون. ظننتُ أنّي صنعتُ كائنًا، أنّي صنعت فنّانًا، لكنّي أخطأتُ التّقدير، لأنّك لم تكن أكثر من نتاجٍ لخيالاتي اللّامتناهية. أنا من صنعتك، أنا من اكتشفتك، أنا من فرضتك في عالم الفنّ، أم تعتقد خلاف ذلك؟

ثمّ صرختْ كمجنونة:

- دمبرواز! دمبرواز! انزل على الفور لمساعدتي.

نزل الرّجل راكضًا على الدّرج. كان يرتدي ثوبًا فوق البيجاما، وشعره غير مرتّب.

- دامبرواز، أريد منك أن ترافقني على الفور إلى القبو. أحضرْ المفاتيح ودعنَا نذهب الآن.

اتّبعوا الدّرج حيث كان دامبرواز ينزل السّلالم ويضيء الأنوار. ويبدو أنّ القسوة جعلت باولا تنزل الدّرجات بتوازنٍ لا يتناسب مع جرعة الكحول التي تناولتها.

- قريبًا يا فنّاني العزيز والمكرّس، ستقول لك هذه الغرفة أكثرَ ممّا استطعتُ قولَه لك.

فتح دامبرواز البابَ وأضاء النّور، فاندفع الشّابّ مرتجفًا إلى الدّاخل. كان هناك عددٌ لا يُحصى من لوحاته، وقد بيعتْ كلُّها تقريبًا في معارض مختلفة. فشعر بالعرق ينهمر على جسده كلّه، وبخفقانٍ مؤلمٍ في صدغَيه، وضعفت رجلاه حتّى اضطرّ إلى الجلوس بجانب العشرات من لوحاته المكدّسة بعضها فوق بعض.

- يا لَه من منظرٍ جميل... الفنّانُ مجتمعٌ مع لوحاته، على أعتاب المجد. أنا مَن فعل ذلك، أنا مَن اقتنى كلَّ أعمالك الرّديئة، استخدمت أسماء أصدقائي لأمنحك وهمًا بأنّك مطلوبٌ بشدّة. تريد تركي لأنّي تقدّمتُ في السّنّ؟! حسنًا، لك الآن أن تكرهَني أمامَ هذه الحقيقة السّاطعة، نحن الآن متعادلان. يجب أن تدفع ثمنًا باهظًا مقابل عشر سنواتٍ من حياتي رميتها في الشّارع.

تركته غارقًا في يأسه، وعادت مع دامبرواز وهي تصعد السّلالمَ ببطء.

وجدَ نفسَه وحيدًا أعزل، أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى. فبكى بصوتٍ مُنخفض، ورأسُه على رُكبتيْه، ولم يدرِ ما يجب عليه التّفكير فيه، ولا من

أين يجب أن يبدأ التّفكير. تلقّى للتّوّ أفظعَ الضّرباتِ وأشدّها قسوةً. وخلافًا لما تقدّم من حياتِه، جاءته الطّعنةُ هذه المرّة من حيثُ لم يحتسبْ. كان ذلك جرحًا غائرًا في صميمِ وُجوده، في ما طوى من أيّامٍ وسنوات، وفي ما هو آت، بل في إيمانه بالإنسانيّة. أشياءُ كثيرةٌ تحطّمت أمام ناظريْه في لحظةٍ واحدة، سيكون من المستحيلِ ترميمُها. آلمته معدتُه من الاشمئزاز الّذي يشعر به، ولم يعرف ما إذا كان يكره باولا أكثرَ ممّا تمقته هي. ها هو كلّ ذلك الحنان يضيع هباءً، والكثير من المحبّة الّتي نمتْ في قلبه تنهار على جدارٍ من العدم.

ثمّ انزلقت دموعٌ غليظةٌ، ونزلت من رقبته حتّى بلغتْ ياقةَ قميصه الأصفر الجميل. وحدَه الموتُ يمكن أن يضع حدًّا لمثل هذا الإحباط، وحدَه الموتُ حقيقةٌ صادقةٌ في الإنسان.

ولا سبيلَ إلى انتزاعها.

حطّتْ يدُ دامبرواز الودودةُ على كتفَيْه فأيقظته من إغماءةِ الألم. وساعده في الوقوف على قدمَيْه، ثمّ قدّم له منديلًا ليمسح به آثار الدّموع على وجهه.

- كم هو أمرٌ محزنٌ يا صديقي! خُذ، اشرب كوبَ الكونياك هذا، سيُعيد إليك شيئًا من الرّوح.

- هل كنتَ تعلم يا دامبرواز أنّ كلَّ هذا سيحدث؟ هل كنتَ على علمٍ بكلّ شيءٍ موجودٍ داخل ذلك القبو؟

- لم أكن أستطيع قولَ حقيقةِ أيّ شيءٍ يا سيّدي. لكنّي أكتفي بالأسف على ما آلت إليه الأمور. لطالما نبّهتك من قبل إلى أنّ عليكَ التّحلّي بصبرٍ أكثرَ مع السيّدة باولا...

-من الآن فصاعدًا، لن أحتاج إلى التحلّي بالصّبر مع أيّ شخصٍ آخر.

عاد إلى البكاء مرّةً أخرى وشعر بحاجة إلى شيءٍ يحميه. فأخفى وجهَه في صدر دامبرواز.

-سيمرّ كلّ شيء، غدًا ستتّضح الأمور، وتنكشفُ السّبل، عليكَ ببعضِ الأمل، الكحول والعصبيّة هما سبب كلّ ما حدث.

-لا، لن يتكرّر هذا الأمر أبدًا في حياتي. كيف يمكن للشّخص نفسِه، في الحياة البائسة نفسِها، أن يُحبّ امرأتَيْن، ويكتشف أنّ هاتَيْن الاثنتَيْن مجنونتان؟

ابتعد عن دامبرواز، وشرب ما تبقّى من الكونياك.

-هل لديك معطفٌ مشمّعٌ هنا في الأسفل يا دامبرواز؟

-إنّه في المخزن، لكنّك لن تخرج تحت مطرٍ مثل هذا، ذلك جنون.

-هل يمكنك إقراضي بعضَ المال؟ في ساو باولو سأعيد لك كلَّ شيء.

-فكِّرْ لحظةً قبل أن تتصرّف هكذا، عليك أن تكون أكثر صبرًا مع دونيا باولا، فهي متوتّرةٌ جدًّا.

-لن أصعد تلك السّلالمَ مرّةً أخرى. وإذا فعلتُ ذلك فسأخسرُ كلَّ معاني الشّرف والحياء في حياتي. المعطف المشمّع يا دامبرواز، من فضلك. وفي غرفتي، تلك التي كنتُ أنام فيها، يوجد معطفٌ أزرقُ عليه مربّعات، هو فرنسيّ الصّنع، يمكنك الاحتفاظ به. وأمّا ما كان لي من أشياء، فأرجو أن تتفضّلَ بإرسالِها إلى مشفى الجذام.

صعد الرّجل الدّرج، وعاد بالمعطف والنّقود.

- شكرًا لك يا صديقي.

ارتدى وجهُه النّبيلُ لباسَ الحُزن.

- ألا تريد أن تفكّر في الأمر مرّةً أخرى؟ يجب عليك... يجب أن تتحلّى بالصّبر أكثر.

- أبدًا، حتّى الامتنان له حدود. ولن ترى تلك المرأةُ وجهي حتّى أموت. لقد كنت ميّتًا بعينَيْن مغمضتَيْن عندما سمعتُ صوتَها أوّلَ مرّة. ومثل غبيٍّ، ظننتُ أنّها تبحث عنّي مُنذ ميلاد النّجمةِ الأولى.

لبس المعطفَ ووضعَ النّقودَ في جيبه.

- إلى أين تذهبُ في هذه العاصفة يا سيّدي؟

- لعلّ المطر ينفعني، ويخفّف من قلّة الإيمان في قلبي. على كلّ حالٍ يا صديقي، شكرًا جزيلًا لك على كلّ شيء.

كان على وشك المغادرة عندما تذكّر شيئًا.

- سيكون من الأفضل أن تقودَ أنتَ السّيّارة عند العودة.

- أعدك بأنّي لن أتركها تقود.

خرج وسط هبوب الرّياح، واختفى في جوف اللّيل. أمّا دامبرواز فبقي واقفًا والمطر ينزل على جسده، وأخذ ينظر إلى الظّلام الّذي يلتهم طيفَ الرّجل.

أغلق البابَ، ومرّر يدَه على شعره المبلّل. ثمّ صعد الدّرج ببطء، وتوجّه إلى الغرفة الأخرى، فهو يعلم أنّ باولا ليستْ في غرفتها.

كانت باولا تتّكئ على زجاجِ النّافذة، ووجهُها الهزيلُ ملتصقٌ

بالزّجاج البارد، كما لو أنّها تستجدي المطرَ الّذي يهطل في الخارج أن يغسل وجهَها المبلّل بالدّموع.

- لقد رحل.

- رأيتُه يا دامبرواز.

بقيا صامتَيْن لحظة، ثمّ تمتمتْ:

- كم كان جميلًا بذلك القميص الأصفر! يا إلهي! نحن لا نساوي أيَّ شيءٍ في هذه الحياة.

ألقت بنفسها على السّرير، وراحت تشمّ الأغطية، محاولةً تذكّرَ رائحة جسده الموغلة في الرّجولة.

فتحت درج الطّاولة وبدأت تتحسّس القدّاحات. ثمّ أخذت واحدةً ذهبيّةً بين يدَيْها.

- هذا أحبُّ شيءٍ إليه.

حاولت محوَ الحروف المحفورةِ فيها بأطراف أظافرها، لكنْ دون جدوى.

وبدأت تبكي بصوتٍ منخفض.

- لماذا كان عليّ أن أفعل كلّ هذا، يا دامبرواز؟ لم أُرِدْ به شرًّا، وأنت تعلم. كان عليّ أن أفعل ذلك كي يغادر وهو يكرهني، كان من الضّروريّ أن يكرهني بكلّ قوّةٍ كراهيته الصّادقة.

التفتت إلى الخادم المسنّ، وقالت وهي تبتلع دموعها:

- كم كان جميلًا يا دامبرواز، كان جميلًا في ذلك القميص الأصفر.

* * *

أراد أن يختفي، ويتعذّب ويحاول النّسيان. وكلّما تحقّق ذلك بسرعة، كان أفضل. لقد ترك ساو باولو بعيدًا، حيث يسير الملايين من سكّانها على عجلٍ، غير مُبالين بآلام الآخرين.

تحدّث الهنديّ في داخله بصوتٍ عالٍ، ودَعَتْه الغابةُ إليها بشدّة. وقبل ذلك عرفَ من جيما، وعلى الفور تقريبًا، أنّ باولا غادرت مع السيّدة الوالدة إلى باريس. كانت باريس غابتَها، غابةً من الدّانتيل والنّبيذ والمعارض والأزياء والتّرف والعطور الباهظة، ومن ليالي المسارح والملاهي الليليّة... ومن شأنِ ذلكَ كلّه أن يُعيدَ إليها توازنَها، وأن يخرجَها من يأسِها وقنوطها.

لم يكن يريد التّفكير، لكنّ شظيّةً من الألم بقيت حيّةً ونَشِطةً في داخله. فهو لم يستطع تقبُّل أن يكون لدى امرأةٍ مثلُ تلك القدرة على تدمير شخصٍ آخر. لقد تركت عشر سنوات من الحياة المشتركة تذهب بلامبالاة، وأضاعت عقدًا كاملًا من وعود الحبّ الزّائفة...

بقلبٍ تملؤه خيبات الأمل وازدراءُ القذارة البشريّة، سحبَ المالَ القليلَ الّذي احتفظ به في البنوك وباعَ أشياء كثيرةً قيّمة، وأخذ بعضَ القروض، ثمّ غادر إلى غويانيا. تحدّث إلى بعض طاقم القوّات الجويّة البرازيليّة وتمكّن من الحصول على تسهيلاتٍ للذّهاب في رحلةٍ إلى شينغو. هناك سيدفن حزنَه ومحنتَه، وقد يشعر بميلادٍ جديدٍ مع العصارة والدبال الموجودة في تلك الغابة الّتي لا يمكن اختراقها. كانت سيلفيا مفتونةً بها، وفيها اكتشفَ أعراضَ مرضها والعلامات الأولى من مهزلتها وأكاذيبها. لكنْ، على الأقلّ، كان شينغو مع سيلفيا تأكيدًا للحبّ على طريقتها، لقد أخطأت، لكنّها حالةٌ من اليأس بسبب الحبّ.

لم يلقَ صعوباتٍ من غويانيا إلى شينغو. وفي صباح أحد الأيّام، وقبل أن تبلغ السّاعة منتصفَ النّهار، كانت طائرة البيتشكرافت تحلّق فوق الحقل بحثًا عن مكانٍ للهبوط.

وجدَ في استقباله أذرعًا كثيرةً، والتصق به عددٌ من الأجساد البرونزيّة العارية كان أصحابُها يرحّبون به ترحيبًا حارًّا.

لقد أدهشهم تقدّمُ يقطين في العمر منذ آخر مرّات مجيئه إلى هناك، وأظهروا ذلك من خلال الإشارة إلى الشّعرات البيضاء المتراكمة قرب الصّدغَين.

-أين أورلاندو؟ من الّذي يقوم على المركز؟

-أورلاندو، لأنّ كلاوديو موجودٌ في ديواروم.

مشى مع قادة الطّائرة إلى غاية المركز. كان الهنود، رجالًا ونساءً، يُظهِرون أولادًا بدؤوا في المشي وآخرين يزحفون.

-هذا ابني.

-إنّه كاتو جدًّا.

-ذلك لي، لا تعرفه.

أجلس الصبيَّ في حجره، وداعبَ رأسَه، مقرّبًا وجهَ الطفل من وجهه، لعلّه يسترجع الحنان الضّائع.

ثمّ جاء أورلاندو للقاء الجميع. فعانق أصدقاءه الطيّارين، وبقي ينظر إلى رفيقه الغائب الّذي عاد بعدَ سنواتٍ طويلة.

-هل عدتَ إلى هنا لتصلّي صلاةً خاصّة؟

كان الرّجلَ نفسَه، لم يتغيّر فيه شيءٌ: الابتسامةُ الودودةُ واللّحيةُ

والسّروال القصير وقبّعة الجنديّ الّتي يترك خصلةَ شعرٍ خفيفٍ تخرج من تحتها.

تعانقا بتأثّر.

- كم من الوقت ستبقى معنا؟

- إذا كنتم ترغبون في قبول خدماتي المتواضعة مقابلَ طبق يقطينٍ شهيّ...

جاء الهنود مع حقائبهم وأكياسهم، فتحدّث إليهم بمودّة:

- هي أشياء قليلةٌ يا أصدقاء، كراتٌ للأطفال، خطّافاتٌ وأشياءُ صغيرةٌ ستعجبكم.

ثمّ التفتَ إلى أورلاندو:

- حصلتُ على بعض عيّنات العلاج من الصّيدليّة، وأحضرتُ لك قميصًا جميلًا بمربّعات، وقد صُنِعَ لتلبسه لا لتضعه في الصّندوق الخشبيّ.

- هيّا سنتناول القهوةَ معًا في المطبخ.

رافقهم أورلاندو بمحبّة. وما إن جلسوا وبدؤوا يتذوّقون المشروبَ حتّى قال غوم:

- هذا خيرٌ كثير، ما زالتْ توجد قهوةٌ في هذا الوقت من العام؟

- لدينا حتّى علبة مربّى جوّافة لك، لقد توقّعتُ قدومَك، ويبدو أنّ الملائكةَ أحضرتْكَ، أو ماذا تقول حكاية ذلك الببغاء: «لقد استُجِيب لصلاتنا أيّها الإخوة».

- وماذا في ذلك؟

-لقد وصلت في وقتٍ لا يعلم حاله إلّا الإله. والميزانيّة القادمة من المدينة بدأت تتأخّر وعليّ السفر إلى ريو فورًا، مع عودة هذه الطّائرة، بما أنّك موجودٌ هنا.

-حسنًا.

ومرّر يدَه الودودةَ على كتف الآخر.

-لا تحزن، سأعطيك شيئًا تحبّه.

مدّ يدَه إلى جيبه، وأخرج مفاتيح قفلِ الباب، ذاك الباب المعروف في حياته... باب الصيدليّة.

-لا يزال أمامك يومٌ واحدٌ قبل عودة الطّائرة. سأتركك في مياه نهر تواتواري، وسترى كم هو الأمر جيّد. فالأمطار بدأت تهدّد بالمجيء، والطّقس الحارّ يجعل مياهَ النهر أكثر نعومةً من ظهر امرأة.

عندما عادت الطّائرة إلى الإقلاع متوجّهةً إلى المدن، شاهد أورلاندو وهو يغادر مُبتسمًا لكلّ شيءٍ كعادته، وكان الطيّارون يلوّحون بالتّحيّة خلف زجاج نوافذ قمرة القيادة. فشعر بفراغٍ مريرٍ في روحه وبدا كأنّه يطلب الحماية، ثمّ ضغطت أصابعه بقوّةٍ على مفاتيح الصّيدليّة الصّدئة.

أشارَ أورلاندو بيده إشاراتٍ تقول إنّه لن يبقى أكثرَ من شهر.

وعندما اختفى صوت الطّائرة، تفرّق الهنود، وتلاشى الدّخان، وعاد المشهد الطّبيعيّ إلى الهدوء: عددٌ من المزارع الصّغيرة يحيط بالأخرى الكبيرة، مزرعة المركز الّتي تستعمل للإقامة، ومزرعة المستشفى حيث توجد الصّيدليّة، وأشجار الجاتوبا الكبيرة التي تحيط بالغابة، وفي الخلف يوجد نهر تواتواري بمياهه البيضاء الشفّافة، يجري متعرّجًا في صمتٍ، وينزل بحثًا عن المياه المظلمة في أنهار الكوفوانتي.

- والآن يا راهب يقطين، يجب أن تبدأ من جديد، انسَ هذا الحزنَ السّخيف واملأ قلبَك بأجواء الغابة الودودة.

وما كاد يسير خطوتَيْن حتّى لحق به كالوكومي

- هل عدت يا راهب يقطين؟

- أجل.

- إذَن، سنغنّي ونلعب كثيرًا؟

بدا ذلك الرّجل العاري، المبتهج والقويّ الّذي بجانبه، في سنّ الأربعين على أكثر تقدير.

- نعم سنلعب كثيرًا.

تذكّر أنّه كان في الأيّام الخوالي يلعبُ عندما يضمّد جراحَ الأطفال ويعالجهم، حتّى يلهيهم عن الأمر ويجنّبهم الإحساس بالألم.

***

ثمّ جاءت أمطارٌ غزيرةٌ غمرت كلَّ شيء، وجاءت معها أولى مظاهر الحمّى وغزو البعوض. كانت أجواء اللّيالي حارّةً وخانقةً داخل النّاموسيّات، وأتلفت الرّطوبة حتّى البطّاريات في المصابيح الكهربائيّة.

أمضى اليومَ في التّجوّل بين المزارع، مُنتظرًا وصولَ المرضى من القرى البعيدة ليعالجهم. لكنّ حبوب أراليم كانت تتناقصُ في الزّجاجات. عملَ من الصّباح حتّى حلول اللّيل كي يتعبَ الجسدُ وتستريح الرّوح. لا مزيد من الأفكار أو الحنين. لقد مرّ أكثر من شهرٍ وما عاد أورلاندو بعدُ، يا إله السّماء! كيف يعيش النّاس في حدود عالمٍ مثل هذا حيث تتجاهلهم الحكومة ولا تصرف سوى مبلغٍ بائسٍ لا يكاد يكفي لدفع فواتير المؤونة المرسلة من غويانيا...

كان المطر يتساقط رتيبًا فوق طنف المزرعة، والأطفال يلعبون مستمتعين مثل طيورٍ مبتهجةٍ فوق أكوام الرّمال الضّخمة التي أحضروها من الشّواطئ البعيدة بطلبٍ من أورلاندو، لتسلية الصّغار.

في أحد الأيّام وصل أحدُ هنود الكامايورا.

- راهب يقطين، عندي ولدٌ مريضٌ هناك في القرية، ساقاه مشلولتان، لا يستطيع المشيَ مطلقًا، يجب أن يأتي إلى هنا لتلقّي العلاج، أو تنقله الطّائرة إلى المدينة.

- لماذا لم تحضره؟

- هو ليس ولدي، وليس من أقاربي.

- كم يبلغ حجمه؟

فأشار إلى طول الصّبيّ بيده.

- ما اسمه؟

- إيتاكولو.

- ألا يمكن أن يأتي به أقاربه؟

- لا أقارب له، وهو يعيش في مزرعة أواكوكوما، حيث لا أحد يجلب أحدًا، يقولون إنّه مسحور.

- غدًا أذهب إليه.

- هل ستذهب في سيّارة الجيب؟

- لا، سيّارة الجيب صعبةُ الاستعمال، حتّى أنا لا يمكنني قيادتها.

- أخبرتك بما جئت من أجله، والآن سأذهب للصّيد.

- نعم شكرًا، عندما تعود أحضر لي سمكةَ بياو.

- نعم، سأفعل.

في تلك اللّيلة، ذهب إلى النّوم مبكّرًا، وبقي يهزّ الأرجوحة الشّبكيّة، منتظرًا زيارة النّوم في أيّ لحظة. حكّ كفَّيْه وشعر بأماكن متورّمة، إذ كان عليه أن يعتني بكلّ شيءٍ هناك، فيمدّ يد المساعدة في الحقل، ويقطع بعضَ الحطب ويجمع الأخشاب من الأدغال، ولا يمكنه أن يرفض أيّ طلبِ خدمةٍ يأتيه. ورغم أنّ الجسد متعبٌ، تأخّر النّوم في المجيء، فعدّل المنبّهَ على السّاعة الرّابعة صباحًا. لم يكن يجهل المسافة بين المركز وقرية هنود الكامايورا، إذ عليْه أن يمرّ بثلاثةِ أمكنةٍ تباعًا، ولن يكون ذلك هيّنًا، لكثرة ما تهاطلَ من مطر، وما تشكّلَ من الوحل. كان يفكّر في ما للتّعويذات من قوّةٍ غريبة، وفي خوف الهنود الرّهيب من أيّ شيءٍ قد يثير السّحر وسوء الحظّ. وفي إحدى الأراجيح، في واحدةٍ من تلك الشّبكات الهنديّة الصّغيرة التي أقيمت على الجانب الآخر من المزرعة الكبيرة، كان أحدهم يغنّي أغنيّةً بنبرةِ حزنٍ مُدهشة:

تشاوارا بيبياراري

تشاوارا بيبياراري

أويرو أويرو أويرو

أويرو أويرو أويرو

تكرّر الحرف نفسُه ثلاث مرّات، ثمّ توقّف الصّوت. لا شكّ أنّها أغنيّةٌ تعلّمها من بعض هنود التشوكاراماي، وهم ينشدونها عندما يكونون في موسم الصّيد ويظهرون هناك رحّلًا، مستعرضين جمالَ حليّ الباتوكي الّتي تعطي انطباعًا رهيبًا بالصّلابة والشّراسة. وفجأةً تذكّر سيلفيا وهي محاطةٌ بمجموعةٍ فيها أحدَ عشر منهم، هي الّتي قدمت للتوّ

من نيويورك فصُدِمت بذلك اللّقاء الوحشيّ مع الغابة... لم يشعر مطلقًا بأنّه نام عندما أيقظه جرس المنبّه فجأةً.

- مرّ الوقت يا إلهي؟!

ضغط بيده على زرّ السّاعة، ليمنعه من إيقاظ الآخرين. ثمّ نزل في الفجر الممطر إلى ضفّة النهر، فاغتسل ونفض عنه الكسلَ المحتملَ الّذي يمكن أن يعيقَه. بدا له أنّ مهمّتَه ستكون صعبة جدًّا. لكنّه لن يسمح لنفسه أبدًا بالتخلّي عن مشلولٍ مسكينٍ وتركِه وحدَه مرميًّا في زاوية، مهدّدًا بالموت، فيما يعتقدُ النّاسُ أنّه مسحور.

ذهب إلى المطبخ، وبحثَ عن شيءٍ يتّخذه وجبةً خفيفة. فسخّنَ قهوةَ الليلة السّابقة واكتشفَ في أحد الأطباق فطيرةَ بايجو، تحلّقَ حولها النّمل يقضِمها. فطرده وذهبَ لأكل ما تبقّى منها مع القهوة.

عندما وصل إلى القرية كانت الشّمس قد أشرقت، وقد أهدتْه صانعات فطائر البايجو العجائز بعضًا منها، فوجدها طازجةً ومعطّرة.

أخذ سلاحًا من عيار اثنين وعشرين، حشاه بثماني رصاصات، ووضع قبّعةً من القشّ على رأسه واستجمع شجاعتَه.

- هيّا يا يقطين، إنّه مطرٌ قليلٌ الآن، وفي طريق العودة سيكون الأمر أسوأ.

غادر المكان، تاركًا المزارع نائمةً تحت المطر. وعند مروره، لم تنبح كلاب الهنود، إذ وجدوا لتلك المشكلة حلًّا طبيعيًّا، فقد أحضروها وأطلقوها تحوم حول المركز حين لم يجدوا ما يطعمونها. وكان أمرًا رهيبًا رؤيتها تنتشر في كلّ مكان، مع ما يتبع ذلك من إزعاج، سببُه نباحٌ مستمرٌّ ومعاركُ وأضرارٌ أخرى. لكن مع مجيء الأمطار، اقتربت النّمور البعيدة

من المركز وأصبحت تصطاد الكلاب. لكن عندما انتهى تهاطل الأمطار حدثَ شيءٌ كالمعجزة، إذ أصبح عددها بالضّبط مساويًا لما يحتاج إليه المكان، وصار لكلّ واحدٍ سيّدٌ يعتني به.

تحوّلت الطّريقُ إلى مسطّحاتٍ طينيّة. ولم يحضر معه حذاءه. فكانت قدماه تغرقان بشكلٍ مستمرٍّ في برك الماء، وشعُر بأنّ المطر يغمر جسده. ومن حينٍ إلى آخر يخلع قبّعتَه ليفرغ الماء المتراكم فوقها. ثمّ أظهرت الغابةُ الخضراء قممَ الأشجار وهي مضاءةٌ بهالةٍ من نورِ يومٍ جديدٍ جاء منزلقًا تحت المطر، لتأدية مهمّته الزّمنيّة.

استسلمَ لإيقاع المشي، وفَقَدَ كلَّ إحساسٍ بالمسافة. وفجأةً، وفي نهاية المسار، رأى نقطةً تميل إلى الأزرق، تشير إلى الاقتراب من بحيرة إيبافو التي توجَد على ضفافها إحدى قرى هنود الكامايورا، أو بالأحرى أكبرُ قراهم. الآن أصبح من الضّروريّ أن يمشي بحذرٍ أو «يضع الانتباه»، كما يقول الخلاسيّون الّذين كانوا يقومون على أعمال الزّراعة في المركز، وهم يأتون من ولاية بارا في معظم الأحيان. الكلاب في القرى أكثر شراسةً، وكان عليه أن يصرخ عندما اقترب من المكان حتّى يأتي إليه السكّان وينتظروه.

كان هذا ما فعله. فظهرت أجسادٌ بشريّةٌ عاريةٌ عند مدخل الطّريق المؤدّية إلى وسط القرية. أطلقوا أهازيج ورقصوا، ولاسيّما أولئك الّذين لم يسبق لهم لقاء الرّاهب يقطين.

حيّاهم بطريقته الخاصّة:

- بويريكو!

فكرّرت الأصواتُ الكلمةَ بفرحٍ عظيم.

ذهب إلى أحد البيوت المستديرة، وجفّف نفسَه من ماء المطر، ثمّ وضع قبّعتَه على الأرض وجلس على جذع شجرةٍ اتّخذه مقعدًا. وامتلأت المزرعة بالوجوه الفضوليّة، فذكر لهم الأمرَ الذي جاء من أجله، وأخبرهم أيضًا بأنّه جائع.

أمر رأسُ القبيلة، أوتامابو، بتقديم فطائر بايجو طازجة. فأكل حتّى أسكنَ جوعَه. ثمّ قال إنّه يحتاج إلى العودة دون تأخير، لأنّ طريق العودة، كما كانوا يعرفون جميعًا، تعادل مسافةً طويلة.

أخذوه إلى إحدى المزارع، في نهاية دائرة المنازل.

- إنّه هناك.

دخل بمفرده، لأنّ الآخرين لم يرغبوا في الاقتراب من المخلوق المسحور. وكإجراءٍ احترازيّ، مع علمه أنّ الطفل قد يكون جائعًا، احتفظ بقطعةٍ كبيرةٍ من البايجو داخلَ قبّعته المبلّلة.

- إيتاكولو.

ضحك الصّبيّ وعليه ملامحُ ملاكٍ مريض.

- سآخذك إلى المركز، وستكون بخير.

- نعم أعلم، أنت بابا.

- ألم يعطوك أيَّ طعامٍ آخر؟

فأومأ بيده مشيرًا إلى ما يعني «القليل جدًّا».

أخرج قطعةَ البايجو من تحت قبّعته، وأعطاه إيّاها، فأسرع الطّفل إلى التهامها.

- والآن نذهب، سأحملك على ظهري.

كان يواجه مشكلةً خَطِرَة، إذ لم تكن في ساقَي الصبيّ قوّة، وجسدُه النّحيف يعاني من سوء التغذية بشكلٍ كبير. فالتقط قطعةً من الألياف النباتيّة المعلّقة في المزرعة وقال له:

- سأرفعك إلى ظهري... هكذا... والآن سأربط قدمَيْك حول بطني، اتّفقنا؟

أحكم الرّبط برفقٍ.

- ايني أكوبي؟

ابتسم إيتاكولو.

- إنّه يؤلم قليلًا فحسْب.

- إذَنْ، دعنا نذهب يا بنيّ.

أخذ القبّعةَ ووضعها على رأس الصّبيّ.

- والآن تمسّك جيّدًا برقبتي، هكذا!

التقط السّلاح، وانحنى ليعبُر البابَ المنخفض. ثمّ خرجَ من المزرعة تحت المطر الّذي كان ينزل بقوّةٍ أكبر. ابتسم للهنود الّذين ابتعدوا عند رؤية المريض، وحيّاهم جميعًا وذهب.

سلك الطّريق الرّئيسيّة إلى القرية مرّةً أخرى، ليبحثَ بعدها عن الطّريق الواسعة.

قطع من الرّحلة مسافةً لا بأس بها عندما بدأ يشعر بالتّعب. لكنّ جسم الصّبيّ الخفيفَ اكتسب حجمًا ووزنا غير متوقّعَين. ثمّ إنّ مشي القدمَين في الماء بشكلٍ مستمرٍّ جعلَ المسير بلا جدوى. قريبًا سيحتاج إلى التوقّف ليصيبَ بعض الرّاحة. كانت إحدى يدَيْه تمسك بالسّلاح

الّذي بدأ يشعر بثقل وزنه. أمّا اليدُ الأخرى فبقيتْ حُرّةً، مهمّتها إبعاد البعوض ودفع أغصان الغابة.

- يقطين!

- ما الأمر يا بنيّ؟

- أنت كاتو.

- لا، أنا لست طيّبًا، أنا نيكاتويتي.

- هذا كذب، أنت طيّبٌ جدًّا، أنت بابا.

وحتّى يظهر امتنانَه، بسطَ يدَه ومرّرَها على لحية غوم الطّويلة والحريريّة.

فابتسم، لكنّه لم ينسَ أن يوصيَه:

- تمسّك جيّدًا، حتّى لا تسقط، إيتاكولو.

سارَا مسافةً أكبر. وشعُر بأنفاسه ثقيلةً جدًّا في صدره، وبرجلَيْه تحترقان احتراقًا شديدًا. رغم كلّ ذلك المطرِ، كان جسدُ الصّبيّ على ظهره يبعثُ حرارةً جعلته يشعر بعدم الارتياح، فاحتاج إلى التوقّف بعضَ الوقت، وبحث عن جذع شجرةٍ كبيرةٍ ووضع السّلاح على الأرض. ثمّ فكّ الرّباط الّذي كان يشدّ قدَمَي الطّفل بحذر، فوجدهما متورّمتَيْن بشكلٍ سيّئٍ من أثر المشي. كان من المؤكّد أنّه سينزف عند الوصول إلى المركز، وقد حزن من أجله واعترفَ له في نفسه بأنّه ضحّى إذ لم يشتكِ ولو مرّةً واحدة.

أسند الصبيَّ إلى الجذع وجلس بجانبه.

- يقطين متعبٌ قليلًا.

- إيتاكولو ليس متعبًا.

- بالطّبع أيّها الشّيطان الصّغير، أنا من يبذل الجهد كلّه.

ثمّ عادَا إلى المشي من جديد. فرفع قدَمَ الصّبيّ اليُسرى وخطرت له فكرة، فمزّق بعضًا من قميصه وصنع قطعتَيْن ليضعهما في مكان انعقاد قدمَيْه.

- هكذا أفضل، فما عادتَا تحتكّان.

وبدلًا من ارتداء القميص، وضعه على الصّبيّ.

- ستحتاجُ إليه أكثر منّي. أمّا وقد ارتحنا قليلًا الآن، فعلينا أن نبدأ من جديد، نحن لم نبلغ حتّى منتصف الطّريق.

عندما وطئتْ قدماهُ أرض المخيّم، بدا كما لو أنّه بقايا كائنٍ بشريٍّ من شدّة التّعب. لقد انهارَ تمامًا، ولم يكن ليصلَ لولا إرادتُه، وقوّةُ تصميمِه. لم يصدّق أنّ تلك التلالَ المستديرة تنتمي حقًّا إلى مركزه. تمكّنت من جسدِه رجفة، والتبست عليه الرّؤية، وألمّ به وجعٌ في رأسِه، ناهيك عن قدمَيْه النّازفتَيْن المليئتَيْن بأشواكٍ لم يستطع رؤيتَها بسبب المياه المتراكمة الّتي غطّتها. بقيت أمامه مائتَا مترٍ، وكان السّلاح يوشك أن يسقط من يدَيْه تقريبًا، واشتكى القلبُ من كلّ تلك الطّاقة المستنزفة، فتقطّعت الأنفاس.

- هيّا يا راهب يقطين، إنّها أقلّ من مائتي متر.

كان يترنّح، وبدأ يلهث من الإرهاق.

رآه الهنود قادمًا، فذهبوا لمساعدته. ورغم ما كان يساورهم إزاء التّعويذة من مخاوف، عزّ عليهم أن يسقط في مكانه مغشيًّا عليه، أو أن يموت.

وصل إلى كثيبِ الرّمل وسقطَ جاثيًا على ركبتَيْه. فجاؤوا لمدّ يد العون، وفكّوا رجلَي الطّفل، وأمسكوا كانوا بالبندقيّة الّتي سقطت على

الأرض، ووضعوا أذرعَهم تحت ذراعه حتّى لا يسقط على وجهه أرضًا. فبدأ يتنفّس بارتياح، ثمّ لاحظَ الجميعُ أنّ الرّاهب يقطين كان يبكي في صمتٍ، وأدهشهم ذلك.

أجلسوه على الرّمال حتّى يصيبَ قسطًا من الرّاحة، وأحضروا له الماء، ثمّ جاؤوا ببعضِ القهوة السّاخنة.

أراد كالوكوما اصطحابَه إلى الأرجوحة الشّبكيّة، لكنّه قال لهم:

- انتظروا لحظة، أنا بحال أفضل، سأذهب بعد قليل.

أدخل رأسَه بين ركبتَيْه، وبقي يرتجف حتّى تعافى. ولّما أراد النّهوض خذلته ساقاه. وكان الهنود قريبين منه حتّى لا يسقط مرّةً أخرى. جرّب بضع خطوات وتمكّن من التحكّم في نفسه، ومَشى إلى ما بعد الباب.

خلع سروالَه ووقف تحت مزرابٍ ضخم. وبعد ذلك فحسْب عادَ إلى داخل المزرعة، وبحث عن الأرجوحة الشّبكيّة، فألقى بنفسه فوقَها وهو شبه فاقدٍ للوعي. سمحت النّاموسيّة المعلّقة بدخول هواء المزرعة. ثمّ ظهرت الطبّاخة العجوز.

- يوجد طبقٌ من الطّعام الجاهز، فوق الموقد.

- لا رغبةَ لي الآن، أحتاج إلى قسطٍ من الرّاحة، سآكل في وقتٍ لاحق...

جاء كالوكوما مع كرسيٍّ وجلس عند قدمَيْه.

- راهب يقطين ينام، كالوكوما ينزع الأشواك.

كان تعبه شديدًا، حتّى إنّه لم يشعر برأس السّكّين وهو يثقب قدميه. ثمّ استسلم لنومٍ عميق.

***

- تمطر، تمطر، فلتمطر... تمطر، تمطر، فلتمطر... خارج المكان يغنّي الضّفدع.

- تمطر، تمطر، فلتمطر... تمطر، تمطر، فلتمطر... والضّفدع يغنّي خارج المكان.

كان يوم مطر، وكذلك ليلُه. نادرةٌ هي فصول الصّيف الّتي يركض فيها الجميع للاستمتاع بفترة التوقّف، ويتّجهون إلى المزرعة لجمع المانيهوت من أجل تحضير الدّقيق أو صيد بعض السّمك براحةٍ أكبر.

حان وقت ثمار البيكي. كانت الأشجارُ مغطّاةً بثمارٍ خضراء كبيرة، يلتقطها الهنود ويتركونها مُنتظرين أوانَ نُضجها. بعدها يجمعون اللّبَّ ويضعونَه في سلالٍ كبيرة. ثمّ يغرقونه في النّهر ليحافظوا عليه أطولَ وقتٍ مُمكن. وبعد مرور أيّامٍ عديدةٍ يسحبون السّلالَ ويصنعون مشروبًا نصفَ حامض.

وصلت كمّيّةٌ من الموادّ الغذائيّة، ومعها رسالةٌ من أورلاندو، يطلبُ منهم فيها أن يصبروا قليلًا، لأنّ تسليمَ كلّ الموادّ قد تأخّر وقتًا أطول ممّا كان متوقَّعًا، ويستأذنهم في البقاء إلى غاية أعياد الميلاد، لأنّه لم يقضِ الاحتفالات مع أسرته منذ خمسِ سنوات.

يا إله السّماء! لقد اقترب عيد الميلاد، وكان ذلك أمرًا مؤكّدًا لأنّ نهر التواتواري بلغ أقصى حالاته. حتّى مياهُه الّتي كانت دائمًا شفّافة، اكتسبت هذا اللّون القذر المصفرّ. عيد الميلاد! لم يكن يرغب في تذكّر ذلك الاحتفال، ولاسيّما في السّنوات الماضية، عندما توهّم إحساسَ السّعادة، وقتَ قدّاحات باولا.

أرسل إلى أورلاندو يُخبره بأن يبقى من الوقت ما يراه كافيًا،

ويُعلِمه بأنّه لا يتعجّل عودتَه وأنْ لا شيء يدعو إلى العجلة والإسراع في العودة.

كان الوقت يمرّ بلا فائدة، تسقط قطرات الماء في الزّوايا المعتادة نفسها، الأغنيّة الهادئة نفسها على إيقاع الرّتابة النّاشئة عن تتابعِ السّاعات. في اللّيل تُكرّر الضفادعُ اللّحنَ نفسَه دون أيّ تغيير... «تمطر، تمطر فلتمطرْ ...».

يذهب الجميعُ إلى النّوم مبكّرًا وهم لا يعرفون ماذا يصنعون باللّيل. كان ضوء المصباح يؤذي عيْنَي أيّ شخصٍ يريد القراءة، هذا إن وُجِدَ شيءٌ يمكن قراءتُه.

بقي يتمايل داخلَ الأرجوحة، مُختنقًا تحت النّاموسيّة، بينما يستمع إلى ضجيجٍ غاضبٍ يُصدِرُه بعوضٌ يجتمع في الخارج، ويقاتل طوالَ اللّيل من أجل ثقبٍ لا وُجودَ له في واقع الأمر، ولا درايةَ للمسكين بعدم وجوده.

جاء من جانب النّهر شخصٌ مّا يجري، وقدَمَاه تضربان بصخبٍ في المياه الموحلة. دخلت مجموعةٌ إلى المزرعة وتوجّهوا مباشرةً إلى أرجوحة الرّاهب يقطين.

- أسرع يا راهب يقطين.

- ما الأمر؟

- جاء زورقٌ عبر النّهر، فيه هنديٌّ من الأواورا، وهو يحتضرُ. يبدو أنّه مينابيم.

يومَ رأى مينابيم آخرَ مرّة، كان ولدًا سعيدًا يقترب من سنّ البلوغ.

نهض ومشى إلى الصّيدليّة، وجهّز شبكةً من باب الاحتياط، وانتظر أن يحضروا المريض. ماذا أصابه يا ترى؟ تذكّر أنّه في وقتٍ سابقٍ كان يحبّ الاستلقاءَ في الأرجوحة الشّبكيّة والتحدّث مع مينابيم.

- هل نقتل الشّمس يا مينابيم؟

- لا، الشّمس هي بابا.

- إذَن، نقتل القمر؟

- القمر هو بابا.

- والنّهر؟

- النّهر هو بابا.

- إذَن، هل نقتل كلاوديو؟

- كلاوديو هو بابا.

- إذَن، أورلاندو؟

- أورلاندو أيضًا بابا.

- إذَن نقتل الرّاهب يقطين.

فعانقه الصّبيّ وقال بلطف:

- أوه لا، ليس الرّاهب يقطين، هو أيضًا بابا ...

كان هذا هو مينابيم. وهو الآن رجلٌ ناضج، يقولون إنّه يحتضر.

أشعل مصباح كيروسين، وفتح أبوابَ خزانة الصّيدليّة. وكي يربحَ الوقت، وضع حقنةً تغلي فوق النّار.

عندما أحضروا الجسدَ المحمولَ ووضعوه في الأرجوحة، اقترب ومعه المصباح، فتعرّف إلى الصّبيّ، وأيقن أنّه هو نفسه الّذي عرفَه من قبل، مثلما أنّه أيقن بما لا يدعو إلى الشّكّ أنْ ليس بوسعه شيءٌ ليفعلَه، كان مينابيم في وضعٍ أكثرَ من حَرِجٍ، وأقصى ما يمكن للرّاهب أن يُقدّمه للفتى هو أن يخفّفَ عنه بعضَ آلامه، في آخر ساعاته بهذا العالم.

أخبروه أنّه كان يتقيّأ الدّمَ مدّةَ ثلاثة أيّام، وأنّ ألمًا شديدًا ألمّ به بغتةً. لم يُدركوا أسبابَه، وذلك كلّ ما في الأمر. بدت الحيرةُ على يقطين إزاء الأمر، واستبعدَ أن يكونَ متعلّقًا بمرض سلٍّ مستشر، إذ لم تظهر عليه أيُّ أعراض للسّعال أو البلغم. رجّح بقوّةٍ أنّ عضوًا داخليًّا تمزّق.

ومع اقتراب ضوء المصباح، تعرّف إليه مينابيم وابتسم. بعدها ظهرت علامات ألمٍ شديدٍ على وجهه، وعلى الفور بدأ يتقيّأ الدّم.

ما العمل؟ مسكينٌ مينابيم الّذي كان يعتقد أنّ كلَّ شيءٍ في العالم جيّد، وأيضًا بابا! بابا يقطين لا يستطيع فعلَ شيءٍ من أجله. بحث في الصّيدليّة عن حقنةٍ تخفّف آلامَه، وسيظلّ يكرّر الجرعات إلى حينِ موته.

ظهرت على العينَين العميقتَين ملامحُ طمأنينة. وتلك إشارةٌ إلى أنّ الدّواء كان يعمل بشكلٍ فعّال. جلس على مقعدٍ بالقرب من الهنديّ، وفجأةً فتح عينَيْه قليلًا وأمسكَه بيده الضّعيفة:

-بابا يقطين، لا أريد أن أموت. لا تتركني للموت، لديّ طفلٌ صغير، يجب أن أعمل من أجله.

-لن تموتَ، ستنام فحسْب، بسبب الحقنة الّتي أعطاك إيّاها يقطين.

وبالفعل، تمكّن المسكين من النّوم مدّةَ عشرين دقيقة. ثمّ أصيبَ بنوبةٍ أخرى من القيء. كانت الدّماء تلطّخ الرّمل على الأرض، وجاء هنودٌ كثرٌ وجلسوا في دائرةٍ صامتين، ينتظرون نهايةَ الشّاب.

كان العذاب ظاهرًا في عيْنَي الأب الّذي رافقه. جاء من بعيد، متحمّلًا مطر اللّيل والنّهار، بأملٍ مّا في أن يُنقذَ ابنَه. لكنّ كلَّ ذلك كان بلا فائدة. فبعدها بدأت حشرجةٌ الاحتضار، وهو أمرٌ جعله يرتاح.

انتظر فترةً أطول قليلًا قبل أن يُعطيه حقنةً أخرى.

- والآن ستنام طويلًا يا بنيّ.

خرج لبعض الوقت، وذهب إلى المزرعة الأخرى بحثًا عن بعض القهوة في إناءٍ كان موضوعًا على الموقد الّذي بقي دافئًا. ثمّ عاد ليحضر مشهدَ النّهاية. فجلس بهدوءٍ يرى ساعةَ المريض تقترب. هو الآن في غيبوبة، بعيدًا عن دائرةِ المعاناة البشريّة.

رأى نفسَه أيّامَ الصّبا وهو يحضر أحدَ فصول التّعليم المسيحيّ، حين كانوا يُعدّون كلَّ من يُعمِّد شخصًا يحتضر بخلاصٍ مضمونٍ للرّوح. كان يكفي صبُّ القليل من الماء على رأس المحتضر وتكرار كلمات المعموديّة: «أعمّدك باسم الأب والابن والرّوح القدس».

هل يمكنه فعلُ ذلك الآن؟ لكن من أجل ماذا؟ المسكين لا يستطيع أن ينفصل عن الهنود الآخرين رغم الموت. يجب أن يذهب إلى المكان نفسه، يصطاد برًّا في المروج الكبيرة، ويصطاد السّمكَ في البحيرات الزّرقاء برفقة أسلافه. لم يكن يُريد مواجهة تأنيب ضميره، لو عمَّده وهو يفكّر في خلاص روحه، فسيكون الأمر حينَها من أجل مصلحةٍ وليس تصرّفًا بدافع الحبّ. لذلك من الأفضل تركُ كلّ شيءٍ لمعايير الإله نفسِه، فهو وحدَه يفهم هذه الأشياء أكثرَ من البشر البائسين والمحدودين.

عند الفجر مات مينابيم. وحينها ارتفعت صرخاتُ البكاء عاليًا.

عاد يقطين إلى المزرعة حيث كان ينوي الحصولَ على شيءٍ من النّوم والرّاحة، حتّى لو قليلًا. كان على يقينٍ من أنّ الهنود ليسوا جميلين مثل الأزهار فحسْبُ، بل إنّهم أيضًا يموتون بسهولةٍ مثلها.

علاوةً على ذلك، فإنّ المطر بقي يهطل فوق أولئك الّذين مازالوا على قيد الحياة. الآن فحسْب صمتت الضّفادع لتذهب إلى النّوم.

مرّت أعياد الميلاد. وحلَّ شهرُ يناير. بلغَ المطرُ الآن ذروتَه. ولم يظهر أورلاندو بعدُ، ولا يمكنه أن يُواصل التأخّرَ مدّةً أطول.

سيرحّب به كثيرًا عندما يصل، لأنّ وجودَه سيسمح له بأخذ قسطٍ من الرّاحة، وهو شيءٌ لا يستطيع تحقيقَه الآن بالنّظر إلى كثرة المرضى. جاءت الحمّى سريعًا بسبب المياه، وكانت تهاجم كلَّ من بالجوار. هو نفسُه كان مهدّدًا بالإصابة. لكنّه عالج نفسه في الوقت المناسب، وشُفي خلال ثلاثة أيّام. لا يستطيع تحديدَ عددِ المرّات الّتي أصيب فيها بالملاريا. وأورلاندو أيضًا فَقَدَ القدرةَ على الحساب. إنّه يحتاج بالفعل إلى عودته، لأنّه سيتعيّن عليه السّفر قريبًا إلى أبعد القرى لرعاية الأشخاص المحمومين. لكنّه لن يذهب إلّا إلى القرى الّتي يمكن الوصولُ إليها بالزّورق. أمّا الآخرون فَسَيَبْقَونَ معزولين، ينتظرون انخفاضَ مستوى المياه.

أحيانًا يتذكّر حالَه ويتساءل:

- وقلبك أيّها الرّاهب يقطين، هل هو بحالٍ أفضل؟

ويردّ على نفسه:

- أسعى إلى أن أتعوّد على القساوة والنّسيان أكثر. ليس لي وقتٌ كثيرٌ أضيّعه على نفسي.

- الحمد لله، إذَن.

- الحمد لله.

بدأ وزنُه يتناقص. كان الطّعام غير كافٍ. ولم تكن وجبةُ اليقطين وحدَها ما يصيبُ أيَّ كائنٍ بشريّ بالملل، بل تضاف إليها رتابةُ تناول يخنة الفاصولياء والأرز، بقطع لحمٍ صغيرةٍ وجافّة، تكون في الغالب محلَّ

تنازع. وفي مرّاتٍ نادرةٍ تظهر قطعةُ لحمٍ جيّدةٌ من صيد أحد الحيوانات، تكسر رتابةَ الغذاء.

ثمّ جاء المزيد من الأمطار والمزيد من البعوض والحمّى.

في أحد الأيّام، ظهر طيفُ رئيس قبيلة الميناكوس النّحيف.

- كيف حالك يا أدجوروا؟

- السّاعةَ قدمتُ من القرية.

كان يتحدّث برتغاليّة لا بأس بها، لأنّه تعرّض في أحد الأيّام لإصابةٍ من هنودٍ متوحّشين، واضطرّ إلى السّفر نحو غويانيا برأس سهمٍ مغروزٍ في ظهره ووصل إلى جزءٍ من الرّئة. مكث هناك بضعة أشهر. ومنذ ذلك الوقت بقيت له ندبةٌ كبيرةٌ وجميلةٌ على ظهره، كان يفتخر بإظهارها. تعلّم الحديثَ باللّغة البرتغاليّة. لكن عند عودته إلى القرية، تخلّص من ملابسه، وصبغَ جسدَه وشعرَه وعاد هنديًّا كما كان من قبل مثل الآخرين.

- هل أتيت بالزّورق؟

- نعم.

- حمّى كثيرة هناك؟

- نعم كثيرة، هل ستعطيني الدّواءَ لأعود به إلى القرية؟

- متى تعود؟

- بعد أن ترى ابني المريض مباشرة.

- أيّهم؟

- ماريناتو، الابن الأوسط. لقد عضّ الكلبُ فخذَه وترك له جرحًا بليغًا. يمكن رؤية العظم.

- وأين هو؟
- ممدّد في الزّورق.
- يا رجل، وماذا تنتظر؟ اذهب واجلبه.

أطاع أدجوروا الأمرَ وأحضر الصّبيَّ بين ذراعيه، فأخذوه مباشرةً إلى الصّيدليّة.

وُضِع الصّبيّ على طاولةٍ وفُحِص الجرحُ. كان الضّرر كبيرًا، حتّى إنّه تساءل: ما الّذي فعله الشّيطان بالكلب ليصل الأمرُ إلى مثل تلك النتيجة؟ لم يكن هناك جدوى من السّؤال عن الحيوان، فالرّاجحُ أنّه الآن فريسةٌ يلتهمها أحدُ التّماسيح، هذا إذا لم تكن جثّته تطفو في النّهر.

- لا شيء سيؤلمك، ثمّ إنّك ولدٌ قويّ.

لكنّ الخوف كان ظاهرًا على وجه مارريناتو. ولتهدئته، أخرج جميعَ الهنود من الصّيدليّة ولم يترك سوى والده قربَ الطّاولة. ثمّ أقفل الباب. وهو أمرٌ لم يمنع الهنودَ من النّظر عبر شقوق أخشاب البينداييا الّتي بُنِيَت بها المزرعة. كان فضولهم كبيرًا حتّى إنّهم بقوا تحت المطر وقتًا طويلًا ليشاهدوا كيفيّة معالجة الصّبيّ. في البداية طهّرَ الجرحَ ونظّفَ الدّمَ الّذي تجلّط حولَه. كان يرى مارريناتو يعضّ شفتَيه من الألم، فمازحهُ قليلًا ليُلهيه، وتكلّم بصوت امرأةٍ مضحك، وغنّى بشكلٍ خاطئٍ عن قصد، ثمّ قلّدَ كلامَ شخصٍ مُتلعثم، وتظاهر بأنّه أخطأ وعالج الرِّجلَ السّليمةَ بدلًا من المريضة. كان يفعل ذلك مع جميع الأولاد حتّى لا يشعروا بألمٍ كبير. وانتهى بهما الأمر ضاحكَيْن. وفي غمرة الضّحك، انتهزَ الفرصةَ ليهاجم الموضعَ الرّئيسيَّ من الإصابة.

تمكّن من معالجة الجرح ووضعَ ضمّادةً على ساق الصّبيّ.

- انتهينا يا صديقي. الآن ستبقى مُستلقيًا على تلك الأرجوحة، دون حراك، لا تنهض حتّى لو كان لـ...

ظهرت ملامح قلقٍ على أدجوروا.

- كيف حتّى لو كان لـ ...

- مثلما قلت لك، عندما تحتاج إلى شيء، عليك الاتّصال بي وسآتيك به.

- هل سيستغرق وقتًا طويلًا حتّى يُشفَى؟

- أسبوعًا واحدًا، سأضع له ضِمّاداتٍ كثيرة، يمكنك العودة إلى قريتك وسأعتني بابنك.

- إذَن، سأذهب ثمّ سأعود بعد أسبوع.

وظهر بعد أسبوعٍ بالضّبط.

- كيف حال ابني؟

- جرحه يتعافى، سيكون بخيرٍ قريبًا.

- هل يمكنني أخذُه؟

- هذا يعتمد عليك. إذا كنتَ ستحمله طوال الوقت، نعم، لأنّه لن يكون قادرًا على المشي مدّةَ خمسة أيّامٍ أخرى.

- سأحمله، ومن الزّورق إلى مزرعتي أحمله أيضًا بين ذراعيّ، وأعدك بألّا يمشي حتّى لو كان لـ ...

- ركّز على هذه الـ «حتّى لو كان لـ..».. وإلّا سيضيع كلّ مجهودي.

- سأجهّز الزّورق، وبعدها مباشرةً آتي لأخذه.

استغرقَ عشرَ دقائق، ثمّ عاد إلى المزرعة.

أخذَ ابنَه بين ذراعَيْه وتعلّق الآخر برقبته. ثمّ اتّجه به إلى المرفأ، ووضعه بلطفٍ داخل قاربٍ مصنوعٍ بجذوع الأشجار. ثمّ تذكّر شيئًا مّا فجاء مرّةً أخرى عند الرّاهب يقطين.

- أردت شيئًا يا راهب يقطين.

- أدوية؟

- لا، بل رصاصات من عيار أربعة وأربعين.

حسنًا، يبدو أنّه لمس نقطةً حسّاسةً جدًّا! لقد أوصى أورلاندو بعدم التخلّي عن أيّ واحدةٍ من تلك الرّصاصات. فهناك صندوقٌ واحدٌ فقط منها، وكان من الصّعب الحصول عليها.

- أنت تعلم أنّي لا أملك أيَّ واحدةٍ منها.

- بل تملك.

- لا أملك منها، إذا كنت تريد رصاصاتٍ من عيار اثنين وعشرين، فسأحضر لك بعضَها.

ظهرت على وجه القائد الهنديّ أدجوروا ملامح غضب:

- ماذا سأفعل برصاصات اثنين وعشرين إذا كانت بندقيّتي عيار أربعة وأربعين؟!

- حسنًا، أكرّرُ أنّي حقًّا لا أملكها.

- بل تملكها.

حاول إيجادَ حلٍّ للوضع.

- ما رأيك في أن نفعل ما يلي: ننتظر عودة أورلاندو. سوف يجلب الكثيرَ من الذّخيرة ويعطيك منها.

- أريدها الآن!

- ليس لي منها الآن. أخبرتك بذلك، لو كان عندي لأعطيتك.

كانت عينَا الهنديّ تشتعلان غضبًا. اقتربَ بوجهه من وجه الرّاهب يقطين وصرخ:

- أنت كاذب...!

ودون أن يتوقّع ذلك إطلاقًا، بصقَ الهنديّ في وجهه. كانت أصابع يقطين تؤلمه أكثرَ من روحه لأنّه ضمَّ قبضتَه بشدّة. وفي لحظةٍ، كان ينوي توجيه سلسلةٍ من الكلمات إلى وجه الهنديّ، لكنّ قلبَه تمكّن من كبح انفعالاته.

- اهدأ يا مجنون! لا يمكنك فعل ذلك. أنت هنا لأنّك تريد ذلك، لا يمكنك التصرّف «مثله».

شيئًا فشيئًا، تمكّن من التحكّم في نفسه مجدّدًا. كان ينظر إلى هنديّ الميناكو وقلبه لا يتوقّف عن الكلام:

- تذكّر شعارَ خدمة الحماية الهنديّة: «مُتْ إذا لزم الأمر، لكنْ لا تقتل أبدًا». فغيّر الكلمات إلى وجهةٍ أخرى: «تلقَّ الضّربات إذا لزم الأمر، لكنْ لا تضرب أبدًا ..».

انفصلت شفتاه إحداهما عن الأخرى، ولم يكد يستطيع الردَّ على الإهانة وهو يتلعثم:

- لا بأس يا أدجوروا.

أدار ظهرَه ومسحَ وجهَه بيدَيْه عندَ المكان الّذي ما زال يشعر فيه بألم البصق. ثمّ مشى كي يغلق الصّيدليّة. وساءل نفسَه، دون أن يقصد، عمّا

إذا كان هناك مبشّرون كثيرون تحمّلوا ما تحمّله هو. لم يرغب بالتّفكير في الامتنان. ابتسم قليلًا على مضض، لأنّه كان يعلم أنّ أدجوروا سيعود بعد أسبوعَين ويتحدّث معه بطريقةٍ طبيعيّةٍ جدًّا.

- بيتسو باي، يقطين.

بعد ذلك، نسي كلَّ شيءٍ وأجاب على التّحيّة:

- ناتو باي.

بعدها تعانقا كما كانا يفعلان سابقًا، واستمع إلى تلك العبارة الودودة الّتي ينطقها هنودُ الميناكوس:

- أوتشي باي، راهب يقطين.

- أوتشي باي، أدجوروا.

وبتلك العبارات كان أحدُهما يخبر الآخرَ عن كمّ الإعجاب والمحبّة بينهما.

* * *

مرّ شهر يناير مبلّلًا، وعادَ أورلاندو، ومرّ فبراير بسرعة. مع مجيء شهر مارس تناقصَ هطولُ المطر. ومع دخول شهر أبريل ظهرت الشّمس، شمسٌ أكثر، شمسٌ حاضرةٌ أكثر من المطر. وعندما يأتي شهر مايو وبردُه، يبدأ الموسم الصّيفيّ الجافّ والجميل.

عندئذٍ، أدرك كم كان نحيفًا وكم أصبحت لحيتُه طويلةً ومحمرّة.

- أخبرك شيئًا يا أورلاندو؟

- نعم أعرف.

- إذَن، لست بحاجةٍ إلى الحديث.

- قُلْه على أيّة حال.

- هل خمّنت أنّي تعبت من هذا الشينغو البائس؟

- تريد أن تذهب في جولة، أليس كذلك؟

- نعم تمامًا.

- أنت تتطلّع إلى غمس البسكويت، أليس كذلك؟

ضحكًا من المزحة بمودّةٍ.

- متى تعود؟

- حالما أستطيع.

- إذَن، أتمنّى لك رحلةً سعيدة.

استقلَّا طائرة العودة إلى غويانيا. إذا حالفه الحظّ ولم تظهر أيّ إشارةٍ إلى شيءٍ يُعيق الرّحلة، فسيصل إلى ساو باولو مبكّرًا في اليوم التالي. بدأ يفكّر ببرودٍ في مشاكله القديمة وأشواقه. يمكنه الآن تحليل أموره دون عاطفةٍ أو إحساسٍ بالشّفقة على نفسه.

هذه المرّة، يُرجّحُ أنْ يشعرَ بمعاناته أكثر قليلًا من المرّات الأخرى الّتي عاد فيها. فالغابة والصّمت وتشابه كلّ الأيّام، أمورٌ تثير تلك الصّدمة. وصارَ الاختلاف يبدو سخيفًا، مثلَ ظهور ضجيج السيّارات والحافلات والترام. ولا شكّ أنّ استمرارَ ذهاب النّاس الّذين يلتقون ومجيئَهم، وتصادُمَهم أو تجنّبَ بعضهم بعضًا، أمورٌ تُشعِرُه بالتّوتّر.

أخيرًا، استطاعَ أن يمسك في يده مفاتيحَ غير مفاتيح الصّيدليّة. شعر بأصابعه ترتجف وهو يدير المفتاحَ في قفل شقّته، واستجمع شجاعتَه ليواجه ظلالَ بعض الأشباح الّتي لا تزال هناك.

سحبَ السّتائر وأضاءَ النّور. يبدو أنّ الشخص الّذي أوكلَ إليه مسؤوليّة التّنظيف لم يعمل بشكلٍ جيّدٍ في غيابه.

- من فضلك، ضع كلَّ شيءٍ في تلك الزّاوية.

كان يتحدّث إلى البوّاب والسّائق اللّذَين ساعداه في نقل ما صنعه الهنود من أشياء ومعَها أمتعته البسيطة. دفع للسّائق وشكر البوّاب، ثمّ أغلق البابَ وألقى بنفسه فوق أحد الكراسي يراقب المكانَ المهجور. كان الغبار يغطّي كلَّ شيء، من الهاتف إلى الأثاث والسّجّاد.

شعر برغبةٍ في الاتّصال بجيما لمعرفة أخبارها الجديدة.

- ليس بعد، راهب يقطين. ما هذه العجلة؟

- أنت على حقّ أيّها القلب، نُجري بعض التّرتيبات أوّلًا، ثمّ نأخذ حمّامًا.

دخل غرفةَ النّوم وفتحَ النّوافذ، نفضَ الأغطية وأخذها من هناك. فعاملُ التّنظيف لم يُزِلْ حتّى الملاءات والمفارش الّتي اصفرّ لونُها من الإهمال. ألقى كلَّ شيءٍ على الأرض وضربَ الفراشَ لتخفيف الرّائحة الكريهة. لقد مرّت أكثر من خمسة أشهر والمكان في تلك الفوضى.

في الخزانة، وجدَ بقعَ عفنٍ فطريٍّ على الملابس، فتركَ الأبوابَ نصفَ مفتوحةٍ من أجل التّهوية. ثمّ أخذ من درج الخزانة أغطيةً جديدةً للسّرير. شعُر برغبةٍ حقيقيّةٍ في النّوم، لم يستطع أن يقاومَها، وإذا نامَ فستتعوّدُ أذناهُ ضوضاءَ المدينة. وعلى هذا الحالِ كانت الأمورُ تسيرُ في كلِّ مرّة. رتّب السّرير وجلس. كان يرغب في رؤية الأجواء على طبيعتِها، وحقيقةَ ما كان يُحيطُ به من أشياء، بلا زيادةٍ أو نُقصان. لم يكنْ يريدُ معرفةَ أيّ شيءٍ عن النّوايا أو آثار الحنين. ثمّ خلعَ حذاءَه وألقى سترتَه على الأريكة،

ونزع قميصَه، وسروالَه وملابسَه الدّاخليّة وهو مستلقٍ. شعر وهو في عُريه بأنّ برودةً معيّنةً تراكمت في جوٍّ مُغلق، ذلك أنّ الغابة كانت لا تزال شديدةَ الحرارة مقارنةً بأوّل أنفاس الشّتاء الّتي تهدّد ساو باولو.

ثمّ قام وذهب لتحضير حمّامٍ دافئ. لطالما أحبَّ فكرةَ الغطس في حمّامٍ ساخنٍ جيّدٍ ينسيه متاعبَ الغابة. فعاد إلى غرفة النّوم ليبحث عن ثوب نومٍ عليه أخفُّ رائحةٍ ممكنةٍ لشيءٍ بقي مخفيًّا فترةً طويلة. نزع غلافَ قطعة صابونٍ من تلك الّتي كان يطلق عليها في السّابق «صابون الأثرياء»، شمّ رائحتَه الزكيّةَ وعاد إلى انتظار حمّامه. وضع كلَّ مستلزمات الحلاقة في خزانة الحمّام ونظر إلى نفسه في المرآة. أحسّ بتقدّمه في السّنّ حقًّا عندما لمحَ موجةً بيضاء عند الصّدغَين، وحتّى لحيته الطويلة، لم تسلمْ من تقدّم الشّيبِ الأبيض، ومن غزوه السّريع.

أحسّ بحاجةٍ مُلحّةٍ إلى أن يجزّ تلك الغابة الخضراءِ. وما إن وجدَ مقصًّا حتّى همّ بالأمر. أنهى المهمّةَ بنجاحٍ وشرع بعدها في تمرير الشّفرة على وجهه المبلّل بالصّابون. صار لوجهه لونان، لونٌ أبيضُ مائلٌ إلى الزّرقة، يمسح الجزءَ الّذي أتمّ للتّوّ حلقَه، ولونٌ برونزيٌّ مائلٌ إلى الحمرة، تركّزَ على ما تبقّى من وجهه، شاهدًا على ما تعرّضَ له خلالَ أشهرٍ من تقلّبات الطّقس المُريبة.

الآن أصبح الحمّام الرّائع والمريحُ جاهزًا. أغلق عينَيْه وترك جسدَه يغرق في النّسيان الأكبر.

ووجدَ أنّه يُفكّرُ في كلماتٍ من الإنجيلِ بشكلٍ غريبٍ وخاطف، دون أن يكون ثمّةَ سببٌ يبرّر مثلَ ذلك الأمرِ على الإطلاق: «من ليس معي فهو ضدّي» ... «لا يمكنك أن تخدمَ سيّدَيْن»... اندهش جدًّا من

تلك الأفكار حتّى إنّه فتح عينَيْه وابتسم. لماذا خطر له ذلك الآن؟ في ساعة استرخاءٍ وكسلٍ روحيّ...

حاولَ أن يتجاوزَ الأمرَ وألّا يوليَه اهتمامًا، وهمّ بمسح وجهه بالصّابون، ولكنّ الكلماتِ ظلّت عالقةً بذهنه، ولم يستطعْ التخلّص من أصدائها، حتّى إنّه شعر ببعض الانزعاجِ وبشيءٍ من الضّيق. كان أعجز ما يكون عن طردها، أو نسيانها، إذْ بدت كأنّها أسطوانةٌ انكسرت وظلّت تدور في النّقطة نفسها.

بدأ يصفّر كي ينسى، وحوّلَ أفكارَه إلى المصنوعات اليدويّة الّتي أحضرها من عند الهنود. كان سيبيعها كما يفعل في العادة ويُنفِق الأموال كما يحدث كلَّ مرّة، لقضاء حوائجه الخاصّة. كان هناك دائمًا زبائن مهتمّون ويدفعون أفضل بكثيرٍ من المؤسّسات المتخصّصة في هذا النّوع. هاجمه نعاسٌ طفيف. ساعاتٌ بلا نهايةٍ في طائرةٍ صغيرةٍ بائسة، ضجيجُ المدينة، والبرد. كلّ ذلك أشعره بتعبٍ خفيف.

جفّف نفسَه، لبس البيجاما وشمَّ باستمتاعٍ رائحةَ جسدِه النّظيف. والآن إلى السّرير.

عندما استيقظ، لاحظ أنّ اللّيلَ قد أرخى سُدولَه فعلًا، وشعر بوخزِ الجوع في معدته. شغّل المصباحَ وتمطّى، ثمّ شعر بتزايد هجوم البرد. وكان من الواضح أنّه سيحتاج إلى إخراج بطّانيّةٍ أخرى من الخزانة.

الهاتف... كان يحتاج إلى إجراء اتّصال. لكنّ قلبَه أبعدَ عنه هذه الفكرة مرّةً أخرى. لبس نعلَه واتّجه نحو الرّدهة غيرَ مستعجل، ثمّ أخذَ منديلًا ونفض الغبارَ عن الجهاز. كان ينظر بفضولٍ إلى كلّ تلك الأشياء الّتي لم يرَها مُنذ شُهور.

لم يتطلّب الأمرُ جهدًا ذهنيًّا كبيرًا لتذكُّر رقمِ جيما. لكنّ الغريبَ أنّ الهاتف بدا قبل الاتّصال كأنّه يريد التحدّث إليه منفردًا، ربّما ليحذّره من شيءٍ مّا.

- تلك مجرّد حماقاتٍ أيّها القلب. هي مخاوف صغيرةٌ نشعر بها عندما نريد رؤية أصدقائنا مرّةً أخرى بعد العودة من الغابة، يظلّ المرءُ يؤخّر الموعد، تأخيرٌ ثمّ تأخير...

رقنَ الرّقمَ بأصبعه وبقي ينتظر. في مثل هذه السّاعة، تعود جيما من العمل، وإذا لم يكن لديها موعدُ عشاء، فستطير بسرعةٍ للردّ على المكالمة. لقد حسب الأمور بشكلٍ صحيح.

سمع الصّوتَ الودودَ على الجانب الآخر، فتعمّد تغيير صوته وهو يكلّمها. كان يستعدّ للاستمتاع بالمفاجأة الكبيرة الّتي ستشعر بها جيما.

- أوه! إذَن، السيّدة جيما نفسها هي التي تتحدّث؟ حقًّا؟

شعر أنّ في صوتها بداية انزعاج.

- معك روبرفال.

تعمّد ذكرَ اسمَ معجبٍ قديمٍ لها، كانت تكرهه. وبعد مدّةٍ لم يعد بإمكانه التحكّم في نفسه أكثرَ، فأطلق قهقهةً عالية.

- خمّني من معك؟

انطلق صوتُها مليئًا بسعادةٍ تُخالطها نبرةُ شوقٍ ومحبّة، مثل خلطة ورودٍ مجفّفةٍ من الصّداقة.

- أيّها الدّمية! هذا أنت! متى وصلت؟ قتلني الاشتياق حتمًا، متى تأتي لرؤيتي؟

- أنا هنا وسآتي لرؤيتك قريبًا.

- كم مرَّ من الوقت يا عزيزي! لا أحد يعرف أيَّ شيءٍ عنك.

- كنت محبوسًا في الغابة، ومنقطعًا بشكلٍ كلّيٍّ عن الحياة، فلم يكن أمرها يعنيني بالمرّة.

- كيف حالك؟

طرحت ذلك السّؤالَ بطريقةٍ غريبةٍ ومثيرةٍ للاهتمام.

- نحيفٌ، نحيفٌ جدًّا، محترقٌ وبشعرٍ أبيض، ماذا بعد؟

- هل تأتي لرؤيتي في الحال؟ ألا تريد تناول العشاء معي الآن؟

- ليس اليوم وليس غدًا. لا يزال هناك بعض الوقت لتُراكِمي مزيدًا من الحنين إلى الماضي.

- أريدك حقًّا أن تأتي لرؤيتي الآن!

- لا، جيموكا، لن يكون ذلك مُتاحًا، لا اليوم، ولا غدًا، رغم أنّي أتوق إلى ذلك بجنون.

- ألن يجدي نفعًا أن أتوسّل إليك؟

- ليس هكذا، لكن لماذا؟

- أريد أن أعرف شيئًا.

- تحدّثي في الأمر عبر الهاتف.

- إذَن، أنت لن تأتي فعلًا؟

- بالتأكيد، يتعذّر عليّ القدوم، وبمستطاعك أن تحدّثيني بأيِّ شيءٍ الآن، لا أكادُ أجدُ فرقًا.

- حسنًا، ما دُمتَ مُصرًّا.

تغيّرت نبرةُ صوتِ جيما، وخالطه حزنٌ لم تستطع إخفاءَه:

- نحن صديقان، أليس كذلك؟

- بلا شكّ!

- إذَن، هل لي أن أطرح عليك سؤالًا؟

- لستِ في حاجةٍ يا جيما إلى أن أؤكّدَ لكِ إمكانَ ذلك، فلمَ كلُّ هذا الغموض؟ كأنّي بك تُخفينَ أمرًا، أو أنّك متردّدةٌ قليلًا.

- هل تعرفُ أيَّ شيءٍ عن باولا؟

- لا شيء، كنتُ مُنقطعًا عن العالم تقريبًا.

- لا شيءَ على الإطلاق؟

- أقسمُ على ذلكَ، رغم أنّ الأمر لا يستحقّ.

- حسنًا، إذَن، تماسَكْ لتتحمّل الصّدمة. أجدني مضطرّةً إلى إخبارك بالخطب، بدافعِ ما بيننا من صداقة.

ساد سكونٌ طفيفٌ مليءٌ بالقلق.

- باولا... ماتت، ماتت باولا

- لا...

بدأت يداه تتعرّقان على الهاتف.

- توفّيت في باريس قبل أسبوعَيْن، ويوم الجمعة الفارطِ كان قدّاس يومها السّابع.

كانت عضلاتُ رقبتِه مشدودةً وألمٌ حادٌّ يخترق صميمَ قلبه. وبدا صوتُ جيما كأنّه آتٍ من الأبديّة.

- باولا... ماتت...

لم يكنْ راغبًا في أن يتلقّى خبرًا بتلك القسوة. وودَّ لو أنّه في تلك اللّحظة يشنقُ البشريّةَ كلَّها بسلك الهاتف. ولكنَّ الغريبَ في الأمرِ أنّ عينيْه لم تدمعَا بالمرّة، وظلّتا شاخصتيْن في الفراغ، وبقي الهاتف ملتصقًا بأذنه، كما لو أنّه يُمسك بيده مقبضَ تابوتٍ ويضغط بوجهه عليه.

استمرّ صوتُ جيما:

- عزيزي، عزيزي...

كانت هي أيضًا تحت وقع العاطفة.

- أنتَ في الاستماع؟ لم أُرِدْ إبلاغَك بخبرٍ كهذا في الهاتف.

ضغط على جبهته بيده، وتمكّن من الكلام أخيرًا:

- حسنًا فعلتِ إذْ أخبرتني.

- بماذا تشعر يا عزيزي؟ أرغب في أن أكون بجانبك الآن!

- الآن، جيما، أنا شبه مخدَّر. لكنّي أريد أن أبقى وحدي، أنت تفهمين... أعتقد أنّي... سأبكي في ما بعد.

لم يستطع قولَ أكثر من ذلك، ولا حتّى ردّ تحيّة الصديقة.

بقي ساكنًا فترةً طويلة. وكان لديه انطباعٌ خاصٌّ بأنّه يسير في بُستانٍ كبير، مليءٍ بأشجار الجوافة الكبيرة النّاضجة، وسطَ رائحة الثّمار الّتي غزَتْ كيانَه كلَّه وخنقته كإشارة بداية شهقات البكاء، شهقاتٍ جعلت عينيْه تمتلئان بالدّموع.

الجزء الثّالث

السّلاحف

الفصل الأوّل

الافتراء

شعر بنظرةِ الممرّضة وهي تتفحّص شكلَه، من أعلى إلى أسفل، دون أن تفوّتَ أيَّ تفصيلٍ قد يبدو لها غريبًا. كانت تعلم أنّ هندامه غيرُ لائق، وأنّ ملابسَه تتشكّل من قميصٍ رماديٍّ من نوعيّةٍ رديئة، وسروال جينز أزرقَ غامقٍ في الأصل، لكنّه صار أزرق سماويًّا من طول الاستعمال. كان يُفترَض بشكلٍ أكيدٍ أن يكون حذاؤه الأسود ملمّعًا، لكنّه لم يكن كذلك. حاولَ إخفاء مظهرِه برسم ابتسامةٍ إنسانيّةٍ جدًّا على محيّاه.

- هل يمكنني التحدّث إلى الدكتور كيارا؟

- إذا كان ذلك من أجل استشارة، فثمنُها أربعة آلاف كروزايرو.

- لا، هي ليست استشارة، ولو كانت لي أربعةُ آلاف كروزايرو لتزوّجت.

- هل هو موضوعٌ خاصّ؟

- من فضلك قولي له إنّي الرّاهب يقطين.

اتّسعت عينا الفتاة من الدّهشة.

- الرّاهب ماذا؟

- هو ما سمعتِه، الرّاهب يقطين، أنا قريبُه.

دخلت الفتاةُ وبها شيءٌ من ارتياب. أمّا هو فراح ينظر حولَه متفحّصًا

وجوه الزّبائن في قاعة الانتظار، كان أغلبُهم من ممثّلي المختبرات، يحملون حقائبَهم ولا يكفّون عن الثّرثرة. وكانت هناك امرأتان فقيرتان، لا شكّ أنّهما مريضتان ستتلقّيان علاجًا مجّانيًّا. هذا الرّجل لا يتعلّم أبدًا. مع زبائن مثل هؤلاء لن يكسب حتّى ثمنَ بنزين سيّارته، رغم أنّه أحدُ أكبر أطبّاء العظام في ساو باولو. رُبّما كانَ من الجيّد عدمُ الاهتمام بالمال كثيرًا. يعلم أنّه شريكٌ في عيادةٍ وأنّ معظم ما كان يُفتَرَض أن يكسبه أصبح قليلًا جدًّا، فهو كثيرًا ما يستقبل مرضى فقراء ويخصِم تكاليفَ عيادتِهم من مداخيله. وهذا أمرٌ جميل. سيشعره النّظرُ إلى هدوء وجهه بإحساسٍ جيّد. لكنّه لم يتمكّن من مواصلة تفكيره أكثر، لأنّ الباب انفتحَ وخرجت زبونةٌ قبيحةُ المنظر، ثمّ ظهر بعدها طيفُ الطّبيب عند العتبة.

مدّ يدَه للمصافحة، فعانقه الآخر.

- ظنّت الممرّضة أنّك مختلّ.

- مثل كلّ مرّة هناك...

- النّساء عمومًا يبحثن عن الزّواج. أخبرني، مَن هذا الّذي يُرسلك لتظهر كلَّ أربع سنوات؟ ادخل.

جلس قربَ المكتب الّذي استقرّ خلفَه الدّكتور كيارا على كرسيّه المنجّد. التقط المطرقةَ المنعكسة في الحين وراح ينقر في منتصف يده اليسرى.

- من فضلك توقّف عن ذلك. كان والدي يفعل الشّيء نفسَه عندما يأخذني إلى عيادته، فيُثير ذلك أعصابي.

وضع المطرقةَ على المنضدة. ثمّ أخذ كلٌّ منهما يتأمّل الآخر بدقّة، كأنّهما يقدّران حجمَ الأضرار التي راكمَها الزّمن على وجهَيْهما خلال

أربع سنوات. ضحكًا في الوقت نفسه، لأنّ كليهما كان سيقول الشّيء نفسَه لو تكلّم.

- نحن نتقدّم في السّنّ!

- نعم نحن كذلك.

- وكيف هي الحياة؟

- الكفاحُ المعتادُ نفسُه، كما كنتَ تقول أنت في السّابق «أن تحيا يعني أن تتألّم»، المستشفى في الصّباح، ومكتب العيادة في المساء، وربّما ظهرَ زبونٌ في اللّيل. وماذا عن حياتك؟

- هي نفسها دائمًا: الغابة، والبعوض، والهنودُ والحكومة، والمدينةُ والصّدقات، والآن نوعٌ من التّعب الغريب، لعلّه نتيجةُ الشّيخوخة. الدّكتور ألفونسو، صديقي العزيز والقديم، يعتقد أنّي لستُ على ما يرام.

- لا شكّ أنّ لذلك سببًا، رغم وجود أمرَيْن ... أوّلًا، الكأس الجيّدة لا تنكسرُ، وثانيًا لم يسبق لك زيارة طبيبٍ دون طلب بعض الأدوية المجّانيّة ...

وضحكا معًا.

- لا، أحبّ الطّبيبَ ولا يمكن الهروب من لقائه. لكنّي أريد كمّيّة الأدوية أيضًا.

- لديّ درجٌ مليءٌ بأشياء من أجلك.

ثمّ تحوّلت ملامحُه إلى جدّيّةِ مَن يرى شخصًا مريضًا.

- لا، لا تتّخذ هذا الشّكلَ وإلّا سأكون خائفًا.

- دعنا من الهراء، ولنتحدّثْ بجدّيّة، ما الأمر؟

إنّه يتكلّم دائمًا بذلك الصّوت اللّطيف والودود.

- ألمٌ بسيطٌ يصعد هنا، إلى كتفي اليُمنى، تعبٌ يبدو أحيانًا أنّه من عالمٍ آخر، وإحساسٌ بخدرٍ غريبٍ ومزعجٍ هنا في اليد اليسرى. في بعضِ الأحيان حتّى ساعةُ يدي تجعلني غيرَ مرتاح.

- في الجانب الأيسر وحسْب؟

- نعم.

- لنذهب إلى الغرفة الأخرى.

فتح بابًا آخر.

- اخلعْ قميصَك.

تفقّد ظهرَه المحترقَ من الشّمس، ثمّ أدارَه ليقابله بوجهه.

- بحسب ما أرى، فإنّ وضعَ الأضلاع سليم. ماذا كان هذا؟ أَهُوَ وعدٌ أم جوع؟

- القسوة يا صديقي، القسوة.

فحَص كبدَه ومعدتَه، واستمع إلى قلبه ورئتَيْه. ثمّ قاسَ ضغطَه وهو صامتٌ لا يتكلّم. وبذلك الصّمتِ ذاتِه دخلَ القاعة وجلس خلف منضدة المكتب. وكانت الجدّيّة ظاهرةً على وجهه.

عاد الرّاهب يقطين بعد أن لبس قميصَه.

- إذَنْ، يا دكتور؟

- هل بذلتَ مؤخّرًا جهدًا كبيرًا؟

- يا له من سؤال! جدفتُ مُدّةَ شهرين إلى غاية الآن، في نهر أراغوايا

القديم، جدفتُ كثيرًا حتّى حَسِبْتُني سأنفجر. كنت ضعيفًا إلى درجة أنّي تخيّلتُني أجدف جسدي بدلًا من الزّورق.

- هل كنت تشرَب؟ أو لِنَقُلْ هل كنت تشرَب كثيرًا؟

- نعم كثيرًا. في السّابق كنت قادرًا على تجاوز فترات بقائي في الغابة بسلام. لكنْ اليوم أمرٌ آخر. لقد تغيّر كلّ شيء، وأنا أيضًا تغيّرت.

- منذ متى وصلت؟

- منذ أربعة أيّام.

- وهنا أيضًا أكثرتَ من الشُّرب؟

- أنت تعرف الأمور الّتي تحدث، لقاءٌ مع أصدقاء، دردشاتٌ كثيرة، ثمّ احتفالات، وبعدها يذهب الواحد منّا إلى النّوم وهو في منتهى الثّمالة.

- هل تشعر بضيقٍ في التّنفّس؟

- نعم مع إحساسٍ بالتّعب غير واضح المعالم.

بقي ينظر إلى صديقه. كانت تعابيرُ وجهه خارجةً عن المألوف، لا شكّ أنّ الأمرَ جدّيّ. وأخيرًا كسر الصّمت:

- متى تعود؟

- ما إن أنهي التّفاوضَ بشأن كمّيّةٍ من أواني الهنود الفخّاريّة، وبعدها يمكنني أن أشتريَ من أجلهم الكثير من الحليّ والأدوات، وأن أحصلَ على أخرى بالمجّان.

-الأجدرُ بك أن تُجريَ قبلَ ذلك كلّه تخطيطًا على القلب.

قفز يقطين.

-اللّعنة! لا أظنّ الأمرَ يستحقّ.

ثمّ عاد إلى وضعه السّابق وضحك.

- كيف نفحَص عضوًا لم نعد نملكه. لا يا صديقي، ابحث عن طريقةٍ أخرى، ليس لي أيّ دقيقةٍ أضيّعها.

-الأمر يخصّك أنت، لكنّني أنصحك وحسْب. الكبد والرّئة والمعدَة كلّها بخير، لكنّ القلب ...

- اكتب لي أيّ دواءٍ وأعدك أن ألتزم به حرفيًّا.

- إذَنْ، توقّف فورًا عن التّدخين والكحول، وتوقّف عن المجهود البدنيّ أو قَلِّلْ منه ما استطعت.

- الشّيئان الأوّلان ممكنان رغم صعوبتهما، لكنّ الثّالث... لا أعتقد، لا.

- على أيّة حال، ثمّة شيءٌ واحدٌ مؤكّد، إذا كنتَ لا تستطيع الإقلاعَ عن الكحول فلا تجمع إليه الجهدَ البدنيّ. لو كنتُ مكانَك لتوقّفتُ عن الشّرب ستّةَ أشهر ...

وحرّك يدَه، كما لو أنّ قنبلةً انفجرت.

-هل يمكن فعل ذلك؟

-نعم يمكن! تعال وتناول الغداءَ معي غدًا.

- إذا وجدتُ الوقت، سآتي إلى منزلك. السّاعة الثّانية عشرة؟

- السّاعة الواحدة أفضل.

تصافحَا وخرج الرّاهب يقطين.

في المصعد، كان يشعر بالقلق. وظلّتْ حركةُ يد الطّبيب حاضرةً في

ذهنه. لم يشكَّ في أنّ شيئًا مّا أزعجه، سيتحدّث مع أصدقائه في الحانات، لكنْ دون لمس أيّ كأس. وأثناء محادثاته في الحانات يمكنُه الحصول على أشياء كثيرةٍ لهنوده.

شعر أنّه سافر بخياله بعيدًا، تحت ظلّ شجرة المانغو الكبيرة في سانتا إيزابيل. هو يحبّ مشاهدةَ الزّوارق وهي تعود من الصّيد عندَ غروب الشّمس، دائمًا بالجمال الهادئ نفسه. سمعَ شخصًا يقترب، إنّه صديقُه القديم ديريدو، كان يحمل بين ذراعَيْه طفلةً صغيرة، سمينةً ونظيفة، وشعرُها مدهونٌ بزيت الباباسو.

حيّاه ديريدو بـ«مساء الخير». ثمّ قدّم له ابنته:

- بيوكري، تويرا، أمسكْ ابنتي، أعلم أنّك تحبّها.

وضع الطّفلةَ في حجره وداعبَ ظهره.

كانت لديريدو تعابيرُ شخصٍ هادئٍ ومطيع.

- أنت ذاهب؟

- نعم قريبًا.

- هل أنت بخير يا تويرا؟

- تقريبًا.

- أنت ذاهب إلى ساو باولو؟

- بالتأكيد.

توقّف ديريدو قليلًا، لكنّ الرّاهب يقطين كان يعلم أنّ طلبًا سيتبع ذلك، فقرّر تسهيلَ الأمر عليه:

- ماذا تريد يا ديريدو؟

- هل أخبرك يا تويرا؟ الصّيد أمرٌ صعبٌ جدًّا. قضى البيضُ على طريقة صيدنا. وحتّى الخنازير البرّيّة والكابيبارا ومعها الببغاوات أصبحت تأكل زرعَنا. وليس لي سلاحٌ عيار اثنين وعشرين. هل يمكنك إحضارُ واحدٍ لي؟

- لا أعتقد أنّي أستطيع، ديريدو. أنا فقيرٌ جدًّا، لقد جئت من شينغو ولم أكسب ولو فلسًا واحدًا هناك، حتّى إنّي بعتُ بندقيّتي لأحد الموظّفين كي أحصل على المال لرحلتي.

بدا على الآخر شيءٌ من الحزن، لكنّه لم يفقد حماسَه.

- واحد فقط. أنت تعلم أنّ الزّرع بعيدٌ والنّمر يتجوّل في الطّريق. أحيانًا كثيرةً أضطرّ إلى العودة في اللّيل، ولا يمكنني قَتْلُ نمرٍ بالسّهام... لكنْ بطلقةٍ واحدةٍ يا تويرا.

شعر بالتّعاطف مع قصّته.

- ومع ذلك، سيكون الأمر صعبًا.

- اسمع تويرا، إذا لم تحصل لي على عيار اثنين وعشرين، فلن أحصل أبدًا على المال لشرائها، أنا فقيرٌ جدًّا.

ضمّ الطّفلةَ برفقٍ إلى صدره وكأنّه يحمي نفسَه من القلق. ومنحته تلك الملامسة الحنون شيئًا من نور الأمل.

- لا أظنّني أستطيع، لكنّنا سنقوم بأمر. لا أستطيع أن أعدك بشيء، لكنّي سأبذل قصارى جهدي. وإذا لم أنجح، فلا تغضب.

- حسنًا لن أغضب.

- جيّد جدًّا.

-أعطني الفتاة. فالظلامُ يتقدّم، ولا شكّ أنّ والدتَها تبحث عنها.

عند نهاية المحادثة، قرّر ديريدو العودةَ إلى القرية. مشى خطوةً، ثمّ استدار بابتسامةٍ باهتة:

-سوف تحضره لي، نعم، لأنّك صديقٌ لطيفٌ جدًّا.

ضحك، واختفى طيفُه شيئًا فشيئًا.

-يا له من مبتزّ!

لكنّ المبتزّ لم يكن الهنديَّ بل هو ذاته، لأنّه برواية تلك القصّة في الحانات وفي بعض محلّات بيع الكتب، تمكّن من الحصول على أربعِ قطعِ سلاحٍ من عيار اثنين وعشرين.

- هل ستصعد مرّةً أخرى سيّدي؟

وجد نفسَه أمام الوجه العدواني الّذي يحمله عاملُ المصعد.

-آسف، كنتُ في منتهى الشّرود، حتّى إنّي لم أنتبه إلى وصولنا، شكرًا لك يا صديق.

***

-واحدٌ آخر فقط.

-لا أستطيع.

-لماذا لا تستطيع أيّها الرّاهب يقطين؟ بعد مدّةٍ قصيرةٍ ستجد نفسَك مدفونًا في الغابات وستفتقد رائحةَ الويسكي، خُذْ هذه وحسْب.

أفرغ السّائلَ في الكأس المضبَّبة من البرد، وسمع رنينًا لقطع الثّلج وهي تسقط في الشّراب.

قبل الدّعوة، كانت الحجّةُ مقنعةً جدًّا. قريبًا، ربّما خلال أيّامٍ قليلة،

سيغوص في أعماق الغابة كما قالوا له الآن. شربَ كأسَ ويسكي أخرى. وباعتباره مدعُوًّا، لم يكن هناك داعٍ إلى القلق بشأن المبلغ البائس الّذي معَه. وبين الأعراض الأولى للسّعادة الكحوليّة، سمع كلمات صديقه الطبيب ألفونسو من بعيد، لكنّها بدت له بعيدةً جدًّا حتّى إنّه لم يشعر بها موجّهةً إليه.

- هل صحيح أنّكم لا تملكون في الغابات هذه المشروبات، أليس كذلك؟

- على الأكثر نحصل على كونياك ألكاتراو، من ساو جواو دا بارّا.

- لكنّ ذلك مقرف. إنّه مثل صابونٍ للكلاب.

- واو! إذَنْ يمكن استعماله لغسل المعدة، أو مَسْحِها برغوة الصّابونِ على الأقلّ. هل تعتقد أنّ الخيار متوفّرٌ لنا في تلك الأماكن؟

- والشّراب المقطّر؟

- آه ذلك نعم، هو يظهر هناك قبلَ أيّ شيءٍ آخر.

كان لسانُه طليقًا، وببهجةٍ نادرًا ما كانت تظهر عليه.

بدؤوا في تشكيل حلقةٍ حوله، فلم تكن فرصةُ التحدّث إلى شخصٍ قادمٍ من الأدغال متاحةً دومًا، وبالخصوص مع شخصٍ متحفّظٍ وقليل الكلام مثله.

وصل رجلٌ في منتصف العمر، شعرُه أبيضُ من الشّيب، فدَعَوه إلى الجلوس بينهم.

- هل تعرف صديقنَا الرّاهب يقطين؟ إنّه رجلٌ يعرف البراري من الجهات الأربع.

ذكروا له اسمَ ذلك الصّحفيّ، ومدّ يدَه لمصافحته.

- كأس ويسكي أخرى؟ مرّةً أخرى فقط. استمتع يا رجل، هذا الحساء لن يكون موجودًا غدًا.

لم تعد لديه قدرةٌ على التحكّم في نفسه. قَبِلَ العرض، وأصبح الحديث أقربَ إلى الثّرثرة في كلّ مرّة. جميعهم أرادوا معرفةَ أشياء كثيرةٍ عن الهنود.

في لحظةٍ من اللّحظات، شعر ببعض الحرج. وظهرت عليه ملامحُ حزن. فهزّ كتفَيْه كما لو أنّه لا يوجد شيءٌ يمكنه تحسين الأمور، أو ربّما أدرك عدم جدوى ما يبذله من جهود.

- البرازيل نفسها ستتكفّل بالتخلّص منهم، أو بإهدائهم أمراضًا مجّانيّة، أو أنّها ستوزّع عليهم لعنةَ الكحول. رُبّما استطاع بعضهم أن يُفلتوا من تلك الفوضى إذا استمرّ الحفاظ على حديقة شينغو. وحينها، قد يوجد أمل.

- ما هو المكان الّذي تبقى فيه أطولَ مدّة؟

- دائمًا ما يكون مقرُّ نشاطي في جزيرة بانانال. إنّه مكانٌ جميلٌ حقًّا. كان بإمكاننا هناك أن نعمل من أجل حماية صحّة الهنود والمحافظة على كلّ شيءٍ أصيلٍ وتقليديّ مازال موجودًا، ذات يوم... ظهر زعيمٌ مبتسم، زعيمٌ عرف كيف ينفق دماء الفقراء، غزا بانانال بقوّة نفوذه. وفي منطقةٍ مخصّصةٍ لخدمة حماية الهنود، أقام نزوته المسمّاة «مؤسّسة وسط البرازيل»، يا له من عالمٍ مجنون! كيانان كان كلّ منهما يرى الآخر بنظرةٍ سيّئة، وكانا حتّى وقتٍ قريبٍ في منتهى العداوة، لأنّهما، ببساطة، يهتمّان بالأمور نفسها.

لاحظ أنّ الصّحفيّ ذا الشّعر الأبيض لم يسعَد كثيرًا بسماع تلك القصّة، لكنّ اللّسان كان منطلقًا.

- حسنًا، ذهب الزّعيم المبتسم إلى هناك و... بووم! غزا كلَّ شيء، غزا وانتهك حتّى الجزءَ الرّوحيّ من الهنود. اصطحب عازفَ غيتار شهيرًا في فريقه. وعلى صوت إيقاعٍ بهيج، شجّع الهنود على رقص الأورانا على إيقاع السّامبا. لقد كان «الأب الكبير» للاحتيال. ثمّ رفع عصًا سحريّةً من بقايا الأشياء. بنى لنفسه فندقًا، مستشفى، أرضًا لهبوط الطّائرات، حتّى النفّاثة منها... آه! كلّ شيءٍ سهلٌ بأموال الآخرين. لنطلق على ذلك اسم «التقدّم». وبعدها بقليلٍ حصلوا على أربعمائة مليون كروزيرو. إذا كنتم تريدون رؤيتَها، فاذهبوا إلى هناك. كلّ شيءٍ يتهاوى والأمطار تتساقط داخلَه. إلى جانب ذلك البؤس الّذي كلّفَ ثروةً ذهبيّة، كان لدينا مائة ألف كروزيرو سنويًّا لدعم مركزٍ هنديٍّ فقير، وقد تحوّل مع الغزو إلى مركزٍ زائفٍ للسّياحة الحكوميّة. كانت الطّائرات تأتي مملوءةً في عطلة نهاية الأسبوع. الشّعب غنيّ! يمكن الحصول على المال بسهولة. اذهبوا إلى هناك وانظروا. الهنديّ الفقير، الّذي يعمل في البناء والأشغال ويكسب نقودًا لم يرَها قطّ، تغيّرَ نمط عيشه الاقتصاديّ. اذهبوا إلى هناك وشاهدوا الإهمال، والعري، والأوساخَ وإدمانَ الخمور التي علّموهم شربَها ووزّعوها عليهم...

تذكّر أحدُهم أن يسأل عن طريق بيليم-برازيليا.

- سيكون ذلك شيئًا رائعًا خلال مائتَي عام! لكنْ لا تعتقدوا أنّه كان من إنجاز الزّعيم المبتسم. لا. يا صديقي، في رصيدي ستّةٌ

وعشرون عامًا من الحياة في الأدغال. مرّ اليوبيل الفضّيُّ[1] لزيجتي هناكَ من البعوضِ والحمّى، وذلك كان موجودًا من قبل. كان من السّهل عملُ إشارةٍ لمن هم خارج المكان. من الواضح أنّ طريق بيليم-برازيليا لم تكن موجودةً لأنّ برازيليا نفسها لم تكن قد أنشئت بعد. كان الجميع في براري السيرتاو يسافرون عبر تلك الطرق المؤدّية إلى بيليم، في أعلى توكانتينس، بحقّ يسوع المسيح! كان السّفر مثلَ السّفر اليوم. صحيحٌ أنّهم أجرَوا بعضَ التّوسعة في بعض الأجزاء. نعم، صحيح. لكنْ حَاوِلُوا السّفر بين ديسمبر ومارس. اذهبوا إلى هناك وعودوا بشجاعة، أيّها المراسلون الأعزّاء، لتمدحوا الّذين قاموا بتلك الرّحلة في أوقات الجفاف والغبار. كيف تفسّرون أنّهم لم يبدؤوا حتّى الآن في شقّ الطّريق الثّانية على طريق الرّئيس دوترا! من الصّعب إبقاء الأشياء قريبة. تخيّلوا أنفسَكم هناك. نعم إنّه الوقت، الوقت الهادئ، مع المنطق والصبر، هو ما سيطوّر هذه الطريق التي ستكون أعجوبةً في الرّبط بين الناس. لا فائدة من العنف والجدل، لأنّه لا يمكنك أن تنتصر في معركةٍ ضدَّ مناخٍ جاحد. أنتم لا تستطيعون حتّى إيقافَ المطر الّذي ينزل في أوقاتٍ معيّنةٍ على الغابة ...

كانوا يشجّعون لسانَه الفضفاض على الكلام.

- وماذا عن برازيليا؟

(1) مرور ربع قرنٍ من الزّمان، على صحبة الرّاهب في تلك الغابات للبعوض، ومعاناته من الحمّى، فكأنّ طولَ معاشرته لكليهما بمنزلة الزّيجةِ.

- وما فائدة أن تعرفوا؟ جميعكم تعرفون حقيقةَ كلّ شيء، الحقيقةَ التي يفسّرها كلّ واحدٍ بطريقته الخاصّة، لكنّ الجميع يعرفونها ...

- ولكنْ من الجيّد دائمًا أن تسمع من شخصٍ يعيش هناك باستمرار. أخبرنا عن رأيك في برازيليا.

- برازيليا بالفعل أعجوبةٌ من الجرأة والعزيمة. لقد بُنيتْ فعلًا، وهي لا تتحمّل ذنب الطّريقة الّتي تمّ بها ذلك. كان فيها أكبر تجمّعٍ لعمّال المناجم والمنقّبين عن الذهب في البرازيل أثناء بنائها. طبعًا، لا أحد يستطيع المصادقةَ على السرقة التي أحاطت بها. لا أحد. ولكنْ هناك التزامٌ بالمصادقة على الأشغال الّتي يقومون بها. لا يمكن العودة إلى الوراء. لكنْ إذا كان يمكن القيام بزيارة إلى البنوك السويسريّة، يا ربّ السّماء! فكم ستظهر من سرقاتٍ في حساباتٍ مشفّرة. وكلّ شيءٍ جاء من برازيليا التي لا يمكن لومها على أيّ شيء.

تحدّث الصّحفيّ لأوّل مرّة. بدتْ على وجهه ابتسامةٌ ساخرة، وأخذ يتكلّم بصوتٍ معسول:

- أودّ أن أكتب مقالًا عن صديقنا الرّاهب يقطين. سأنتهز الفرصةَ وأتّصل بالصّحيفة الّتي أعمل فيها لأطلب حضورَ مراسل إلى هنا. هذا بالطّبع إذا كان صديقنا لا يمانع.

- أنا؟ لا أعرف حتّى إذا كان الأمرُ يستحقّ كتابةَ مقالٍ عنّي. لكنْ افعل ما تريد. أنت من يعرف جدوى كلّ ذلك أو عدم جدواه.

نهض الصحفيّ وذهب إلى المنضدة لإجراء مكالمةٍ هاتفيّة. عرضَ أن يدفع ثمنَ تلك الجولة الجديدة من كؤوس الويسكي وهو في كامل وعيه، وكان هو نفسه الّذي طرح السؤال التالي:

- لكنْ ألا تعتقد أنّ الزّعيم المبتسم فعل الكثير من الأشياء المفيدة، في مجال الصّناعة ولاسيّما صناعة السيّارات؟

- يمكن أن يبدو لي الأمرُ كذلك، أو لنصف دزينة من الأشخاص الّذين يتمتّعون بوضعٍ جيّد في الحياة. ولكنّه كان عملًا أنفعَ للأجانب منه للبرازيليين. في ذلك الوقت كان الفقراء أمّيّين لا يعرفون لا القراءة ولا الكتابة ولا الزّراعة. وهم مازالوا بعْدُ يفتقرونَ إلى تلك القدرات، بالإضافة إلى أنّهم دون سيّارات. أووف، الجوّ حارّ! سأغادر.

- لا، انتظر، الصّحيفة قريبةٌ وأحتاج إلى التقاط بعض الصّور لك من أجل مقالتي.

توقّف عن الكلام، وابتسمَ قليلًا. ثمّ قال:

- أعتقد أنّي قلت الكثيرَ من الهراء. لكنْ لا يهمّ، لا شكّ أنّ أناسًا كثيرين قبلي قالوا تلك الأشياء علنًا على دفعات.

مسح وجهَه بيدَيْه، ورغم أنّ طقسَ ساو باولو كان جيّدًا في هذا الوقت من العام، فإنّ الحمرةَ غزت وجهه، بسبب ما كرعه من كؤوس، وانتابه في الأثناء شعورٌ ببعض الاضطراب في ساقَيْه.

ظهر الرّجل مع الآلة وفلاش التّصوير.

- جاهز يا راهب يقطين. هكذا... أرِنا ابتسامة!

وأضاء الفلاش.

- والآن والكؤوس بين أيدينا، لنرفعْ نخبَ مستقبل الغابة.

أطاع مبتسمًا، فذلك لم يكلّفه أيَّ شيءٍ في نهاية الأمر.

أعطَوه بطاقةَ زيارةٍ لقنصلٍ أجنبيّ مهتمٍّ بالشّؤون المحلّيّة في البلاد، وبالخصوص بشؤون الغابة. قالوا إنّه رجلٌ طيّبٌ جدًّا، صعب المراس قليلًا، لكنّه سخيّ. حتّى إنّه وظّف نسبةً من ميزانيّة بلده في أعمالٍ خيريّة.

اتّصل بالقنصليّة. كان الدّيبلوماسيّ على علمٍ مسبقٍ بكلّ شيء، وحدّد له موعدًا في السّاعة الثّالثة والنّصف بعد الظّهر، ويمكن أن يمنحه خمس عشرة دقيقةً مدّةً للمقابلة.

قبل الوقت المحدّد، توجّه إلى شارع بارا ودي ايتابينغا، وبقي يحدّق في الواجهات الزّجاجيّة للمتاجر، كي يمرّ الوقت. بدا معجبًا بمتجر ثلّاجاتٍ كان فيه الكثير من دمى الإسكيمو، بملابس سميكة، ملابس صوفيّةٍ بألوانٍ عديدة. بدأ يتخيّل هنودَه اللّطفاء ذوي اللّون البرونزيّ وهم يرتدون تلك الثّياب. كانوا يحتاجون حقًّا إلى ملابس دافئةٍ في ليالي مايو ويونيو الباردة، عندما تهبّ الرّياح القادمة من أراغوايا عبر أكواخ القشّ، وتبثّ البردَ القارس في كلّ شيء.

نظر إلى ساعةٍ في متجرٍ آخر. ما تزال عشرون دقيقةً عن الموعد. توقّف عند باب رواقٍ حيث تقع القنصليّة. وبقي يراقب النّاس وهم يهرولون مستعجلين بلا توقّف، كلّ واحدٍ عالقٌ مع نفسه، في عالمٍ مجهولٍ من المشاكل الخاصّة.

ذهب إلى زاويةٍ في شارع إيبيرانغا، إذ لا يزال أمامه بعض الوقت. وهناك، كان رجلٌ عاجزٌ على عكّازَين، يحمل بعضَ الإعلانات. في إحدى يدَيْه علبةٌ كبيرة، والأخرى تعرض المحتوى لأيّ شخصٍ يمرّ. بدا الأمر صعبًا، حتّى إنّ الرّجل المسكين اضطُرّ إلى الاتّكاء على الحائط. أخذَ منه واحدةً وهو يشعر بالأسف من أجله، ثمّ شكره. يا للبائس!

ذلك هو عمله ولم يتكرّم أحدٌ بمساعدته. غادرَ وفي يده ورقةٌ سرعانَ ما تحوّلت، بسبب توتّرٍ سيطرَ عليه، إلى قطعٍ ممزّقةٍ ملقاةٍ على الأرض.

الآن اقترب الموعد. كان لديه ما يكفي من الوقت لاستقلال المصعد، والدّخول إلى المكتب وتقديم نفسه.

لم يستغرق الأمرُ أكثرَ من دقيقةٍ ليجيبوه بدعوةٍ إلى مرافقة سيّدةٍ طويلة، تتحدّث برتغاليّةً مخلوطةً بشيءٍ من لغتها الأمّ. بقي بضعَ لحظاتٍ جالسًا في غرفةٍ صغيرة، ثمّ عادت الفتاة الطويلة مرّةً أخرى، وأخذتْه لتقدّمَه إلى المكتب الرسميّ.

كان القنصل خلفَ مكتبه يردُّ على مكالمةٍ هاتفيّةٍ ويتحدّثُ باهتمام. ولم يكد يشير إليه أن يجلس على كرسيٍّ مريحٍ يقابله. كان رجلًا صغيرَ الحجم وذا مظهرٍ لطيفٍ جدًّا.

أنزلَ عينَيْه إلى السجّاد يتأمّله. فوجدَ أنّ الرسومات المتقنة جميلةٌ فعلًا. وفجأةً انتبهتْ عيناه إلى أنّه تحت مراقبةٍ فضوليّة. رفعهما فألفى القنصلَ ينظر إليه. لم يعرف ماذا يفعل. كان ما يزال يتحدّث بالهاتف، لكنّه في الوقت نفسه يراقب مظهرَه الّذي بدا له غريبًا بشكلٍ مؤكّد.

ماذا كان يتوقّع من رجلٍ بائسٍ يقضي معظمَ وقته مدفونًا في غابة؟ كان قميص القماش الرّديء باهتًا قليلًا لكنّه نظيف. عدّلَ الكُمَّيْن بشكلٍ معيّنٍ حتّى لا ينتبه إلى رثاثَتِهما. من الواضح أنّ سرواله من نوعٍ رديءٍ بالإضافة إلى منظره المجعّد، مثل جميع الأقمشة الرخيصة. كان وجهه محلوقًا جيّدًا. وعندما مشى بحذائه، شعرَ بانزعاجٍ شديد، إذ كان يمكنه تلميعُه على الأقلّ! لكنّه نسي ذلك. فبدا لنفسه ضئيلًا وبائسًا. كان التوتّر يضغط على حلقه، وهو ما أجبره على ابتلاع ريقٍ جافّ. لم يعد يعرف

ما هو الموقف الذي عليه اتّخاذه أو كيفيّة الهروب من هاتَيْن العينَيْن. لم يجد حتّى طريقةً ليبتسم، لأنّ الرّجل كان يتحدّث بجدّيّةٍ على الهاتف ولم يمنحه أيّ فرصة. كانت هذه هي المرّةَ الأولى التي يلتقي فيها دبلوماسيًّا. ولعلّه ما كان ليأتيَ لو لم يلحُّوا عليه كثيرًا في الذّهاب، رغم أنّه سيكون معذورًا في نهاية الأمر لأنّه لا يطلب شيئًا لنفسه، بل لهنوده المساكين.

أخيرًا، أنهى القنصلُ المكالمة. وضع سمّاعةَ الهاتف وقاطع يدَيْه على الطّاولة، وهو يراقبه بجدّيّةٍ أكبر من السّابق. كان يرتدي ربطةَ عنق فراشة وبذلةً جميلةً جدًّا ونقيّة، لا نقطة فيها. نهض من مكانه متّجهًا إلى منتصف الغرفة، ثمّ جلس على أريكةٍ بجانب ضيفه، في ثقةِ شخصٍ ملمٍّ بكلّ تقاليد التحضّر. اعتذر عن طول المكالمة الهاتفيّة، ثمّ استلم الرّسالة وقرأها باهتمام شديد. بقي بعدهَا صامتًا بعضَ الوقت وهو ينقر على كفّه بالرّسالة. ثمّ أخذ في الكلام.

- لديّ معلوماتٌ مسبّقةٌ جيّدةٌ عنك لكن...

ذلك التحفّظ سبّب قلقًا رهيبًا.

- لكنّي أحتاج بالتأكيد إلى التّحدّثِ معك بضع دقائق وطرحِ بعض الأسئلة عليك.

- أنا تحت أمرك سيّدي.

لم يكن يعرف ما إذا كانت مناداته بـ«سيّدي» مناسِبة، أو ربّما كان من الأفضل أن يخاطبه بـ«صاحب السّعادة».

- كم سنةً عملتَ فيها مع الهنود؟

- أكثر من عشرين سنةً بقليلٍ سيّدي.

- هل تتلقّى أيَّ راتبٍ من أيّ جهة؟

- لا سيّدي، أنا لا أكسب أيَّ شيءٍ من أحد، إلّا أن يكون شخصًا ممّن يريدون المساعدة. وكلّ ما أحصل عليه يذهب إلى أصدقائي هناك.

- هل تؤمن بدِينٍ معيّن؟

- ليس لي أيّ دينٍ يا سيّدي، أنا أؤمن بالإله، وهذا كلّ ما في الأمر.

- إذَنْ، من أين جاءك اسمُ الرّاهب يقطين؟

ابتسم، وشعر براحةٍ أكبر. فذاك هو السّؤال الّذي يحبّ الكثيرُ من النّاس طرحَه عليه.

- أصلُه مزحةٌ بسيطة، فعلى الرّغم من أنّي لست كاثوليكيًّا، تربّيتُ على أسسٍ كاثوليكيّة. وعندما يحلّ اللّيل هناك في منطقة شينغو، يظهر بعوضٌ كثير. فأمشي بسرعةٍ وأضربه بقبّعتي، إذ كنت أحتاج إلى فعل شيءٍ حتّى يمرّ ذلك الوقت الصّعب، فقرّرتُ أن أصلّيَ من أجل الموتى، ولكنْ من أجل الموتى المحبوبين وحسْب. ذات مرّةٍ كنت أصلّي صلاة الأبانا، وعند المقطع الذي يتحدّث عن «خبز كلّ يوم»، توقّفت. أيُّ خبز؟ إذا كان النّاس لا يعرفون معنى ذلك منذ سنواتٍ طويلة؟ لذلك غيّرت الخبزَ إلى اليقطين الّذي كنّا نأكلُه كلَّ يوم. بعدها عرف النّاس أمرَ صلاتي، وبما أنّي كنت أقصّ شعري دائمًا مثل المبشّرين، أطلقوا عليَّ هذا الاسم.

ولأوّل مرّةٍ يرى على وجه القنصل ابتسامةَ تفهّم.

- حسنًا، لكنّ طريقةَ عيشك لا تخلو من شبهٍ بحياة المبشّرين.

- رُبّما كان ذلك صحيحًا. لكنْ دائمًا ما يكون لدى المبشّرين مقاصد أفضل منّي. أنا لا أنتظر شيئًا ممّا أفعله، ولا أفكّر في سبب فعله.

ببساطةٍ، لأنّي أحبّ أصدقائي الهنود وقد تعوّدتُ على أسلوب حياتهم.

- كيف يمكنني مساعدتك؟

- بالحصول على ثيابٍ وأقمشة. ولكنْ يحسُن ألّا تكون من النوع الرخيص، لأنّ لدى هنديّاتي الصغيرات القليلَ القليلَ من الملابس، حتّى إنّه يتعيّن عليهنّ غسلها طوالَ الوقت. وإذا كانت من النّوع الرخيص فستنتهي صلاحيّتُها بسرعة.

- ماذا تفضّل أن أعطيك، أشياءَ عينيّةً أم مالًا؟

- الأمر متروكٌ لك يا سيّدي. يمكنني أن أعطيك عناوين المحلّات الّتي تساعدني دومًا بتخفيضاتٍ وأخبرك أيضًا عن أنواع الأقمشة الّتي أحتاج إليها.

- لا، إذا قرّرتُ مساعدتك، فسأعطيكَ المالَ، لأنّ لديّ الكثيرَ من الانشغالات والقليلَ من الوقت.

كان مندهشًا قليلًا، فالرّجل لم يتّخذ قراره النهائيّ بعد، مازال يستعمل كلمة «إذا» ...

- أنا مضطرّ، بدافع الظّروف، إلى أن أطرح عليك سؤالًا حسّاسًا في بُعدٍ من أبعاده...

لم يكن يعرف سببَ كلّ ذلك. لكنْ بما أنّه أتى إلى هنا، فمن الأفضل أن ينسى كلَّ شيءٍ ويركّز تفكيرَه في هنوده.

- اسأل ما تشاء سيّدي.

- هل من عادتك استغلالُ الهنود؟

فأجابه بسؤالٍ آخر:

- هل أبدو مثل شخصٍ يستغلّ شخصًا آخر؟

وقف من مكانه حتّى يتمكّن القنصلُ من رؤيته بالكامل.

-في الواقع، مظهركَ متواضعٌ جدًّا. لكنْ لا تغضب ممّا سيأتي، أودّ أن أرى يدَيْك.

فبسطهما، بلا تردّدٍ، أمام الرّجل.

رأى أنّ الرّجل ارتبك عند رؤية الدّشابذ الكثيرة على يديه الخشنتَيْن. تلك الدّشابذ كانت نتيجةَ سنواتٍ طويلةٍ من العمل الشاقّ. لا يذكر أنّها اختفت. وفي أحسن الأحوال، عندما تختفي، تظهر أخرى مكانَها. لا يخطر على بال أحدٍ أنّ تَيْنك اليدَيْن الخشنتَين كانتا في يومٍ من الأيّام يدَي فنّان.

- هل أنت بخير، هل ترغب في الشّرب؟

-نعم. أرغب، رغم أنّ الطّبيب منعني من ذلك بسبب القلب. لكنّي لا أُنكر أنّي عندما أشعر أحيانًا بالإحباط، في الغابة، أتناول بضعَ جرعاتٍ صغيرة، لا تسبّب إساءةً إلى أحدٍ ولا تدعو إلى الاستنكار.

- أمامَ الهُنود؟

- لا يا سيّدي، بل خفيةً في اللّيل، بمزرعتي، أو بعيدًا عن أعينهم.

- هل لديك مغامراتٌ مع الهنديّات؟

فوجئ بالسّؤال، لأنّه اعتقد دومًا أنّ الدّبلوماسيّين ملزمون بالتّحفّظ.

-الحقّ أنّه كانت لي في البداية بعضُ الخطايا. وأظنُّني معذورًا لأنّي

كنت صغيرًا في ذلك الوقت. وفي ذلك العمرِ نستعمَل الدّماغ أقلّ من... لكنْ الآن لا، جميع الهنود يشكّلون جزءًا من عائلتي. شهدتُ ولادة كثيرين منهم، وأصبح بعضُهم اليوم آباءً يقدّمون لي أطفالَهم كأنّهم أحفادي ...

- حسنًا، سأتوقّف عن الأسئلة وأبرّر سببَ اضطراري إلى طرحها.

دقّ جرسًا، فظهرت المرأة الطّويلة على الفور.

- يمكنك أن تُحضري لي الصّحيفة.

ذهبت، وعادت مع الصّحيفة كما لو أنّ كلَّ شيءٍ تمّ الترتيب له مسبّقًا. جلس مرّةً أخرى وفتح الصّفحةَ الأخيرة من الصّحيفة، صفحة القذارة البشريّة.

- هل تعرف هذا؟

بدت صورته مكبّرةً بشكلٍ غير بريء، وأعطى مظهره انطباعًا بأنّه عربيدٌ حتّى في أعماق عينَيْه.

وزيادةً في سوء الوضع، فإنّ الكأس تبدو وكأنّه يعلنُ نخبًا مع من يقرأ الصّحيفة.

فوق الصورة، كُتبَ بحروفٍ كبيرة «الرّاهب يقطين محتالٌ حقيقيّ».

هنا كان يكمن سببُ عدم ثقة القنصل به. كان في الجريدة مقالٌ قاسٍ اتّهمه فيه الصّحفيّ بخداع الهنود وكسبِ المال عن طريق المتاجرة بهم، وأظهره هاويًا لفضّ بكارة الهنديّات الصّغيرات. كان ذلك من أخطار المحادثات اللّطيفة بهدف الحصول على الصّدقات وبيع منتجات الهنود ...

لم يستطع مواصلةَ القراءة لأنّ عينَيْه امتلأتا بالدّموع. ثرثَرَ كثيرًا في الحانة، ويبدو أنّ الرّجل الّذي فعل به ذلك هو أحد أنصار الزّعيم المبتسم...

إنّه انتقامٌ رخيص... حقارةٌ من حقارات البشر المقزّزين ...

رفع عينَيْه الدّامعتَيْن إلى القنصل، وقال بانكسار:

- لسوء الحظّ، هذا السّكّير هو أنا. هذا كلّ ما يمكنني قوله.

- لكن كيف حصلوا على هذه الصّورة يا فتى؟

- التقيت بأصدقاء في حانة، أشخاصٍ لم أرَهم منذ وقتٍ طويل، فقرّرنا الاحتفال. ومع الوقت، شعرتُ بالنّشوة وقلتُ أشياء سيّئةً عن حكومة أحدِ الرّؤساء، وحول الطّاولة كان هناك صحفيٌّ من مؤيّديه. وليس المقالُ في واقعِ أمرِهِ إلّا ردًّا على ما ثرثرتُ به من أشياءَ لم ترقْ كاتبه فقرّر الانتقامَ لوليِّ نعمته.

ثمّ نهضَ والحزنُ يمزّق روحَه.

- على أيّة حال، أشكرك كثيرًا على استقبالي مع أنّك قرأت الصّحيفة قبل ذلك.

أمسكت يدُ القنصل بذراعه.

- إلى أين أنت ذاهبٌ أيّها الشابّ؟

- بعد هذا الأمر، لا أعتقد أنّ لدينا أيَّ شيء آخر نتحدّث فيه.

- ولماذا؟ هل تعتقد أنّي خلال مسيرتي الطّويلة في العمل الدّبلوماسيّ لم يشهَّر بي من قبل الصّحف؟

دعاه إلى الجلوس.

- كان من واجبي المهنيّ أن أسألك عن كلّ ذلك. من حقّي معرفةُ الأمر وتحليلُه لإعطاء الحكم المناسب. حسنًا، هذا قراري: أرى أنّك لا يمكن أن تفعل أيَّ شيءٍ ممّا تتّهمك به الصّحيفة. هذا يكفي.

ونظر إلى الرّجل العجوز بتأثّر.

- ذلك كافٍ جدًّا لقلبي. من المؤسف جدًّا أنّ معظم النّاس لن يفكّروا مثلك.

دقَّ الجرسَ مرّةً أخرى.

- سأعطيك شيكًا دليلًا على ثقتي الكاملة بك. وأودّ أن تردّ إليَّ تلك الثّقة الكاملة بتوقيع الإيصال الّذي أمرتُ بإعداده. لكنّ توقيعك لن يكون ذا قيمةٍ إلّا إذا كان ببساطة... «الرّاهب يقطين».

***

خرج من المكان مطأطئًا رأسَه، خائفًا، مُتهيّبًا من أن يُشيرَ إليه أولئك الّذين قرؤوا الجريدةَ عندما يمرّ أمامهم. سلكَ شارع السّابع من أبريل، وعبَرَ إلى مبنى تيليفونيكا، وسارَ على طول الرّصيف. ورغم هِبة القنصل وكرمه، ظلّ يشعر باشمئزازٍ في روحه. آه لو يمسك بذلك الصّحفيّ... ودون أن ينتبه، وجد نفسَه واقفًا أمام مبنى الصّحيفة نفسها. كلّ ما كان عليه فعله هو قطع الشّارع، وركوب المصعد، ولقاء الصّحفيّ وتحطيم أنفه. كبر الغضب بداخله. فراح يعبر الشّارع مدفوعًا بقوّةٍ عمياء، شاردَ التّفكير...

الفصل الثاني

بابا فيلا

كان في منتهى الشّرود، حتّى إنّه لم يرَ حافلةً تُسمّى «بابا فيلا».

الفصل الثّالث

السّلاحف

في المستشفى حدثتْ أشياء، لا يمكنُ تفسيرُها بشكلٍ واضح. سيكون من الصّواب تلقّي ذلك مثلَ نسقٍ عاديٍّ للحياة. أوّلًا، ذلك الهجر الّذي وجدَه من أصدقائه. ففي الأيّام الأولى عندما كان الألمُ يظهر متوحّشًا، قاسيًا ولعينًا، كان المشفى عادةً ما يمتلئ بالوجوه القلقة، بأيادٍ لطيفةٍ تلامسه، في حركاتٍ حريصة. ولمّا تخفّف من آلامه، ولم تعد ثمّة حاجةٌ إلى التّأوّه، غصّت الغرفُ بالفراغِ وبوحدةٍ مقيتة. تحاول الأذن تبيّنَ صوت خطوات أقدامٍ في الرّدهة على أملِ أنْ يدور المقبضُ بهدوءٍ ويُفتَح البابُ لتطلّ ابتسامةٌ ودودة، لكنْ لا شيء من ذلك. ليس أكثر من زيارة ممّرضٍ أو عاملٍ يحضر الوجبات، أو راهبةٍ مكلَّفةٍ بتوزيع الإحسان، لا تنفكّ تتحقّق من هشاشة روح الإيمان أو سُمكها عند كلّ واحد.

كان يفكّر في هذه الأمور بشكلٍ غير مُنتظم، لأنّ صبرَ الانتظار يعذّبه كثيرًا. لم تكن به حاجةٌ إلى تذكّر كلّ شيء. وكلُّ ما حدث وسببِ مجيئه إلى هنا. هو يحتاج إلى الانتظار وحسْب. فالشّعور بثقل الجبس يسري من عموده الفقريّ إلى قدمَيْه. ولم يكن بإمكانه أن يشتكي من الألم لأنّه ألمٌ غير موجود واقعًا. بقي في غيبوبةٍ أيّامًا عديدةً. وعندما عاد إليه وعيُه، كان الألم مجرّد إحساسٍ بإزعاجٍ صغير. لكنّ الإزعاج الأكبر كان الجبس. فهو يُشعِره بحرارةٍ كبيرةٍ وبحكّةٍ شديدةٍ في الدّاخل يبلغ معها

القدرة على الحركة. ينادي على الممرّض، فيمسكه في وضعيّة عناقٍ ثمّ يرفعه، يرشّ بودرة الطلك على السّرير ويغيّر وضعه المتعب قليلًا. ثمّ إنّ الوقت لا يمرّ سريعًا. متى سيكون قادرًا على الخروج من ذلك السّجن الأبيض الّذي يحتجز جسَدَه؟ متى يحرّر أطرافه ويتمكّن من المشي مرّةً أخرى؟ لاسيّما الآن بعد أن حصل على الكثير، الكثير من الأشياء. فكّر في موضوع الافتراء باشمئزاز، لكنّه حوّلَ أفكارَه إلى نقطةٍ أخرى لتشتيت تركيزه في الأمر.

كانت للمستشفى أشياؤه السّاديّة أيضًا. ولم تكن هذه هي المرّةَ الأولى التي يفكّر فيها بذلك، خلال تلك الأيّام الطّويلة، عشرين وبضعة أيّام. لماذا لا يضعون الصّليب فوقَ رؤوس المرضى في المستشفيات حيث يكون بعيدًا عن أنظارهم؟ لماذا يظلّ المسيح المسكين معلّقًا أمام العيون، بآلامه وجراحه النّازفة؟ يجب أن يضعوا هناك صورًا بوذيّة، مسالمةً ولطيفةً في وضعيّتها الهادئة كمَن ينتظر على الدّوام قربانًا أو هديّةً بدلًا من صورة رجلٍ مصلوب، مُجبَرٍ على مقارنة آلامه بآلام معذّبين آخرين.

أدار وجهَه إلى الحائط حتّى لا يشعرَ بالاضطهاد الظّاهر في الصّورة، فقد عاشَه في مفاصلَ كثيرةٍ من حياتِه، يائسًا من عدم الجدوى. لا يمكن إمساكُ الرّوح بمخالبَ عديمةِ الجدوى بسبب إيمانٍ إجباريّ. لم يكن يُنكر ما في المسيح من قيمةٍ جوهريّة، ولا مقدارَ الخير الّذي قدّمه للبشر ولا الأشياء الجميلة الّتي تركها، لكنْ كان ذلك كلَّ شيء. ولا يمكن للمرء أن يكتفي، في بناء الجانب العقليّ من عقيدةٍ مّا، بمشاعر متناقضة.

حرّك ذراعَيْه بإحباط. علّقهما على حاجز السّرير. لكنّه أنزلهما على الفور بانفعالٍ وعصبيّة. وبدا له الأمر أشبهَ بصَلْبِ نفسه وسطَ معاناته.

كان الجوّ حارًّا، وبدا النّهار في الخارج أزرقَ اللّون، وبعيدًا كانت الغابة تهتزُّ مع هبوب الرّيح، من الأشجار إلى غاية المياه المضطربة في الأنهار العظيمة. إنّهم ينتظرونه كلّهم، وهو هنا! عديم الفائدة بشكلٍ كلّيّ، محاصرٌ بشكلٍ سلبيٍّ في حالة جمودٍ يقولون إنّها عابرة. لكنّها تتّخذ في بعض الأحيان مظهرًا من مظاهر الأبديّة.

أدار ذراعَيْه، ومدَّهُما على جسده، لتلطيف مَلْمَس الجبس الثّقيل ذي الشّكل البشع، فبدا كرجلٍ آليٍّ... أغمض عينَيْه قليلًا محاولًا تفاديَ وَخْز الصّداع. لكنْ لا فائدة. كان الألم هناك، حاضرًا، صغيرًا في وجوده الضّئيل. فتحَ عينَيْه فوجده مازال حاضرًا، حاضرًا بشكلٍ دائم. كم من الوقت عليه أن يتحمّلَ شكلَه البائس، الخاملَ، المتوجّعَ، الّذي لا يمكن توقُّعه وتقديره؟ ساعات، أيّامٌ وأيّام، ثمّ ساعاتٌ أخرى، المزيد من السّاعات والمزيد من الأيّام...

تأوّه من الجزع. وبداخله وفي أكثر البقع سوادًا من روحه، بدأ يشعر بالغضب. رآها هي. ظهرت له مرّةً أخرى وهي تحت الشّمس، مصلوبةً على أربع أرجلٍ خاملة، تنتظر الموتَ ولا تعرف متى يأتي. تحنّ إلى الماء دون معرفة مَن سيأخذها إلى هناك، تحلم باللّيل ولا تعرف متى يحلّ.

رفع يدَيْه إلى عينَيْه، حيثما يُوَلِّ وجهه يجدْها أمامه، مقلوبةً، تحتضر من العطش والحرارة. إنّها السّلاحف، سجينة عدم الرّحمة والجنون ...

البشر، هم البشر، البشر أنفسُهم، أولئك المقتدرون على فعلِ الخير، وعلى تبريدِ الحرارة، وتنظيفِ الفضلات الّتي تنزل من فتحةٍ في الجبس،

وعلى تخفيفِ الألم بحقنةٍ بسيطة... هم البشر أنفسُهم الّذين جعلوا السّلاحفَ سجينةً وألحقوا أشدَّ الآلام ببني جلدتهم، وضحّوا بحيواناتٍ بريئة، في تناقضٍ لا منطق له، إذْ يُقدمون على فعلِ كلِّ شيءٍ في ذكرى مُثيرةٍ للشّفقة، ضاعت في زمنٍ أبديّ يزعمونَ أنّهم خُلقوا فيه على صورة الربّ...

أغمض عينَيْه ثمّ فتحهما، وولّى وجهه عن صورةِ الرّبّ يسوع على الحائط، إلى الجانب الآخر ليرى صورةَ السّلاحف المسجونة. الحقيقةُ السّاطعة هي أنّها كانت حيّة، حيّةً جدًّا، تُحرِّك أرجلَها إذا صادف أن لمسها أحد. هو أيضًا يستطيع فعلَ الشّيء نفسه بذراعَيْه، برأسه وعينَيْه. لكنّ المسيح لا يستطيع تجاوز مرحلة السّلحفاة بوصفها قربانًا، لقد مات وتحوّل إلى أسطورةٍ دمويّةٍ ومعذِّبة.

عندئذٍ، وقبل أن يتّخذ ذلك القرار الّذي قد تكون نتيجتُه جيّدةً، قرّر أن يتعامل مع المسيح ببعض الشّفقة وما تبقّى فيه من روح الإنسانيّة.

كانت هناك مجسّماتٌ مصغَّرةٌ لمسحاء آخرين أكبر حجمًا، وأكثر جمالًا، وربّما أكثر إثارةً وإغراء، ابتسم له في نبرةٍ هدنةٍ غير متوازنةٍ وقال:

- من أيّ هراءٍ نحن، ها؟ أنت، السّلحفاة وأنا. لقد كابدتَ العطشَ وبقيتَ معروضًا أيّامًا عديدة، هل تذكرُ عددَها؟ يقولون إنّها ثلاثة، ثلاثة أيّامٍ تحوّلت إلى دقائقَ أبديّة. لقد كنتَ في محنتِك أقلّ حظًّا من السّلاحف. عندما طلبت الماء، نقعوا إسفنجةً في المرارة، أليس كذلك؟ عانيت بما يكفي، وأظنّ أنّها كانت معاناةً كبيرةً جدًّا...

امتلأت عيناه بالدّموع.

- ولكنْ إذا سلّمنا بأنّك أنتَ الإله، مثلما تزعم، فمعناهُ أنّك تألّمت، بإرادتِكَ. وأن تنالَ كلَّ ذلك القدر من العذاب، رغم ألوهيّتك، وترتضيه لذاتك، رغم قداستها، فذلك لأنّك مجرّد رومانسيٍّ حالم وساذج. فكرةُ أنّك إلهٌ لا تُقنعني. فقيمتُك البشريّةُ عندي أهمُّ بكثيرٍ من تلك الألوهيّة الزّائفةِ الّتي ينسبونها إليكَ. إنّ إثباتَ تلك الألوهيّة لن يكون أمرًا خارقًا بالمرّة، بل سببًا من شأنه أن يُلغيَ كلَّ تضحياتك، ويُفرغها من معناها. ستموتُ كلماتُك حينها في مهبّ الريح مثل أوراق خريفٍ جافّة... لا يجدرُ بكَ أن تغضبَ منّي، لعلّي تجرّأتُ على أمورٍ عظيمة، ولكنْ ثقْ أنّني مؤمنٌ رغمَ كلّ شيءٍ. ففكرةُ الإله وحدَها تبرّر جنونَ البقاء على قيد الحياة ...

تحسّس الجدار بيده بحثًا عن موضع الجرَس. دَقَّه بقوّة. وبعد ذلك بقليل، ظهرَ دافيد، الممرّضُ البرتغاليّ العجوز، بالابتسامة الدّائمة على وجهه الحليق. لكنّ الابتسامةَ انطفأت ببطءٍ عندما رأى تعبيراتِ الحزن على وجه المريض.

- ماذا حدثَ يا بنيّ؟

بقي بعينَيْن دامعتَيْن، بلا قدرةٍ على الكلام تقريبًا، كرّر السؤالَ مرّةً أخرى، وعندئذٍ أدار الرّاهب يقطين وجهَه ومدّ يدَه مُشيرًا إلى الجدار الّذي يُقابله.

- إنّه هو يا دافيد، ألا أستطيع إبعادَه عن ناظريَّ ولو مدّةَ أسبوع؟ ليس بالضّرورة أن تخرجه من الغرفة، يكفي وضعه فوق رأسي، بعيدًا عن عينيّ.

ضغط على يد الممرّض الّذي مسح الدموعَ عن وجهه بمنديل.

- أرجوك دافيد، ذلك لا يكلّف شيئًا!

ردّ الصوت ذو اللكنة المغلقة بهدوء:

- لا أستطيع فعلَ ذلك، ليس أنا من يفعل ذلك. لم يسبق قطّ أن طلب أيُّ شخصٍ منّي أمرًا مثلَ هذا خلال كلّ سنوات خدمتي في التّمريض.

غرز أظافرَه بقوّةٍ في يد الممرّض وقال متوسّلًا:

- إنّه يقتلني يا دافيد، لم تعد لي أعصابٌ لتحمّلَ ذلك أكثر. افعل شيئًا من أجل محبّة الربّ.

- سأحاول فعلَ ذلك يا بنيّ، لكنّي لا أضمن لك شيئًا. ابقَ هادئًا، لا تقلق، سأحاول.

غادر الغرفة، وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ دخلت الرّاهبةُ المديرة. قرّبتْ كرسيًّا ونظرتْ إليه بجدّيّة. فشرح لها كلَّ شيء. كانت تدير أصبعها على المسبحة، وقد بدا له ذلك إدمانًا مرضيًّا، لأنّه لا يصدّق أنّ أيَّ شخصٍ بإمكانه أن يُقيمَ صلاتَه، وهو يدور حول مشكلة.

هزّت رأسَها بقبّعتها الكبيرة النّاصعة وكأنّها طائر نورسٍ سمينٍ يحاول الطّيران.

- ذلك مستحيل أيّها الشّابّ.

- لا أطلب منكم إزالةَ الصّليب من غُرفتي، أريدُ أن تغيّروا مكانَه وحسْب، بضعة أيّامٍ أو بضع ساعات ...

- حتّى ذلك مستحيل.

بعد ذلك زادت من جدّيّة صوتها وقالت:

- أيزعجك إلى هذا الحدّ؟

- ليس الأمرُ كذلك أيّتها الأخت الرّاهبة، فهو لا يزعجني فحسبُ، بل يغيظني، حتّى إنّه يجعلني ألعن، وهذا كلّ ما في الأمر.

بقيت غارقةً في التّفكير، بينما بدا الرّاهبُ يقطين في حالةٍ يائسة. لا جدوى من التقدّم بطلبٍ إنسانيٍّ لامرأةٍ صار التّديّن عندها عادةً راسخةً. لقد نزع منها الإيمان جانبَها الإنسانيّ وحوّلَها إلى روتينٍ لزج. وذلك هو الغباء الأبديّ في الدّين، بطبيعته الآليّة والجاهزة.

- هل أنت كاثوليكيّ؟

- كنت كذلك.

- هل تقصد أنّك عثرتَ على المسيح ثمّ أضعتَه من جديد؟

- لا أدري يا أخت.

- هل وجود الرّبّ يسبّب لك النّدم؟

اللّعنة! بقرةٌ سمينةٌ وغبيّة! ما هي الحجج الّتي يمكن للمرء أن يستعملها أمام هذا الغباء؟ أمام هذا الحجم من الرّكود الباطنيّ؟ عاش حياتَه يقاتل ضدّ ما في الدّين من دغمائيّة ترفضُ كلّ إمكان للجدلِ والمساءلة، وتعتبرُ فكرَةَ الخلاصِ مبرّرًا لما يقدّمه البشرُ من تضحياتٍ غايتُها مرضاةُ الإله.

- غدًا هو الخميس.

- ما الفرق أيّتها الأخت الرّاهبة؟ وبعد غدٍ لا بدّ أن يكون الجمعة.

- الخميس هو يوم زيارة الكاهن. أنتَ الآن في حالةٍ تسمح لك باستقباله.

لم يستطع إخبارَ تلك السّاحرة بأنّ مَن قتلَ المسيحَ كان يحملُ في قلبه رجلَ دين، لن تفهم ذلك.

- لا أريد استقبالَ الكاهن أيّتها الأخت، بل إنّي أمنعه من ذلك، هذه غرفةٌ خاصّة.

لاحظ أنّ وجهَها تحوّل إلى اللّون الأحمر.

- أنت تعلم أنّي بحثتُ من خلال أصدقائك عن العمل الّذي كنتَ تقوم به بين الهنود، الجانب الخيريّ من جهودك. هل فكّرتَ يومًا في قيمة ذلك لو أنّك فعلتَه في سبيل محبّة الربّ؟

- أيّتها الأخت، للصَّدَقَة بهذا التّفكير معنًى سيّئٌ عندي. وما كان لي أن أقدّم أيَّ مساعدةٍ لأيّ كائن، وإن يكُنْ كلبًا، لو علمتُ أنّ هناك مكافأةً على ذلك. وإنّما يبذل الإنسان شيئًا لأحدٍ مّا لثلاثة أسبابٍ فقط، إمّا لأنّه يحبّ ذلك، أو لأنّه يستطيع ذلك، أو لأنّه في مزاجٍ جيّد...

- ألا تؤمن بالخير الّذي تفعله في ذاته؟

- لم أفكّر في ذلك قطُّ أيّتها الأخت. وإنّما أعتقد أنّنا يجب أن نكون طيّبين وأنّ الخير يأتي بشكلٍ طبيعيٍّ من هذا الوضع. أنتِ نفسُك أيّتها الرّاهبة، عندما تريدين ضمانَ فعلِ النّاس للخير، أَفَلَا تكونين بذلك قد دفعتِهم إلى الشّرّ؟ وحدَه الإله في علمه المطلق يستطيع تمييزَ هذه الأشياء.

انزلقت أصابعُ الأخت السّمينة على المسبحة المتعرّقة.

- هل ستغيّرين وضعَ المسيح أم لا؟

ارتفع صوتُها أكثر:

- لن أتمكّن من تلبية طلبك، ذلك مستحيل.

نظر كلٌّ منهما في عينَي الآخر نظرةً أقربَ إلى الحقد.

سافر الرّاهب يقطين بتفكيره بعيدًا عن غير قصد، إلى آخر فصلٍ دراسيٍّ فلسفيٍّ حضرَه في الكلّيّة الكاثوليكيّة. قَبِلُوه هناك بدافع الإحسان، لأنّه لم يكن يستطيع دفعَ تكاليف الدّراسة. كان طالبًا حرًّا، شغوفًا بمعارفَ شتّى، مقبلًا عليها بنهم، باذلًا كلَّ ما في وسعه لإشباع فضول الرّوح. كان الأستاذ راهبًا دومينيكانيًّا كبيرًا، يرتدي لباسًا فاتحًا مع عباءة سوداء، وكأنّه دمية البهلوان. لم يستطع تذكّر كيفيّة طرحه للمواضيع أو طريقة كلامه. يذكر أنّهم تحدّثوا عن الزُّهْد الدينيّ. ولم تكن نيّةُ الفتى سيّئةً كثيرًا، لكنّ إلهامًا شيطانيًّا دفعَه إلى عَرض نظريّة رجال الدّين على نحوٍ نادرٍ بالقياس إلى طالبٍ يافعٍ وبسيطٍ. الأكيد أنّ البشريّة سبق لها قولُ ذلك مرّاتٍ عديدة. قدَّم عرضًا موجزًا لزملائه وزميلاته حولَ الاتّجاهات الدينيّة. ونتيجةً لذلك طُلب منه مغادرة الفصل مع وعدِه بألّا تطأ قدماه تلك الغرفة مرّةً أخرى. لكنْ ماذا قال؟ ببساطة، كان رأيُه أنّ كلَّ الرّجال الّذين يُخضِعون أنفسَهم لعبادة المسيح، يشوّهون ذواتهم، ويخْصُون أنفسَهم روحيًّا ويكرّسون حيواتهم لمحبّة رجلٍ آخر -المسيح في هذه الحالة- هم أناسٌ منحرفون جنسيًّا، بوعيٍ أو بغير وعيٍ في بعض الأحيان. لم يستطع استيعابَ فكرة أنّ رجالًا أقوياء وفحولًا سيعيشون خارجَ منظومة التّكاثر، مختارين العقمَ لأنفسهم بدافع حبّ رجلٍ آخر. فكّر بالشيء نفسه في خصوص النّساء. في ذلك الوقت لم يكن يفهم بعدُ ما يمكنه فعلُه اليوم بهدوء. فبدافع الحبّ، بدافع حبّ باولا فَقَدَ الاهتمامَ بأيّ حبٍّ حقيقيٍّ آخر. لم يفهم، لأنّه حينها لم يكتشف بعدُ أنّ الوصيّة

السّادسةَ كانت الأجمل في عيون السّماء. قاسيةٌ هي الذّنوب الّتي تكون ضدَّ الرّوح القدس، والشكّ في الإله... وإنكار الإله.

نهضت الرّاهبة، وأكّدت ما سبق أن قرّرت:

- لن أكون قادرةً على فعل ذلك، من الجيّد أنّ حضوره يزعجك، تلك علامةٌ على أنّك عائدٌ إليه.

شعر بإغراء الانتقام يُثيره، ولم يستطع تفويتَ تلك الفرصة.

- ولا حتّى في سبيل حبّ الربّ أيّتها الرّاهبة؟

- أبدًا.

- حسنًا أيّتها الأخت المُحسِنة باسم المسيح. لم أكن أطلب الكثير، أعلم أنّي لم أطلب الكثير، لكنْ هل تعرفين ما يعنيه لي المسيح حقًّا؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق. هو مجرّد رجلٍ لطيفٍ جدًّا، رجلٍ جذّابٍ أحبّته الأرواحُ الضّعيفة. هل تعرفين ماذا كان المسيح أيّتها الرّاهبة؟ هو أوّل رجلٍ جذّابٍ ظهر بين البشر.

كانت الرّاهبة تزداد احتقانًا، وبدت متشنّجة. فالكراهية ألهبت الحقدَ وأثارت الرّاهبَ يقطين.

- حقيقة كلّ هذا أيّتها الأخت هي الإيمان، سواءٌ أسعدهم أن يؤمنوا أو أن يخدعوا أنفسَهم. هي الحقيقة بحسب القدّيس توما الأكويني، في سِمنته الهائلة ...

أطلق قهقهةً ساخرةً كما لو أنّه ينتقم لنفسه من أيّامٍ وساعاتٍ قضّاها في المعاناة والوحدة الطّويلة.

- الحقيقة العظيمة واحدةٌ فقط. لكنْ من يدري مع مَن هي؟ معك، معي أو مع مسيحك؟

صرّت الراهبة أسنانها، وأغمضت عينَيْها، وقالت بغضب:

- سواء أحببتَ ذلك أو لا، سأصلّي للربّ من أجلك!

- إذَن صلّي يا أختي، وشكرًا جزيلًا. لكنْ في يومٍ من الأيّام وأثناء صلاتك أمام صورةٍ رائعةٍ للمسيح، فكّري أنّ مئزرَه يمكن أن يتقطَّع، وماذا سيحدث حينَها باعتبار أنّ المسيح رجلٌ مثل الرّجال؟ سيظهر لك شيءٌ يملكه أيّ رجلٍ بين ساقيه.

ذهبت متراجعةً، وعند الباب بدتْ أكثر خشوعًا.

- سأصلّي من أجلك، لا أدري إن وُجِد مَن سبق له أن صلّى من أجل شيطان، لكنّي سأصلّي من أجلك.

بعدَ ذلك خرجت.

شعر يقطين برعشةٍ وارتباك. وفي آخر المطاف، لمَ كلّ هذا؟ لماذا التحدّث كثيرًا إذا لم يثمِرْ ذلك أيَّ شيء. لا شيء؟ بقي المسيح متروكًا، ميّتًا، ميتةَ سلحفاةٍ أمام أعينهم.

لماذا أقدموا على كلّ ذلك الشرّ عندما كان لا يزال وحيدًا؟ وحيدًا، وحيدًا... وحيدًا كشأنه أوّلَ يومٍ وُلِدَ فيه، وحيدًا كما سيلقى الموت يومًا مّا، ربّما قريبًا جدًّا. تعذّبه آلامُ المسيح المسمّر على الحائط. هو أيضًا سجينٌ في سرير، في وحدته، في هجرانه. يعيش الاثنان حياةً متشابهة، لكنْ دون أن يلتقيا، ينزفان ألمَ الغياب وعذابَ القلب.

- غدًا هو الخميس.

وبشيءٍ يُشبه معجزةً لتلك النّبوءة الرائعة، كان اليوم التالي فعلًا يومَ خميس. ومع صباح يوم الخميس، فُتح الباب مبكّرًا، بعد أن حمّمهُ دافيد بطرفِ منشفةٍ مبلّلة. (كان لا يزال يشمئزّ من رائحة العرق). ثمّ أحضر

له الشّابّ العامل القهوةَ وهو يتكلّم بصوتٍ متلعثمٍ متواضع... وأثناء عودته إلى التفكير في تلك «المعجزة»، ظهرَ وجه كاهنٍ نحيفٍ أمام باب الغرفة، بجسمٍ منتصب. لم يندفع إلى الغرفة كما توقّع أن يفعل. وبدلًا من ذلك، بقي أمام المدخل، يحدّق في المريض، وعلى وجهه ابتسامةُ تحدٍّ.

- إذَنْ، أنت هو؟

لم يسأل حتّى عن حاله أو ما إذا كان يحتاج إلى شيءٍ أكثر منطقيّةً.

كرّر السّؤالَ الحادّ:

- إذَن، أنت هو؟

- ماذا هناك؟ ادخل على الأقلّ.

- أنت من لا يحتاج إلى الكهنة ...

- بالضّبط.

- أنت متأكّد؟

- تمامًا.

- ألن تحتاج إلى ذلك أبدًا؟

- أبدًا.

- ولا في وقت الوفاة؟

- لا أنوي الموتَ بعدُ.

- إذَن، لا يمكن أن يفيدك الكاهن بأيّ شكلٍ من الأشكال؟

همس الشّيطان بشيءٍ في أذنه، شيءٍ يوافق قلّةَ تقديرٍ وُجّهتْ إلى مريضٍ دون حتّى تحيّته كأدنى مظاهر اللّطف.

ابتسم ببلاهةٍ خبيثةٍ وقال:

- لا يمكنك مساعدتي في ما أحتاج إليه أيّها الأب.

- لنرَ، أخبرني على أيّة حالٍ.

الآن أصبحت الابتسامة مهيمنةً ومستفزّة.

خرج الكاهن وهو يضرب البابَ في وجهه بعنف. وطيلة الأيّام الخمسة عشرَ التّالية كانت وجباته من الطعام هي الأسوأ، وكانوا يطلقون على ذلك اسمَ «الإحسان».

***

كان في الخارج بردٌ يرافقه مطرٌ خفيف. لقد أصبحت الأيّام رتيبةً بشكلٍ رهيب. لكنْ من ناحية أخرى، لم يعد الجبس ساخنًا بالقدر نفسِه، وتوقّفت الحكّة واكتسبت الملاءات دفئًا لطيفًا على الجسم. وربّما استدعى الأمرُ في بعض الأحيانِ استخدام مزيدٍ من البطّانيّات.

لو كان هناك -ولا يمكن لذلك الـ«هناك» أن يكون أكثر بعدًا- لتحدَّث نهرُ أراغوايا على النّحو التالي: «راهب يقطين، افتحْ نوافذ قلبك ودَع الرّبيعَ يدخل. انظر إلى لون الأوراق، الغابة بأكملها ارتدَت أغطيةً بألوانٍ عديدة، كما لو أنّها أخذت حمّامًا تحت أمطار قوس قزح. اسمع كيف تغنّي الطّيور وكيف يتلوّن المساء عند غروب الشّمس على أجنحة طائر أبي ملعقة. ارمِ ذلك الحزنَ بعيدًا واستمتعْ بلحظةٍ رائعةٍ من الجمال والإحساس!».

كلّ هذا وأكثر منه بكثيرٍ سيخبرك به النّهر الودود. لكنْ ما فائدة كلّ ذلك؟ إذا ما تحوّل في حقيقة الأمر إلى مجرّد «إيسكارغو».

-أنت لا تحبّ الإيسكارغو، حبيبي؟

-و ما يدريني أنا ما يكون ذلك يا بوبينيا؟

- ستعرف ذلك حالًا.

ثمّ تمسك الشّوكةَ الخاصّةَ بأصابعها الرّقيقة الطّويلة وتهمّ بنزع القواقع، ثمّ ترفقها بالصّلصة الفوّاحة. تفعل ذلك بذوقٍ رفيعٍ وفمها الجميل يمضغ بمتعة.

- أنت جميلة حتّى وأنت تأكلين الحلازين، باولا.

- عزيزي، لا تبتذل مثل هذا الشّيء الجميل. إنّه الطبق الفرنسيّ الأكثر «شاغم»، طبق الإيسكارغو...

إيسكارغو، حلزون، محار، إنّها في نهاية الأمر شيءٌ يعيش داخل قوقعة. أمّا هو فكان مجمّدًا داخل الجبس.

في ضوء الغرفة الخافت، رأى المسيحَ على الحائط. يا للمسكين، في هذا الجوّ البارد ولم يعطه أحدٌ بطّانيّةً تمنحه بعض الدّفء. في ذلك الشّلل، ورأسه إلى أسفل تقريبًا، ينتظر أيّ صدقةٍ تتفهّم حاله.

كان على أحدهما أن يتحمّل الآخر. لكنْ بذلك الصّمت لا يستطيع حتّى الردّ على الكلام الغاضب الّذي ألقى به يأسُه عليه في أكثر ساعاته حدّة. لم يرفع حتّى عينَيْه الجميلتَيْن اللتَيْن يقال إنّهما أكثر خضرةً من لون البحر. ربّما كان الجمود الرهيب يعذّبه مثل سلحفاةٍ مُلقاة ...

كان الجميع يقولون إنّه جميل. وصار الجمال مشكلتَه. هل الجمال ضروريّ للحصول على محبّين؟ لا. كان تشيكو دي أسيس قبيحًا جدًّا، لكنّ روحانيّته الإنسانيّة عوّضت غيابَ جاذبيّة الجسد. فكّر في الرّاهبة المغرَمة به، وكيف تزوّجته آلاف الرّاهبات الأخريات روحيًّا ووضعت كلّ واحدةٍ منهنّ في يدها خاتمًا رمزيًّا علامةً على ذلك. فكّر أيضًا في إقدام الكاهن على طرده من الفصل. ربّما لم يكن الأمر عادلًا، أو لعلّه فعل ذلك

دفاعًا عن مبادئ منحرفةٍ وبرجوازيّة. وما يدريه هو! الآلاف من الكهّان ركعوا بأذرعٍ مفتوحة، في نشوةٍ عميقةٍ أمام مجسّماتٍ عاريةٍ للكثير من تماثيل المسيح المنتشرة في كلّ الكنائس. إنّها عبادةٌ أشبه بالهلوسة، حبٌّ مبرّرٌ بالإيمان والفداء أمام رجلٍ كان جميلًا جدًّا بحسب ما يقولون. إنّه تمثال رجلٍ عارٍ مثل الرّجال الموجودين على شاطئ الكوت دازور. ومن أجل ذلك تقاتلوا، ولبسوا الخيش، وعذّبوا أرواحَهم، وقمعوا أنفسهم، وأنكروا الفكرة الطبيعيّة الجوهريّة الإنجيليّة في خصوص النموّ والتكاثر... يا لها من حياةٍ مليئةٍ بالمفارقات! كم مرّةً صادف مبشّرين جاؤوا وفي نهاية مسابيحهم مجسّماتٌ عارية للمسيح، حاولوا أن يجعلوا الهنودَ المساكين يرتدون الألبسة، دون إعطائهم أيَّ فكرةٍ عن النّظافة. يمكنهم أن يعترفوا بالعري متى تعلّق بالمسيح، ولكنّه مرفوضٌ عندهم إذا تعلّق ببقيّة الرّجال.

كان التّفكير في كلّ ذلك بلا أهمّيّة. والشّيء المهمّ هنا هو أنّه تحوّل إلى حلزونٍ ملقًى فوقَ سريرٍ وداخل قشرةٍ من الجبس. الشّيء المهمّ هو دوران الوقت برتابةٍ وانزلاق، وهو الرّياح الباردة، والمسيح العاري، والمطر الّذي ينهمر دون توقّف.

لم يعد غاضبًا كثيرًا من الصّورة المعلّقة أمامه. والواقع أنّه شعر بالتعوّد عليها. لو لم يكن الجوّ باردًا، للعبَ معه هكذا، لعبة «القطّ أكلها».

- مسيح، أين الرّداء؟

- أكلته القطّة.

- والعباءة؟

- أكلتها القطّة.

- وبقيّة ملابسك؟

- أكلتها القطّة.

- إذَن، لم تترك لك سوى صليبٍ ومئزر؟

- نعم.

- والبشر ؟

لم يقُل المسيح إنّ القطّة أكلتهم، لأنّه طيّب القلب. بقي صامتًا فترةً طويلة، مفسحًا المجالَ لمرور عددٍ كبيرٍ من الملائكة.

حينها شعر الرّاهب يقطين بحزنٍ شديدٍ عليه. واعترفَ بأنّ ما شعر به من حزنٍ رهيبٍ على نفسه، وسط هذا الألم، يعادل نسبة عشرة في المائة. دمعتْ عيناه، وكان يستحضر في أعماق قلبه قصّةً مجنونة.. كم كان عمره؟ ثلاث عشرة سنةً. كيف كان؟ مراهقًا وسيمًا جذّابًا ذا بشرةٍ ذهبيّةٍ وشعرٍ أشقر مجعّد. ووجهه؟ لعلّه يشبه أحدَ الملائكة. وجسمه؟ السّباحة حدّدت ما في جسمه من أشكالٍ عضليّةٍ أولى لافتةٍ للنّظر. أين كان؟ تلميذًا داخليًّا في مدرسة. لماذا؟ لأنّه كان مشاكسًا، يحبّ ممارسة التّمارين على أرجوحة، ويتخيّل نفسَه الأخ الأصغر لعائلة سارّازاني. وإذ لم يكن باستطاعته أن يصبح أحدَ أفراد تلك العائلة، لأنّ سيرك الأغنياء لم يظهر في أعياد الميلاد. فقد قرّر الهروب مع سيرك إستيفانوفيتش. ولكنْ قبل فترةٍ طويلةٍ من الفرار اكتُشِفَ أمرُه. وجوهٌ قبيحةٌ ومدرسةٌ داخليّة. لكنّ ذلك لم يكن سيّئًا، على الأقلّ لم يعد هناك خطر العودة إلى دروس البيانو. لقد كان إجراء تمارين سرّيّةٍ على الأرجوحة يمثّل تمرّدَه على الأيدي الممنوع إفسادها...

- المدرسة الدّاخليّة ستكون مفيدةً لك، على الأقلّ ستدرُس فيها

الرّياضيّات. معدّلاتك في هذه المادّة ضعيفةٌ جدًّا. من الغريب جدًّا أن تكون الأوّلَ في كلّ المواد وتفشل في الرياضيّات.

نظر المدير، الّذي كان حاجباه أشبهَ بأدغالٍ كثيفة، في عينَي الرّاهب. فشعر بالرّعب منه. والأسوأ أنّه بدا وكأنّه يريد الانتقام من قلّة شغفه بالمادّة الّتي كان يُعتبر فيها أستاذًا، أستاذَ رياضيّات كبير.

السّيناريو المحدّد... كان من الضّروريّ ربط الرّياضيّات بيسوع المسيح.

«في ذلك الوقت قال يسوع لتلاميذه...». هكذا كانت تبدأ الدروس الدينيّة الّتي يقدّمها الأخ الرّاهب جوستينو. يجيء صوته عذبًا، قادمًا من وجهٍ مائلٍ إلى السُّمرة، لكنّ لحيتَه الكثيفة تُكسِبُ بشرتَه لونًا مائلًا إلى الأزرق. عيناه أيضًا كانتا زرقاوَين، أزرقَ سماويًّا.

كان يحبّ تلك الدّروس. أمّا الأخرى، دروس الرّياضيّات، فيا ربّ السّماء! كانت تبعث فيه الخوف! ولا يمكنه تعلّم أيّ شيء منها. لقد عرف الرّاهب جوستينو منذ أن كان في العاشرة من عمره، عندما التحق بالمدرسة. أحبَّ فيه مزاجَه المرح والمبتهج. كم سيكون عمره؟ ربّما ستّةً وأربعين عامًا أو ثمانيةً وأربعين.

في ذلك الوقت قال يسوع لتلاميذه: الحقّ الحقّ أقول لكم، أنا طريق الحياة...»

هل كان الأمر كذلك؟ لا شكّ أنّه كذلك. فالحقّ أنّ رغبتَه كانت بلوغَ السّاعة الثّالثة والنّصف لتنتهي الدروس، فيذهب للعب كرة القدم. وعلى الأقلّ، فإنّ المدرسة الدّاخليّة التي حرّرته من العزف على البيانو سمحتْ له بأمرٍ جديدٍ رائع... كرة القدم.

ثمّ بدأ التيّار يتشكّل. المسيح، والرياضيّات، والأخ جوستينو، وكرة القدم.

لم يكن ملعبًا معشّبًا، بل إنّ الغبار يرتفع كثيفًا بين الأجساد المتعرّقة وهي تتصارع على الكرة. شظايا من الزّجاج الّتي لا يمكن لأحدٍ أن يراها، وحجارةٌ تغطّيها الرّمال. ثمّ جاء سقوطه وتمزّق فخذه الأيمن بقطعةٍ من زجاج. صرخة ألم، دمٌ ينزف وفتحةُ جرحٍ سيّئة. ألمٌ، بكاءٌ، عيادةٌ طبّيّة. اتّصل الأخ الرّاهب جوستينو بوالده الّذي كان طبيبًا، وسارَع إلى تقديم الإسعافات الأوليّة إلى حين وصوله.

- ليست إصابةً هيّنة. سنَخِيط بعضَ الغرز، وبعدها يتعافى مع الوقت. أسبوعٌ من الرّاحة ويكون بخير.
- والغرز؟
- يمكنك نَزْعُها بنفسك أيّها الأخ الرّاهب. لا أريد أن أرى ذلك الهنديّ السيّئ التّربية لمدّة شهر. هو يشعرني بالقرف ليس أكثر، لم أرَ قطّ طفلًا متمرّدًا مثله ...

بقي يشعر بالألم طيلة يومَين. بعدها، ومع لفّ الفخذ بالضمّادات، أصبح الأمر محتَمَلًا بشكلٍ أفضل. في الصّباح، كان قادرًا على حضور القدّاس واقفًا عند نافذة العيادة التي تطلّ على الكنيسة. كان من الممتع مشاهدة لحظة المناولة عندما يذهب جميع رجال الدّين أوّلًا بالعباءات السوداء والأيدي المطويّة لتلقّي القربان المنذور. بعد ذلك يظهر كلّ الأولاد الذين يريدون القربان، ويفتحون أفواهَهم وعيونُهم مغمضةٌ بانزعاج.

كانت العيادة تحتوي على ثلاثة أسرّة. لكنّ واحدًا فقط كان مشغولًا

في ذلك الوقت. إنّه سريره. وفي الخلف شيءٌ يشبه السّتارة، بمثابة غرفة نومٍ للأخ الرّاهب جوستينو.

في إحدى اللّيالي تمنّع النّوم عن زيارته، لأنّه نام أثناء النهار عندما لم يجد ما يفعله.

كانت السّاعة تشير إلى التّاسعة والنّصف على الأكثر، حين ظهر الرّاهب جوستينو.

- ما زلت مستيقظًا؟

ابتسم له.

- أنا لم أذق طعم النّوم.

جلس الراهب على حافّة السّرير ومرّرَ يدَيه من خلال شعره بمودّة.

- بسبب النّوم طوال النّهار يذهب النّوم عندما يأتي اللّيل.

قام ودَخَل مخدَعَه، وبعد فترةٍ وجيزة، ظهر مرّةً أخرى مرتديًا بيجامةً بيضاء عليها خطوطٌ حمراء وسوداء.

- لماذا أنت خائف؟ ألم ترَ قسّيسًا من قبل يرتدي ملابس نوم؟ نحن بشرٌ مثل الآخرين.

الشّيء الطّريف أنّه بدا بملابس النّوم أكثر بدانة.

- سأذهب إلى الطّابق السّفليّ لأستحمّ. فجوُّ اليومِ الحارُّ كان لا يطاق تحت تلك العباءة السّوداء.

سمع صوتَ خُفِّه وهو ينزل الدّرجات، ولم يعرف كم مرَّ من الوقت. شيءٌ من النعاس جعل الأضواء الخافتة تبدو مشوّشةً في العيادة. وبدأت العيون تنطفئ. بعدها شعر برائحة صابونٍ ناعمةٍ وبسريره يرزح

تحت وطأة وزنٍ ثقيل، فتح عينَيْه قليلًا فرأى القسّ جوستينو يبتسم له. كانت عيناه قد اتّخذَتا لونًا يقترب من الاخضرار. شعره الأسود مبلّل ومسرَّح. ومن جسده تنبعث رائحة الصابون وتنتشر عبر دفء اللّيل.

انحنى عليه وسأله بهدوء:

-أَمَا زلتَ مستيقظًا؟

عادت يدُ الكاهن لمداعبة شعره. صار وجهه أقرب، وعيناه تصدران توهّجًا أخضر غامقًا.

-أنت تحتاج إلى أن تكون أكثر عقلانيّة في رأسك الصّغير، يا فتى.

-لا أحد يفهمني في المنزل.

-أنا أفهمك، وأعرف أيضًا أنّك لطيفٌ جدًّا، أليس كذلك؟

انزلقت اليدُ من رأسه إلى وجهه، وبقيت الأصابع تداعب ذقنَه.

فشعر بالخوف وبدأ يرتجف.

-لماذا ترتجف؟ لا تَخَفْ، لن أؤذيك.

أصبح صوته أشدّ انخفاضًا ولينًا.

-يجب أن تكون لطيفًا ومطيعًا لوالدك، تحتاج إلى دراسة الرّياضيّات بشكل جيّد.

-أنا لا أحبّ الرّياضيّات.

-لكنّي سأساعدك، هل ترغب في ذلك؟

رائحة الصّابون الصّادرة من جسده، العينان الخضراوان، الوجه القريب جدًّا... أصبح يشعر بأنفاسٍ ساخنةٍ على وجهه عندما تخرج الكلمات.

تملّكته رغبةٌ شديدةٌ في الهرب، لكنّه لم يستطع. كان لا يزال يجرّ نفسَه بصعوبةٍ جرّاءَ الجرح. وأصبحتْ نبضات قلبه أكثر اضطرابًا.

-أنت فتًى جميلٌ جدًّا، الأجمل في المدرسة، يجب أن يكون لطفُك على قدر جمالك. سوف أساعدك في اجتياز امتحاناتك، والآن أنا ذاهب للنّوم.

دخل مخدعَه، تأوّه الفراش وهو يستلقي فوقَه، لكنّ تنهّداته كانت أعلى بكثيرٍ من أنين الفراش. أدرك أنّ الرّاهب جوستينو أجرم في حقّ العفّة.

بدأ يبكي بصوتٍ خافتٍ وهو يضغط بوجهه على الوسادة. لم يكن يعرف ما يجب فعله. كان فريسةً في يدَيْه. ولا يزال مجبرًا على البقاء حوالي أربعة أيّام في العيادة. عندما كان طفلًا صغيرًا فقيرًا، عرَف الكثير عن الحركات الخبيثة الّتي تحدث بين الأطفال. لم يكن يجهل أنّ بعضهم يفعل أشياء قبيحةً مع الآخرين. لكنّه لم يرغب قطُّ في فعلها، ليس خوفًا على سمعته من الذّنب، بل لأنّه رأى بعضهم تلازمُهم بعد ذلك ألقابٌ مسيئةٌ لا تطاق. لكن بين الأولاد الصّغار قد يبدو ذلك مثل مزحةِ ملاك، فبعدها يصبح كلّ شيءٍ بعيدًا، ميّتًا ومدفونًا في مرحلة الطفولة. لم يستطع الإبلاغ عن الراهب جوستينو، إذ لا أحد سيصدّقه. حتّى لو حاول إخبارَ والده، وهو رجل مؤمنٌ، فسيعتقد أنّه يختلق الأشياء ويفتري ليغادرَ المدرسة الداخليّة. بالإضافة إلى عدم وجود أيّ تواصلٍ من قريبٍ مع والده الذي لن يقبل التشكيكَ لحظةً في الراهب جوستينو، فهو يراه ملاكًا في هيئة إنسان. كان هناك أيضًا جانبٌ خطيرٌ في الأمر، إذا خرج الخبر فسيكون هو مَن يوصم بأنّه غير طبيعيّ. سيوصَم بالنار، لأنّ الأطفال حيواناتٌ

سيّئةٌ ولا تغفر. ومَن يضمن ألّا يُفشِلَه الرّاهب جوستينو في الرّياضيّات؟ لا شكّ أنّه سيعيد السّنة. ومن الأفضل أن يطلب معونة الربّ كي لا يتجاوز ذلك الحدّ. فقد عاش ما يكفي من القرف والاشمئزاز.

نام معذّبًا وزارتْه كوابيسُ غريبة.

استيقظَ في وقتٍ مبكّرٍ من الصّباح، عندما أشعل الرّاهب جوستينو الضّوء. سمعه وهو يستعدّ للخروج ومعه كتابُ القدّاس والعباءة الّتي سيضعها على ثوبه. لقد ذهبوا جميعًا إلى القدّاس وتلقّوا القربانَ بذلك الثّوب الكهنوتيّ الأسود. ارتجف وهو يفكّر أنّ الرّاهب سيتلقّى القربان اليوم. يمكنه بالتّأكيد أن يذهب إلى الاعتراف قبل القدّاس. كان يعرف الوقت المحدّد الّذي سيصل فيه الكاهن، وهو السّادسة إلّا الرّبع. فذهب للوقوف عند النّافذة ليشاهدَ وصول الكاهن ويتحقّق ممّا إذا كان الرّاهب جوستينو يتّجه إلى هناك. لكن لا شيء من ذلك، لم يكن إلّا ضجيجُ أولاد المدرسة، الكبار والصّغار وهم يمشون على الفسيفساء ويسحبون المقاعدَ عند ركوعهم.

بعد ذلك بقليل، ظهرَ الكاهن بكامل زينته وركع مع القائم على خزانة الكنيسة.

- Et introibo ad altare Dei (وأدخُل إلى مذبح الإله).

- Ad Deum qui laeti cat juventutem meam (إلى الإله الّذي أسعد شبابي).

استغرق الأمر مدّةً أطول من ظهور الإنجيل، وكذلك التّكريس والرّفع. ثمّ جاءت المناولة. كان قلبه ينبض من القلق. أوّلًا وعلى رأس الإخوة الرّهبان يأتي الأخ المدير الخاشع، بحاجبيْه الكبيرين، ثمّ يأتي

الآخرون إلى جانبه. في وسطهم الأخ الرّاهب جوستينو بيدَين مطويّتَين وعينَين منخفضتَين. كان على يقينٍ أنّه لم يجد وقتًا كافيًا للاعتراف وأنّه ليس لخزانة الكنيسة سوى هذا المدخل. أدهشه منظر فمه نصف المفتوح ولسانه الممدود لتلقّي الخبز المقدّس. إمّا أنّ كلَّ ما فعله ليسَ خطيئةً أو أنّه ليس أكثر من فعلٍ بسيطٍ يمكن أن يُمحَى بسهولةٍ بأيّ إحساس ندم.

منذ تلك اللّحظة، قرّر ألّا يؤمن بأيّ شيءٍ أبدًا.

«في ذلك الوقت قال يسوع لتلاميذه...» درس العقيدة المسيحيّة، عيون بلون السماء. القربان المقدّس، الجسد الزّاهد، الخبز والنّبيذ. لفّها كلّها في ورقةٍ قديمةٍ وألقى بها في مياه نهر بوتنغي حتّى تغرقَ بعيدًا...

في اللّيل تكرّر المشهد نفسُه، لكن بسرعةٍ وبشيءٍ جديد. لقد جاءه دون سترة البيجاما، وعاد بعدها عودتَه السّريعةَ إلى زاويته، ليتنهّدَ تنهّدَه الفظيعَ داخلَ فراشه. في اليوم التالي، حدثت المناولةُ نفسُها. فدخَل في حالة اكتئابٍ وأصبح ينتظر بعصبيّةٍ لحظةَ مغادرة العيادة والعودة إلى المرقد المشترك مع الباقين. وفي الفصول؟ في الفصول القادمة عندما سيتوجّب عليه أن يُجيب على الأسئلة، ويصعد إلى السبّورة، كيف سيتصرّف الاثنان؟ أيّهما سيحتاج إلى جرعةٍ أكبر من السّخريّة عند مواجهة الآخر؟

في اللّيل، وكانت هناك اثنان من الغرز أو ثلاثٌ ما تزال في ساقه، ظهر ومعه علبةُ حلوى.

فتح العلبةَ وأخرج قطعةَ حلوى، ثمّ نزع غلافها ووضعها في فمه.

- إنّها حلويّات هولنديّة، ألا تجمع صورَها الصّغيرة؟

- أجمعها، نعم سيّدي.

- أنتَ لطيفٌ جدًّا وتستحقّ أن تكون لك مجموعةٌ منها، بل أفضلها.

ثمّ خطرت له فكرةٌ.

- هل خرجت اليوم؟

أجابه وهو يمسكه بذراعَيه ويُداعب شعرَه:

- لا، لماذا؟

اتّخذَ كلامُه مرّةً أخرى نبرةَ لطفٍ ناعمة، وكانت عيناه تتحوّلان إلى اللّون الدّاكن والأخضر.

- كيف اشتريت الحلوى؟

- أرسلت موظّفًا لشرائها، ليس لي مع هذه الحياة وقتٌ لأيّ شيء، ولا حتّى حكّ جسدي.

لو أنّه خرَج، لكان بإمكانه التّوقّف عند الكاتدرائيّة ليعترف.

- متى سيزيلون عنّي الغرزَ أيّها الأخ جوستينو؟

- ربّما غدًا، هل أنت في عجلةٍ من أمرك؟

- ضيّعت دروسًا كثيرة.

- أنت ذكيٌّ جدًّا، ستتدارك ذلك بسرعة.

- وماذا عن اختبارات الرّياضيّات؟

- ما لا تستطيع أنتَ الإجابةَ عليه، سنجيب عنه «معًا» لاحقًا في اللّيل، هل الأمر جيّدٌ هكذا؟

مثّلَ كلّ ذلك طعنةً في صميم إيمانه، وزعزع ثقتَه بكلّ ما هو أخلاقيّ، بالشّكلِ الّذي سيمتدُّ أثره على كاملِ حياتِه.

بعد ذلك بقي في الفراش يفكّر وحده: «إذا لم يذهب إلى الاعتراف غدًا وذهبَ إلى طاولة المناولة، فلن أؤمن بالمسيح مرّةً أخرى، ولا بالقربان

ولا بخلاص الروح». بقي الرّاهب مدّةً طويلةً يقدّم اللّسان المقرف نفسَه الّذي لامس فمه، مرتديًا لباس الزّهد ليتلقّى حلولَ الرّبّ فيه.

ابتسم لصورة الصّليب الّتي بقيت على الحائط.

- من أجل هذه الأشياء وغيرها، كنت أرغب في الذّهاب إلى الشّاطئ أيّام الأحد، ولم يكن مسموحًا لي بها إذا لم أتلقَّ القربان. لكنّي أفعل ذلك على أيّة حال، دون الاعتراف، ودون أن أصلّي صلاةَ النّدم بشكلٍ صحيح. لقد فعلت ذلك لأنّ يوم الأحد كان مليئًا بضوء الشّمس، مليئًا بفتياتٍ جميلات، بملابس ضيّقةٍ ومؤخّراتٍ ممتلئة.

توقّف برهةً، وحاول سحبَ درعه الجبسيّ أعلى قليلًا على السّرير.

- سأخبرك بأمرٍ أيّها المسيح. كنت أعترف للإله دائمًا بذنوبي وسوء نواياي، وهو يعرف ذلك، لكنّي لا أراك إلهًا. فأنت إلى غايةِ اليوم المسيحُ وحسْبك أنّك كذلك.

***

تحوّلَ حوضُ الاستحمام إلى نهرٍ، نهرٍ ساخن، وذلك ما يحدثُ كلّما مهّدت الحرارةُ الشّديدة لهطول الأمطار. نوفمبر شهرٌ حارّ. يمكن البقاء من الثّانية بعد الظّهر حتّى السّادسة دون أن تنخفض الحرارة. الحلم لا يكلّف شيئًا، والرّاهب يقطين، المغمور بالماء حتّى رقبته، أغلق عينَيْه في رحلاتٍ نحو الماضي يعرفها جيّدًا. لماذا الماضي؟ وسرعان ما بدأت فترة التّدليك، والتّمارين والعلاج بالإشعاعات، وشيئًا فشيئًا سيستعدّ للسّفَر بعدَها. مرّ شهران دون مشي، بساقَيْن مسجونتَيْن في هذا الدّرع الجبسيّ. لم يكن ذلك أمرًا سهلًا. لقد فقَد بعضَ الوزن في فترةٍ الحجز. وعرف الآن

عددَ الكسور الّتي عانى منها. ففي ساقٍ واحدةٍ فقط تعرّض لستّة عشر كسرًا وقَطْعٍ في الرّضفة. ولا يتحمّل ذلك إلّا قلّةٌ من النّاس. كان من الغريب ألّا يشعر بدفء الماء على الجلد، من السّرّةَ إلى أطراف القدمَين. حتّى عضوه التّناسليّ لم يحسّ بمتعة الاستحمام الّتي تعرف الأطراف العلويّةُ كيفيّةَ تمييزها.

وقت الرّبيع لا بدّ أن يكون في البراري. لقد تكاثرت السّلاحفُ في سبتمبر، وبعضُها يتأخّر ليستغلّ شهرَ أكتوبر.

- كفى استحمامًا يا فتى!

فتح عينَيْه فرأى وجهَ دافيد السّعيد.

- قليلًا وحسْب يا دافيد.

- لا شيء من ذلك. نصف ساعةٍ من الاستحمام يمكنها أن تزيل الأوساخَ حتّى عن هندوسيّ.

انحنى، وفتحَ الحوض فتدفّق الماءُ على جسده في شكل دوّامات.

- لنحمل الطّفل إلى سريره.

لفَّه بمنشفةٍ ناعمة، ثمّ رفعه وهو يتأوّه بين ذراعيه. وسار به إلى السّرير، فوضعه بعنايةٍ وأخذَ يجفّفه وهو يمرّر المنشفة على جسده.

- دافيد، لماذا لم أشعر بحرارة الماء هنا في الأسفل؟

حاول دافيد تغيير مجرى الحديث.

- والآن شيءٌ من مسحوق الطلك هنا في الوراء، وأيضًا هنا في الأمام...

- لم تجبني يا دافيد.

- سيمرّ ذلك. لا يذهبنَّ خيالُك بعيدًا. إذا عشتَ بلا حراكٍ أكثر من شهرين، مجمّدًا في الجبس، فهل تريد القفز مباشرةً مثل عنزةٍ حالما تخرج منه؟ ارفعْ ذراعَك، أريد لهذا الطّفل أن تفوح منه رائحةٌ طيّبةٌ لأنّ النّساء سيبحَثْنَ عنه قريبًا.

- دافيد، هل سأحتاج إلى استعمال عصًا؟

حاول دافيد مرّةً أخرى تغييرَ الموضوع.

- فيمَ كنت تفكّر عندما وصلتَ؟ كانت عيناك مغمضتَيْن، وكنتَ هادئًا جدًّا، حتّى ظننتكَ نائمًا.

- هل سأحتاج إلى العصا أم لا؟

- إذا كنت تريد تعذيبَ نفسك قبل الوقت... فتوقّفْ. أنت لستَ أفضل من أيّ شخصٍ آخر، حتّى إن كنت الرّاهب يقطين. ستحتاج إليها في البداية. وأنبّهك إلى شيء: سيكون من الصّعب تعلّم المشي على... عكّازَيْن.

كان للأمر وقعُ الصّدمة. لقد عرف الممرّضُ مَن كان يعالج، وهو الّذي قضّى أكثر من ثلاثين عامًا في التّعامل مع المرضى.

رفع عينَيْه إليه.

- لن تبقى بلا كلامٍ الآن وبهذا الوجه الطّفوليّ الباكي.

قفل أزرارَ سترة البيجاما، وضربه على ذقنه بلطف.

- إنّها نعمةٌ من الرّبّ الرّحيم أنّك ما زلت على قيد الحياة. هل تعتقد أنّ لجميع النّاس أوهامَ عظمةٍ مثلك لتدهسَهم حافلة «بابا فيلا»؟ لقد أرسل الدّكتور ألفونسو بالفعل يطلب صنعَ عكّازَيْن خفيفَيْن، مبطّنَيْن وأنيقَيْن من أجلك. أتعلم شيئًا؟ أنت محظوظٌ

فعلًا يا بُنيّ. ولن تدفع حتّى تكاليف المستشفى والعلاج. ثمّة مليونير تعرفُه تكفّل بكلّ المصاريف. وأمّا العكّازَان فلا تتأثّر كثيرًا بشأنهما. فكم رأيت من العكاكيز في حياتي! لقد أصيب أحدُهم بشللٍ شبه تامّ، وفي العام التالي فازَ بمسابقة رقصٍ في أحد الأندية. وماذا عن الفقراء الّذين يضطرّون أحيانا إلى ارتجال عكاكيزَ من عصيّ المكانس كي يتمكّنوا من المشي؟ عندي فكرة، عندما تتحسّن وتُشْفى، أرسل عكّازيْكَ إلى رجلٍ فقيرٍ أو إلى مستشفى للفقراء ...

حين رأى الصّمتَ والحزن لا يزالان يُسيطران على وجه الشّاب، حاول إلهاءَه عن ذلك:

- سأفتقدك عندما تذهب.

- لا شكّ أنّك تقول هذا الكلامَ لأيّ شخص.

- لا، فمن الواضح أنّنا نرتبط ببعض المرضى أكثر من غيرهم، فنودُّ لو أنّ صحبتَهم تطول. وفي مقابل ذلك، فإنّنا نرغبُ لو أنّ بعضهم يختفون عن أعيُننا بشكلٍ نهائيّ. الأمر معك مُختلف. ثمّ إنّك رجلٌ عاش في الغابة، وسط الهنود والمخاطر، لذلك لا يمكن أن تكون خائفًا وجبانًا، كما أنت عليه الآن. أيّ ألمٍ بسيط يجعلك تدخل في دوامّة من الصّراخ والتلوّي!

- ليس الأمر كذلك، يا دافيد. لكنّ قلبي يخبرني بأنّي سأضطرّ إلى البكاء كثيرًا.

- كلام فارغٌ يا فتى.

رفع عينَيْه وحدّق في عينَي الممرّض بإصرار.

- دافيد، أنت تعرف شيئًا مّا، أنت تخفي أمرًا يا دافيد.

-ها هو الصباح يعودُ مرّةً أخرى. لماذا لا تكون سعيدًا كحالك عندما نزعنا الجبسَ وأخذناك إلى الحمّام؟ بدوتَ مثل طفلٍ صغير، سعيدًا جدًّا. لو كانت لي كاميرا لالتقطتُ صورةً لك. ما هذا يا بنيّ؟

وضع يقطين وجهَه على صدر الممرّض وأجهش بالبكاء.

***

التّدليك، والصّدمات الكهربائيّة، والتّجارب والرّجاء بالخصوص، كلّها لم تُجْدِ نفعًا.

-يا إلهي رجلي! رجلي يا إلهي!

لقد كانت الإصابةُ في ساقيْه، ولم تكن في أصابعه. ولم تكن مقارنةُ ما يحدثُ معه بما في أمثلة غاوس من حكمةٍ لتُجديَ نفعًا.

ماذا تعنيه كلُّ القنابل الذرّيّة الّتي قضت على هيروشيما وناكازاكي، وأزهقت أرواحًا كثيرةً وآلمت الكثير من القلوب؟ ماذا يهمّه في كلّ ذلك إذا خسر ساقَيْه؟ ما يهمّه هو ساقاه!

نظر برعبٍ إلى طرفَيْه الشّاحبَين، الممدودَيْن، الثّقيلَين، الفاقدَي الإحساس. لن يمرّ وقتٌ طويلٌ قبل أن تصبحا رِجلَيْن هامدتَيْن، مثل أرجل دمى السّاحرات القماشيّة الصّغيرة الّتي تُباع في المعارض.

نظر في عينَي ألفونسو كما لو أنّه ما يزال يرجو معجزة.

-ساقاي، ألفونسو.

هزّ الصّديقُ رأسَه بالنّفي. لم يرَ قطُّ على وجه أيّ إنسانٍ ابتسامةً بهذه الجرعة من الحزن.

وعاد يتوسّل شبهَ باكٍ:

- لكنّهما ساقاي، ألفونسو ... ساقاي...

أشعل ألفونسو سيجارةً لإخفاء مشاعره، بينما واصل الآخر آلامَه:

- ساقاي، ألفونسو... أحتاج إليهما كثيرًا... أنت تعلم ذلك.

- لقد فعلنا كلَّ شيءٍ ممكن.

أمسك يدَيْ صديقِه وهو يرتجف كما لو أنّه تعرّض لهجوم ملاريا. دموعه تنزل، وصوتُه متقطّعٌ ولعابُه يسيل بين كلماته.

- كنت تعرف ذلك ألفونسو. أنت لستَ صديقي. كنت تعلم أنّي سأبقى هكذا. لماذا لم تتركني أموت؟

- لم أكن أعرف. كان لي دومًا أملٌ كبير. عندما يفقد الجميع الأملَ، يبقى الطّبيب محتفظًا ببعضه ...

أدار رأسَه ودفنَه في الوسادة وبكى يائسًا. كانت يداه ترتفعانِ وتنزلان بعنفٍ فوق حاجز السّرير.

قرع الطّبيبُ الجرسَ ليأتي الممرّض.

- سأعطيك مهدّئًا للأعصاب. سوف تتحسَّن حالتك.

ولَّى وجهَه المبلّلَ شطرَ صديقه مرّةً أخرى:

- أرجو ألّا تفعلَ، سيقتلني المهدّئ، ولن أكونَ أقلّ حزنًا، إذا نمتُ لأشعرَ بالضّربةِ نفسها متى استيقظتُ.

- لا، أعدك بألّا تنام، ستهدأ وحسْب، عندئذٍ يمكننا التحدّث أفضل.

بينما كان الممرّض يَحقنُهُ، التفتَ ألفونسو إلى الحائط ورأى صورةَ

الصّليب، الصّورة نفسها التي أزعجت الرّاهب يقطين. سحب أنفاسًا من سيجارته وترك الدّخان يتصاعد إليها ببطء. وتكلّم في قلبه بإحباطٍ مخاطبًا المسيح:

- هل تَرى كيف يمكن أن يعاني إنسانٌ بسبب آخر؟ الأسوأ أنّنا نحاول فعلَ شيءٍ مّا، وفي أحيانٍ كثيرةٍ لا نملك شيئًا نفعله، كما هي الحال الآن.

ثمّ قال للممرّض:

- أغلق النّافذةَ قليلًا. لا شكّ أنّ شيئًا من الظّلام سيفيده.

جلس على كرسيٍّ هزّاز، تململ وشعر بالشّلل في يدَيه وعدم كفاءتها في تلك اللحظة. لم ينتبه حتّى إلى مقدار الوقت الّذي قضّاه في ذلك الشّرود. وفجأةً عاد إلى الواقع منتبهًا إلى صوت يقطين.

-أمَازلتَ هناك يا ألفونسو؟

قامَ وذهبَ ليجلس على حافّة السّرير.

كان وجه الرّاهب يقطين مبلّلًا كلّه. تدفّقت الدّموع من غير أن يستطيع السّيطرةَ عليها. لكنّ التشنّجات اختفت.

-أنا باقٍ هنا اليوم. سأنام في الغرفة بصفةِ مرافقِ مريض.

مسحَ وجهَه المبلّلَ بكُمّ البيجاما.

-أنا أتصرّف مثل الأحمق، يا ألفونسو.

-هذا صحيح، لكنَّ ردَّ فعلك أفضل ممّا كان متوقَّعًا.

- أنتَ تفهم ذلك، أليس كذا يا ألفونسو؟

غزت وجهَه موجةُ دُموعٍ جديدة.

-لكن ما كان يجب أن يحدث ذلك معي أنا بالذّات. ساقاي... ساقاي...

بكى ببطء.

-ابكِ، فذلك جيّد.

-كنت أحتاج كثيرًا إلى ساقَيّ... لقد نجحت في أمورٍ كثيرة. كانت أموالُ القنصل كافيةً لكساء ما يقرب من مائة امرأةٍ هنديّة. كلُّ شيءٍ ضاع. كانت بي حاجةٌ ماسّةٌ إلى أن أمشي كثيرًا في الحياة...

- كان قدرًا محتومًا.

-هل تتصوّر أنّي لن أرى فرحتَهم عندما يتلقّون الأشياء. إنّما بالغت في تأليف تلك القصص لأحصلَ عليها، والآن ...

عاد إلى البكاء مرّةً أخرى.

- لن أمشي على طول شواطئ النّهر مرّةً أخرى، لن أرى زورقًا مرّةً أخرى. ولن أتمكّن من انتظار وصول الصّيّادين بعد الظّهر... ساقاي، ألفونسو ... لماذا كلّ هذا الشّرّ في الحياة؟

أصابته نوبةُ تشنّج، لكنّه حاولَ منعَها.

- كيف يمكنني إرسالُ أشيائي إلى أصدقائي؟

-سيُرسَل كلّ شيءٍ كما تريد وإلى مَن تريد. لقد فكّرنا بالفعل في ذلك.

رأى ألفونسو أنّه يريد التّحدّث، لكنَّ التّعب تغلَّب عليه. إذ كانت الجُمل تخرجُ غير مفهومة. لقد ظهرَ مفعول الدّواء.

لا يزال يتحدّث عن السّاقَين والنّهر والزّورق. لكنّه لم يعد يتحدّث

عن الموت. وتلك علامةٌ جيّدة. بقي كذلك حتّى استسلم للنّوم تمامًا. عندها وحسْب شعر ألفونسو بعاطفةٍ كبيرة، وهو يرى الوجه النّائم، وتذكّر كثيرين ممّن كانت حياتُهم تنطفئ شيئًا فشيئًا.

خرج من الغرفة بلطف، ووجد في الخارج دافيد والقلق بادٍ عليه.

- هل هو أفضل يا دكتور؟

أراد أن يجيب، لكنّ الصّوتَ خذَلَه وملأت الدّموعُ عينَيْه. شعر دافيد بغصّةٍ في حلقه فأخرج علبةَ سجائر من جيب بنطاله، وقدّم واحدةً للطّبيب.

- تحتاج إلى تدخين سيجارة.

أشعل السّيجارة، وسحبَ نفَسًا. وعندئذٍ وحسْب تمكّن من قول شيء:

- لقد نام.

***

- أمازلتَ هناك يا ألفونسو؟

- أرسلتُ دافيد إلى منزله. سأنام بقربك.

- ولِمَ أنت في الظّلام؟ ألَا تريد إشعالَ الضّوء؟

نهض وأشعل الضّوء. وفي نور الغرفة تأمّل وجهَ الرّجل المريض. كانت هناك علامات إرهاقٍ كبير. ولكنْ بدأت الآن تظهر على وجنتَيه بوادرُ لونٍ طبيعيّ.

- هكذا أفضل.

- ألا تريد أن تتناولَ شيئًا؟

- لا أعلم. أشعر كأنّما تلقّيتُ ضربةً قويّة. في وقتٍ لاحقٍ سوف أطلب برتقالة، هل ذلك ممكنٌ؟

- بالطّبع ممكن.

- ما أغبى أن يطلب الإنسانُ ذلك! من الآن فصاعدًا سأكون قادرًا على فعل أيّ شيء. لا أرى بعد هذا شيئًا من شأنه أنْ يكون أكثر ضررًا. لكنّي أكثر هدوءًا وأريد التّحدّث. هل معك سيجارة؟ لا يهمّ إذا كنت أدخّن الآن أم لا. المسألة مجرّد إطالة أمدٍ لهذه الحياة اللّعينة.

استلم السّيجارةَ المشتعلة وراحَ يُدخّنها ببطء.

- كم من الوقت يا ألفونسو؟

كان يعرف قصدَه من وراء السّؤال، لكنّه تظاهر بالجهل:

- أيّ وقت؟

- من الحياة، أنتَ تعرف ما أريد أن أسأل عنه.

- الأمر بيَدِك.

- القليلُ من الطّبّ الّذي درستُه يمكّنني من معرفة بعض الأمور، سوف يموت جسدي شيئًا فشيئًا، أليس كذلك؟

- من الواضح أنّ الأعضاء إذا لم تتحرّك مالتْ دائمًا إلى الضّمور. إنّه قانونٌ حتميّ. لكن ليس هذا هو الخطر ...

- أعرف. الخطرُ هو عدم الرّغبة في الحياة الّتي يمكن أن تكون أقوى و... الدّفاعات. الجسم المتوقّف سيفقد، دون وعيٍ منه، مقاومتَه لعددٍ من الأمراض غير المهمّة في الواقع...

- صحيح. لن أخدعك بسردِ أكاذيب.

- إذا فعلت ذلك، فسأكرهك يا ألفونسو. إذَن تريد القول إنّ ما سيحصل لاحقًا زكامٌ والتهابٌ رئويّ...

جاء صمتُ الآخر علامةَ تأكيد.

- ولا يزال عندي شيءٌ آخر لا يجب نسيانه... إنّه القلبُ. ما زال لا يعمل بشكلٍ جيّد، أليس كذلك؟

- نعم، قلبك أيضًا مشكلة.

- تقصد القلبَيْن، أليس كذلك؟

أخيرًا استطاعَا الضّحكَ من النّكتة المأسويّة.

- هل يمكنني أن أقدّم لك نصيحة، عزيزي الرّاهب يقطين؟

- بالتّأكيد.

ظهر تلميحٌ ضئيلٌ إلى شيءٍ من التّفاؤل.

- الانتقال إلى الشّمال.

- هل الطّقس الحارّ مفيدٌ لي؟

- نعم.

- نحتاج إلى التفكير في الأمر، بمجرّد أن أسترجع بعض النّشاط. وسأعرض الشّقّة الّتي تركتها لي باولا للبيع. بعد خصم النّفقات سيكون لي ما يكفي من المال لأعيش عامَيْن في مكانٍ مُتواضع.

لم يخطر له قطّ أن يبيع تلكَ الشقّة، لذلك شعر بأنفاسه تنقطع وهو يتحدّث عن الأمر.

- سيكفي للعيش أكثر من عامَيْن.

- لعلّه يكفي.

- لماذا؟

- لأنّه إذا جاء الحزن الكبير فسأختفي بعده مباشرةً. بالإضافة إلى أنّ نصف الشقّة يعود للهنود بحسب وصيّتي. سوف تتحوّل إلى خطاطيف، وأقمشة، وأشياء أخرى لهم. هل تؤمن بأنّ لانتقالي إلى الشّمال مزيّة؟

- حدّ القداسة. سيظهر دومًا شيءٌ لم تنتهِ منه في الحياة. ألستَ أنتَ الشّخص الّذي أحبّ تَكرارَ هذه العبارة «عش دومًا على استعداد للموت، لكنْ عِشْ كما لو أنّك لن تموت أبدًا»؟

- عبارة للعجوز توم. لقد كنت أنا من قالَها. لكنّ ذلك حدث عندما كنت «أنا» شخصًا كاملًا لا نصفَ إنسان. من الآن فصاعدًا، حتّى الربّ لن أقدر على حُبِّه بشكلٍ كامل، ما لم يثبت لي أنّ هناك معنى في المشي على عكّازَيْن أو كرسيٍّ مُتحرّك.

صمتًا، لكنّ الرّاهب يقطين عاد مرّةً أخرى إلى الكلام ببرودٍ:

- هل تعلم يا ألفونسو؟ لديّ انطباعٌ بأنّ الإيمان سيتحوّل من الآن فصاعدًا إلى ساعةٍ من أجلي. ساعة -وقت- إله. مجرّد ساعةٍ أبديّةٍ لقتل لحظةٍ من الحياة، مع اعتبار أنّ تلك الدّقائق الأبديّة يمكن أن تكون بالضبط في حجم الأبديّة. حينها سأبدأ في قبول ساعة-وقت-إله، دون مضمون حبّ.

تنفّس عميقًا بتأثّر.

- من الأفضل التوقّف عن الحديث يا ألفونسو. عادت إليَّ نوبةُ الضَّعف مرّةً أخرى.

- سأتّصل بالممرّض ليعطيك جرعةً قويّة. وهكذا تنام ليلةً هادئة. لكنّي أنبّهك إلى شيء: إلى أن تعتاد على الواقع، ستتواصل نوبات الضَّعف.

ارتدى يقطين ثوبَ خشوع الألم، ثمّ تكلّم بصوتٍ كي يسمَعه المسيحُ أيضًا:

- ماذا يحدث يا ألفونسو؟ في حياةٍ واحدةٍ قتلَ البشرُ جمالَ المسيح في قلبي، والآن تريد الحياةُ نفسُها أن تلغي كلَّ ما وجدتُه جميلًا في حبّ الإله...

الفصلُ الرّابع

للحياة أيضًا رائحةُ الجوّافة

«إلى أن يحينَ الوقتُ الّذي تعتادُ فيه على واقعكَ، وتُحقّقُ معه بعض الألفةِ، ستتواصل نوباتُ الضَّعف»، إنّها عبارة ألفونسو، طيبةُ ألفونسو، وما تنطوي عليهِ من يقينٍ جازمٍ بأنّ شيئًا مّا لا يزال ينتظره ليُنهيَه في حياته.

-أنت مخطئٌ يا عزيزي ألفونسو. ثمّة شيءٌ واحدٌ فقط سأحتاج إلى إنهائه في الحياة. وسأحاول ذلك.

قُرِع الجرسُ وسرعانَ ما ظهر دافيد. لا يبدو أنّ في المستشفى أيَّ مرضى آخرين.

تفحّص دافيدُ وجهَه، ولاحظَ ما بدا على ملامحه من هدوءٍ كبير، حتّى إنّه لا يبدو مطلقًا ذلك الرجلَ اليائس نفسَه الّذي كان في أيّامٍ سابقة.

-دافيد، أريد أن أنام. من فضلك أغلقْ النّافذة. أريد أن أكونَ في ظلامٍ تامّ. ولا تدعْ أيّ شخصٍ يزعجني، على الأقلّ مدّةَ أربع ساعات. يغالبني النّعاس، نعاس رهيب.

بدأ دافيد بتنفيذ الطّلب.

-ألا تريد أيّ حبوبٍ للمساعدة؟

ابتسم الرّاهب يقطين شاكرًا.

- أنا نعسان بشدّة، ولن أحتاج إليها. شكرًا.
- إنّه تعبٌ طبيعيٌّ بعد كلّ تلك المشاعر.
غادر بهدوءٍ، وأغلق الباب دون صخب.

انتظر الرّاهب يقطين أن تألفَ عيناه الظّلام، وأحسّ ببوادرَ جديدةٍ لأزمةِ ضَعفه، بدت له أكثر ضراوةً هذه المرّة، فقد شعر باتّساعٍ مباغتٍ للأوردة في رقبته، حتّى إنّ النّبضات قد ضربت الجلدَ بوحشيّة. كما لو أنّها دمٌ يتدفّق في الشّرايين. تبلّلَ الجبين من العرق وبدَا كأنّ العينَيْن تريدان الخروجَ من مدارَيْهما.

توجّه إلى المسيحِ المصلوبِ بحديثه، بلكنةٍ لا تشنّجَ فيها، ولا كراهية:

- أحسبُ أنّك ترى ما أرادوا فعلَه بي، لا أدري إن كنتَ تحتاجُ إلى أن أقصّ عليكَ الأمر، ولكنّي أشكُّ في قدرتك على استيعابِه، وأنت تلازمُ داخلَ هذا الإطار جمودَك السّلبيّ. لكنّهم أرادوا يا يسوع المسيح، يا ملك اليهود، أن يصلبوني على عكّازَيْن. سخيف، أليس كذلك؟ ساذج مسكين! قد يكون صليبك أكثر إيلامًا، غير أنّ عكّازَيَّ مقزّزان... في كلِّ الأحوال لستَ أنت من أرغبُ في التّحدّث إليه.

رفع عينَيْه وهو يهلوس، وتحدّث بالكراهية الّتي كانت تتدفّق من خلال كيانه كلّه.

- أريد التحدّث معك أنت أيّها الإله. لا أعرف بوضوحٍ كيف أخاطبك، أنت، أنتم أو ماذا؟

ابتلع ريقَه الجافَّ لأنّه شعر باللّعاب يختفي من فمه مع قدر الغضب الّذي كان يتراكم فيه.

- إلهي!.. أنت تسمعني، أليس كذلك؟ إلهي!..، لا تذهب، تحمّلني واستمع إليّ...

فتح ذراعَيه كما كان يفعل عند الصلاة يائسًا.

- إلهي! أنا أكرهُ الحياة. أشعر بالقرف من الحياة.

ارتجفت أصابعُه بعنفٍ حتّى إنّ أظافره آلمتْه.

- حسنًا إذَن، هل تعرف كم كان أمرًا صعبًا عليَّ أن أجدك. لم أستطع الإيمانَ بمجال الوحي أو محتوى الأناجيل. لم أستطع. طبيعتي البشريّة الضّعيفة أرادت منك شيئًا أكبر، شيئًا مدهشًا وذكيًّا بشكلٍ نورانيّ، شيئًا يميّزني منك، مضاعفًا بآلاف السّنين الضوئيّة ممّا لك من ذكاءٍ يحدّ من ذكائي. أريد اليقين من أنّ الذّكاء الإلهيّ يبدأ بعد انتهاء الذّكاء البشريّ بكثير. وفي هذا الفراغ المعذّب، ما من دليلٍ على ذكائكَ، غير ضوءٍ خافت. أردتُ أن أموتَ مع اسم الإله على شفتي، بكلّ الحبّ والاقتناع بإيماني البسيط، لكنْ بلا جدوى. كيف أؤمن بألوهيّة المسيح؟ حتّى لو ظهر لي وسألته: «Quo Vadis. Domine?»، «إلى أين تذهب سيّدي؟»، حتّى لو تلا على مسمعي، كلّ ما سبقَ أن قاله للآخرين، فلن أرى في عبارتِه، غيرَ ما يميّزها من جمالٍ أدبيّ. إنّك أكثرُ من يُدركُ أنّ صلاحَ الإنسانِ، وتوقّفَه عن الرّذائل والشّرور، لا يحتاجُ مسيحًا، لا معنى لكلّ ذلكَ أمام الامتداد اللّانهائيّ للكون، وأمام ما تنطوي عليه المجرّات من ألغازٍ رهيبة، تتحوّلُ معها شمسنا المهيبةُ إلى نجمٍ شديدِ التّواضُع، أمامَ ما يُحتملُ وجودُه من بلايين الشّموس، أشدّ منها عظمة، ويفقدُ معها نظامها الكوكبيّ ما يدّخره من هولٍ وأهمّيّة، أمامَ أنظمة كواكب مشابهةٍ أو

أكثر تعقيدًا. فلماذا يكون خلاصُ الإنسان إذَن عن طريق إنسانٍ آخر؟ ما فعله المسيح تسامى إلى الألوهيّة، لأنّ للخير صفاتٍ إلهيّة. ما فعله كان جميلًا ورائعًا للبشريّة الّتي تتوافق مع أيّ شيء. لكنّني أردتُ أكثرَ من ذلك، أكثر من كلّ وعود المسيح. أردتُ أن أشارك يومًا في ذكائك الأبديّ، مع كلّ قلقٍ لروحي المسجونة في نفسي. إذا كان مصيرنا الفناء، إذا كنّا ندركُ بُؤسَنا، فكيف نشارك في وجودك؟ إذا كان الذّكاء الّذي وُهِبْتُه محدودًا، إذا كان خيالي مَشُوبًا بالضّعف، إذا كانت أحزاني الكبيرة العرجاء قد غطّت تصوّري لك... كان الأمر صعبًا، يا إلهي، كان من الصّعب أن أعترف بذلك في ضآلتي. كان صعبًا وقاسيًا أن أعِيدَ اكتشافَك داخل ضآلتي اليائسة، صعبًا بشكلٍ غير عاديّ، كما تعلم، أن تشارِكَ قطعةَ ذكاءٍ صغيرة، حتّى بدافع الحبّ، في أبديّتك العظيمة. كيف يمكنني أنا المحدود جدًّا أن أبلغ نقطةً من أبديّتك؟ الأبديّة نفسُها تكبر في حلقةٍ لا بدايةَ لها ولا نهاية. من هناك، خرجت صيغةٌ دافئةٌ من الأمل شجّعتْني على الإيمان بأنّي قد أبلغها بعد الموت. أنت جعلتني أفهم الأبديّة، أبديّة روحي التي لها بدايةٌ ولن تكون لها نهاية. هذه الأبديّة هي السبيل الوحيدة إلى ذكائي المتواضع كي يبلغ نقطةً من اللّانهاية. وعندئذٍ وحسْب يمكن أن أموت وكلّي رجاءٌ وشفتايَ تلهجان بكلمةٍ واحدة، لا غير... إلهي...

أنزل ذراعَيه ورأسَه بتأثّر، ونزلت دموعه مخلِّفَةً خطوطًا سميكة.

- حسنًا يا إلهي. لا شيء من هذا موجود. ضاع كلُّ شيء. والروح تصغر وتنكمش داخل جسد المعاق. لا أدري إذا كان الأمر يحدث

للجميع. لكنْ في حالتي نعم. لا فائدة من حُبّك بنصف جسد. الخيار الأسهل بنصف جسدٍ هو أن أكرهك، وأشعرَ بالنّفور منك. ذلك يقتلني، لأنّ العيشَ دون حُبِّك أمرٌ شبيه بالحياة التي عشتها حتّى الآن... دون حبّ باولا. آسف للمقارنة غير اللّائقة. إنّ جحيم المسيح هو غياب حبّه فينا. وغياب الإله قد يكون هو الجحيم الّذي وعد به الإنجيل. الجحيم مع غيابك قد يكون هنا، في ملايين الدّقائق التي يعيد الإنسان فيها اكتشافَ أنّها الحياة، مجرّد تراكم للألم. لذلك أتعذّب بشدّةٍ لأنّي لا أستطيع أن أحبّك بسبب إعاقتي. لا أريد أن أشعر بوجودك بشكلٍ نصفيٍّ بائس.

توقّف ليحاول تهدئة نفسه، إذ كان اعترافه وتنفيسُه عظيمَين.

-ما أنا؟ نصفُ جسدٍ ونصف روح. ما هذا؟ كلّ شيءٍ مات في داخلي ودُفِن مع أمل الفداء. لا أريد أن أعيش. لا أريد أن أعيش بعد الآن. أعيش من أجل ماذا؟ ماذا أفعل من دون ساقيّ؟ لا شيء. لا شيء. لا شيء. لن أستطيع حتّى الهروبَ من هواجسي. لذلك سيكون وداعي لك بما سبق أن قلته لك. سأترك الحياة وأنا أحمل إحساسًا بالنّفور، من نفوري منك، وشعورًا بكراهيةٍ، لكراهيتي لك...

سكت قليلًا. تنفّس بعمق، ومسح دموعَه بكُمّ قميص النّوم. ما سيفعله يتطلّب مجهودًا بدنيًّا هائلًا. لذلك، كان من الضّروريّ السّيطرة كلّيًّا على هذا الجنون اللّعين.

ثبّت جسدَه واستند بذراعَيه إلى قضبان السّرير. ثمّ التفَّ كلّيًّا، وجرّ ساقَيه الميّتتَين الفاقِدَتي الإحساس. اضطرّ إلى النّزول من السّرير

مثل يرقةٍ كبيرةٍ مشوّهة. بقيت ذراعاه، معلّقتيْن، وكذلك رأسُه وجذعُه، وحاول الوصولَ إلى الأرض بيدَيه. لكنْ ما يزال يفصله شبرٌ واحد عن الوصول. وبجهدٍ أكبر جرَّ نفسَه أكثر ولامستْ أصابعُه الأرضيّةَ الباردة. الآن سيكون الأمرُ أقلّ صعوبةً. جهدٌ إضافيٌّ ويمكن لليدَين كبح سقوط الجسد. شعر ببعض الدّوار. اندفع أكثر إلى الأسفل فسقط في الهواء. وسقطت الرّجلان الميّتتان محدثتَيْن دويًّا كبيرًا. كانت الضّربة كبيرةً لكنّه لم يشعر بأيّ ألم. أصبح بحاجة إلى جعلهما في وضعٍ يوافق وضعَ بقيّة الجذع، لتسهيل حركته. سحب جسدَه شبرًا شبرًا كما لو كان نيرَ ثيرانٍ يجرّ جذعًا كبيرًا. وكلّما تقدّم مترًا نتج عن ذلك تعبٌ رهيبٌ يضطرّه إلى وضع وجهه على الأرض الباردة، ليرتاح، ويتنفّس بقوّة، ويحاول مواصلة المشي مرّةً أخرى.

قال لنفسه «لم يبق الكثير. باب الحمّام مفتوحٌ لتسهيل الأمر».

في منتصف تسلّقه درجَ الحمّام، أخذ ينزلق مرّةً أخرى. ماذا سيحدث الآن والجسد لا يتقدّم؟ أدار وجهه بإحباطٍ فوجد قدَمَيْه عالقتَيْن على الدّرج. لماذا لا تساعده السّماء؟! كان يجب أن يستلقيَ على ظهره ويستعمل يدَيْه لتحريك ساقَيْه لعلّ قدميه تتحرّران. تطلّب الأمر كفاحًا كبيرًا حتّى إنّه شعر بلباس النوم يتصبّب عرقًا. بدا مندهشًا وهو يرى خزانةَ الحمّام. إذا تمكّن من الوصول إلى هناك، فهو بخير. علبة شفرات الحلاقة هناك. وكلّ ما عليه فعلُه هو إخراجُها من المغلّف وقطع معصمَيه. قلبه ينبض بسرعة. وهو يحتاج إلى التّصرّف بشكلٍ أسرع. سيكون قد فقد الكثيرَ من الدّم قبل ظهور أيّ مساعدة. سيقطع الرُّسغَيْن وأوردة ذراعَيْه. تمسّك بأنبوب الحوض وحاول

النّهوض. كان الجهد هائلًا حتّى إنّه تبوّلَ في المكان كلّه. لمس الحوضَ بيدَيْه. وبدأت الذّراعان تتعبان من وزن الجسد. كيف أصبح الحوض بهذه الضّخامة! حرّر إحدى يدَيْه وأمسك الصّنبورَ باليد الأخرى. ثمّ حاول وضعَ الأخرى في المكان نفسه، محتضنًا الصنبور. كانت على بعد أقلّ من نصف مترٍ من الخزانة. أسند نفسَه بإحدى يدَيْه ولمس المرآة باليد الأخرى. لكنّ الباب لم يُفتَح، ولم ينل الأصابعَ إلّا برودةُ المرآة. بدأت القوّةُ تنفَدُ منه. حاول مرّةً أخرى وبدأت ذراعاه ترتجفان. «بقي القليل جدًّا!»، «بقي القليل جدًّا!» لكنّ ذراعَيه ارتختا فسقطَ واصطدمَ ذقنُه بحافّة الحوض.

كان يرتجف ويبكي يائسًا. كان قريبًا جدًّا من النّجاح، لكنّ كلَّ ذلك الجهد ضاع. سال لعابُه وعوى. بقي يبكي كالمجنون. نظر حوله، باحثًا عن عصًا ممسحةٍ أو مكنسةٍ لكسر المرآة والتقاط الشظايَا. ستؤدّي الغرضَ نفسه. لكن لم يكن هناك شيء.

رنّ الهاتف ثلاث مرّاتٍ وتوقّف.

- نسيت أن أطلب منهم فصلَ خيطِ هذا الهاتف اللّعين.

ماذا سيفعل الآن في محنته؟ خطرت له فكرةٌ. كان عليه أوّلًا أن يعود إلى غرفته، ويسحبَ الكرسيَّ الهزّازَ ويسندَه إلى النّافذة. زجاج النّافذة! لماذا لم يفكّر في ذلك من قبل؟ بمعاناةٍ وجهدٍ كبيرَين، جرَّ نفسَه في تلك الرّحلة القاسية. وفي منتصف الطّريق، رنَّ الهاتف مرّةً أخرى. يبدو أنّ الغبيّ لا يريد التزام الصّمت.

تمكّن من سحب الكرسيّ الهزّاز، وجلس عليه بصعوبةٍ وهو يقاوم تأرجُحَه. شعر بقلبه يريد أن ينفجر داخل صدره. فأغمض عينَيْه، وهو

يستنشق الكثير من الهواء حتّى يتعافى. نظر إلى النّافذة. إنّه محظوظ. أغلق دافيدُ مصراعَ النّافذة وزجاجَها حتّى لا تزعج الضّوضاءُ بالخارج نومَه. دافيد المسكين! هو لطيفٌ جدًّا. الآن عليه أن يكسرَ الزّجاجَ بحذرٍ حتّى لا يصدرَ أدنى ضجيج. ما سيسقط سيكون قربَ المصراع. ضمَّ قبضتَه وضربَ الزّجاج. وعلى امتداد دقيقةٍ شعر أنّ العالم ينهار. توقّفت الشّظايا عن السّقوط. جَرَحَ جوانبَ يده، لكنّه لم يشعر بشيء. خلع البيجاما بسرعةٍ لأنّ الوقتَ كان قصيرًا. واختار قطعةً حادّة.

رنّ الهاتف بعنفٍ مرّةً أخرى. كان تحذيرًا قاسيًا. لكنّه لم يستسلم. بقي مشدودًا إلى قطعةِ الزّجاج وهو يغرزها بشكلٍ مُؤلمٍ في ذراعه. أمالَ رأسَه إلى الوراء وبقيت عيناه نصفَ مفتوحتَيْن. بدأ دمُه يقطر في كلّ مكان. ثمّ أصبح مثلَ تيّارٍ يتدفّق فوق رجلَيْن ميّتتَيْن.

***

ما يزال موتُه أمرًا سابقًا لأوانه. وشى به الهاتفُ. انفتح البابُ بصخبٍ ودخل دافيد ومعه ممرّضان فرأوا المشهدَ المروّع. انتشرت الدّماء المُراقة في كلّ مكان. ففتحوا النّافذة بقوّة.

- أنت مجنون يا بنيّ!

أمسكه دافيد وحملَه إلى السّرير. حينَها انبثق إحساسُه الأكبرُ باليأس. كيف يكون إنقاذُه لحظةَ كان كلُّ شيءٍ يسيرُ على ما يُرام؟! عوى مثلَ مجنون. سالَ لعابُه وصرخَ بوحشيّة. عانق ساقَي دافيد.

- دافيد، دافيد، دعني أمُتْ! أريد أن أموت! أوغاد! لماذا أتيتم مرّةً أخرى لإنقاذي؟ لا أريد أن أعيش بعد الآن! ستكونون مجرمين إذا أرغمتُموني على الحياة.

حاول الاثنان الآخران فصلَه عن ذلك العناق. لكنّه، وبقوّةٍ غير متوقَّعة، ظلّ متشبّثًا به. وعلى عكس ما أرادَا، أصبح أكثر تمسّكًا.

- لا تتركني أعيش، دافيد. أتوسّل إليك بكلّ ما هو مقدّس عندك.

لا تتركني. دافيد، دافيد... أريد أن أموت. أن أموت. ساعدني.

دخل المزيدُ من النّاس إلى الغرفة. أبعدوه من موقعه ووضعوه على أغطية السّرير. رأى دافيد وهو بعينَين دامعتَين ومئزرٍ أبيض ملطَّخٍ بالدّماء.

حقنوه بحقنةٍ خدَّرتْه تمامًا. بعدها لم يعد يرى أيَّ شيءٍ بسبب ضَعفه. شعر بتشنّجات جسده تتضاءل شيئًا فشيئًا وكسلٍ كبيرٍ سيطرَ عليه. بعد مدّةٍ طويلةٍ عرف أنّه لا يزال على قيد الحياة. رغم أنّ جسدَه كان مُتعبًا جدًّا. لم يكن ثمّةَ من ألمٍ. وحدَه الإحساسُ بالتّعبِ سيطرَ على كيانه، بكلٍ فظيعٍ وغير محتملٍ. أراد التّحدّث، لكنّ الكلمات لم تجد مكانًا تنطلق منه. بين الخيالات والظّلال كان يرى جسمَ دافيد وهو مستلقٍ على الكرسيّ الهزّاز، لعلّهم نظّفُوه أو غيّروه بآخر.

رأى أنّه يُراقبه. كان ساهرًا ينتظر أدنى حركةٍ منه.

تأوّه بصوتٍ منخفض:

- دافيد.

اقتربَ من فمه ليجنّبه أيَّ جهدٍ إضافيّ.

- ما الأمر؟

- دافيد.. لماذا لا تشعل الضّوء؟

- هو مُضاءٌ يا بنيّ.

- هل أصبتُ بالعمى أيضًا؟
- لا، إنّه تأثير الحقنة، عندما ينتهي سترى جيدًّا مرّةً أخرى.

مرّر يدَيْه على رأس المريض بحنان.

- يا له من جنونٍ يا بنيّ! يا لها من خطيئةٍ رهيبةٍ في حقّ الرّبّ كنت سترتكبها.
- دافيد .. ألا تعتقد أنّ الخطيئةَ الّتي ارتُكِبَت في حقّي أعظم؟ لماذا أتيت يا دافيد؟ قلت إنّي أريد أن أنام أربعَ ساعات...
- لقد اتّصل الدّكتور ألفونسو بغرفتك مرّاتٍ ولم تجب. لذلك أمر بالمجيء إلى هنا وتفقّدك.
- أين هو؟
- سيعود. كان معك طَوَال الوقت. لقد ساعدَ في كلّ عمليّات نقل الدّم.
- لماذا لم تدعني أموتُ يا دافيد؟
- لأنّ مهمّة الممرّض هي المساعدةُ على الحياة وليس على الموت. وعندما يَحين وقتُك، سيأخذك الإله بالتّأكيد.
- إلى أين تُريدني أن أذهبَ عندما أخرج من هنا؟
- أين أريد أنا؟ لست أنا من سيقرّر ذلك يا بنيّ. لماذا؟
- يمكنك أن تختار لي، بما أنّك لم تتركني أموتُ. لديّ فرصٌ صغيرة. فيادوتو دو شا، درج المسرح البلديّ، أرصفة شارع السّابع من أبريل، إنّها الأماكن التي يتلقّى فيها المقعدون أكبرَ قدرٍ من الصّدقات...

شعر بيدِ الممرّض على فمه، وببحّةٍ غريبةٍ في صوته:

- لا تتكلّم بعد الآن يا بنيّ. ذلك لن يحدث أبدًا. أبدًا.

***

عادت الأضواءُ إلى طبيعتِها في ناظريْه. وباستثناء القليل من الدّوْخة والألم في عينيْه، كان كلّ شيءٍ يعود إلى سالف عهده. وضُمِّدَت الذّراعان ورُبِطتَا من المعصمَيْن إلى ما فوق المرفقَين. في السّرير الآخر، كان ألفونسو ينام بعمقٍ. وقد تملّكته رغبةٌ في إيقاظه ليسأله:

- هل تشعر برائحةٍ يا ألفونسو؟

لكنّه أشفقَ عليه من الإرهاق. وكان يقطع نومَه من حينٍ إلى حينٍ شخيرٌ خفيف. قضّى يومًا فظيعًا، واعتبرَ نفسَه دون شكٍّ السّببَ الرّئيسيّ في ذلك، ومن واجبه إذن، أن يتركه ينام.

لكنّ الرّائحةَ ازدادتْ بشكلٍ مروّع. ولم يكن الأمرُ مُجرّدَ خيال. وجاءت رائحةُ الجوافة من جميع الجهات.

أمام عينيْه، اشتدَّ الضّوءُ على نحوٍ غير عاديّ. أصبح أشبه بضوء النّهار. وبدأت جدران الغرفة تتّسع واتّخذت بياضًا مذهلًا. اتّسع الباب كثيرًا حتّى إنّه اختفى نهائيًّا وعوّضَه ممرٌّ ضخمٌ ومتوهّجٌ أيضًا. هناك جاء يمشي ببطءٍ وهو يجرّ نعلَيْه عبر الفسيفساء اللّامعة. تمكّن من تمييز البنطال الأبيض والقميص الأبيض أيضًا مع كُمَّين مطويَّيْن حتّى المرفقَين.

كانت هذه هي المرّة الثّانية الّتي يظهر له فيها والدُه. لكن في المرّة الأخرى لم يكن يرتدي إلّا بيجاما زرقاء وشبشبَيْن.

يا للأب المسكين! لم يكتشِفه إلّا قبلَ عامَيْن من وفاتِه، عندما صارَ قلبُه عديمَ الفائدة. كم كان يحبّ والدَه على الرّغم من المسافة الّتي بينهما.

لكنّه لم يعنِ له الشّيء الكثير إطلاقًا. في نهاية حياته وحسْب بدأ يشعر بالإعجاب تجاهَه، حتّى إنّه أحبّ رسوماته ولوحاته. وحين علم أنّ أمرَه محتوم، وقبلَ تَرْك باولا والانعزال في براري السيرتاو، كان يذهب عندَه ليبقى إلى جانبه بضعةَ أيّام. يحاول خلال ذلك الوقت القصير علاجَ حياةٍ كاملةٍ افتقرتْ إلى حنانه وتفهّمه. وعندما ظهرت هذه المشاعر، كان قد سئم الانتظار. وتلك هديّةٌ متأخّرةٌ من الحياة.

اقترب أكثر. اقترب ما يكفي لرؤية وجهه الدّاكن الّذي تجعله اللّحيةُ يميل إلى اللّون الأزرق. شعره لا يزال كما كان لحظةَ موتِه، مع شيبٍ خفيفٍ قربَ الصُّدغَيْن. توقّف بجانب سريره وابتسم. ثمّ انحنى وقدّم له وجهه ليقبّله. مؤكّدًا فكرةَ وجود نوعَيْن من التّقبيل في الحياة، ثمّة نوعٌ من الأشخاص يبادر بالتّقبيل وآخرون يتركون غيرهم يقبّلهم.

جلس بجانبه ونظر في عينَيْه مباشرة:

- إذَن، يا بني؟

-أخبرني يا أبي. هل أنتَ بخير؟ مظهرك جيّدٌ جدًّا.

بدافع العاطفة والحنان، أراد أن يحرّك ذراعَيْه المربوطتَين بالضّمادات ويضمّهما إلى صدره. لعلّه بذلك يمحو الفراغَ والوحدةَ اللّذين عرفَهما في السّاعات القليلة الماضية.

-أنا بخير، بخيرٍ فعلًا. هذا كلّ ما يمكنني قولُه ويمكنك رؤيتُه بنفسك.

مدّ ذراعَه ووضع يدَه على صدره وكأنّه يُداعب قلبه. هزّ رأسَه موبّخًا، وهو ينظر إلى ذراعَيْه المقيّدتَيْن.

-مرّةً أخرى يا بنيّ؟

- ماذا كنتَ ستفعل في مكاني؟

- ما كان لي أن أفعل ذلك مطلقًا.

اليد الّتي لمست صدرَه، وبّخته أيضًا عندما حاول إطلاقَ النّار على نفسه في غابة شينغو. عندما ظهر له أوّلَ مرّة.

- لا تفعل ذلك مرّةً أخرى، أتعدني؟

لم يرغب في وعْده بشيء. لكنّه رأى عينَيْه وقد امتلأتَا باليأس والحزن. لماذا نجعل الآباء يبكون؟ في المرّة الأولى بسبب عيد الميلاد الّذي كان يطارده طَوال حياته. والآن...

- لا تبكِ يا أبي. لا أستطيع التأثّر، ولا أريد البكاءَ مرّةً أخرى في حياتي. أعدك بأنْ أذهبَ إلى الشّمال. أعدك بكلّ شيء، كلّ شيءٍ تريده، لكنْ لا تبكِ.

- الأمر أفضل هكذا. تحلَّ بقليلٍ من الصّبر.

عاد إلى تأمُّله دون أن يرفعَ يدَه عن صدره، وقد فعل ذلك هذه المرّة بحنانٍ لافت. ولم يَحْتَجْ إلى التّحدّث، لأنّه كان يقرأ أفكارَه.

- الأمر الأهمّ يا بنيّ أن تنسى حقدَك على الرّبّ.

تأثّر أكثر وسأل:

- كيف هو يا أبي؟ سألتُك مرّةً ولم تُجب.

هزّ رأسَه قليلًا:

- لا يمكنني أن أشرح ذلك إلّا من وجهة نظرٍ إنسانيّة. إنّه محبّةٌ، رحمةٌ، وجمالٌ. هذا كلّ ما يمكنني قوله.

ابتسم بعينَيْن جافّتَين ومُتوهّجتَين بالمحبّة.

- سترى الإله يا بنيّ. يجب أن أذهبَ الآن.

رسم على جبهته صليبًا، وآخر على فمه وآخر أكبرَ على صدرِه.

- هل تذكر هذا؟ عندما كنت صغيرًا.

وخلافًا للنّظريّة الشّائعة حول القبلة والحياة، انحنى على وجهه وقبّله طويلًا. كانت لحيتُه لا تزال تخدش مثلَ المرّة الأولى التي رآه فيها عندما سلّمُوه إليه.

جلس وبدأ يلمس بيدَيْه أربطةَ الضمّادات على كلّ ذراعٍ وهو يبتسم.

- من الآن فصاعدًا لن يشعرك هذا بالألم. وداعًا.

هناك في الرّدهة كان يسير، أبيضَ ومتوهّجًا، يجرّ نعلَيْه من جديدٍ وهو مائلٌ قليلًا، قليلًا وحسْب إلى الأمام. في نهاية الرّدهة استدار وأشار بيده إشارةَ وداع.

- وداعًا أبي. أبي العزيز الّذي لم يكن يومًا لي ...

كانت رائحةُ الجوّافة تتلاشى في الفضاء. انطفأ ضوء الرّدهة، واختفت الشّخصيّة المحبوبة في طيّات غموضها، كان واثقًا أنّه لن يراه مرّةً أخرى إلى المهات.

تقلّص كلُّ إشراق الضّوء مثل روحِ شخصٍ مشلولٍ تنكمش في قطعةٍ صغيرةٍ من الجسم الحيّ. بقيت الغرفة مظلمةً تقريبًا. توقّفت عيناه على الحائط المقابل حيث يوجد مجسّم المسيح في مكانه القديم.

- ماذا حدث؟

استدار إلى الجانب الّذي أتى منه صوتُ ألفونسو، وارتفع دخانُ السّجائر فوقَ وجهه.

- ماذا حدث؟ كنتُ أنظر إليك مدّةَ خمس عشرة دقيقةً ولم تنتبه إلى ذلك.

ابتسم بهدوء.

- لا شيء.

- كان على وجهك تعبيرٌ هادئٌ جدًّا، ومطمئنٌّ جدًّا، وقد بدا كأنّه وجهٌ مضيءٌ لأحد الملائكة. لا يمكن لأحدٍ على قيد الحياة أن يتمتّع بمثل ذلك الجمال، إلّا عيون الشّخصيّات الزّاهدة في لوحات الرسّام غريكو. لن تصدّقني إذا أخبرتك.

عرف ألفونسو أنّ من الجيّد أن يتحدّث بهدوءٍ شديد. الرّاهب يقطين المسكين! ماذا سيحلّ به؟

- أخبرني، أخبرني بما حدث. ثمّة أشياء غريبةٌ تحدثُ معك دائمًا.

- لقد ظهر لي مرّةً أخرى.

- من؟

- والدي.

- الّذي في الشّمال؟

- نعم. ألا تشمُّ رائحة الجوّافة المتبقّية في الغرفة؟ لا يزال شيءٌ منها...

- كيف سأشمّها إذا كان أنفي مليئًا بالدّخان والنّيكوتين.

- لقد جاء. كان جميلًا جدًّا. هادئًا جدًّا. صلّى في قلبي. وطلب منّي ألّا أكرّر فعلَ ذلك أبدًا. طلب منّي أن أعِدَه بذلك.

- وأنت؟

- لقد وعدتُه، نعم. لا أحد يستطيع رفضَ ذلك أمام عينَيْن دامعتَين لشخصٍ ميّت. قال إنّ ذراعيَّ لن تؤلماني بعد الآن. هل تعلم أنّ الألم قد ذهب حقًّا؟

شعر ألفونسو بفرحةٍ لم يشعر بها منذ وقتٍ طويل. الآن، نعم، لقد بدأ يردّ الفعل.

- أخبرتُه أنّي ذاهبٌ إلى الشّمال، وكان يعلم ذلك. هم يعرفون كلَّ شيء. كم تمنّيتُ أن ترى لباسَه، كان يرتدي قميصَه وسروالَه الأبيض، ليسَ لبياضه نظيرٌ في واقع الأمر، إنّه لونٌ مّا لا أستطيع ضبطَه. لا أعرف كيف أشرح ذلك. الوجهُ الدّاكن بلونٍ جميل. كان يرتدي نعلَيْن. وعندما وصل إلى نهاية الممرّ، أشار بيده «وداعًا».

- هل ذلك كلُّ ما دارَ بينكما؟

- لا أستطيع أن أحكي لك الباقي، ألفونسو. أُقسم أنّي لا أستطيع.

سحبَ ألفونسو آخرَ نفسٍ من سيجارته وهو يشعر بالسّعادة.

- هكذا أُحِبُّ أن أراك، قويًّا كسابق عهدك. دعْنا نذهب للنّوم. لا يزال في اللّيل مُتَّسَع. إنّها السّاعة الثّالثة وحسْب. هل تحتاج إلى شيء؟

- لا، هذه المرّة سأنام بسلام.

- سأطفئ الضّوء. ونادِني متى احتجتَ إلى أيّ شيء.

أطفأ الضّوء وعاد إلى الفراش. استغرقَ الأمرُ بعضَ الوقت لحضور النّوم. فكّر في ما يملكه الرّوحانيّون من قوّةٍ غريبة، غريبةٍ وجميلة. الآن هو بأمان. من المؤكّد أنّ المورفين هو الّذي أثار تلك الأزمة المفيدة.

الرّوحانيّون أقوياء حقًّا.

الفصلُ الخامسُ

الصّبيُّ-الملاك

ستّة أشهر تحتوي تقريبًا على مائة وثمانين يومًا. وفي كلّ يومٍ أربعٌ وعشرون ساعة. وفي كلّ ساعةٍ ستّون دقيقة، يعيشها واحدةً واحدةً ما عدا ساعات النّوم. يعيشها، بل تنزلق. بل يجرّها جرًّا.

يجرّها، ليس تمامًا. لكنّها مسجونة، مسجونةٌ مثل كلّ شيءٍ آخر، ممسوكةٌ بأربطةٍ لعينة، من الرّوح والجسد. الجسد، الكرسيّ المتحرّك، مرتبط بالعجلة، والعجلة بالمحور... والمحور؟ باللّعينة الّتي ولدته!...

كان يحتاج إلى عدم حساب الوقت، وأن ينسى ساعة الغروبِ ما استقبلته طيلةَ يومها من أمواج، تمامًا مثلما يُمكنُ أن تنسى رمالُ الشّاطئ.

عندما لا يدفع كرسيّه المتحرّك، كان يحاول استخدام العكّازَين حتّى يعتاد عليهما. أحسّ في البداية بالحرق. وكان الأمر يزداد أكثرَ مع العَرَق النّاتج عن الطّقس الحارّ. ولكن بعد ظهور الدّشابذ، أخذت الأمور شكلًا مختلفًا. وكان الشّيء الصّعب حقًّا هو تعلّم الحفاظ على توازن الجسم. جرّه بصبرٍ، لكنّه عجز تمامًا عن منعِ أصابع قدمَيه من كشط الأرض. منذ ذلك الحين، بدأ يرتدي أحذيةَ التّنس، لأنّها كانت أرخص ولا تؤثّر كثيرًا في ميزانيّته. واختارَ الغامقة منها، ذاتَ اللّون البنّيّ أو الأزرق.

التقيتك في ريسيفي

حيث أنهارٌ تقطعها الجسورُ
وحيث أحياء ونوافير كولونياليّة

أدّى أغنية كايمي تصفيرًا. كانت موسيقاها عذبةً، عذبة مثل ذلك الشّعر الّذي غنّاه في ريسيفي بطريقةٍ رائعة. في السّابق كانت مدينة ريسيفي تبدو له جميلة. أمّا الآن فَلَا. المدينة مازالت هي نفسها لم تتغيّر. وحْدَه مَنْ تغيّر. في أيّام دراسته، لم تكن هناك مدينةٌ أكثر منها بهجةً وجاذبيّةً وضوضاء. كانت مواعيدُ سينما رويال الصّباحيّةُ بهيجةً. تنبعث منها روائحُ الأطعمة والحلويّات الّتي تباع في شارع روا نوفا، حيث تجري الكرنفالات المجنونة الّتي تملؤها رقصاتُ الفريفو، وتدفع الجميعَ إلى التّمايُل على أنغامها. حتّى إنّه لم يكن أيُّ كاهنٍ يجرؤ على المرور من هناك لأنّه سينتهي معهم راقصًا. وكذا رقصات الماراكاتوس مع ألبسة الملوك والملكات والدّمية الإمبراطوريّة. ريسيفي المجنونة! حفلةٌ طلابيّة، حفلةٌ في حيّ مادالينا. في جسر بينا المعلّق، أكلُ ثمار البيتومبا المصفرّة، بالقرب من ساحة الفندق الكبير، لعبُ الورق ليلًا في منازل الطّلّاب بشارع هوسبيسيو وشارع معهد ماريستا، والذّهاب يوم الأحد إلى حيّ «الشّقيقان»، حيّ أبيبوكوس وحديقة الحيوان، وأوليندا وكذا بوا فياجيم. كان يبتسم منبهرًا هناك بالمنزل الّذي اتّخذ شكلَ سفينةٍ ويقال إنّ صاحبَه يرتدي زيّ قبطان، مشاهدةُ فريق ناوتيكو وهو يتفوّق على سانتا كروز، في جزيرة لايتي، مملكة الصّيّادين، الجسور في كابيباريبي، رؤية الزّوارق تسبح في النّهر، مع ما يكون لشفرات المجاديف من دفقاتٍ إيقاعيّة، عربات الترام البيضاء المغلقة، مقهى لافاييت حيث يقدّمون عصير الأفوكادو برغوته في وعاءٍ كبير، كان ينسي الجوع، متعة الشّرب

ولعب البلياردو في محلّ «الخفافيش الذّهبيّة». وتوجد أيضا مومسات اللّيل، أولئك الفأرات اللّواتي يبقينَ في الزّوايا المظلمة، قرب مبنى صحيفة «الدياريو».

ريسيفي الخضراء بأشجار المانغو، شواطئ الشّعاب المرجانيّة، حيث الرّمال البيضاء تؤلم العيون، حيث يعيش كسَلَه، نائمًا تحت ظلال أشجار جوز الهند. يشاهد شراعَ زورقٍ خفيفٍ من بعيد. ريسيفي. ريسيفي. ريسيفي في حيّ النّوافير الكولونياليّة ...

لكن لا شيء من ذلك الآن. ريسيفي الآن محصورةٌ في حيّ في روا دا برايا، تقريبًا تحت الدّرج، بجوار حمّامٍ قَذِر تصدُر منه رائحة البول. قلّة من النّاس يعيشون في الطّابق الأرضيّ. الآخرون يعيشون في «عالم ما فوق الدّرج». كان ممتنًّا لِحَظِّه الجيّد في العثور على غرفةٍ رخيصةٍ بمكانٍ يتجادلُ فيه الجميع ويتشاجرون، لكنّهم كانوا جميعًا لطفاء معه. ستّة أشهر. ستّة أشهر. ستّة أشهر. كان يحتاج إلى فعل شيءٍ مّا، رغم أنّه لم يكن عديمَ الفائدة. فالجميع يطرقون بابَ غرفته.

- سيّد رايموندو، من فضلك، هل تعرف كيف تفعل هذا؟

إذا كان يعلم، فسيفعل. اكتشفوا أنّه كان بارعًا في الحَقْن بطريقةٍ غير مؤلمة، وأنّ له يدَيْن ناعمتَيْن تعالجان أيَّ جرحٍ دون سماع «آي». بالإضافة إلى جمع كتبٍ للبيع، وعمل بعض خطوط التّطريز، وكتابة رسائل إلى أماكن لم تكن موجودةً أصلًا، مثل ساو جوزيه في مصر أو سيرو كورا ...

كان يحصل على هدايا متواضعة: مخفوق قصب السّكر، علب عسل، أكواب قهوة، طبق كسكس، أطباق باموناس لذيذة، أكواب من عصير قصب السّكّر.

لكنّه لم يتصالح بعدُ مع وضعه. تقبّلَ فكرةَ أنّه لا يستطيع الموتَ. غير أنّه مازال لا يريد العيش أيضًا. كان كلّ شيءٍ عبارةً عن ضبابٍ كثيفٍ من اللّامبالاة والملل.

كان ينتظر العالمَ اللّيليَّ ليجلس أمام باب المبنى ويشاهد بقيّة أعمالِ اليوم، عملٍ يبدأ في وقتٍ مبكّر، وبصخب. ناسٌ يحملون أكياسًا من البضائع، مستودعاتٌ كبيرةٌ تفوح منها رائحةُ البصل، العرق وهواء البحر، أجراس كنيسة بينيا، ضجيجُ سوق ساو جوزيه وهو يغلق أبوابَه، أشخاصٌ متعبون، متعرّقون، عائدون إلى منازلهم، والشارع الّذي يتحوّل إلى أرضٍ تملؤها القطط الضالّة، والعاهرات الرّخيصات وحزنه الخاصّ.

غيّرَ اسمَه. فأيُّ اسمٍ سيؤدّي المهمّة. فلا أحدَ سيسأل عن هويّة شخصٍ مُعاق. أعجبه اسم «رايموندو أموريم دا سيلفا». جيّد! من رايموندو إلى ريموندو، مجرّد قفزة.

تمرّ العاهرات ويُمازحْنَه بأسئلة:

- كيف الحال ريموندو، لا شيء اليوم؟

- أنتِ بحاجة إلى حظٍّ أفضلَ منّي يا عزيزتي.

حينها تظهر تورغا، تلك الأعجوبة الأنثويّة من اللّحم الأسمر، تنزل الدرّج وتتشاجر مع الأُخريات.

- اذهبنَ من هنا أيّتها القبيحات. لا تقتربنَ من قدّيسي.

تقف أمامَه، فاتنةً في جمالها الأسمر، مع فستانها المليء بالورود الملوّنة. نهداها الصّلبان يخترقان حديقةَ الحرير تلك. ردفاها المستديران يُحيطان بحديقة الحرير الضّيّق. ساقان ممتلئتان جيّدتان تهربان من الحديقة لتجعلها أكثر أنوثةً.

- هل أنتِ ذاهبة، تورغا؟

ضحكتْ فظهرت أسنانُها البيضاءُ جدًّا. كانت تعدّل مكياجَها، تنظر في عينَيها السّوداوَين المستديرتَين اللّتَين لم تكونا حريريّتَين بل مخمليّتَيْن. ضغطت على شفتَيها الممتلئتَين الشهيّتَين لتُسوّيَ أحمرَ الشّفاه.

- تبدين جميلةً يا تورغا.

- نعم! لقد كنت دائمًا كذلك يا قدّيسي الصّغير.

- لكنّك اليوم جميلةٌ بشكلٍ غير عاديّ، ليحفظنا الرّبّ!

ضحكتْ، ثمّ ودّعتْه، وخرجت إلى جوّ اللّيل وردفاها يتمايلان في الشّارع. كانت تؤرجح حقيبَتَها بطريقةٍ جميلةٍ حتّى إنّ كلّ ما تبقّى لها فِعلُه هو كنس الحصى عن الأرض.

تورغا، أو ماريا تاوماتورغا. تُمضي النّهار نائمةً وتُمضي اللّيل مستلقيةً تقريبًا. في السّاعة الثّالثة بعد الظّهر، تأتي برداءٍ ذي بهرج، ينسدل على جسدها، لتُحضرَ له كوبًا من القهوة، تدخّن سيجارةً وتتحدّث. كانت تورغا مهتمّةً بكلّ حكايته. وبكتْ بدموعٍ كثيرةٍ عندما حدّثَها عن مأساته.

- يا يسوع! يا لها من محنة، لكنْ لا يهمّ يا قدّيسي. لن يحدث لك أيُّ شيءٍ سيّئٍ بعد الآن، لن أتركك، أتفهم؟

ثمّ نظرت بحزنٍ أكثر إلى الوجه الّذي لا يزال جميلًا وسألته بطريقةٍ عفويّة:

- ألم يعد بإمكانك الخروج مع النّساء مطلقًا؟

أشار إلى العمود الفقريّ والسّاقَين وقال:

- من هنا إلى أسفل لم أعد رجلًا يا تورغا.

- لكنّك رجوليّ جدًّا. فالرّجالُ عادةً ما لا يجرؤون على الاعترافِ بذلك، ويميلون في مثلِ وضعك إلى الكذبِ والادّعاء.

- قد ينجحُ المرءُ في الكذبِ على الآخرين. ولكنّنا لا نستطيع أن نكذب على أنفُسِنا يا تورغا.

- أوافقُك الرّأيَ يا قدّيسيَ الصّغير. وإنّي لمعجبةٌ بك مثلما أنتَ. وسيكونُ من دواعي سعادتي أن أقدّم لَكَ أيَّ خدمةٍ أقدرُ عليها دون أن أتقاضى أيّ شيء، أقسم على ذلك.

وذهبت هناك، بعيدًا، بحثًا عن بستانيّ لليلتها. بالتّأكيد، ستخبره في اليوم التّالي بما حدث لها وما إذا كان الرّبح جيّدًا. تورغا. ماريا تاوماتورغا.

- تشاهد اللّيل، سيّد ريموندو؟

جاءه صوت الخيّاط ألتاميرو الّذي يعيش في الطّابق الأوّل، وكان النّاس ينادونه تالاميرو.

- أشاهد قليلًا من ذلك، نعم.

- هل قرّرت أن تتسلّق السّلّم، وتأتي للعمل معي؟

- بمجرّد إخلاء غرفةٍ في الطّابق الأوّل يمكنني الانتقال.

- إنّه عملٌ سهلٌ جدًّا. وكلُّ ما عليك هو أن تجلسَ وتقطعَ القماش. ذلك يكسبك بضعةَ دراهم.

- أعلم ذلك وأشكرك. لكن من الصّعب جدًّا صعودُ هذا السلّم ونزولُه كلَّ يوم. كُن متأكّدًا أنّي سأصعد الدّرج يومًا مّا وأعمل معك.

- مرحبا بك متى رغبت. وكما تعلم، سيكون لك كرسيٌّ هناك. الآن أنا ذاهبٌ لأتجوّلَ وأتناولَ بعضَ الشّراب. إلى اللّقاء.

خرج بشكله النّحيف. وعاد يمشي وهو يعرج بشدّة. كان يعرف موعدَ عودته لأنّه كلّما صعد الدّرج، ضرب الحائطَ والحواجز.

قرّر أن يلفّ كرسيَّه على طول الرّصيف المليء بالحفر. لكنّه فارغٌ في الوقت الحاليّ. فالرّغبةُ تحدوه أنْ يمشيَ حتّى الفندق الكبير. بيد أنّه لم يتجاوز إلى هناك. ففي إحدى المرّات، عندما أراد الذّهابَ لشراء عصير بيتومبا، أعطاهُ سائحٌ صدقة. فتحوّل وجهُه إلى اللّون الأحمر وشعر بارتباكٍ، ثمّ بألمٍ وخجلٍ في داخله.

هو الآن بعيدٌ عن المبنى، ينظر إلى الأضواء، والرّصيف، والمراكب واليخوت الّتي تنام بسلامٍ فوق المياه. حتّى إنّه غفا وترك وجهَه للنّسيم القادم من البحر...

مذهلٌ هو مرورُ الوقت! لقد مرّت إحدى عشرة سنةً منذ وفاة باولا! أحد عشر عامًا وهو يدفن نفسُه في الغابة، يجرّ شوقًا يائسًا يرفض أن يموت. الشّيء الجيّد أنّها لم ترَ سقوطَه. ولم تشهد مصيرَه كأسيرٍ للعجز. لحسن الحظّ أنّ باولا ماتت وهي تحمل عنه صورةَ شبابه الرّائع. باولا. باولا الّتي ماتت بعيدًا، بعيدًا جدًّا...

***

لم يكن باستطاعته رفضُ الدّعوة. لا بدّ أن يذهب، أصبحت المقابلةُ أمرًا حتميًّا ولا مفرَّ من حُضوره. حلقَ ذقنَه وبقي يتأمّل عينَيه بعد أسبوعٍ من البكاء. كانتَا منتفختَيْن بسبب الألم والكحول. ارتدى أفضلَ ما عنده من لباس، ركبَ سيّارة أجرة، وقد بقيت على موعده خمس عشرة دقيقة.

- من فضلك أيّها السّائق، خُذني إلى شارع ريبوكاس.

أعطاه العنوانَ، ثمّ وضع رأسَه على المسند وأغمض عينَيْه حتّى لا يشعرَ بالتأثّر.

سافر دون أن يشعرَ. نزل من السيّارة ودفع الأجرة للسّائق بشكلٍ آليّ. أصرّت ساقاه على التّراجع عن الفكرة لكنّ يدَه سبقتها إلى جرس الباب. جاء خادمٌ وجعله يتبعه من البوّابة إلى المدخل الرّئيسيّ.

- السيّدة الكبيرة في انتظارك.

عبَرَ الرّدهةَ ودخَل قاعةً كبيرةً. هي القاعة نفسُها الّتي كان يشعر فيها أنّه مراقبٌ في كلّ شيءٍ يفعله... سنوات عديدة إلى الوراء.

- انتظر قليلًا سيّدي حتّى تنزل المادام. بإمكانك أخذُ سيجارة.

شكرَه دون أن يقبل العرض، وبعد ذلك رآه يغادر دون إحداث أدنى ضجيج.

بقي يتأمّل القاعة من أقصاها إلى أقصاها. اقترب من البيانو الأسود، المزيّن بمفرشٍ ملوّنٍ من حريرٍ إسبانيّ، ينزل بشكلٍ متموَّجٍ فوقه. وفوق المفرش، داخلَ إطارٍ زجاجيٍّ توجَد صورةُ باولا، وفيها تظهر مُبتسمةً على طريقتها، دون فَتْح شفتَيْها.

باولا، باولي، بوبينيا، بو.

لم يكن يرغب في التأثّر ولا الشّعورِ بالدّموع في عينَيْه. باولا الحيّة جدًّا في ذاكرته. باولا الميّتة، بعيدًا جدًّا. عاد يتأمّل الصّورة باندهاش.

يمكنه أن يبقى هناك ينظر إلى الصّورة طَوالَ حياته، لأنّ ذلك هو الشّيء الوحيد الّذي منحَه بعضَ السّلام في السّاعات الأخيرة.

انفتح الباب جُزئيًّا ودخلت السّيّدة الكبيرة، منزلقةً إلى القاعة مثل ريشة. استدار جهتَها وقبّل يدَيْها في صمت. جلسَا متقابلَيْن وجهًا إلى وجهٍ وبقيَا يتبادلان النّظرات. بدت ملامح السيّدة الكبيرة شبهَ مُشوّهة. عيناها تائهتان بين أذنَيْن كبيرتَيْن. لقد نَحفَت قليلًا. لكنّها حافظت على مظهر طمأنينةٍ يشعّ متساميًا. وبدا جسمها في وضعيّةٍ مثاليّة، حتّى الألم لم يستطع أن يلغي عنها أناقتَها. وكلُّ ما فيها باولا: أناقتها، عيناها، وضعيّة الكبرياء، اليدان الرّشيقتان. وحدَه شعرُها صار أبيض بالكامل، على خلاف آخر مرّةٍ رآه فيها.

بدا ذلك الصّمت كأنّه مقبرةُ ملائكة، حتّى حركة أجنحةٍ خفيفةٍ لا يمكن سماعها. وكان من الضّروريّ أن تأخذ السيّدةُ الكبيرة زمامَ المبادرة وتبدأ المحادثة.

- إذَن، يا صديقي؟

سيطر على تأثّره وردَّ عليها:

- ما إن وصلني اتّصالك حتّى سارعتُ في المجيء.

- كنت أعرف أنّك ستأتي.

صمتتْ قليلًا، ثمّ واصلت:

- في سنّي تتأخّر عودةُ المعنويّات بعد تلقّي الضّربات العنيفة. لذلك كان عليَّ أن أنتظر أسبوعًا قبل أن أتّصل بك.

كلاهما كانا أحوج ما يكونان إلى ذلك المنطق وتلك الطّمأنينة. كان عليهما قمعُ المشاعر أو أيّ احتمالٍ لظهورها، والتزامُ موقفٍ محايد، وحديثٍ لشخصَين ناضجَين وواعيَيْن.

- سنتناول الشّاي بعد قليل، أو لعلّك تفضّلُ تناولَ شيءٍ آخر.

- الشّاي خيارٌ جيّدٌ سيّدتي.

وضعت أصابعَها بشكلٍ مُتقاطعٍ فوقَ ركبتَيْها فظهر في إحداها خاتمُ خُطوبة.

- قطعًا لسنَا محظوظَيْن في وضْعنا.

- وأيّ مشاعر يمكن إظهارُها سيّدتي؟ عندما دخلتُ هذا المنزل توجّب عليَّ التحكّمُ في نفسي.

- أتفهّم ذلك. يجب أن أرحلَ من هنا. فكلّ زاويةٍ في المكان تتنفّس وجودَها.

كانت في صوتِها رعشة. ولحسن الحظّ أنّ عربةَ الشّاي جاءت بعجلاتها المهتزّة لتخفّف التّوتّر.

- شاي وحدَه؟

- نعم شكرًا.

- قليلًا من السّكّر؟

- هكذا أفضل، شكرًا سيّدتي.

لأوّل مرّةٍ يلاحظ أنّ يديها ترتعشان. أغمضت عينَيها لتستشعرَ طعمَ الشّاي. وبعد ذلك وضعت الفنجانَ فوق الطّاولة الصّغيرة واستعملتْ منديلًا صغيرًا لتمسح شفتَيها.

- هل تريد المزيدَ؟

- لا، شكرًا.

هزّت جرسًا فضّيًّا فظهر الخادمُ وسحب العربةَ معه خارجًا.

- تريد سيجارة؟

-ليس الآن سيّدتي.

قبل أن يخرج الخادم نهائيًّا من القاعة التفتتْ إليه وقالت:

-ألبرتو من فضلك، أحضر لي تلك الأظرفَ الّتي على المكتب.

عادت إلى إمالة رأسِها على الأريكة. كان يعلم أنّ أمرًا جادًّا على وشك الحدوث. ثمّ عادتْ إلى الحديث بصوتٍ ناعم:

-عندما كان زوجي على قيد الحياة، كان يحقّق لباولا كلَّ ما تشتهي، بينما ألعب أنا دورَ الرّقابة عليها خوفَ أن يفسدها ذلك الدّلال. وبعد وفاته اكتشفتُ أنّها كلُّ ما أملكه في الحياة. لذلك رُحت أدلّلها أكثرَ وأحقّق لها كلّ رغباتها، وكأنّها نبوءةٌ برحيلها المبكّر جدًّا.

صمتتْ لحظاتٍ لتُعيدَ السّيطرةَ على نفسها من جديد، إذ كانت الدّموعُ تصارع لتنزلَ من عينَيها.

-في حياتها، حقّقت ابنتي كلَّ أمنيّاتها. والآن بعد أن ماتت سأحقّق جميعَ ما تبقّى من تلك الأمنيّات الأخيرة. أتحدّث عن هذا -ونهضت من مقعدها لتقتربَ منه أكثر- لِكَيْلَا لا يكون لسيادتك أيّ اعتراضٍ على ما سيأتي.

جاء الخادم يحمل مُغَلّفَيْن في يده. بدا كأنّ كلّ شيءٍ كان مخطّطًا له. قدّم الخادم حمولتَه، وأدّى تحيّة، ثمّ خرج مغلقًا البابَ وراءه دون أيّ ضجيج.

-أوّلًا، رسالةٌ من باولا.

هذه المرّة كانت يداه هما المرتجفتيْن عند تسلّمها، وانزلقت على جبينه حبّاتُ عرقٍ بارد.

- يمكنك قراءتها بهدوء. سأنتظر.

قالت ذلك شبهَ متوسّلةٍ وبلا صوتٍ تقريبًا.

- إذا سمحتِ لي فسأذهب لقراءتها قربَ البيانو. هناك يوجد ضوءٌ أكثر. فقد أطفأت شمسُ الغابة بصري قليلًا.

- من فضلك لا تقلقْ، سبق أن أخبرتك أنّي سأنتظرك.

لم يكن يمزّق مغلّفَ الرّسالة بل روحَه. عليه أن يقرأها، عليه أن يقرأها. الورقة البيضاء كانت فيها آثارٌ وبقايا من عطر، عطر باولا وآثار أظافر باولا.

«حبيبي، حبّي الغالي والوحيد

عندما تقرأ هذه الرّسالة سأكون بعيدةً، لكن رغم ذلك لن أنساك أبدًا.

حبيبي الغالي، سامحني لأنّي حملتُك على كُرهني قصدًا. كان ذلك ضروريًّا، إذ عرفتُ أنّ مصيري محتوم، وكان يمكن أن أقلّل من الشّرب لأعيش بعضَ أيّامٍ إضافيّة. لكنّي لم أملك الشّجاعة لذلك، لأنّه كلّما طال بقائي في تلك الوضعيّة ازدادت صعوبةُ تقبّل فراقك.

حبيبي الجميل، كنت وسيمًا جدًّا، فحلًا جدًّا، بسيطًا جدًّا في تلك اللّيلة الأخيرة عندما كان كلّ شيءٍ برونزيًّا وقد ارتديتَ ذاك القميص الأصفر... أترى أنّي لا أنسى القمصانَ الّتي تعجبك حتّى وأنا ميّتة؟

هناك كانت قدّاحاتك، وقد قبّلتُها واحدةً تلو أخرى في تلك اللّيلة، وسط الدّموع. قبّلتُها قبل أن أضعَها في هذا الصّندوق. أردت أن تكون قُبْلتي لك هي شعلةَ الحياة الّتي كانت تفارقني.

لم أترك الكثير من أجلك. أردت أن أتركَ لك أشياء أكثر من حبّي الكبير وحناني، لكنّك ذو كبرياء وهذا قد «يؤلمك».

اغفر لي يا حبَّ حياتي الحزينة. لم أكن أريدُ منك أن تراني أموت، لم أُرِد أنْ تراني بشعة. أردتُ أن تبقى في قلبك الصّورةُ التي رأيتَني عليها أوّلَ مرّة، مثل باولا الّتي كانت تبحث عنك منذ ميلاد النّجمة الأولى. لم أُرِدْ منك أن تراني بشعةً مثل جدّتك عند موتها، كما أخبرتني أنتَ بذلك. أنا متأكّدةٌ أنّك ستسامحني على كلّ شيءٍ عندما تعرف السّببَ، وأنّك ستحوّل هذه الكراهية العابرة إلى رسالة حبٍّ كما كان حبّنا دومًا.

وداعًا حبيبي الغالي والوحيد.

أينما كنت وأينما تذهب، أكُنْ دائمًا باولا، باولي، بوبينيا، بو و... توجور».

لم يستطع منعَ أنينٍ فظيع، وهو إن لم ينفجر قلبُه من قوّة الضّربة، فذلك لأنّه ليس قلبًا من زجاجٍ ملوّن، كما يقول الشّاعر.

وضع الرّسالةَ على وجهه وبقي لحظةً يداعبها كأنّما كانت يدَيْ باولا الحيّة.

ومن بعيدٍ جاء صوتٌ آليٌّ تحدَّر من خياله:

«السّرطان مجرّد تكاثر للخلايا».

كان صوت أستاذ مادّة الطّبّ. مجرّد تكاثر للخلايا. الخلايا والموت. الموت والوداع. وهذا كلُّ شيءٍ...

عاد إلى جانب السّيّدة الكبيرة وكأنّه إنسانٌ آليّ. ارتمى على الكرسيّ محطَّمًا. فتحت المرأة عينَيْها جزئيًّا ورأت شحوبَ الرّجل.

ابتسمت بهدوء.

- يمكنك البكاء. البكاء أمرٌ جيّد.

لكنّه استرجع شيئًا من ثباته وعاد إلى التّحكّم في نفسه.

- سأبكي لاحقًا. الآن أريد سيجارة.

بقي يتابع خطوطَ الدّخان الحلزونيّةَ في القاعة المقفلة.

- يمكنك قراءة الرّسالة سيّدتي.

ومدّ يده إليها.

- الأمر ليس ضروريًّا. لقد ساعدتُ باولا في كتابتها.

خيّمتْ لحظةُ صمت. لكنّها كانت تستعجلُ لتسوية الأمر المؤلم.

- الجزء الآخر الحسّاس من الموضوع هو عقد الشّقّة.

قالت ذلك وهي تفتح المغلّف الأكبر.

شعر بصدمةٍ تضربُ روحَه.

- أيّ شقّة؟

- الّتي تقيم فيها. إنّها لك. اشترتْها باولا منذ سنواتٍ عديدة. كنت أعرف ذلك. والآن حُلَّ لُغْزٌ آخر، لم يرتفع إيجار شقّتك قطّ، بينما كان إيجار الشّقق الأخرى يرتفع.

واصلت السيّدة بصوتها الثّابت والمسيطر:

- في إدارة المبنى، أو بتعبيرٍ أفضل في المكتب، يمكنك سحب الإيجارات المتراكمة الّتي دفعتها. كلّ هذا نتاج عملك. ولك أيضًا شيك لشراء أشياء لأصدقائك الهنود. عليه توقيعي، لكنّ باولا هي الّتي أوصتْ به.

بقي يتأمّل كلَّ تلك الأوراق في يدَيه، محبَطًا لا يدري ما يصنع. لكنّها لم تسمح له بالتّحدّث، ويبدو أنّها خمّنتْ أفكارَه.

- أيّ رفضٍ منك لن يجدي نفعًا، لأنّي لن أسمح به أيّها الشّابّ.

عادت مرّةً أخرى إلى أسلوب التّلميح الممزوج بنبرةٍ قسوة.

- من جهةٍ أخرى، وما دُمنا لن نلتقي مرّةً ثانيةً في الحياة، فيجب أن أعترف لك بمشكلةٍ أحملها في ضميري... كما تعلم أيّها الشابّ، لقد وجدت باولا رغباتها مستجابةً دومًا. منحتَها أنتَ السّعادة الّتي كانت تبحث عنها. وآمنت هي بأنّك مخلوقٌ رائع، وأنا ممتنّةٌ لك على كلّ شيء، ولو لم أكن كذلك، لأرسلتُ كلَّ هذا إلى شقّتك وتجنّبتُ وجودَكَ الّذي قد ينكأ جرحًا كبيرًا أحاول الشّفاء منه ...

نظر إليها، مُستعيدًا بقايا كبريائه.

- بعد هذا سيّدتي، أعتقد أنّه لم يبقَ لنا كثيرٌ ممّا نتحدّث فيه.

- لا. بل ما يزال علينا التّحدّث. شيءٌ من الصّبر وستُحَلّ كلّ الأمور. من أجل باولا، من أجل ذكرى ابنتي، أودّ أن أعرف خططك المستقبليّة.

- سأعطي المال للهنود وأعيش بينهم مثل مبشّرٍ بلا عقيدةٍ وبلا عباءةٍ كنسيّة، لأنّك يجب أن تعرفي شيئًا مهمّا. لم تكن باولا وحدَها الّتي ماتت. كلانا مات، وكان موتًا نهائيًّا يا سيّدتي.

- أعرف ذلك.

- وسأبيع الشّقّة أيضًا للغرض نفسِه.

- لست مُوافقةً على ذلك. لا بدّ لك من الاحتفاظ بملكيّتها تحسّبًا لأيّ احتمال.

وعدَها بأن يفكّر في الأمر لاحقًا وبتروٍّ أكبر.

- لا يزال لدينا نقطتان لنتحدّث فيهما، وسيكون ذلك كلُّ شيء. أريد منك أن تحمّلني المسؤوليّةَ عن الكراهية الّتي كانت في قلبك تجاه ابنتي. أنا الملومة في ذلك. اشتريتُ نصفَ لوحاتك في المعارض، دون علم باولا. اشتريتها نيابةً عن أشخاصٍ معروفين. وعندما علمت باولا أنّها مريضة، كنت أنا من وضعت كلّ الخطط، بالاتّفاق معها. أنا من جمعت كلَّ اللّوحات وأرسلتها إلى قبوِ منزل الشّاطئ. اشتريتُ لوحاتك ولم تهمّني قيمتُها الفنّيّة، بل تلك السّعادة التي سيمنحها الأمر لباولا. أعترف بخطيئتي وأكفّر عنها.

نهضت، وواصلت تخمين أفكاره، وقالت:

- صديقي الشّابّ، عندما لا نساعد في قتل الأوهام، تتكفّل الحياةُ بتدميرها واحدةً تلو أخرى مع مرور الوقت.

سارت بجانبه إلى الباب.

- لم يبقَ غير هذا.

التقطتْ علبةَ القدّاحات من فوق قطعة أثاثٍ قديمة.

- ما المصير الّذي تنوي منحَه لهذه؟

- ذلك بالضّبط... منحُها. سأعطيها للهنود أيضًا.

- كنت أودّ الاحتفاظَ بها. لكنْ من أجل ماذا؟ باولا أيضًا ستحبّ ذلك، لكنْ بما أنّك لن تحتفظ بها، فمن الأفضل توزيعها بين أصدقائك المتوحّشين.

- سأحتفظ بواحدةٍ تذكارًا حتّى أيّامي الأخيرة. أمّا الباقي فكان مجرّد نزوةٍ من باولا لإسعادي.

نظر كلٌّ منهما في عينَي الآخر بطريقةٍ كما لو أنّ ذلك الوداع النهائيّ لا يعني شيئًا لأيٍّ منهما.

فتحتْ له الباب. فقبَّل يدَيها باحترامٍ وغادر. غادر وهو واثقٌ أنّ كلَّ واحدٍ منهما يتّجه إلى مدفنه، منذ تلك اللّحظة فصاعدًا، وأينما ذهب الاثنان...

***

جاء النّسيم قويًّا من البحر. لمست يدٌ ودودةٌ كتفَيْه المتكئتَيْن على الكرسيّ المتحرّك.

-لكن يا قدّيسي الصّغير، لا يبدو أنّ السّاعة ملائمةٌ لوجودك في الشّارع، تقدّم اللّيلُ ويجدر بك الدّخولُ.

كان جسدُ تورغا المعطّر يقف فوقَه. رائعةٌ هي في أيّ لحظة، بجسدها الّذي تزيّنه الأزهار، جسد الحديقة.

- رياح البحر تجعلني أنام.

-سآخذك.

- جئتِ مبكّرةً اليوم.

-كان زبونًا سريعًا، طالبًا أحمق، يتهجّى المتعة. هل تعلم يا قدّيسي أنّك تميمةُ حظّي. عندما أخرج دون أن أراك، لا تسير الأمور على ما يرام مطلقًا.

ضحكت بابتهاجٍ وبدأت تدفع الكرسيَّ المتحرّك.

-أستطيع التّصرّف.

-قلت لك إنّ عمل اليوم كان خفيفًا.

تحدّثا بحميميّةٍ شديدةٍ مثل صديقَيْن قديمَيْن.

- تورغا، ألا تحضرين أحدًا من زبائنك إلى هنا؟

- لا. المكان قذرٌ جدًّا. وذلك سيجعلهم يخفّضون السّعر. لديّ «ملجأ» في منزلٍ أتقاسمه مع بعض الصّديقات.

بقيت تفكّر وهي تحاول دفعَ الكرسيّ المتحرّك عبر الأماكن الأقلّ حُفَرًا على الرّصيف.

- أستطيع العيشَ في مكانٍ أقلّ فوضويّة. لقد بدأت أجمع بعضَ المال للخروج من هنا.

- إلى أين، تورغا؟

- إلى ريو.

ثمّ تذكّرت شيئًا.

- هل كنت هناك منذ أن غادرت أنا؟

- نعم. غلبني النّعاس فنمتُ. بدأت أشعر بتعبٍ متزايد... يجعلني أستغرق في النّوم كلّ مرّة.

- وبقيتَ بلا طعامٍ كلَّ هذا الوقت؟ لم تتناول العشاء، أليس كذلك؟

- تناولت الشّاي مع سيّدةٍ جميلة، بقاعةٍ معطّرة، كان فيها بيانو أسود مع شالٍ إسبانيٍّ مليءٍ بالزّهور، يشبه فستانَك.

- بدأت الهلاوس تدخل رأسَك الصّغير. أين رأيتَ كلَّ ذلك؟ في شارعٍ قذرٍ مثل هذا؟

- إذا لم أجد إلى الحلم سبيلًا، فكيف ستكون حياتي يا تورغا؟

شعرت المرأة بالتأثّر.

-كيف كان الشّال الإسبانيّ؟

-مثل فستانك هذا مع خلفيّةٍ سوداء ولونٍ أحمر على الأطراف.

-إذَن، لا شكّ أنّه جميل.

-في السّابق كنت أحبّ الزهورَ كثيرًا، ولاسيّما تلك الصفراء. أمضيت سنواتٍ عديدةً أضع هذه الزّهور فوقَ قبر امرأةٍ في عيد الموتى وعيد الميلاد...

رأت تورغا أنّه صارَ حزينًا، فسارعت إلى تغيير مسار الحديث.

-لم أرَ وردةً صفراء من قبل. لكنّك ألهمتني فكرة، غدًا أبحث عن فستانٍ به ورودٌ صفراء. هل ستبدو أجملَ فوق خلفيّةٍ بيضاء أم ترى السّوداء أفضل؟

-أعتقد أنّها ستبدو جذّابةً أكثر باللّون الأبيض.

-إذَن، سيكون الأمرُ كذلك. وصلنا. انتظر حتّى أساعدك في هذا الدّرج. من كان يساعدك في اللّيالي الأخرى؟

-أبقى في الانتظار، وعندما أرى شخصًا له وجهٌ ودودٌ أخاطبه: «سيّدي هل ترغب في مساعدتي لصعود هذا الدّرج؟».

-سأتركك في غرفتك، وأذهب لأستحمّ وأطهّر جسدي من الخطيئة، وبعد ذلك أحضر لك شطيرةً مع القهوة.

صعدت الدّرجَ بخطًى موقَّعةٍ وهي تضرب بكعبها العالي على الدّرجات القاتمة. وعلى معصمها كانت سلسلةُ حقيبتها الصّغيرة تدور.

***

كان ذهابُه لأخذ حمّامٍ كفاحًا عظيمًا، إذ يدخل مُعتمدًا على عكّازين. ثمّ يضع كرسِيًّا بلا ظهرٍ تحت المرشّ، يخلع سرواله، يفتح الصّنبور، يجلس ويسند عكّازَيه إلى الحائط، مع التأكّد من عدم تبلّلهما كثيرًا. ثمّ يسحب الكرسيَّ بصعوبةٍ لإغلاق المرشّ. يجفّف نفسَه ويعود إلى غرفته. إنّ تسمية ذلك المكان بـ«حمّام» فيه مبالغةٌ كبيرة. حتّى الفنادقُ التّافهة لا يمكن أن يكون فيها ذاك الكمّ من الأوساخ. ومع ذلك فهو يعتبر نفسَه محظوظًا بالحصول عليه، ومحظوظًا أيضًا لصبر السّكّان الآخرين وانتظارهم أن ينتهي من استحمامه، دون شكوى.

يعود إلى الغرفة ليحلق أمامَ مرآةٍ صغيرة، فيغمس الفرشاةَ وشفرةَ الحلاقة في وعاءٍ صغير. كلّ ذلك ببطء، دون أيّ عجلة، لأنّ الأبديّة كانت كبيرةً جدًّا.

بعدها يجلس على السّرير ليرشّ ما بين قدَمَيْه بمسحوق الطّلك حتّى يخفّف من الشّعور بالحرق في تلك الحرارة. بقي يتأمّل تشوّهَ جسده، لأنّ السّمنةَ ووضعيّةَ الجلوس الّتي كان عليها يوميًّا جعلتَا طبقةً دهنيّةً تتراكم على البطن، وظهرتْ أيضًا طبقةٌ رقيقةٌ على صدره. في مقابل ذلك، تحوّلت الرّجلان إلى بوصلةٍ رفيعةٍ بلونٍ يميل إلى الأصفر، تخفي عضوَه الذّكريَّ الميّت الّذي تحوّل إلى اللّون البنفسجيّ بمرور الوقت.

ارتدى ملابسَه مرّةً أخرى، ودفع نفسَه إلى طاولة السّرير حيث كان يكتب أو يرسم في مكانٍ شاغرٍ تركه لذلك الغرض. كانت رسوماتُه دائمًا تكرارًا للأشكال نفسها. الغرفة، العكّازان، الإبريق بجانب العكّازَين، الكرسيّ المتحرّك بجوار الإبريق وأحيانًا الثّلاثة معًا. منذ أن غادرت باولا، فقَد رغبتَه في الرّسم. حدث ذلك مرّةً واحدةً ويتيمة، رسم فيها

صورةً لوجه تورغا. وقد أُعجبت باللّوحة جدًّا فطلبتها منه، وقبّلت جبهتَه شاكرةً، وذهبت لتعلّقها على حائط غرفتها ...

كان غارقًا في عالم العتمة عندما اهتزّ بابُ غرفته تحت ضرباتِ يدٍ تطرق البابَ الخشبيّ.

- من يكون الطّارق؟ لا يزال الوقت مبكّرًا جدًّا... ادخل.

فُتِح البابُ ببطءٍ وظهر وجهٌ مبتسم. كان شعاعًا أسودَ من الشّمس والحياة. بادلَه الابتسامة.

- صباح الخير يا صديقي الأمير الجميل. ادخل.

زاد إشراقُ وجه الصّبيّ الأسود بلمعانِ بياضِ أسنانه.

- أنا لست أميرًا. أنا ديتو.

مشى مقتربًا من السّرير. فسحبَ الرّاهب يقطين الأغطيةَ عن ساقَيْه.

- اجلس هنا، على هذا الكرسيّ.

جلس ديتو دونَ ابتهاجٍ كبير.

تأمّل الصّبيَّ بسرور. خمّن أن يكون عمرُه تسعَ سنواتٍ على الأكثر. كان طفلًا أسود قويًّا ولامعًا بعينَين معبّرتَين ذكيّتَيْن.

- أمّا أنا فأراك أميرًا.

أدار عينَيه حولَه، يفحص المكان.

- ماذا يريد الأمير؟ لماذا جئت؟

- السيّد تالاميرو أرسلني إلى هنا. قال إنّ بإمكاني أن أعمل عندك. أشتري الأشياء، أكنس الغرفة، أدفع الكرسيّ، وأساعدك في الذّهاب إلى الحمّام.

ضحك من الفكرة التي لم تكن سيّئة. لكن كم سيطلب هذا الأسود الصّغير أجرًا؟ لن يستطيع دفعَ الكثير له.

- كم عمرك؟

- تسع سنوات كاملة.

- ماذا عن المدرسة؟

- حسنًا، إليك الفكرة، سآتي في الصّباح الباكر، أقوم بكلّ الأشغال وآخذك للتّجوّل قليلًا. في منتصف النهار أذهب إلى المدرسة، وعند الخامسة أعود كي آخذك للتجوّل مرّةً أخرى، إلى غاية السّاعة السّابعة.

- ولماذا ستفعل كلّ ذلك؟ هل تريد مساعدةَ والدتك؟

- لا أمَّ لي يا دون ريموندو، ربّتْني جدّتي.

شعر بالأسف عليه أكثر ممّا لو كان الأمر متعلّقًا بأمٍّ وإخوة. عاد بخياله إلى طفولته في الشّارع، بصندوق تلميع الأحذية، حالمًا بمداخل السّينما.

- لكن ألستَ صغيرًا جدًّا على العمل؟

- عملتُ من قبل لصالح سيّدٍ آخر مثلك.

- بأيّ معنًى هو مثلي؟ تقصد له كرسيٌّ متحرّكٌ مثل هذا؟

- نعم، لكنّه لم يكن غنيًّا مثلك. كان كرسيّه المتحرّك بشعًا مثل تلك العربات المصنوعة بصناديق وعجلاتٍ خشبيّة، دَفعُها صعبٌ جدًّا، وتُصدِر ضجيجًا يجلب انتباهَ الجميع منذ الخروج إلى الشّارع. حسنًا، هل تقبل؟

كانت عينَا الصّبيّ تتوسّلان بملامح صدقٍ جميل، بينما ظلّ فمُه مفتوحًا قليلًا ينتظر الردّ.

يا للصّغير المسكين! كان في صميم طفولته. إنّه عمر اللّعب بالطائرات الورقيّة، والتسلّل سرًّا إلى المركبات ومشاكسة السّائقين ومخادعة العميان في الأسواق بوضع حجارةٍ في أوعية الصّدقة، ليسمَعهم يشكرونه ويغنّون له الأغنيات، إلى أن يكتشفوا الخديعةَ فيبدؤوا في الصّراخ.. «ابن العاهرة القذر!».

يا للطّفل المسكين، لا يستطيع الاستمتاعَ بطفولته، فوق أشجار المانغو برواية حكاياتٍ للأغصان. لا يستطيع اللّعبَ في الأراضي غير المزروعة أو السّباحة عاريًا في النّهر...

- وكي تؤدّي لي كلَّ تلك الخدمات كم تريد أجرًا؟

- أقبل ما تُريد دفعَه لي، سيّدي.

- كم كان الآخر يدفع لك؟

- خمسةً وثلاثين ألف كروزايرو.

عمد إلى حساب ميزانيّته.

- حسنًا، أعطيك خمسين ألف كروزايرو، هل ذلك يناسبك؟

أضاءت الغرفةُ بابتسامة الصّبيّ وبريقِ عينَيه، لكنّ الابتسامة تناقصت وظهر على وجهه الصّغير قلقٌ جديد.

- والآن، ماذا هناك؟

- هناك شيئان دون ريموندو، لا أدري إن كنت تقبل.

- نعم أقبل.

- هكذا دون أن تعرف؟
- نعم هكذا دون أن أعرف.
- في كلِّ الأحوال سأخبرك، أيّام السّبت أحتاج إلى المغادرة عند السّاعة الثّالثة بعد الظّهر، لديّ درسٌ في العقيدة المسيحيّة، وبعده أتلقّى المناولة.
- حسنًا إذَن، أوافق على ذلك.
- وأمّا الشّيء الثّاني فيتعلّقُ بجدّتي، إذا ظهرت هنا فأرجو أن تخبرها أنّي لا أحصل إلّا على خمسةٍ وثلاثين ألف كروزايرو، أيمكنك ذلك؟
- آه أيّها المحتال!
- لا، لكنّها تأخذ منّي المالَ كلّه.
- حسنًا، أعدك بما طلبت، وماذا تعمل جدّتك؟
- تقلي السّمك وتبيعه، وكذا أطباق الكسكس وبامونيا الذّرة. وتلفّ السّجائر أيضًا وتبيعها. تنهض الرّابعةَ صباحًا وتوقظني معها.
- حسنًا، إذَن نحن متّفقان.
- هل أبدأ العمل الآن؟
- لا.

لاحظ اندهاشَ ديتو، فابتسم.

- أقصد أنّك بدأت العمل فعلًا، وسيبدأ راتبك منذ اليوم. لكن أنا أيضًا أريد التّخطيط معك لأمرٍ مّا، هل تقبل؟

وضع يدَيه على حجره وظهرت عليه تعابير جادّة، حتّى إنّه يوحي بفكرة إمكان خلاص الإنسانيّة.

- حسنًا إليك الأمرُ، هل تحسن السّباحة؟

- منذ أن كنت صغيرًا جدًّا.

- تلعب كرةَ القدم؟

- أحبّها بجنون!

- هل تحبّ السّينما؟ أفلام الهنود ورعاة البقر؟

- نعم دون ريموندو، أحبّها.

- في أيّ يوم نحن؟

- الخميس.

- الخميس القادم تأتي هنا السّابعةَ والنّصف. والآن خُذ.

أدخل يده في الصندوق وأخرج خمسة آلاف كروزايرو.

- خُذ هذه وأخبر جدّتَك أنّك تعمل عندي. هذه هديّةٌ وليست محسوبةً مع الأجرة. وهذا الأسبوع ستفعل كلّ ما تريده. ستحكم. هل تعرف ما معنى أن تحكم؟

لم يفهم قصدَه.

- أن تحكم يعني أن تعمل مثل أمير، أي ألّا تعمل شيئًا. أن تحكم يعني أن تسبح، أن تسرق ثمارَ المانغو، تلعب كرة القدم، تطلق الطّائرات الورقيّة... كلّ هذا. لكن كُنْ حذرًا كي لا تغرق أو تتلقّى إصابات.

كانت عينا الصّبيّ تدوران. فسأله وهو غير مصدّق:

- هل أنت مصاب... هل أنت مصاب بألمٍ في الرّأس يا سيّدي؟
- يا لها من أمنيّة! لكن إذا فعلتَ كلَّ هذه الأشياء في هذا الأسبوع دون إخبار جدّتِك، فيمكنك آنذاك المجيء يومَ الخميس.

ضاعف له المبلغَ ووضعه في جيبٍ صغيرٍ من سرواله.

- والآن تعالَ إلى هنا يا ديتو. انظر جيّدًا إلى عينيَّ.

أطاع الصبيُّ الأمرَ وهو على شيءٍ من القلق.

- لا تخَفْ. لن أؤذيك. أريد منك أن تعيش أسبوعًا من السّعادة، وهذا كلّ ما في الأمر. هل تعرف لماذا أفعل ذلك؟
- لا يا سيّدي.
- لأنّي كنت طفلًا فقيرًا، مثلك تمامًا. والآن، اذهب.

خرج ببطءٍ، ولمّا فتح البابَ ظهر وجهُه الأسودُ اللّامع.

- إلى اللّقاء دون ريموندو. شكرًا جزيلًا.

أشار إليه يهدّده مازحًا:

- ليس إلى اللّقاء، بل إلى الخميس القادم أيّها الأمير الجميل.

***

وإذ حافظ الرّاهب يقطين على النّظر إلى الأشياء باعتدالٍ نسبيّ، فقد بدا أنّ أموره أخذت تتحسّن. وكان ديتو مثل طائرٍ سعيدٍ يحلم بمشاريع إذا أمكن قول ذلك. لكن ليكُنْ ما يكون، طائرًا، أميرًا، ملاكًا أو شعاعَ شمسٍ أسود، فإنّ الحقيقة الأكثر دقّةً هي أنّ حياته اكتسبت بعضَ السّعادة. لولا بعض السّمنة الّتي جعلت طبقةً تتشكّل فوق بطنه وصدره، ولولا ذلك التّعب الّذي استولى عليه وجعل

النّعاس يُثقِل عينَيْه، لكانَ يمكن القول إنّه استعاد قطعةً صغيرةً من روحه المحطَّمة.

كانت لديتو سطوةٌ مُقنعة. فهو يستطيع إجبارَه على فعل ما يريد. لديه ثقةٌ كبيرةٌ تجاه كلّ ما يرغب في الوصول إليه. وهو ينجح في ذلك عن طريق ابتسامته الواسعة اللّامعة. فيقول: «تحتاج إلى فعل هذا يا سيّدي»، والحقيقة أنّه هو مَن يريد ذلك. لقد أمسك بمقاليد حياته كأنّه رجلٌ صغيرٌ جادّ.

كان يؤدّي له خدماته بطريقةٍ رائعةٍ ويحاول توقّعَ رغباته أو جعلَه يبتسم. أمّا أحاديثه، من موقع طفلٍ عاشَ وعانى، فقد بدت ممتعةً. واحتفظ، رغم كلّ شيء، بملامح طفوليّةٍ وملائكيّة.

-اسمع دون ريموندو، عندما يأتي دون بيليساريو لحلاقة شعرك، لن أتركه يحلقه لك بهذه الطّريقة. أنت تبدو كأحد المساجين!

ففاجأه ذلك.

-لماذا يا ديتو؟

-لأنّي لا أحبّ أن أراك تحلق شعرك بتلك الطّريقة بعد الآن. لماذا تفسد شعرًا جميلًا كهذا؟ لو ترى هناك، في المزرعة حيث أعيش، السّود ينعّمون شعورَهم لتبدو جميلةً، وأنت تفعل عكس ذلك تمامًا!

ابتسم. يبدو أنّه عازم.

-أحبّ أن تكون جميلًا، لأنّي أحتاج إلى شيء.

-حسنًا، أنت من يُمْلي الأوامرَ أيّها الأمير.

-غدًا أيضًا سنقوم بجولةٍ كبيرةٍ جدًّا.

- ديتو، رجاءً لا تخترع أشياء كثيرة، وإلّا سأتعب كثيرًا.
- أعرف ذلك، لكن لو أنّك تعوّدُ نفسَك على المشي لمسافةٍ أطولَ كلَّ يوم، فستألَف الأمر، وتقهر التّعب.
- إلى أين تريد أن تأخذني؟
- إلى شارع روا نوفا. سنتوغّل في الجسر قليلًا.
- هل أنت مجنونٌ؟ إذا كنتُ لا أستطيع حتّى قطعَ الطّريق العاديّة.

فأصرّ على الأمر.

- بل تستطيع. أحتاج إلى رؤية شيءٍ هناك. وأنت يجب أن ترى النّهر في الصباح وهو مليءٌ بالمراكب والنّاس يتسابقون في زوارقهم.
- هذه المرّة لن أذهب يا ديتو. كنت دومًا تفعل ما تريد، لكنْ هذه المرّة لا.

التفّ أمامه ثمّ قرّب إليه وجهَه وقلّد إحدى عباراته:

- انظر إليَّ جيّدًا دون ريموندو، لا أريد إيذاءَك. يجب أن تذهب لأنّ الأمر في صالحك، في صالحك وصالحي، هل تفهم؟

شعر بتأثّرٍ كبيرٍ من ذلك. يا له من صبيٍّ شيطان، يُربكه ويُفقِده شخصيّتَه!

- ثمّ إنّه لا يوجد أيُّ خطر، نخرج من هنا، نسلك شارعَ دوكي دي كاشيا، نتحدّث مع شرطيّ المرور وهو يوقف السّيّارات كي نمرّ. سبق أن تحدّثت معه. هو صديقي. بعدها نذهب إلى روا نوفا، وهناك يوجد شرطيٌّ مرورٍ آخر هو صديقٌ أيضًا، يستعمل صفّارته فيتوقّف المرور من جديد. وفي العودة نفعل الشّيء نفسه.

صمتَ وهو لا يدري ما يقول. لم تمضِ ثلاثة أشهر على عمل الصّبيّ معه وها إنّه بدأ يأنس له. لم يحبّ ذلك، لأنّه سيفتقده بشدّةٍ إذا غادَره وسيكون الأمرُ رهيبًا.

- هل أنت غاضبٌ منّي دون ريموندو؟

نفى بحركةٍ من رأسه.

- إذَن، لماذا أصبحت حزينًا؟ إذا كنتَ كذلك فلنْ نذهب.

- لا يا بنيّ، لا شيء من ذلك. غدًا نذهب للتجوّل ورؤية كلّ ما تريد رؤيتَه.

- إذَن، دون ريموندو، نحن صديقان من جديد؟

ابتسم بارتياح.

- لم تنقطعْ صداقتُنا قطّ.

- لم أنتهِ بعدُ من إخبارك بما «تحتاج» إلى فعله.

يا لَلقدّيس يوحنّا! لقد تعلّم الصبيّ كلّ طرقه في الإقناع.

- إذَن؟

- والآن أحتاج إلى أن تكون بيننا محادثةُ رجلٍ لرجلٍ كما تقول أنت.

حسنًا! تلك جرأةٌ وقوّةُ قرارٍ تجعلان المكانَ يهتزّ. لكنّه أمرٌ يعجبه ولا يحتاج إلى رداء الصّبر.

- إذَن، أحضِر ذلك الكرسيَّ إلى هنا لأنّ حديث رجلٍ لرجلٍ لا يمكن أن يكون عن بعد.

أطاع الأمرَ واتّخذ له موضعًا قريبًا.

- فكّرتُ في هذا الأمر كثيرًا. قضّيت أيّامًا كثيرةً وأنا أفكّر. تحدّثت

في إحدى المرّات مع دون تالاميرو وأخبرني أنّك تريد العملَ معه في الخياطة. هل ذلك صحيح؟

- نعم، هو كذلك.

- لا تبدو لي فكرةً جيّدة. أنت لا تستطيع صعودَ درجات السلّم. وحتّى إذا انتقلت للعيش في الأعلى، فإنّك ستجد صعوبةً كبيرةً في النّزول.

توقّف عن الكلام قليلًا. ذلك غير معقول. هو يعيده إلى طفولته حين كانت له قدرةُ إدراكٍ مدهشةٌ لمشاكل الكبار. تحوّل هذا الشّيطان الصغير إلى مزيجٍ منه مع ملائكةٍ سمراء صغيرةٍ تأكل مربّى الجوّافة.

- فكّرت في أمرٍ أسهل لك. حتّى إنّي ذهبت إلى هناك للحديث في الموضوع. ومن الضروريّ أن تأتي معي، كي يعرفوك، وبعدها يمكنني الذّهاب وحدي.

- عن أيّ هراءٍ شيطانيٍّ تتحدّث يا ديتو؟ ما حكاية الـ«هناك»؟

أصبحت ملامح الصّبيّ أكثر جدّيّةً كأنّه سيلعب ورقتَه الأصعب، حتّى إنّ الرّاهب يقطين شعر بتأنيبٍ لما يجري في قلب الأسمر الصّغير.

- «هناك» تعني وكالة دون إيفيراردو. هو سيّدٌ طيّبٌ جدًّا وصديق لي. وأنا أحضر من عنده بطاقات اليانصيب لـ...

شعر بهزّةٍ في روحه، هل سمعَ جيّدًا؟ إنّه يريدِ منه بيعَ بطاقات يانصيب. مالَ إلى الوراء في فراشه وهو يشعر بطنينٍ مزعجٍ في أذنَيْه، وبدأت يداه تتجمّدان.

لكنّ ديتو واصل كلامَه ببرود. وفجأةً نهض من مكانه وذهب ليحضر كوبًا من الماء.

- تفضّل سيّدي، سيمرّ ذلك بعد قليل.

أطاع، وبدأ في ابتلاعِ جرعاتٍ كبيرةٍ للتّخفيف من مشاعر التأثّر. لو كان مخلوقًا كاملًا، كما في السّابق، لامتلأتْ عيناه بالدّموع في لحظةٍ كهذه. لكنّه استطاعَ السّيطرةَ على نفسه.

- ولِمَ كلُّ ذلك يا ديتو؟

- لأنّك تحتاج إليه، لأنّي أحتاج إليه. كلّ واحدٍ يريد أن يفعل شيئًا في الحياة. جدّتي قالت هذا. لا بدّ أن تكون الحياة عملًا. سأكون صريحًا معك، إذا أكّدتُ لك أنّني لم أعد راغبًا قطُّ في رؤيتك مسجيًّا على فراشك، لا تصنع شيئًا، وتلك أمورٌ لا تجدرُ بإنسان.

أعاد إليه الكوب. سمعه وهو يضعه فوقَ الطّاولة، ثمّ عاد فوضعه فوق الكرسيّ.

- هل أخبرك شيئًا دون ريموندو؟ أخاف أن تنفدَ نقودُك. هل تظنّ أنّي لم ألحظ اقترابَ علبةِ بسكويت «إيموريه» من الانتهاء؟ وماذا ستفعل إذا لم تحصل على نقودٍ لإعادة ملئها؟ لذلك ذهبتُ إلى «هناك». بيع بطاقات اليانصيب أفضل بكثيرٍ من البقاء جالسًا في هذه الغرفة البائسة، والاستماع إلى دون تالاميرو وآلة الخياطة طَوال الوقت، كن واثقًا من ذلك.

وقف على قدمَيْه، واقترب من السّرير.

- السّاعة الآن السّادسة، وقد يحلّ الظّلام. وما دمتُ أعلم أنّك لا تريد التّجوّل اليومَ وستبقى تجترّ محادثتَنا، فالمغادرة أفضل.

كان، بلا شكٍّ، رجلًا صغيرًا حازمًا وصادقًا.

- فكّرْ جيّدًا في تلك الأشياء، أمامك ليلةٌ كاملة لاتّخاذ قرار.

أمسك وجهَ الصّبيّ بين يدَيْه.

- خطّطتَ لكلّ شيء، أليس كذلك يا بنيّ؟ شكرًا لك. سأفكّر في الأمر.

ابتعد الفتى مبتسمًا، واختفى جسدُه وراء الباب، ولم يترك في مرمى البصر سوى وجهه.

- لا تنسَ أن تأخذ كلَّ الوقت في التّفكير، لأنّي سآتي غدًا قبل الوقت بنصف ساعةٍ لنخرج ونذهب إلى «هناك».

حسنًا! لقد كسبَ الجولة، إنّه حاسم.

- إلى الغد دون ريموندو.

ردّ عليه مقلّدًا هاملت:

Good night sweet Prince

***

بقي يتقلّب في فراشه طوالَ اللّيل، وهو يشعر بالبطّانيّات تزيد من حرارةِ جسمه لأنّ ذلك الصّيف كان لا يطاق. لكنّ السّبب الحقيقيّ لم يكن ذلك بل الصّدمة التي تلقّاها عند سماع عرض ديتو. فالاهتمام الّذي أظهره تجاهه جعله يشعر برجفة تأثّر. التّفكير في بيع البطاقات أمرٌ صادمٌ له. لكنْ كلّ واحدٍ يبيع شيئًا مّا في هذا العالم. تورغا تبيع جسدَها الجميلَ بأزهاره، وهو سيبيع وهمَ السّعادة. ليس بيعُ الأوهام للآخرين أمرًا في غاية السّوء. كلّ شيءٍ نسبيٌّ بالقياس إلى عجزه. أليس ذلك التّحفّظ المزيّف من أعراض عزّة النّفس والكبرياء في نهاية الأمر؟ سيذهب. لن يكون الأمر أسوأ من تنظيف قذارات الهنود المرضى أو الجراح المتعفّنة للكثير من الكائنات البشريّة. نعم سيذهب. ديتو كان ملاكًا. يعرف

كلّ شيءٍ حتّى موضوع النّقود الموضوعة في علبة بسكويت «إيموريه» الكبيرة.

قضى سنواتٍ طويلةً بعيدًا عن ريسيفي، كان بعيدًا جدًّا عن صغره الّذي لم يُعترَف به. ولو أنّ الأمر كذلك، فلربّما احتاج إلى الصّبر.

كان يحتاج إلى فعل شيء. والحياة، ما هي؟ ماذا تساوي الحياة؟ لا شيء، لا شيء إطلاقًا. ربّما لها شيءٌ من المعنى وحسْب، بسبب لحظات الصّبر والطّيبة، عندما كانت تلك الصّفات موجودةً في القلب.

تابعَ حلولَ الصّباح الدّافئ بارتياح. بقي ينتظر حضورَ ديتو بشيءٍ من الترقّب. جاء الصّبيّ بمظهرٍ أنيق. وكان يرتدي قميصًا بمربّعاتٍ زرقاء داخل سرواله، وجوربَيْن مشدودَيْن حمراوَيْن وحذاءً ملمّعًا جيّدًا.

وهكذا عاد الرّاهب يقطين إلى التّواصل مع النّاس. كان مندهشًا من حركة شوارع المدينة وهي تستيقظ. انقبض قلبُه قليلًا، وأحسّ برجفةِ خوفٍ من كلّ شيءٍ، لكنّه ذهب.

-من أجل هذا لم تُرد حَلْقَ شعري يا ديتو؟

-نعم، النّاس تعجبهم الوجوهُ الجميلة. البائع الآخر كان أشعث قليلًا، لذلك لم يكن يبيع كثيرًا. أمّا أنتَ فلا. أنت جميلٌ وتحسن قولَ أشياء يحبّها النّاس.

دفع الكرسيَّ المتحرّك بفخرِ رجلٍ صغيرٍ صاحبِ قرار، وبثقةِ مَن يعلم أنّه يدفع كرسيّ المعاق الأكثر وسامةً في العالم. يا له من مخلوقٍ رائع! وبالإضافة إلى ذلك الأمر، فإنّ لديه مخطّطاتٍ أخرى، سيكتشفها مع الوقت، بلا شكّ.

- ديتو، لماذا تريد منّي أن أكسب المال؟ ما زال عندي ما يكفي كي أعيش أشهرًا أخرى.

جاء من وراء الكرسيّ المتحرّك ردٌّ بصوتٍ مبتهج:

- وعندما ينتهي؟ هكذا سيكون أفضل، علاوةً على ذلك يا دون ريموندو فقد صارَ للحياة وجهُ شيطانٍ لعين. لن تستطيع رفعَ أجري، أليس كذلك؟ إذَن! هكذا أستطيع أن أبقى معك عندما لا أذهب إلى المدرسة، وأُجبِر النّاسَ على الشّراء، هم دائمًا يعطونني الباقي.

- في الواقع أنت تاجرٌ عفريت. لكنّي أرغب في رؤية صِدْقِك وقدرتك على العيش. ستكون رجلًا جيّدًا جدًّا يا عزيزي الأمير.

لم يكن يراه. لكنّه يعلم أنّ وجهه يشعّ سعادةً عندما يعامله بهذه الطّريقة.

- لماذا يهمّك كسبُ المزيد من المال يا ديتو؟

- الجميع يهمُّهم ذلك. ثمّ إنّ جدّتي تُمضِي حياتَها تقتطع المالَ من جيبي. لا يمكنها رؤيةُ شيءٍ آخر، وسأتلقّى أوّلَ مناولةٍ خلال شهر. الجميع سيحضرون ألبسةً بيضاء جديدة، يشترون أحزمةً وأشرطةً مذهّبةً و...

- و أنت؟

- دون تالاميرو سيخيط لي بعض الثّياب بسعرٍ رخيصٍ وسيمكّنني من دفع ثمنها بالتّقسيط.

وفجأةً توقّف.

- ماذا هناك؟

- كنت أفكّر، يا دون ريموندو، إِذَا ذهبتُ بثياب المناولة الأولى، أَيلتقِطُ لي المصوّر صورة؟

- و لمَ لا؟

- لأنّي صبيٌّ أسمر فقير.

- أنا متأكّد أنّه سيلتقط لك صورة. بل إنّي سأذهب معك، لأعرف لماذا قد يرفض ذلك! اللّعنة، في البرازيل لا توجد العنصريّة!

- أنت أوّل شخصٍ سأعطيه صورتي. هل تعرف أنّه لم يسبق لي الظّهور في صورةٍ يا دون ريموندو؟

- إذَن، يمكنك أن تكون واثقًا من تحقيق ذلك الآن، وسأتكفّل بدفعِ ثمنها.

عادا إلى السّير. وصارتْ عجلاتُ الكرسيّ تنزلق بيُسرٍ وسهولةٍ أكبر، لأنّ الأرصفةَ «هناك» كانت جيّدةً ومُعتنًى بها على نحوٍ أفضل.

***

كان يحتاج إلى معرفة نوعيّة الزّبائن الّذين يشترون. لذلك بقي بعضَ الوقت يتعلّم.

كان عليه أيضًا أن يتعلّم توجيهَ الشّكر. وذلك أمرٌ لا يقلّ أهمّيّة، كما يحدث في تلك المسرحيّة حيث تصبح عبارة «سيجازيك الربّ» ضروريّةً للجميع.

- ألا تريدين واحدةً يا آنسة؟ خذي الدّيكَ وحسْب، قد يكون ديكًا ذهبيًّا يعلن بدايةَ سعادتك.

صدّقت الفتاةُ طيبةَ عينَيْه. اقتربت واشترت بطاقة، فسلّمها إيّاها وشكرها بابتسامة.

- حتّى إن لم ينلني من ذلك شيءٌ يا آنسة، أتمنّى من كلّ قلبي أن يكون الحظّ بجانبك.

يمدّ ديتو يدَه ويبتسم بطريقةٍ يعرفها جيّدًا.

- تفضّل واشترِ يا سيّدي. فقط لمساعدة...

يشتري الرّجل ويترك له الفكّة.

كانت تمرّ ساعاتٌ من الرّكود عندما تكون حركة الشّوارع في أدنى مستوياتها. يبقى قربَ الجسر فوق نهر كابيباريبي، يشاهد الحياة وهي تمرّ في الأسفل. تشدّ انتباهه بالخصوص الزّوارق ومجدّفو النّادي البحريّ. الرّياح الّتي تهبّ من جهة النّهر تجعله يغفو. كان يشعر بالسّعادة عندما يطلب منه أحدٌ رؤيةَ قائمة الجوائز. فيبتسم شاكرًا السّائلَ، وقد ينتهي ذلك بعملِيّة شراء.

وحدَها رؤية ديتو يعود من المدرسة تُخفّف إحساسَه بالوحدة. يمرّ أناسٌ كثيرون. لكنّه يبقى وحيدًا، سجينًا في كرسيّه المتحرّك. وكأنّه ليس أيضًا من الـ«نّاس» وجزءًا من باقي العالم. لكن عندما يصل ديتو تصبح الأجواء أشبه باحتفال.

- هل بعتَ الكثير؟

- أظنّ أنّي غفوتُ أكثر ممّا بعت، لكنّ الأمر كان جيّدًا.

- هلمّوا هلمّوا يا سادة! توجد «كوبرا»، «تمساح» و«فيل». يمكن أن يكونَ يوم حظّكم هو اليوم، هنا وفي يدي. هيّا سيّدتي، ألا تريدين؟ شكرًا. وأنت سيّدي، أيّها النّبيل المميّز، لا شيء اليوم؟

شكرًا. تريد الجدّة سحب الجائزة الكبرى ولا تدري كيف تفعل ذلك. هيّا أيّتها الجدّة، الحظّ مخبّأٌ هنا في خرطوم «الفيل». ساعدي الفقراء.

يقطع البطاقة ويقدّم الشّكر الجزيل. يدير وجهَه باحثًا عن أشخاصٍ يشترون ويرفع صوتَه المنغَّم كشعاع شمسٍ أسود.

-من فضلكم ساعدوا المشلول، شكرًا سيّدتي...

***

أحيانًا، يظلّ، في وحدته، يراقب البشرَ وهم يمشون. ما هيَ مخاوف كلّ هؤلاء النّاس؟ فيشعر بالإحباط وهو يتذكّر تجربةَ المسيح مع النّاس، المسيح البعيد جدًّا. لم يصل المسيح إلى الجماهير بتاتًا، رغم كلّ ما بلغه دينُه من انتشار. كان المسيح قضيّةَ ثقافة، ثقافة نخبة. الخلاص عند هؤلاء النّاس يتمثّل في ركوب تراموايٍ غير مزدحم، أو حافلةٍ فيها مكان للجلوس، أو عرقٍ أقلّ في ذلك الحرّ. قلق هؤلاء النّاس ينبع من معرفة ما إذا كان المال سيكفيهم حتّى نهاية الشّهر. قضيّتهم هي الفاصوليا، الأرزّ، الدّقيق، الخضروات... اللّحم. أيّ وقتٍ يبقى لهم كي يفكّروا في خلاص الرّوح أو في تجلّي المسيح؟ هم يتعلّمون الأشياء، وبالتّوافق مع قَدر ذكائهم المحدود يتقبّلون الإله ويؤمنون بالمسيح. يتّبعون تعاليم الكنيسة، يذهبون إلى القدّاس ويحتفلون بالفصح مرّةً في السّنة. وماذا عن الباقي؟ ماذا عن السّماء وجهنّم والمطهر؟ أيّ بُعدٍ لكلّ ذلك عندهم؟ لعلّ فكرة الجحيم تعني لهم نارًا حارقةً كأنّها موقدٌ كبير.

والسّماء؟ كيف يمكن تخيّلها؟ مثل شاشةٍ واسعةٍ في قاعة السّينما يوم الأحد. وربّما يكون المطهر مثل استمرار الحياة، بكلّ ما تهبُنا من عذابات،

وما تصرّ على أن تحرمَنا منه، منْ أسبابِ الرّاحة... حافلة مكتظّة، ملابس تنتظر الغسيل والكيّ، طبيب أسنانٍ لا يمكن دفع أجرته، قطار يغصّ بركّابه، يجيء متأخّرًا عن موعده...

والمسيح؟ لا يكادُ أمرُه يشغلُ غير النّخبة، أولئك الّذين يملكون الوقت والرّاحة للتّفكير، والتأمّل وحقّ الانتفاع من وسائل راحتهم...

من هناك ذهب إلى نقطةٍ بعيدة. كانت قضيّة المسيح بعيدةً عن الجماهير، حتّى إنّ الكنيسة غيّرت الأشياء وانتهكت التّقاليد، وسهّلت كلّ شيء، وصار القدّاس في أيّ ساعة. أمّا في خصوص المناولة فلا صوم بعد منتصف اللّيل. الآن يستطيعون الأكل ساعةً قبل ذلك... كان على الكنيسة أن تتقرّب إلى الشّعب إذا رغبت في ألّا يبتعد عنها أكثر. لكنْ هل المشكل يخصّ الكاثوليكيّين وحدَهم؟ ماذا عن البوذيّين؟ والكونفوشيوسيّين؟ والعالم المعقّد والواسع الّذي يحوي الأديانَ المتعدّدة؟ كلّهم عانوا من نتائج تباعد الأعراق. الحقيقة هي أنّ الإنسان، على اختلاف الإيمان أو الاعتقاد، كان وحيدًا، وحيدًا مثل الرّاهب يقطين، مُلقًى وسط الحشود، لكنّه يحمل روحَه، تلك الرّوح السجينة في جسده، روحه وحدَها. لا توجد أيّ ديانةٍ تستطيع إخراجَ الإنسان من حتميّة القدّيس أغسطين، مفهوم الوحدة الكلّيّة لمن يولد ويعيش...

-أستطيع أن أُقسمَ أنّي أعرفك.

ابتسم. كان الرّجل نصفَ عجوز، سمينًا وأصلع لكنّه يذكره. يستطيع حتّى تذكّر المكان والسّنة الّتي عرفَه فيها. حدث ذلك في فندق بشارع هوسبيسيو. لا يستطيع تحديد العنوان بدقّةٍ لكنّهما كانا جارَيْن ستّةَ أشهرٍ على الأقلّ.

- يبدو الأمر صعبًا، دكتور.

- كيف عرفت أنّني دكتور؟

- بسبب منهج سلوكك.

- نعم أنا طبيب.

مسح على لحيتِه وهو يفكّر في شيء.

- لكن كم تشبه... بشكلٍ طبيعيّ، وربّما أكبر سنًّا. نطق اسمه ببطءٍ وتأمّل وجهَ الرّاهب يقطين.

لم يتحرّك أيُّ مفصلٍ من مفاصله بسبب الارتباك. وعلى العكس من ذلك، ابتسم.

- اسمي ريموندو، ريموندو أموريم دا سيلفا، وأنا من شمال غوياس. لم أكمل دراستي الابتدائيّة أيّها الطّبيب.

- غريب! لم أرَ شخصًا أشبه به منك.

- ولا تعرف ماذا حدث له؟

- ترك دراستَه وجاء إلى الجنوب. بعد ذلك لم تصلني أيُّ أخبارٍ عنه. الحياة تمرُّ بسرعةٍ كبيرةٍ جدًّا حتّى إنّ الواحد منّا يقضيها في خسارة النّاس.

- تلك فعلًا حقيقةٌ أيّها الطّبيب، بلا شكّ!

ابتسم بمودّة أكبر، وتكلّم بلا تلعثم:

- دكتور، ألا تريد شراء بطاقة؟ لمساعدة المريض وحسْب. اشترِ حتّى لو كنت تفكّر في الصّديق الّذي خسرتَه.

- نعم سأشتري، بمَ تنصحني؟

- «التّمساح»، إنّه حيوانٌ جميلٌ جدًّا. هو في موطني ينظّف كلَّ الأنهار من جميع الأمراض، ملتهمًا كلّ ما يؤذي الإنسان. التّمساح هو الطّبيب الحقيقيّ للنّهر.

أعجبته فلسفةُ البائع. اشترى من عنده وابتعد من هناك مُبتسمًا. بقي الرّاهب يقطين بعينَيْن تائهتَيْن تسبحان في الماضي، لا يرى سوى ذلك الرّجل، ذلك الرّجل الّذي مشى مختفيًا وسط الحشود.

كانت تلك أوّل جائزةٍ كبيرةٍ يبيعها. حصل ديتو على ثوبه الجديد، الحزام الأبيض بالشّريط المذهّب والشّمعة. لم يبقَ سوى التقاط الصّورة، لكنّ يوم المناولة الأولى لا يزال بعيدًا.

***

- دون ريموندو، هل الأمر صحيح؟

- أيّ أمرٍ أيّها الأمير؟

كانًا في طريق العودة إلى المنزل وقد هبط اللّيل بكلّ ثقله.

- ما يقوله الكاهن عن المناولة الأولى؟

- ما الّذي قاله فأدهشَك هكذا؟

- قال إنّه اليوم الأجمل في حياة النّاس، وإنّ سيّدنا الربّ يسوع المسيح إذا دخلَ في قلب أحدِنا تلقَّى سعادةً كبيرةً لا يمكن لأحدٍ وصفها.

انغمس في الماضي قبل أن يُجيبَه. العمّة راكيل أيضًا أخبرته الشّيء نفسَه. القَسّ أيضًا حكى بالطّريقة نفسها. هي ذكرى تؤلمه، تؤلمه بالخصوص في الشّيء الجميل الّذي كان يؤمن به في تلكَ الفترة. ارتفع صوت الأخ الرّاهب جوستينو... «في ذلك الوقت قال يسوع لتلاميذه»...

كان من الضّروريّ ألّا يُنزَع الحلمُ من أحد، ولاسيّما الأسمرُ الصغير، لأنه ليس الآن سوى صانع سعادة، بائعِ أحلامٍ في شكل بطاقات يانصيب.

- نعم يا بنيّ، ذلك صحيح. «هو اليوم الأجمل في حياتنا». يسعد فيه القلبُ حتّى إنّنا نشعر بأنّه سيغادر الصّدرَ من الفرح.

- سيدخل في قلبي أنا أيضًا؟

- لِمَ لا؟ يسوع لا يفرّق بين الألوان، لسببٍ رئيسيّ، هو أنّ جميع القلوب متساويةٌ. أنت تملك قلبًا مليئًا بالطّيبة والجمال حتّى إنّ يسوع سيشعر براحةٍ كبيرةٍ داخلَه. وهل تعرف لماذا هو اليوم الأجمل في حياتنا يا ديتو؟

- لا أعرف بالتّحديد يا سيّدي.

- لأنّه اللّحظة المحدّدة الّتي يبدأ فيها الطّفلُ بالتّحوّل إلى رجل. يبدأ بتقديم وعدٍ داخل قلبه، عند تلقّي زيارة المسيح الأولى، وهي أن يتّبع طريقَ الخير والطّيبة الّذي اكتشفه.

كان الصّبيّ يستمع في صمتٍ وهو يدفع الكرسيّ.

- أنت لا تحتاج إلى إنجاز ذلك الوعد أيّها الأمير، لأنّك مصنوعٌ من الخير. لا تحتاج إلّا إلى أن تؤكّد في تلك اللّحظة رغبتَك في الاستمرار على ما كنته دومًا. تلك هي السّعادة الكبرى الّتي قد يحصل عليها الإنسان.

- دون ريموندو، أنت تتكلّم بطريقةٍ جميلةٍ جدًّا حتّى إنّ الواحد ينتهي به الأمر مؤمنًا بك أنتَ أكثر من أيّ شيءٍ آخر في العالم. عندما تتكلّم هكذا فأنت تمنحني رغبةً مجنونةً في البكاء، هل تعلم ذلك؟

اقتربتْ من الكرسيّ المتحرّك. شعرتْ لحظةً بالحزن من أجل المعاق الّذي كان ينام ورأسُه مائلٌ إلى صدره. البطاقات الملوّنة سقطت من يدَيْه وبقيت تهتزّ في العلبة الّتي فوق ركبتَيْه. كيف استطاع النّوم وسطَ الشّارع والنّاس يمرّون بجانبه، وضجيجُ السّيّارات والحافلات؟ لحسن الحظّ أنّ النّاس كانوا طيّبين ولم يزعجوه.

- من يَنَمْ فوق الجسر لا يكسب النّقودَ.

رفع وجهه بسرعةٍ فرأى تورغا تبتسم له أجملَ ابتسامةٍ مسائيّة.

- غلبني النّعاس...

- لا تحتاج إلى أن تخبرني بذلك!

ساعدته في جمع البطاقات وتركته يمسكها من جديد.

- في الشّارع، في هذا الوقت، يا تورغا؟

- السّاعة الرّابعة تقريبًا. ألم تلاحظ أيَّ شيءٍ جديد؟

- آه! ثوب الورود الصّفراء فوق خلفيّةٍ بيضاء.

التفّت وكلّها غرورٌ وهي تهزّ حقيبتها.

- كيف تجدني؟

- ستجعلين باقي الورود تشعر بالغيرة.

ارتسمت على شفتَيها ابتسامةٌ جميلةٌ جدًّا وأضاء وجهُها من الابتهاج.

- لم أستطع الانتظار حتّى آخذه إلى المنزل، صنعته في ورشة الخياطة نفسها. والفستان الّذي كنت أرتديه جعلتُه في الحقيبة. قلت لنفسي إنّ أوّل شخصٍ يجب أن يراه هو تميمةُ حظّي، وها أنا ذي.

- الأمر يستحقّ. يبدو لائقًا بك على نحوٍ رائع!

ثمّ لاحظت أنّه لم يبع أيَّ شيءٍ تقريبًا.

- ما هذا يا قدّيسي؟ أنت لم تبع شيئًا تقريبًا وقد تأخّر الوقت.

- لقد نمتُ يا تورغا. أصبحت أتعب كثيرًا في الفترة الأخيرة. الحرارة، والهواء المنعشُ والضّجيج أمورٌ أصبحت تدوّخني فينتهي بي الأمر نائمًا. الحقيقة يا تورغا أنّي بدأت أنطفئ.

- تلك حماقات! لا أريد سماع هذه الأشياء.

في الحقيقة، كانت تورغا تتألّم لرؤية رجلٍ وسيم، رقيق القلب، سجينًا في كرسيٍّ متحرّك، يبيع قطعًا من أوراق الحظّ كأنّه يطلب صدقةً. يا لَها من حياةٍ لعينة!

- أين ذهبَ الأمير الصّغير؟

- سيأتي بعد قليل، خلال نصف ساعة تقريبًا. لولا الزّبائن الّذين يجدهم في الحانات والمقاهي والمتاجر لما باع شيئًا هذا المساء.

خطرت لتورغا فكرةٌ:

- أنت تميمة حظّي. لنرَ إن كنت أستطيع إعطاءك مثلها. أمسك حقيبتي. سنرَى.

ابتعدت مسافةَ مترَيْن عن الرّصيف، وحرّكت جسدها. رفعت يدَيها وأخذتْ تصفّقُ ورأسُها إلى أعلى بجرأةٍ، حتّى إنّ الأساور المذهّبة كانت تتأرجحُ مثل رقّاصات ساعةٍ حائطيّة. فتحت فمَها بالكلام وخرج صوتٌ دافئٌ ناعمٌ يدعو إلى الاقتراب.

- اقتربوا يا أصدقاء، تورغا ستغنّي. اقتربوا، تورغا سترقص.

رفعت ورودَ فستانها بيدَيْها. وأظهرت فخذَيْها وهي تصفّق بكفّها على ركبتها. وعرف الشّارع أجواء مجنونة!

بدأ النّاس يتجمّعون. حتّى شرطيّ المرور جاء ليرى ما يحدث، وانتهى به الأمر متفرّجًا مع المتفرّجين.

كانت رقصة الماراكاتو تهزّ المكان، هي مِن زمنٍ مضى لكنّها دومًا جميلة، مع حركات الجسد وهي تضبط الإيقاع.

هي عصًا

هي حجر

هي حصًى صغيرة

تدور فوق الجميع

فتاة باهيا

هكذا كانت تكرّر والنّاس كالمجانين من الموسيقى، ولاسيّما موسيقى كرنفالهم القديم، فراحوا يغنّون جماعيًّا.

لم يتمكّن ريموندو من مشاهدة المرأة الرّائعة التي تغنّي، لأنّ أناسًا كثيرينَ تجمّعوا وغطّوا مجالَ رؤيته. لكنّ صوتها الواثق استمرّ في الغناء:

فتاة باهيا ساحرة

كلّما خَطَتْ في مكان

صار الغبار كالدّخان

وبقيت الأرض ناعمةً

هي عصًا

هي حجر

بدأت الحافلات تمرّ بسرعةٍ أقلّ والركّابُ متلهّفون إلى معرفة هويّة الفتاة الّتي تغنّي بذلك الجمال. وقد أخذ بعضهم يضرب أبوابَ المحلّات

ونوافذَها. كانت فوضى مجنونة. عندما انتهت من الغناء انفجرت الأجواء بالتّصفيق. بعض الأصوات طالبت بـ«مرّة أخرى!»، وصرخت بكلمات تمدحُ جمالَ تورغا. وعندئذٍ فتحت الطّريق باتّجاه كرسيّ ريموندو.

-كلّ هذا من أجله.

عادت إلى وضعها السّابق ويدَاها على ركبَتيْها، وسألتْ بنبرة قطّةٍ طيّبة:

-أين ذهب رجالُ هذه الأرض؟ أين قلوبُ رجال وطني وطيبتهم؟ أجبني أيّها الشّاب. أخبرني أنت أيّها السيّد النّبيل. تكلّم أيّها السّيّد الموقَّر. أين الرّجال؟ نسي الرّجال فعلَ الخير. لِنرَ...

ذهبتْ إلى الكرسيّ المتحرّك وأخذتْ بطاقات اليانصيب.

-هل ستتركون هذا المعاق المسكينَ يغادر بكلّ معاناته دون أن تشتروا ولو بطاقةً واحدة؟

وظهرت على وجهها مشاعر تأثُّر لم يرَها ريموندو من قبل. وامتلأت عيناها بالدّموع وبحّ صوتُها.

-هل ستتركون المسكين يغادر دون أن يبيع شيئًا؟

الآن أصبحت الدّموعُ تنزلق ساخنةً على وجهها الحزين.

-أنت أيّها الشّابّ.

اشترى الشّابّ بطاقة. وهنا ظهر مشكلٌ آخر... إنّه الفكّة، رفعت علبةَ السّجائر وفتحتْها لتظهرها.

-من فضلكم، كونوا مُنصفين. هو لم يكسب شيئًا إلى حدّ الآن.

تأثّرت قلوب النّاس، على الأقلّ في تلك اللّحظة، لثلاثة أشياء: شخص معاق، والدّموع، والمرأة الّتي تحرّكهم.

- لا أحد يريد الباقي يا جميلتي!

- أنت...

- السّيّد...

- وأنتِ سيّدتي؟

راحت توزّع البطاقات وتملأ العلبة. لم يعرف ريموندو ما يفكّر فيه أو ما يقول. كان متأكّدًا أنّها لا تنتظر منه حتّى الشّكر. أنهت بيعَ كلّ البطاقات. نظرَ بتأثّرٍ إلى النّاس وهو يمسح الدّموعَ عن وجهه. وعندئذٍ ظهرت الابتسامة الجميلة علامةً على سعادته.

فتكلّم بهدوء:

- شكرًا يا سادة.

ثمّ نادى صبيًّا، انحنى وقبّلَ خدَّه.

- إذْ أقبّلُ هذَا الصبيَّ أقبّلكم جميعًا. شكرًا لكم.

وضعتْ علبةَ السّجائر فوقَ ركبتَيْ ريموندو وأخذت حقيبتَها. فشكرَها بنظراتٍ من عينَيْه. استدارت تورغا، وفتحت لها مسلكًا بين النّاس وبدأت تمشي بلامبالاة، كأنّ شيئًا لم يكن. والشّيء الأغرب هو الاحترام الّذي أظهرَه الجميع تجاهها. فقد تركوها تذهب دون إطلاق أيّ مزحةٍ أو دعوتِها بصفةٍ خبيثة.

بدأ النّاس يتفرّقون واسترجع الشّارعُ حركتَه العاديّة. بعضهم واصلوا يومَهم العاديّ. واختفت الوجوهُ من النّوافذ والأجسادُ من أمام الأبواب. وعاد شرطيّ المرور إلى مكانه.

لم يبقَ بجانب ريموندو سوى رجلَيْن.

- يا له من أمرٍ جميل!

- السّمراء أم ما فعلتْه؟

- الاثنان معًا.

ابتسمَا لريموندو.

- أنت فعلًا محظوظٌ يا ابن العمّ!

لكنّه عاد واعتذر عندما وقعت عينُه على الكرسيّ المتحرّك.

- سامحني يا أخي. لم أقل ذلك بنيّةٍ سيّئة.

واصل الآخرُ التّعبير عن اندهاشَه:

- يا لها من سمراء! يا إلهي! هل تعرف عنوانَها؟

كذب ريموندو إذ قال «لا» بإشارةٍ من رأسِه.

- يا إله السّماء! لا تعرف حتّى أين تعيش وردةٌ مثلها؟

- تلك الوردة...

سكت ريموندو بعضَ الوقت من التأثّر.

- تلك الوردةُ... نعم أعرف أين... هي تعيش في حديقة الرّبّ.

ومن جديدٍ باعَ الجائزةَ الكبيرة في ذلك اليوم. ومن جديدٍ حصل على هديّةٍ على سبيل المكافأة، كما حدث في المرّة السّابقة. وحصلت تورغا على ثوبٍ جميلٍ، وديتو على حذاءٍ جديد.

***

انتشر بين النّاس أنّ الرّجل المشلولَ فوق الجسر يبيع دومًا بطاقةَ الجائزة الكبيرة. قد لا يُصدَّق الأمرُ. لكنّ ريموندو نجح بالفعل خلال شهرَيْن في بيع جائزةٍ كبيرةٍ ثالثة، كما باع جائزتَين من الدّرجة الثّانية.

لم يعد ينقصه الزّبائن لشراء بطاقاته. لكنّ كلّ ذلك التّغيير، وكلّ ذاك التجوّل في الشّوارع وتقاطعات الإشارات جعلتْ تعبَه يزداد. في اللّيل، وبعد السّهر الكثير، يذهب لدفن ساعاته في نومٍ واحد. ذلك يساعده على النّسيان. كانت تلك هي الفائدة الكبيرة للنّوم. ربّما يتعوّد الإنسان على فكرة أنّ النّوم تدريبٌ على الموت، أو أنّ الموت قد يكون مجرّدَ نومٍ طويل. وتلك فكرةٌ قد تجعل الإنسانَ يُجَنُّ من الخوف.

شعر في أعماقه أنّ قطعةَ السّلام تلك لا يمكن أن تستمرّ طويلًا. وكان قلبه يرسل إليه إشارات تنبيهٍ بطيئة:

- انتبه يا ريموندو، لا تنسَ أنّ الحياة هي الألم...

الخوف يجلب معه المحنة، وقد جاءت أَبْكَرَ ممّا توقّع. في إحدى المرّات صباحًا، دخل ديتو إلى غرفته شبهَ مُحبَط.

- ألستَ متأخّرًا قليلًا يا أميري الصّغير؟

سكت، وسكتَ، ثمّ قال:

- كلّ ما في الأمر أنّي أحضرت لك هذا. لقد تعبت جدّتي كثيرًا في إعداده. ثمّ فتح الكيسَ فخرجت رائحةُ الكعك الطيّبة.

- كلّ هذا من أجلي يا ديتو؟ سنحتفظ به لنأكله معًا في منتصف النّهار مع طعام دونيا ماريفالدا.

جلس ديتو نصفَ مُستلقٍ، ينظر وكأنّه لا يريد شيئًا. لم يُظهِر حتّى الرّغبة في الكلام.

- ما الأمر؟ ثمّة أمرٌ سيّئٌ لا تريد أن تخبرني به.

نهض الصّبيّ وذهب لمشاهدة صورة المناولة الأولى، تلك الّتي علّقها ريموندو على الحائط.

- هل تعجبك؟

- نعم سيّدي. هي تعجبني. لكنّي أجدُني بالغَ السّواد في الصّورة، وهذا كلّ شيء. ألا يبدو لكَ ذلك؟

شعر بالشّفقة عليه، لأنّ كلَّ إنسانٍ يتوقّع أن يرى نفسَه أجملَ في صورته الّتي لا تملك قدرةً على الإيهام مثل المرآة.

- نعم، قليلًا، ذلك لأنّك أكثر جمالًا. لكنّها تبقى صورةً أنيقةً جدًّا.

عاد ديتو إلى الجلوس على الكرسيّ، وعليه ملامح إحباطٍ. تأمّله ريموندو بقلقٍ. ولمّا رآه يؤدّي حركات مَن يرغب في البكاء، خاطبه بجرعة حنانٍ أكبر:

- آي آي آي ماذا يحدث لك؟

بقي الصّبيّ واجمًا.

- ألن تذهب إلى دون إيفيراردو لتحضر البطاقات؟

فتح يدَيْه الفارغتَيْن.

- من الآن فصاعدًا لا مزيدَ من البطاقات.

بدا وجهُه مُنقبضًا من المعاناة.

- المرضى الآخرون ذهبوا إلى دون إيفيراردو واشتكوا إليه زاعِمين أنّك تسبّب لهم ضررًا، وأنّ زبائنهم ما عادوا يشترون منهم، وأنّك لا تحتاج إلى بيع البطاقات لتعيش.

بقي يفكّر، ولم ينزعج كثيرًا، كما توقّع الصّبيّ. كانت تلك التّجربة مساعدةً جيّدة، وجمع قدرًا معقولًا من المال يساعدُه في مصاريفه، لكن...

- لأنّي بعت بطاقةَ الجائزة الكبيرة، أليس كذلك؟

- نعم سيّدي، بسبب ذلك.

هكذا هم البشر، صُنعوا دومًا من العجينة نفسها. لكنْ لا تقلق. سنجد شيئًا نفعله.

- والآن ماذا ستفعل سيّدي؟

أجابه على الفور:

- سأصعد درجات السلّم للعمل مع دون تالاميرو.

- أنا لا أحبّ ذلك، إنّه أمرٌ شاقٌّ جدًّا عليك.

- أيّها الأمير، ما زلت صغيرًا جدًّا كي تشغل نفسك بقذارة المال. سأصعد الدّرجَ يومَ تكون لي الشّجاعة. أعمل هناك، أوفّر المالَ وقد أُرسلُ في نهاية العام بعضَه حتّى يتمكّن هنودي من شراء بعض الأشياء.

- وأنا؟

- ستظلّ تعمل عندي كما كنّا قبل بيع البطاقات. سأدفع لك ستّين ألف كروزايرو. هي ليست كثيرةً، لكنّها تبقى أجرةً تحتاج إليها. لا شيء يدعو إلى الإحباط أيّها الفتى الصّغير. في هذه الأشهر، بفضل المكافآت ونقود العمل، كسبت حوالي ثلاثمائة ألف كروزايرو. وهي تكفي لننتظر بعض الوقت، ماذا تريد أكثر من هذا؟

- كان كلُّ شيءٍ يسير على ما يرام لولا أولئك القذرون...

- لا تتكلّم عن الآخرين هكذا. مؤكّدٌ أنّ لديهم متاعب وأفرادَ عائلةٍ أكثر منّي. ليس الأمر سيّئًا، ثمّ إنّي أصبحت أشعر بالملل والتّعب قليلًا من التجوّل طَوال اليوم في الشّوارع.

- وهناك في الأعلى عند دون تالاميرو، لعلّك تظنّ أنّك لن تتعب؟
- لا أظنّ ذلك. الشّيء الأصعب هو صعود الدّرجات.
- هل أخبرك شيئًا دون ريموندو؟ أنتَ الصّديق الوحيد الّذي يحدّثني رجلًا لرجل. لا أظنّك ستصعد إلى هناك في يومٍ من الأيّام. لكن مهما يكن سأعمل عندك كما كنتُ حتّى إن لم تستطع دفعَ أجرتي.

داعبَ شعرَ الأسودِ الصّغيرِ المتمرّد.

- لا تقلق أبدًا. سيكون هناك حلٌّ لجميع الأمور. الشّيء الوحيد الذي أريدُه هو أن نبقى دائمًا هكذا، صديقَيْن جيّدَيْن.

***

لكنّ الشّياطين إذا تملّكها الهوسُ بشخصٍ مّا وقرّرتْ صيدَه، لا تتوقّف عن الضّرب في الأماكن الأكثر إيلامًا. ولا تشعر بالرضا إلّا عندما ترى أنّ المسكين لم يعد يملك القدرة على المقاومة. عندئذٍ يَخِزُه السيّد الموت بطرف منجله ويقول له:

- لقد منح كلّ ما يستطيع منحه. إنّه ميّتٌ أكثر من حجرٍ وجافٌّ أكثر من خشب.

***

دخل ديتو بشكلٍ مفاجئ. كان وجهه هذه المرّةَ مليئًا بالدّموع وجسده يهتزّ من أثر الشّهقات.

ذلك المنظر أصاب الرّاهب يقطين بالكثير من الجزع. ارتمى الصبيّ الباكي بين ذراعَيه، ودون أن يعطيه الوقتَ ليطرح أيَّ سؤالٍ راح يسرد المأساة:

- دون ريموندو أنا ذاهب، ذاهبٌ إلى مكانٍ بعيدٍ جدًّا، ستأخذني جدّتي.

بقي صامتًا، لا يدري ما يقول، يداعبُ رأسَ المخلوق الصّغير ليهدأ. وعندما هدأ خاطبَه بـأناة:

- أيّ قصّةٍ هذه أيّها الأمير؟

بين الدّموع والشّهقات راح يحكي له ما حدث بالتّقريب:

- جدّتي قرّرت بيعَ المنزل لدون ماني دو إنسوبادو. قالت إنّها أصبحت عجوزًا وتريد الذّهابَ لتعيش آخر أيّامها مع شقيقها في ماسيبو.

- ماسيبو قريبةٌ من هنا، ظننتُ أنّك ذاهبٌ إلى ريو أو ساو باولو.

- لكنّي أعرف أنّي لن أعود أبدًا...

- بل ستعود. يومًا مّا ستأتي لزيارتي.

قال ذلك وهو يشعر أنّ كلماته بلا طعمٍ وتفتقد إلى الإقناع. فنصف قلبه ونصف حنانه عند ذلك الصبيّ، ملاكِه الأسمر.

- متى الرّحيلُ؟

- غدًا في الصّباح الباكر، في الحافلة. لقد حجزت جدّتي التّذاكر.

- بهذه السّرعة؟

- استعدّتْ جدّتي لكلّ شيءٍ خِفية. ليس للأولاد حقٌّ في التّدخّل.

رأى نفسَه في طفولته، عندما لم يكن له هو أيضًا حقٌّ في التدخّل، وكان كلّ شيءٍ ممنوعًا عليه.

بدأ ديتو يبكي من جديد.

- جئت لأقول لك وداعًا.

لم يعرف ما يفعل. رفع إحدى يدَيْه اللّتين كانتَا تعانقان الصبيَّ، وأخذ علبة بسكويت «إيموريه». نزع غطاءها بأظافره وأدخل أصابعَه بين الأوراق الماليّة. وأخذَ كمّيّةً كبيرةً دون أن يعدّها. ابتعد ديتو قليلًا عن الرّاهب يقطين وبقي ينظر إلى وجهه، بينما كان وجهه هو يبدو أكثر لمعانًا من أيّ وقتٍ مضى بسبب البكاء.

- والآن دون ريموندو ماذا سيحدث لك؟

- أتوقّع أن يظهر لي ملاكٌ آخر مثلك. وإن كان من الصّعب جدًّا أن يوجد أميرٌ آخر مثل أميري.

- توقّف عن الكلام هكذا.

نزلت دموعٌ أخرى على وجهه.

- يا لَدون ريموندو المسكين، وحيدٌ جدًّا، طيّبٌ جدًّا وغبيٌّ جدًّا في آنٍ واحدٍ، حتّى إنّك لا تحسن فعلَ شيء بمفردك، ولن أكون هنا لمساعدتك!

- ستنسى يا بنيّ، أنت صغيرٌ جدًّا، وهذه الأشياء تمرّ بسرعة. ستعرف أناسًا جددًا، أصدقاء جددًا، شواطئ جديدة، ستكون رحلتك جميلةً جدًّا. سيمرّ الوقت وتكبر بسرعة. وبسرعة أيضًا، ستصبح رجلًا...

كان يتكلّم بإصرارٍ محاولًا دعمَ كلّ ما يقول وإقناعَ نفسه بصحّة كلامه.

- خُذ هذا. مَن يسافرْ يحتَجْ دومًا إلى هذا. أخذ حفنة الأوراق الماليّة ووضعها في جيب سروال الصبيّ. فشكره ديتو، ثمّ نظر في عينَي ريموندو وهو يبتلع دموعَه.

- هل تحبّني كثيرًا سيّدي؟

- أحبّك مثل صديق، مثل ابنٍ، مثل ملاكٍ طيّب. ماذا يمكنني أن أقول أكثر؟

- إذَن، لماذا أنت هكذا؟

- هكذا كيف؟

- أنا أتعذّب كثيرًا، حتّى إنّ عينيَّ تؤلمانني من شدّة البكاء ليلةَ أمس، وأنت هكذا؟

شعر بخنجر ألمٍ في قلبه. وكان أكبرَ آلامه في المدّة الأخيرة.

عندما نقصت كلّ المشاعر داخله، حافظ الألمُ وحدَه على إمكانِ الظهور كاملًا بكلّ تأثيره.

عاد يضمُّ الصبيَّ إلى صدره.

- هل تعلم لماذا يا بنيّ؟ لأنّ الواحدَ منّا عندما يولَد يضعُ الربُّ في قلبه إناءً مليئًا بالدّموع. وبعدها يبكي الإنسان على قدر الألم. وعندما يكون الألم كبيرًا ينفد الإناء بسرعة. حينها يبقى الإنسان كما أنا الآن، دون دموعٍ للبكاء. يبقى مثل عينَي سحليةٍ لا تستطيع البكاء أبدًا... هل تظنّني لا أبكي معك لو استطعتُ البكاء؟

ضمّ الطّفلَ الأسود بقوّةٍ أكبر كما لو أنّ تلك الضمّة كفيلةٌ بمنع خسارته وعدم رؤيته يبتعد أبدًا من حياته.

الفصل السّادس

السُلّم

الوحدة، جدارٌ من الحجر. كان القلب يشتكي بصوتٍ خفيضٍ وهو متّكئٌ عليه.

-ألم أحذّرك من قبل يا ريموندو؟ لقد أخبرتك.

حتّى هو كان يكافح لينسى أهمّيّةَ هذا الاسم البسيط جدًّا والمهمّ جدًّا، ويحمله... الرّاهب يقطين.

-حذّرتك من التّعلّق بالصّبيّ ونصحتُك بألّا تعود إلى محبّة أيّ أحدٍ في الحياة، لكنّك عاندتَ وفعلتَ ذلك...

الحقّ أنّه وضع في الأمير-شعاع-الشّمس-الأسود كلَّ ما ادّخره من عاطفةٍ تجاه هنوده في الغابة، هنوده الّذين بذل جهدًا كبيرًا لنسيانهم. والنّتيجة هي أنّ خمولًا كبيرًا سيطرَ عليه ومنعه من الذّهاب إلى الأمام بقيادة كرسيّه المتحرّك.

كانت تنقصه بهجةُ الصّبيّ، وابتسامتُه، وعباراتُه البريئة والعميقة على نحوٍ لا يُصدَّق قياسًا بمن هم في مثلِ سنّه. وشعر عميقًا بافتقار الحياةِ إلى ذلك الطّعم الّذي أحضرَه ديتو إلى عالمه، فمنحَه المعنى. بدا له أنّ الأمرَ في مُحصّلته لم يعُدُ أن يكون أكثرَ من شُعاعِ شمسٍ أسودَ، شعاعٍ عابر وجميلٍ، طيلةَ تلك المدّة الّتي بسط خلالَها إشراقتَه، ولم يبقَ منه الآن

سوى حنينٍ كبيرٍ وصورة مناولته الأولى المثبّتة على الحائط بأربعةِ مسامير بائسة.

جاء زمنُ الأمطارِ، وموسمُها الأهوج والأكثرُ قسوةً، ليزيدَ من إحباطه، وستمتلئ المدينةُ قريبًا بالوحل، وتنتشرُ في أرجائها أبغض الرّوائح إلى نفسِه. وأمّا هو فلن يجدَ بُدًّا من أن يجرّ عكّازيْه، ويتّكئ على ذلك الجزء من الباب، يردّ على العابرين تحاياهم. ومن موقعه ذلكَ، سيشغلُ نفسَه في فراغها العظيم، بمشاهدةِ حركةَ الحياة، خطواتٍ تقفز فوق برك الماء، مظلّاتٍ تنثني أمام رقص المطر، أشخاصًا يرتدون أقمصةً وفوق رؤوسهم أكياسُ الخيش، رافعين أذرعَهم المفتولةَ العضلات، مظهرين آباطَهم المشعرة، وهم يمشون في صمت، حاملين أكياسَ الطّحين، والإسمنت، والفاصوليا والأرز... وعلى أجسادهم يختلط العرق بالمطر والرّوائح الميّتة المتصاعدة من الأرض وروائح الجدران. كلّ ذلك يختلط برائحة بول القطط والبشر، ومعها رائحة البصل والثّوم المحبوس في مستودعات الحبوب الكبيرة. المطر في ريسيفي وحشٌ لايرحم. إنّه انتقامٌ سماويٌّ مهولٌ، ولا وجه للمقارنة بينه وبين تلك الأمطارِ الّتي لطالما عرفَها في حياته، الأمطار الّتي تملأ الأنهار الكبيرة وتلتهم الشّواطئ. لا ينسى، لا ينسى، ينسى... يغفو، ويقرأ أحيانًا صحفًا يوميّةً يواصل فيها الرّجال أداءَ قسم الولاء للرّايات، فلا يتورّع بعضهم عن قتلِ بعضٍ بل يجدون لذلك حشدًا من التّبريراتِ، أو يقرأ الأخبارَ الّتي تظهر فيها جرائم بشعةٌ، تُزهق فيها الأرواحُ لأسبابٍ أكثرُ من تافهةٍ. بإمكانه أن يكتب رسالةً إلى ألفونسو يخبره فيها أنّ إحساسَه بالتعب يزداد كلّ مرّةٍ، وأنّه بدأ يتقلّص شيئًا فشيئًا مثل حشرة رواية

التّحوّل. لكنّ ألفونسو يعرف بالتّأكيد كلَّ ذلك أفضل من أيّ شخصٍ آخر. وابتسم لذكرى صديقه.

لذلك، ولِكَيْ لا يتألّم، كان يتوقّفُ عند الذّكريات الّتي لا تُثقل قلبه كثيرًا، وماذا عن «فرانسواز»؟ هي أنيقةٌ جدًّا، غير مباليةٍ جدًّا. تمرّ باحترامٍ عبر شارع باراو ايتابيتينينغا، وكأنّه سيّدها. لباقي الحافلات أيضًا أسماء وهي تنتمي أيضًا إلى المالك نفسه. لكنّ فرانسواز كانت مختلفة، تبدو صاحبةَ شخصيّةٍ أقوى من أنطونيلا، وكارمن، ودولسينيا، وسيلفانا والأخريات الكثيرات... فرانسواز اسمٌ جميلٌ جدًّا بالفرنسيّة وفظيعٌ جدًّا بالبرتغاليّة... فرانسيسكا.

يتعاطف كثيرًا مع صاحب الحافلات دون أن يعرفه. لا شكّ أنّه حالمٌ جميل، لأنّ أسماء كتلك لا تظهر إلّا في السّفن والزّوارق، وكذا في الطّائرات الكبيرة.

وماذا عن سيلفيا؟ لا شكّ أنّها هناكَ في أمريكا، ذاك العالم الجديد، والمريع، تُحافظُ على ابتسامتِها تلكَ، وتحتفي بغمّازتيْها اللّتين صنعتا مجدَ مراهقتها المجنونة، كما يجدرُ بامرأةٍ في مثلِ جمالِها أن تفعلَ. يعنُّ له أحيانًا أن يُراسلَها، أو أن يبعثَ لها بطاقةَ معايدةٍ، تعجُّ بكلماتِ الحبّ المنتقاة، وتُذكّرها بساعات السّعادةِ. والرّاجح أنّ تلك البطاقات ستُعاد. كيف يقولون ذلك بالإنكليزيّة؟ «Unknown Address عنوان مجهول». هكذا أفضل، هي مسكونةٌ بذكريات الأنهار الكبيرة، والأرض، والزّوارق والهنود، وقبل كلّ ذلك ذكريات الشّواطئ.

يختار، ينسى، ينكمش، ينتظر. ينتظر أن تمرّ الأمطار على الأقلّ، وتترك له بذرةَ تجديد، من تلك الّتي دَأَبَ توم على زراعتها.

يستلقي، يغفو، ينام. ينسى، ينكمش...

- هل يمكن أن أدخل في هذا الحزن؟

انفتح الباب جزئيًّا وظهر طيفُ جسد تورغا.

- رحمة مريم العذراء، ما هذا الظّلام؟

أضاءت النّورَ، فرأت ريموندو منكمشًا تمامًا.

ضحك، وحاول النّهوض في السّرير. فعدّلتْ هي الوسائدَ حول رأسه.

- لكن يا قدّيسي، لا يمكنك الاستمرار على هذا النّحو. إنّك لم تُغادرْ كهفك المعتم، منذ حوالي ثلاثة أيّام. فماذا دهاك؟

ذهبت للجلوس عندَ السّرير وبدأت تبعث بالسّعادة في العالم السّفليّ.

- انظر ماذا جلبتُ لك، انظر إلى هاتَين العُلبتَين، أعرف أنّهما ستعجبانك.

- شكرًا لك، من فضلك ضعيهما فوقَ الطّاولة.

- سنقوم بجولةٍ هذا اليومَ يا تميمة حظّي؟

- في هذا المطر يا تورغا؟ لا أحد يرغب في فعل شيءٍ. أنا أنتظر عودةَ الأخت شمس، لأنّ الشّمس لا تأتي إلّا عندما تظهرين.

- ستأتي بمفرداتِها الّتي نُحبُّ، ولن تتأخّرَ عن موعدها.. ولا تحفلْ بالمطرِ، وإذا كانَ مُسرفًا هذه الأيّام في قسوته، فهو صنيعةٌ مباركةٌ مثلما يقولون. ولا أنكرُ أنّه بالنّظر إلى هذا الوضعِ الّذي يُعقّد حياة الجميع، يسبّب الإرباك، ويبعثُ على القلق. في اللّيل اضطررتُ

إلى الخروج «للصّيد» مُرتديةً مشمّعًا قديمًا يُخفي كلَّ جاذبيّتي
ك... هيّا، على الأقلّ جولةٌ صغيرةٌ في الرّدهة يا قدّيسي، لا بدّ أن تقوم بها من حينٍ إلى آخر.

-حاولتُ ذلك، لكنّ الأمرَ خطيرٌ. الجميعُ يدخلون بأحذيتهم المبلّلة ويفسدون الفسيفساء التي تكون متّسخةً أصلًا، حينها ينزلق العكّازان، لأنّ في آخرهما مطّاطا.

صمت لحظاتٍ، بينما كان ينظرُ إلى وجهِ المرأةِ النّابض بالحياة.

-كان أمرًا جيّدًا أن تأتي يا تورغا. لقد شعرتُ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى خدمةٍ منك.

-ليس عليك أن تطلب، أنت تأمر يا قدّيسي. قُلْ، ما ذاك؟

-أريد منك أن تحتفظي في غرفتك بعلبة البسكويت الّتي أملكها.

-لكنّك تحتفظ فيها بنقودك...

-من أجل هذا بالتّحديد. نومي ثقيل دومًا. ويمكن أن يأتي شخصٌ من خارج المكان ويأخذ كلَّ شيء، ولاسيّما أنّ فيها رسالتَين، إذا حدث لي في يومٍ من الأيّام شيءٌ فافتحيها.

غمرت تورغا مشاعرُ تأثّر كبيرة، بسبب الثّقة التي يضعها فيها المعاق، وكذا لأنّها لا تحبّ سماعَه يقول تلك الأشياء.

-توقّفْ عن قول الحماقات يا رجل. لن يحدث لك شيءٌ. قريبًا ستأتي الأختُ شمس وتختفي من رأسك كلُّ تلك الظّلال المعتمة.

-لمن الرّسالتان؟

-لا تفكّري فيهما الآن.

هي لا تعلم أنّ في إحداهما وصيّةً لها بأن تدفنه في حفرةٍ فلا يعرف أحدٌ شيئًا عن وجوده، وأنّه ترك لها في الرّسالة الأخرى كلَّ نقوده، كي تؤدّي رحلتَها إلى الجنوب في أفضل الظّروف.

بقيت لا تدري ما تقول، لكنّه كسر ذلك الصّمت:

- لديّ تذكارٌ صغيرٌ لك.

فتح درجَ الطّاولة الصّغيرة وأخرج القدّاحة الأخيرةَ.

- بما أنّي لم أعد أدخّن منذ زمنٍ طويلٍ، فمن الأفضلِ أن تأخذيها أنت.

أخذت تورغا القطعةَ، وبدأت تُديرها في راحة يدها.

- لكن يا قدّيسي هذه القدّاحة تبدو ذات قيمةٍ كبيرة، إنّها غاليةٌ جدًّا! ولا يمكن للأشخاص من أمثالي استعمالُ أشياء ثمينةً كهذه.

- وهل أستطيع أنا؟ أنتِ أفضلُ من يستحقّ قدّاحةً مثلها.

- هل هي من الذّهب؟

- نعم هي كذلك، ولا تقولي إنّك لا تستطيعين قبولَها، فذلك سيجعلني أكثر حزنًا.

- لكنْ مع ذلك...

- أطلب منك شيئًا واحدًا وحسْب. ثمّة اسمٌ منقوشٌ عليها، إذا حدث وقرأتِه، فافعلي ذلك في قلبك، بصمتٍ...

قرّبت تورغا القدّاحةَ من الضّوء وقرأت الاسم.

- ما أجمله...!

انحنت ببطءٍ فوق السّرير وقبّلت وجنةَ ريموندو، تعبيرًا عن شكره على هديّته.

نهضت للخروج، ومشت إلى الباب متمايلةً.

- يأتي الواحد هنا ليحضر بعضَ السّعادة، فيخرج أكثر حزنًا ممّا يتخيّل.

توقّفت أمام الباب وأطلقت العنان لنقمتها:

- وهذه الأمطار اللّعينة التي لا تتوقّف أبدًا!

***

عندما ينتهي هناك في الأسفل سيتسلّى كثيرًا. وعلى امتداد جسدِه، ستشعر الدّيدان بخيبة أملٍ.

- هل ترون ما تبقّى لمجموعة عملي! ساقان جافّتان وصفراوان، بلا طعمٍ.

تفحّصت دودةٌ كبيرةٌ في السّنّ ذكَرَه بنظّارتَيها، ثمّ قالت بفطنة:

- إذا كنت قد فقدتَ الرّغبة في الحياة منذ زمنٍ طويلٍ فلماذا تريد منه الآن أن ينتعش؟

- أريد ذلك من أجل عينَيك الجميلتَين وحسْب؟

ضحك من ذلك الهراء، لأنّ الدّيدان ليس لها عيون. لكنّ القلب يشعر بالمعاناة.

- ريموندو أنتَ مجرّد أحمق كبير، هل تعلم ذلك؟ لماذا تجعل ألَمَك يتألّم؟ ألا يكفيك ما عشناه معًا؟

- كان ذلك لوقتٍ قصيرٍ يا عزيزي.

تمايل في الظلام، وبيدِه المتعَبة أضاء النّور. لقد مرّ المطر، لكنّ التّعب يزداد بشكلٍ رهيب، حتّى إنّ أطراف أصابعه في كلتا يدَيه سقطت كشيءٍ

ميّت. كان يشعر بحرارةٍ خانقةٍ تكاد تمنعه من التنفّس. وبدا له في الوقت نفسه أنّ صدرَه أصبح أكثر بدانةً، منتفخًا مثل كرةٍ مطّاطيّة. ثمّة شيءٌ في داخله يبدو أنّه لا ينتمي إليه ويُريد أن يختفي.

استطاع التّخلّص قليلًا من القلق وشربَ بعض الماء.

وفجأةً سرَت في كلّ جسده قشعريرة.

- من وضع هذا هناك؟ لم أرَ أيَّ أحدٍ يدخل بهذا.

أحسَّ بشعرِ رأسِه ينتصب.

وضعوا أمامه صليبًا. تمثال المسيح يلمع كأنّه يتأرجح أو يتنفَّس وسط الضّوء.

أغمضَ عينَيْه، فركَهُما بيدَيْه مستجمعًا شجاعتَه، ثمّ فتحهما ليرى المشهدَ من جديد.

لم يعد هناك.

لحسن الحظّ لم يعد إلى المستشفى. إنّها صورة ديتو وهو جميلٌ في مناولته الأولى. يا لَه من أمرٍ غريب!.. لم تكن أيضًا صورته، بل صورة خيالٍ أسودَ يكبر ويملأ خلفيّةَ الحائط كلّها.

***

- يا له من فتًى جميل! يا له من جسم مُتناسق!

تفحّصوا جسدَه في كلّ الاتّجاهات، وجعلوه يلتفّ ليروه من كلِّ الزوايا. تركوه فوق المصطبة وذهبوا للتواطؤ في ما بينهم، المعلّم، والمساعد والتّلاميذ.

بدا غيرَ مبالٍ بما يقولونه عنه. يعرف الجميع أنّه كان مفتولَ

العضلات، بمقاييس مثاليّة. لونُ جسدِه البرونزيُّ، ذاك الّذي اكتسبه تحت أشعّة الشمس، يزيد من جاذبيّته أكثر.

صعد شمّاس الكنيسة إلى المصطبة وعلّق في كلّ جانبٍ حلقةً على خشبةٍ ثلاثيّةٍ كبيرة، لقد قُرُبَ الأرجل. وبابتسامةٍ ساديّةٍ قال له:

- ستكون مسيحًا رائعًا.

اقترب منه المعلّم لينبّهه. كانت ثلاث ساعاتٍ صباحيّة، مع فاصلٍ بخمس عشرة دقيقةً للرّاحة كلّ ساعة. إذا أشعرته الوضعيّة بالتّعب أو نقصته حركةُ الدّم في الذراعَيْن فإنّ بإمكانه طلب فترة راحةٍ إضافيّة. لأنّهم سيعانون جميعًا من المشكل نفسه في البداية.

دعاه لأخذ موضعه. فصعد إلى الخشبة الثّلاثيّة، وفتح ذراعَيه محاولًا إمساكَ الحلقات الجلديّة.

سمع صوت «أوه!» كردّ فعلٍ بالإعجاب، لكنّه مازال لم يستعدّ بعد.

- من فضلك عدّل رأسَك جهة اليسار وانظر إلى أعلى. هكذا يا فتى.

من الغريب أنّهم افتتنوا بشكله الّذي يشبه المسيح! لو استطاعوا على الأقلّ تخيّل ما يوجد بروحه في تلك اللّحظة. المسيح سيكون شكلَ بدايته في تلك المدرسة. لا يبدو أنّ السّاعات تمرّ بسرعة، كأنّما هي مصلوبةٌ على الدّقائق والثواني. تملّكته رغبةٌ في ألّا ينظر إلى السّاعة، لكنّه سيعقّد أمورَه بعدم النّظر إليها بسبب الوضعيّة الّتي هو فيها. كان من الضروريّ أن يتحرّك تفكيره. وبمرور الوقت أصبح معصماه يؤلمانه بسبب ضغط الأربطة. وانتفخت قدماهُ فوق قساوة الخشب، وكان ظهرُه يلتصق بقماش الخلفيّة. لكنّ السّاعة بقيت غير مبالية.

الأشخاص الأحياء الوحيدون كانوا أولئك الّذين يصنعون قوالبَ الجبس حوله، مقتربين من حينٍ إلى آخر بآلة قياسٍ لمعرفة الحجم الدّقيق الّذي يحتاجون إليه في عملهم.

***

عاد إلى رؤية الشّقّة، بالسّتائر الثقيلة والأرائك الكبيرة. على الجدران لوحاتٌ مثيرةٌ معلّقة. رجالٌ عُراةٌ يتعانقون. نساءٌ تضع الواحدةُ منهنّ يدَها على فخذ الأخرى. الأريكة الكبيرة، حيث يدعوه القسّ بلحيته وأصابع طويلةٍ وأظافر مقلّمة.

- اجلس هنا، لا تخف. رجلٌ في مثل قوّتك وجمالك يجب ألّا يخاف من أيّ شيء.

كان يتكلّم بنعومةٍ خبيثة. ويبدو نسخةً أكثر حداثةً وقذارة من الرّاهب جوستينو.

قرّب إليه وجهَه الشّاحبَ الخبيثَ وابتسم. مرّر أصابعه الرّقيقة على شعره. فشعر بانزعاجٍ ورغبةٍ في الهرب.

- إذا كنت لا ترغب فالوقت ما يزال أمامَك، لكنّها ستكون خسارة.

كانت به حاجةٌ ماسّةٌ إلى المال. وفكّر في أن لا شيء من كلّ ذلك العفن والقذارة سيلمس روحَه. حاول فصلَ الرّوح عن الجسد حتّى لا يصاب الجانبُ الأخلاقيُّ فيه بأيِّ جرح. كان صغيرًا، جائعًا ولم يظهر أحدٌ لمساعدته بشكلٍ لائقٍ.

قال له الوجه الخبيث:

- انزع ثيابَك يا بنيّ.

أخذه إلى إحدى الغرف ومعه حقنةٌ في يده.

- هل هذه أوّل حقنة تتلقّاها في حياتك؟ ستحبّ الأمرَ.

عندما استيقظَ في الصّباح، كان رأسُه يؤلمه وكلّ شيءٍ يدور حوله بحثًا عن شكله الأصليّ.

رأى القسّ الملتحي أمامه.

- رأسي يؤلمني وأشعر بالغثيان.

- المرّة الأولى تكون هكذا دومًا.

أعطاه حبّة دواءٍ تفور في كأس ماء.

بعدها نهض. أعطاه القسّ النّقود وشعر بأظافره تنغرز في معصمَيه.

- تعالَ مرّةً أخرى وسأدفع لك أكثر.

والآن، وهو أمام صورة المسيح، يذكّره الشّيطانُ بكلّ ذلك في ابتسامةِ نصرٍ خبيثة.

- يا إلهي، هل سأقاوم طيلة شهرٍ وأنا مصلوبٌ هكذا؟ لم تمرّ ساعةٌ حتّى أصبح جسدي يتألّم كأنّه ألقي في النّار دفعةً واحدة. ألم يكن من الأسهل، يا مسيحي العزيز، أن أعود إلى هناك؟ حقنة المورفين عند ذلك الرّجل تزيل كلّ انزعاج، والمال يأتي بسهولة. كلّا! لن أذهب إلى هناك مرّةً أخرى أبدًا! لن آخذ أبدًا جرعةَ مورفين في حياتي مرّةً أخرى! ولن أقبل أبدًا أن أكون مسيحًا مصلوبًا مرّةً أخرى. لن أقبل هذا العذاب أبدًا!

ابتعد عن القسّ الملتحي وتحوّل إلى أبولو، ونرسيس، وشخصيّات ميثولوجيّة أخرى كثيرة. لكنّ وضعيّة المسيح بقيت تُطارده. وعندما قرّر

عدم القَبول، نفدت منه النّقود وعاد إلى الصّليب. والآن هو مسمّرٌ من جديد. منذ أسبوعٍ لم يفكّر في أشياء جادّة. ولم تَغْزُ تفكيرَه سوى حفلة البارحة، وعطر جسد باولا، وشَعر باولا، ونهدَي باولا الصّلبَيْن وهي تضغط على جسده. «كنت أبحث عنك منذ ميلاد النجمة الأولى...» أيّ نجمة؟ أنتاريس، أرتوروس، ريغيل، بيتيلجوز؟

- مجنونة، مجنونةٌ رائعة.

في فاصل زمنيٍّ بين الوضعيّات، دخل الصديق واتّجه إليه:

- ماذا يحدث؟

- مزاجي سيّئٌ وهذه الوضعيّة تقتلني.

- هل تعلم من هاتفني؟

لم يكن السّؤال ضروريًّا، فبريق عينَيْه كان يقول كلَّ شيء.

- وماذا؟

- أردت أن أعرف منك.

- هذا كلّ شيء؟

- ذلك كثيرٌ من فتاةٍ مثل باولا.

***

في اليوم الثاني بقيَ على وضعيّة المصلوب. انتظر أن تتحرّك السّاعةُ لكنْ يبدو أنّها قرّرت عكسَ ذلك. انجذبت عيناه إلى باب قاعة النّحت الّتي انفتحت فانطلقت الأصواتُ داخلَها تقطع صمتَ الأجواء.

الصّديق والمعلّم بجوار باولا. قُدِّمَت للتّلاميذ. لقد جاءت لزيارة المدرسة من باب الفضول. ودخلت كلَّ الفصول الّتي كانت تنشط.

تقاطعت عيونهما. فابتسمت ابتسامةً خفيفةً، وقالت لأستاذ النّحت:

- نموذجٌ جميلٌ!

توقّفت أمام النّموذج وتفحّصَتْه على مهل. بعد ذلك مشتْ من طاولةٍ إلى أخرى تتفحّص كلّ عملٍ دون استعجال.

تحادثت مع النّاس مدّةً أطول قليلًا، ثمّ خرجت. وقد عبّرت عن شكرها للجميع. بعد ذلك بقليلٍ كان صوت الباب وهو يغلق إعلانًا عن مغادرتها.

بقي لا يدري في أيّ شيءٍ يفكّر أو أيّ شيءٍ يفعل. كانت جميلةً جدًّا في تنّورتها الرّماديّة، وبشعرها النّاعم فوق الوجه الأسمر الفاتح.

بدا ذلكَ كأنّه رؤيا، رؤيا مدهشةٌ سبّبت خللًا في توازنِ روحه الدّاخليّ.

عند الخروج، بقي قليلًا في مقهى فيرميلينيو، ليتناول شرابًا باردًا ويسمح لجسده بأن يرتاح من تلك الوضعيّة الأشبه بالتّضحية.

ظهر الصّديق.

- في أيّ ساعةٍ تخرج مساءً؟

- عندما تنتهي ساعة الرّسم الأخيرة مع نموذجٍ حيّ. لماذا تسأل؟

- لا لشيءٍ معيّن. الأمر أنّي تحوّلت فجأةً إلى راعٍ لروميو وجولييت.

ابتسما.

- أنت أحمق، أين ستتناول الغداء؟

- هناك.

- كلّا، بمنزل الطّلبة في لارغو دا كاريوكا اشتريت بطاقةً ولا يحتاج الواحد حتّى إعطاء بقشيش.

ذهبا بلا عَجَلٍ إلى شارع حديقة النّباتات. كانت باولا تقود السّيّارة وهو متّكئٌ على كتفها.

- لماذا تبالغ في الصّمت؟

- أكون دومًا هكذا عندما أخرج من المدرسة. التّعب شديدٌ جدًّا ولا أملك رغبةً في الكلام. في أحيانٍ كثيرةٍ أذهب للجلوس فوق أحجار نهج ماريتيما، وأبقي قدميَّ مغمورتَيْن في المياه المالحة لتخفيف آلام التّعب.

ابتسمتْ باولا.

- ظننت أنّك لن تقبل دعوتي.

- لماذا لا أقبل؟ أن تنتظريني أمام باب المدرسة أمرٌ يشعرني بالإعجاب. لو تعلّق الأمرُ بواحدةٍ من أولئك العاهرات السّمينات من حيّ لابا، وكانت لها سيّارة، لقبلتُ أيضًا. أمّا أن تكوني أنت من ينتظرني فهو أمرٌ رائع.

- لماذا كلّ هذا الإحباط يا حبيبي؟

- تخيّلي الحرارةَ الخانقة الّتي كانت داخل تلك الفصول؟ أنا دومًا في الجزء الأعلى، الجزء الأقرب إلى السّقف حيث المصابيح. ثلاث ساعاتٍ فوق صليب. ساعةٌ للغداء. ومن الواحدة إلى الثّالثة، أقف عارضًا نفسي مثل أيّ غلامٍ يعرض نفسه لأيّ أجنبيٍّ يريد المشاركة في مسابقة معرض الفنون الجميلة. على امتداد ساعتَين أُعرَضُ بوصفي نموذجًا حيًّا، لا أملك حتّى الوقتَ لتغيير ملابسي. أضع ثيابي فوق المئزر وأقفز من وضعيّةٍ إلى أخرى. أنا اليوم ميّتٌ يا باولا، لا يوجد شيءٌ أسوأ من البقاء مشلولًا

أمام ساعة. وفي الفصل الأخير عندما يبدأ الإحساس باسترخاء العضلات وبأنّ كلّ الجسم يستسلم، يأتي دومًا صوتٌ يحتجُّ معلنًا أنّ الوضعيّة غير مثاليّة. لا يستطيع الواحد أن يتحرّك ولو ميلّيمترًا واحدًا لأنّ الفصلَ دائريُّ الشّكل والجميع يرسمون في وقتٍ واحد. لا أدري حتّى كيف قلت كلَّ هذا الكلام.

- هل بإمكاني فعلُ شيءٍ مّا؟

وقبل أن يأتيها الجواب، أحاطتْ عنقَ الشاب بإحدى يدَيْها.

- هل هذا هو؟

- هل هو قليل؟

- أمسِ لم تطلبي الإذنَ كي ترتمي في حضني.

- هل كان ذلك أمس؟

- لا أدري، أمسِ أو قبل أمس، قبل شهرٍ أو الآن. أيّ شيءٍ داخل الوقت.

- يا للجمال!

رفع عينَيْه وبقي يشاهد الشّارع، دون أن يجد سببًا لاندهاشها.

- ماذا هناك؟

- أنت حبيبي، أنت عندما كنتَ شبه عارٍ فوق ذلك الصّليب.

- آه!

- تملّكني شيءٌ من الرّغبة في شَتْمِ أولئك الّذين صلبوك، لا يمكنك تخيُّل جزعي وانزعاجي.

- لم يكن الأمرُ يبدو كذلك.

- كنت طيلة اليوم أتعذّب بصورتك وأنت مفتوح الذّراعَين. تلك الصّورة آلمتني. شعرتُ برغبةٍ في الذّهاب إلى المصطبة وتقبيل كلّ ذرّةٍ فيك. وعند بلوغ أذنك أترجّاك بصوت منخفضٍ: «لا أريد منك أن تكون هكذا، تعالَ معي».

- أنتِ مجنونة.

- نعم أنا كذلك.

- ألا تريدين أن تكوني مُطيعةً وتعودي إلى المدينة؟ في ساحة الجمهوريّة يوجَد فندقٌ ساذج، فيه حمّامٌ قذرٌ، يمكنني أن أستحمّ فيه وأتخلّص من الأوساخ ومن رائحة جسدي. أنزع المئزر اللعين وأنسى. أنسى أنّ لي على الأقلّ اثنتي عشرة ساعةً دون اضطهاد.

سكتتْ باولا وضغطت على دوّاسة السّرعة. وبدلًا من العودة إلى المدينة سلكتْ شارعَ ماركيس دي ساو فيسنتي، وانتهتْ إلى صعود جانب شارع سانتا مارينا. توقّفت فجأةً أمام بوّابةٍ كبيرةٍ حيث يوجدُ درجٌ واسع. فظهر طيفُ منزلٍ مظلّلٍ مخفيٍّ بين الأشجار.

- تعالَ.

فتحت البوّابة، وانتظرت حتّى ينزل من السيّارة.

- هذا منزلك؟

- تقريبًا. هو منزل أمّي، السيّدة الكبيرة.

توقّف في مكانه مرتبكًا.

- لا تخَفْ. هي تعيش في ساو باولو أكثر منه في ريو. هيّا، هيّا يا مسيحي الجميل. هذا ليس سُلّمَ عذابك.

توقّف في شرفةٍ يحيط بها الزّجاج وبقي يتأمّل المشهدَ. الأخضرُ منتشرٌ حول المكان، وفي الأسفل همسُ مياه شلّال.

دخلا قاعةً ذات بناء كولونياليّ، لكنّها تبدو جيّدةً جدًّا.

- اجلس هنا، في هذه الأريكة، هي مريحةٌ جدًّا. انتظرني، سأعود.

دخلت وأغلقت بابَ الغرفة. استغرقتْ حوالي عشر دقائق بينما كانت عيناه مغلقتَيْن تقريبًا من النّعاس. ثمّ فتحت الباب وعادت إليه.

- تخيّل أنّي رسّامةٌ وأنّك ستتّخذ وضعيّةَ نموذجٍ من أجلي.

أخذتْه من ذراعه وجعلتْه ينهض. داعبت شفتَيْه بشفتَيْها، وقالت شبه متوسّلة:

- الآن، انظر.

دخلَا غرفةً كبيرةً تفوح منها رائحةُ عطور. كلّ شيءٍ يتعلّق بباولا كان معطّرًا. واصلت المشيَ معه إلى غرفةٍ أخرى، هي غرفة الحمّام.

نظر إلى المياه المعطّرة، المزرقّة في حوض الاستحمام. أليس هذا ما كنتَ ترغب فيه يا حبيبي؟ إنّه جاهزٌ. يمكنك الدّخول.

ابتسم معجبًا بجرأتها.

- فكّرتِ في كلّ شيء، أليس كذلك؟

- لا تتكلّم، أنت تضيّع الوقتَ. تستطيع نزعَ ملابسك. ما بك؟ هل حلّتْ بك الآن نوبةُ خجل؟ حبيبي لقد رأيتُ في حياتي كثيرًا من الرّجال العراة.

بقي على شيءٍ من التّحفّظ. فضحكت.

- سأدير ظهري، وفوق ذلك سأغمض عينيَّ أيضًا. هل الأمر جيّدٌ هكذا؟

أنجزتْ ما وعدتْ، ولم تَسْتَدِر إلّا عندما سمعتْ صوتَ جسده ينغمس في الماء.

- هل هو ساخنٌ جدًّا؟

- لا، بل ممتعٌ.

غمر جسده جيّدًا حتّى لا ترى باولا شيئًا منه. وقد أُعْجِبَ هو نفسه بنوبة التحفّظ الأخلاقيّ الّتي تملّكته.

- ينقص شيءٌ وحيدٌ حبيبي.

نهضت لأخذِ زجاجةٍ من أملاح الاستحمام. فتحتْها وأضافتها إلى الماء الّذي حرّكتْه بيدَيها دون ملامسة جسده. حرّكت أصابعَها، ثمّ جلست على المرحاض بكلّ عفويّة.

تأمّلت بحنانٍ وجهَ الشاب الّذي بقي بعينَيْن مغمضتَيْن.

تركتْه يرتاح في صمت، ولم تتكلّم إلّا عندما استرجع هو رغبتَه في الكلام.

- باولا.

- ماذا؟

- هل أنت هنا؟

- نعم.

- معك وحدَك أستطيع أن أتحدّث وعينايَ مغمضتان.

- ذلك جيّد لك.

- جيّدٌ كثيرًا. إنّه علامةٌ على أنّ لي في الحياة أحدًا أثق به، بعد كلّ ذلك الوقت. إنّها طريقةٌ لاسترجاع القدرةِ على الحلم من جديد، ذلك ما تعلّمته منك.

غيّرتْ وضعيّتها كي تركع قربَ وجهه.

- أوه حبيبي، ما أجمل الأشياء الّتي تقولها لي!

عندما شعر بحرارة وجهها، فتحَ عينَيْه.

- باولا توجور. توجور، إلى أين نذهب نحن هكذا؟

- حبيبي؟

- ماذا؟

- لن نسأل الحياة أن تعطينا شيئًا، هي تعطينا إيّاه بالفعل دون أن نسأل. وكلّ ما نفعله هو مواصلةُ استعماله بشكلٍ جيّدٍ حتّى لا تمنعنا الحياة من ذلك «الحظّ».

ضغطت عليه بوجهها أكثر مقتربةً من حرارة جلده الرّطب.

- هل استرحتَ جيّدًا؟

- أصبحت أشعر أنّي نظيف، نقيّ، كاملٌ، واثق، في أيّ طغمة ملائكة نحن الآن؟ الشيروبيم، السيرافيم...

- في جميعها.

أرادت إحاطةَ رقبته بذراعَيْها.

- ستتبلّلين.

- هذا لا يهمّ.

كانت هي من طوّقت رقبتَه وداعبت شفتَيْه.

- أنت أيضًا يمكن أن تأتي.

- لا، ليس كما تخيّلته.

ابتسمتْ، وابتعدت. ثمّ رفعت المئزر من الأرض، وانتصبت واقفة.

- ماذا ستفعلين الآن؟

ذهبت إلى حوض المغسل وأخذتْ تغسلُ قطعةَ الثّياب تحت ماء الصّنبور.

- تغسلين هذا؟ لا تفعلي.

- رياح الشرفة ستجفّفه بسرعة، سيكون جافًّا تمامًا قبل أن تذهب.

- لكنّي لن أذهب.

- إذَن، لا تذهب.

خرجت والمئزر المغسول في يدها.

- وماذا سألبس عندما أخرج من الحمّام؟

سمع ضحكاتها أمام الباب.

- فكّر في لونٍ.

- أصفر.

- إذَن، انتظر.

سمعها تفتح خزانةً في غرفة النّوم. ثمّ رجعت.

- خُذ هذا.

وألقت فوقَه منشفةً سميكةً صفراء.

***

- كم السّاعة يا باولا؟

- لا أدري، هو وقتٌ من الأوقات.

كانا مستلقيَيْن في أريكة الشّرفة، وقد انتشرت فيها أوارُ القاعة. الرّيح تؤرجح المئزرَ المعلّقَ ليجفّ وتبعث بهواءٍ منعشٍ في الأجواء.

كان ممدّدًا بجوار باولا، ورأسُه متّكئٌ على الجهة اليمنى من صدرها. بينما يدُها اليمني تنزلق على صدره، وشعرها النّاعم الحريريّ يلامس فمَه، حتّى إنّه كان يتنفّس فوقَ رأسِها دون جهدٍ كبير.

- حبيبي.

- نعم.

- هل تحسّ بما أحسّ به؟

- نعم أحسّ. نحن نسبح، أليس كذلك؟

- لا شكّ أنّ ذلك جزءٌ من السّماء.

- لا أظنّ ذلك...

- أريد أن أخبرك بسرّ. هل أستطيع؟

- قولي، لنرَ.

- أنا مجنونةٌ بك يا حبيبي.

- ما أجملك يا بوبينيا!

- ليس مثل جمالك. لماذا خُلِق الذّكرُ أجملَ من الأنثى، حبيبي؟

- أمرٌ غريب، مخلوقاتٌ غريبة.

ابتسمت.

- هل تعرفين الشّعور الّذي تسبّبينَه لي يا باولا؟

- لا.

- أنت تثيرين الجوعَ في نفسي.

- كلّ شيءٍ موجودٌ في الثلّاجة، أعددتُ شطائرَ متنوّعةً من الباتي والجبن ووضعت الشامبانيا لتبرد.

- هل كنتِ تعلمين بمجيئي؟

- بما أنّك لستَ واحدًا من أولئك، فمجيئك مُتوقّع.

جلستْ فوق الأريكة، وبقيت تنظر بشغفٍ إلى الشّابّ.

لم تستطع المقاومةَ أكثر، فقبّلتْ فمَه بحرارةٍ.

- من أنت يا باولا؟

- أنا شيءٌ عاديٌّ ومملٌّ إلى أن عثرت عليك. كنتُ متزوّجةً من رجلٍ يكبرني سنًّا. وتلك تجربةٌ سيّئةٌ بكلّ ما فيها. السّبب الرّئيسيّ هو استحالة الإنجاب. انفصلنا، وبقيت أعيش كما في السّابق، مع السّيّدة الكبيرة، محقّقةً كلَّ أحلامي. كانت لي بعض المغامرات، لأنّي كما تعرف، لستُ بقايا شيءٍ مّا حتّى أترك نفسي مهجورةً للصّراصير، أو ربّما أنا كذلك؟

- يا له من سؤال!

- كان حلمي أن ألتقي أحدًا في يوم من الأيّام، أحدًا يكون مثلك.

- والسيّدة الكبيرة، أليست مملّةً قليلًا؟

- أوه حبيبي، إنّها أمّي، وهي تتفهّم الأمور الإنسانيّة على نحوٍ رائع. لكنّ عقليّتها تختلف عن عقليّتي. قد تحبّك وقد تكرهك.

- وأنت ما رأيك؟

- أرجّحُ الخيار الثّاني.

- إذَن، سنكون ضدّ التيّار.

- لا، لأنّها لن تزعجك أبدًا، ولن تقترب منك. ستكون لطيفةً في نفورها منك إذا عرفتْ أنّكَ تجعلني سعيدةً... ستجعلني سعيدةً جدًّا يا عزيزي، أليس كذلك؟

- وأنتِ؟

- أَلَمْ تدرك يا غبيّي الجميل أنّك حياتي؟ أَلَمْ تشعر أنّنا توافقنا منذ اللّحظة الأولى؟ وأنّك إذا لم تشعر بالسّعادة فسأعاني كثيرًا، هيّا أيّها الغبيّ، لنذهب للأكل.

- بوبينيا، لو أطلب منك شيئًا فهل تفعلينه؟

- إلّا إذا طلبتَ منّي إعدادَ قهوةٍ لك، فأنا أكره تحضيرَها.

- لا، ليس ذلك، لكنّي أردت أن أستمرّ في الطّفو حتّى بعد خروجي. هل صحيحٌ أنّ لكِ شامبانيا في الثّلاجة؟

- مثلّجة، مثلّجة.

- شراب أجنبيّ؟

- وهل سأعطيك شرابًا وطنيًّا يا جميلي؟

- سنفعل مثلما وقع في فيلمٍ رأيتُه لإليزابيت تايلور؟

- حسنًا، كيف كان؟

- كانت الشّامبانيا تُقدَّم مع عصير البرتقال. لا شكّ أنّه شرابٌ شهيٌّ، وقد أخذَ لعابي يسيل وأنا في السّينما.

ضحكت من قلبها.

- إذَن سنعدُّه، هيًّا.

مدّت له يدَها فقبّلها، وبقي ممدّدًا. ثمّ جذبَها إليه صاعدًا بشفتَيْه إلى ما فوقَ ذراعها. نسيَتْ كلَّ شيءٍ وتركت نفسَها تسقط فوق جسده. اقتربت شفتاهُ من فمها في أجواء رغبةٍ ملتهبة.

- حبيبي، حبيبي.

- باولا، أيّ امرأةٍ أنت! جميلة، جميلة، شهيّة، فرنسيّةٌ في كلّ ما تفعلين، من الملابس إلى العطور، والأشياء والسّلوك الّذي تتّبعينَه.

ابتعدت قليلًا، لكنّها تركت شعرَها ينزل على وجهها.

- لكنْ يا عزيزي، لا بدّ أن تكون الأمور هكذا. بين فينةٍ وأخرى، أعود أنا أيضًا إلى حضارتي الّتي هي باريس. أعشق باريس يا حبيبي...

قرّبها إليه أكثر، وصارتْ يداه تضغطان على ردفَيْها واستمرّتا في الصّعود إلى ظهرها، حارّةً من الإثارة. بعد ذلك وصلت يداه إلى نهدَيْها الصّلبَيْن وبدأتا تداعبانها بشهوانيّة.

- حبيبي، الشّطائر...

- في ما بعد...

- والشّامبانيا؟

- بعد قليل...

أرادت أن تتكلّم، لكنّ فمها غدا سجينَ جاذبيّته، وتحوّلت كلماتُها إلى همساتٍ غير مفهومة. وشيئًا فشيئًا صارت الهمسات آهاتِ متعةٍ.

الفصل السّابع

السّلّم الكبير

تأمّل الأجواء المحيطة ببطء: ستائر تصفّي ضوءَ الصباح، رياحٌ تهزّ الستائر هزّاتٍ خفيفةً بشكلٍ متموّج، سريرٌ ليّنٌ وباولا ما تزال نائمةً وشعرها منسدلٌ قليلًا فوق وجهها، وظهرها الأبيض المتناسق متّجهٌ تقريبًا جهةَ الشّابّ.

بدأ ينفخ على ظهرها بلُطفٍ، ثمّ مرّر ظفرَ سبّابته بعناية. فتأوّهت، وانكمشت في رعشةٍ.

ألصق لسانَه بأذنها.

-حبيبتي، لقد تأخّرَ الوقتُ. يجب أن أذهب إلى المدرسة.

فتحت عينَيْها المتعبتَين من النّوم، ثمّ ابتسمت ومرّرت يدَها على جبينه.

-كم السّاعة يا حبيبي؟ الواحدة أم الثّانية؟

-آسف عزيزتي، إنّها السّادسة والرّبع، أعرف أنّ ذلك يعتبر وقتًا صباحيًّا، لكنّه المساء عندي.

اتّخذت وضعيّة الجلوس فوق السّرير، ثمّ تمطّتْ مثل حيوانٍ صغيرٍ وأدارتْ ركبتَيْها وذراعَيْها.

-يا ربّ السّماء! ظللتُ وقتًا طويلًا أنتظر الحصولَ على رجلٍ،

والآن أكتشفُ أنّه لا يُحسن الاستمتاعَ بالنّوم.

- وفي مقابل هذا أنتِ لا تُحسنين إعدادَ القهوة، بينما أُحسن أنا ذلك.

مالت على صدره، وجعلته يحتضنها ويدَاه على نهدَيْها. بدأ يداعبها بحنان.

- حبيبي.

- ما الأمر؟

- هل اليوم يومٌ آخر؟

- في تلك الحلقة الأبديّة للرّتابة الإنسانيّة يظلّ يومًا آخر. يذهب اللّيل ويأتي النّهار. يذهب النّهار ويأتي اللّيل...

- ذلك ما أخشاه.

- أنت لا تعرفين معنَى ذلك باولي، باولي.

- ما زلت أشعر بالشّيء نفسه تجاهك، بل أكثر قليلًا من أمس، وأنت؟

- مرّري يدَك فوق حجم حناني تشعري أنّه تضاعف. لكنْ يجب أن أذهب يا بو.

راحتْ تئنّ بدلالٍ.

- لا تذهب!

- يجب أن أذهب يا حبيبتي.

لبستْ باولا قميصَ نومٍ فاتحَ اللونِ وذهبت إلى الحمّام. عند عودتها كان وجهها قد اكتسب انتعاشًا رائعًا.

- حتّى النّوم غير ممكن، يا لَهَا من حياة!

ضربته ضربةً خفيفةً على مؤخّرته.

-هل تحسن إعدادَ القهوة؟ أعشق شربَ فنجان قهوةٍ، لكنّي لا أطيق إعدادَه.

-أعرف كلّ شيءٍ يا بو، إعداد القهوة، خياطة الأزرار على القمصان، رتق الجوارب وأعرف أيضًا...

ثمّ أخذَ باولا بين ذراعَيْه وقبّل عينَيْها.

-أعرف...

-كيف سنتصرّف يا عزيزي؟

-نتصرّف في ماذا؟

-كي نلتقي من جديد.

-أنت تقرّرين، أنا جاهزٌ دومًا.

-اليوم لا أستطيع، لديّ حفلٌ خيريّ، هي أمورٌ لا يمكن تجنّبها. لكنْ في الغد...

-اتّفقنا!

حاوَل تركَها، لكنّها بقيت ممسكةً بيدَيْه كي لا يبتعد عنها.

-عزيزي.

-ثمّ ماذا بعد؟

-ماذا سنفعل؟

-قرّري أنت، لا أعرف الموضوعَ، لكنْ قرّري.

-لن آخذك معي، لن تحبّ أن أفعل ذلك، أليس كذَا؟

-أكيد لا يا بوبينيا.

- لأنّي سأتأخّر أكثر من ساعةٍ وأنا أرتدي ملابسي.

- أفهم ذلك.

- ضمّني إليكَ بقوّة. والآن أَجِبْ عن شيءٍ في أذني.

أطاعَها واضعًا فمَه على أذنها.

- هل تحبّني؟

- بجنون.

- هل أنت ملكي؟

- أحتاج إلى مراجعة أوراقي الثبوتيّة.

- أوه حبيبي! أنا أتكلّم بجدّ.

- حسنًا إذَن، أعشقك، سأشعر بغيابك، ستجعلين لحظات جمودي تجري بنعومة...

- إذَن، كلّ واحدٍ منّا ينتمي إلى الآخر.

- من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا.

- إذَن ستقدّم لي خدمة.

- رغم أنّي لا أعرف ما هي فإنّي لن أرفض لك طلبًا.

- لا أريد منك أن تذهب في الترامواي.

- والحافلة؟

- ذلك أسوأ. أن تسافر في أماكن مليئةٍ بأشخاصٍ لا تعرفهم، ولم يقدّمك لهم أحدٌ، هو مجاوزةٌ خطرة.

- إذَن سأذهب مشيًا على القدمَيْن.

- لا، استقلَّ تاكسي.

- توقّعت ذلك.
- لا أريد منك أن تتعب كثيرًا. في نهاية الأمر كلّ واحدٍ منّا ينتمي إلى الآخر، أليس كذلك؟
- حسنًا.
- عزيزي، عندما ينفذّون رغباتي أكون ملاكًا. والآن اذهب لإعداد القهوة.

بينما كان متوجّهًا إلى مخزن المطبخ، أخذتْ هي بعض المال ووضعته في جيب سرواله. ثمّ تناولت قليلًا من القهوة ناظرةً إليه باستمتاعٍ وهو يلتهم شطائرَ ليلة البارحة.

- ما الّذي يضحك؟

وضعتْ يدَها على ذقنه.

- لم يحدث قطّ أنْ شربتُ القهوة مع رجلٍ عارٍ، ولا سبق لي أن رأيت رجلًا عاريًا يستحمّ كما رأيتُك أمس.
- باولا، لا تكذبي.
- على الأقلّ، لم يكن من رأيتُ في مثل جمالك.

نظر إلى ساعة مخزن المطبخ.

- يا إله السّماء! السّاعة الثّامنة. يجب أن أركض كثورٍ للوصول إلى هناك.
- سيّارة التّاكسي ستوصلك بسرعة.
- ما أجمل نطقك كلمة «تاكسي»، في حين أنّ نطق الجميع مختلف... تاكسيي!

-عزيزي، إنّ روحي فرنسيّة حتّى عندما أستيقظ. هيّا بنا.

-كم هو مزعجٌ أن أرتدِي هذا القميصَ المتعرّق من ليلة البارحة! أين المئزر؟

أعطته إيّاه. ثمّ ارتدى سرواله بسرعة، ولبس الحذاء.

-والجوربان؟

-لا ألبسهما في الصّيف، ولا حتّى في الشّتاء، لأنّ جوارب الصّوف غالية.

ابتسمت ابتسامةً حزينة.

-كيف لرجلٍ مثلك أن يكون في مثل هذه الحاجة إلى الأشياء؟

قبّلها بحنان.

-باولي، في الحقيقة أنا هنديّ، ومنذ زمنٍ قريبٍ جئتُ من الغابة.

وهو يرتدي لباسَه أحسّ بالنّقود في جيبه.

-أهذا المال كي أركب سيّارة تاكسي أو أشتري واحدة؟

همستْ له بهدوء:

-ليس لتنفقه في منزل الطّلبة، بل في مكانٍ أفضل. اتّفقنا؟

أخذ باولا بين ذراعَيْه وقبّلها قبلةً خفيفةً على فمها، أرفقها بلمساتِ حنانٍ خاطفة. نزل الدّرجات برشاقةٍ كبيرة. لم يفتح البوّابةَ، بل قفز فوق الحائط. مرّ بجوار سيّارة باولا، وقبَّل زجاجَها. على الزّجاج الرطب من النّدى كتبَ «توجور». نظر إلى أعلى ليلوّح بالوداع الأخير وركض صعودًا إلى الشّارع. كانت باولا تقول شيئًا وهي في الشّرفة. ثمّ فتحت ذراعَيها وصرخت:

-ليس المسيح، حبيبي! ليس المسيح!

***

انكمشتْ قطعةُ القماش السّوداء، وعادت لتكون وجهَ ديتو في صورة مناولته الأولى.

شعر ريموندو أنّ جسدَه بدأ يتعب، وبأنّ قلبَه قد صار ثقيلًا على صدره، حتى إنّ تنفّسَه قد أصبحَ مصدرَ عذاب، يبعثُ فيه الرّغبةَ في أن يشقَّ صدرَه من أجلِ أن يتسنّى له التّنفّسُ بشكلٍ أفضل. لماذا يتذكّر باولا هكذا؟ كانت جميلةً جدًّا وحيّةً جدًّا. أراد شربَ الماء من الإناء لكنّ يدَيه كانتَا خائرتَيْن. لماذا تبدو باولا جميلةً جدًّا وحيّةً جدًّا؟ عاد إلى سريره بصعوبة، مستلقيًا بجسده على جنبه الأيمن ليخفّفَ من الاختناق الّذي يشعر به. وباولا؟ لماذا؟ حلّتْ لحظاتُ تأمّلٍ بعيدٍ وذكرياتٌ تقول: «في لحظةٍ مّا قبل الموت، تمرّ كلّ أحداثِ حياتنا في دقيقةٍ أمام أعيننا». لو ظهرت على الأقلّ دونيا ماريفالدا هنا لتعطيه بعضَ الماء. لو تخرج تورغا فجأةً كمعجزة...

بدا له أنّ الغرفة تضيق وتغلق كلّ فتحةٍ يمكن أن يدخل منها الهواء. شعر بالتّجمّد فجأةً. بدأ يشمّ رائحةً معروفة، تتجاوز المكان. تنفّس بجهدٍ كبيرٍ وبلا أيّ خوف. كانت رائحة الجوّافة تزداد بشكلٍ مُقلق. هي وحدَها وصلتْ إلى حاسّة شمّه وجعلت تنفُّسَه يعود إلى مستواه الطّبيعيّ. أصبحت الغرفة أكثرَ إنارةً وكأنّ يومًا مشمسًا غمرَها.

رأى نفسَه جالسًا بكرسيّه المتحرّك في حديقةٍ واسعةٍ مُعتنًى بها جيّدًا. سمع صوتًا دافئًا معروفًا يقول:

-هكذا يجب أن تكون كلُّ حدائق الطّفولة! اتّجهت عيناه إلى المكان

الّذي أتى منه الصوت. وعندئذٍ لمح غلوريا جالسةً في أحد أغصان الجذع الململمّع من شجرة الجوّافة.

كانت غلوريا الجميلة، دون أيّ تشوّهاتٍ في الوجه، دون آثار مرض السلّ، ملوّنةً مثل صباحٍ مُشمس، تبتسم مظهرةً أسنانَها الجميلة. وكان شعرُها المتموّج يلمع بلون الذّهب القديم. قفزتْ واقتربتْ منه. كانت ترتدي فستانًا خفيفًا، وقدمَاها حافيتَان. ركعت أمامَ الكرسيّ، وأمسكت وجهَه بكلّ حنان.

- ماذا فعلوا بأخي الصّغير الجميل جدًّا؟

- لا شيء غودويا، هي الحياة، ليس أكثر.

- لا أريد أن أراك هكذا أبدًا. لا أريد أن تبقى منطويًا، بلا رغبةٍ في فعل أيّ شيء. يجب أن تصعدَ هذا السُلّمَ يا غوم، السُلّم. هل تفهم يا أخي الصّغير العزيز.

- إنّه أمرٌ صعبٌ جدًّا، غلوريا. كيف أفعل ذلك؟

- الشّيء الوحيد الصّعب هو الحياة. ستستطيع صعودَ السلّم، خُذ عكّازَيْك وتشجّع!

- من أين لي بالقوّة كي أفعل ذلك؟ لقد تأخّر الوقت قليلًا.

- هكذا يا أخي الجميل...

وقفت على رؤوس أصابع قدمَيْها، وأخذت ثمرةً ناضجة.

- هذه هي الثّمرة الأحلى، كما كنت تفعل معي من قبل. كُلْهَا وستشعر بالشّجاعة. هذا كلّ ما يمكنني فعله.

قضم الجوّافة الحلوةَ وبقي يمتصّ عطرَها الجذّاب ببطء.

- والآن وداعًا، ولا تنسَ... السُّلّم.

قبّلت وجهَه، وخرجت عبر حديقة الطّفولة الجميلة إلى أن اختفت شيئًا فشيئًا بين الأشجار.

عادت الغرفة إلى وضعها السّابق. تحسّنَ التّنفّس. مازال يشمّ رائحةَ ثمار الجوّافة، والوحدةَ أيضًا. حاول إغماضَ عينَيْه طلبًا للنّوم، لكنّه سمع صوتًا آخر. كانت أوّل مرّةٍ يسمعه فيها، غير أنّه متأكّدٌ أنّ قلبه يعرفه.

- راهب يقطين، عزيزي الراهب يقطين.

من ذا الّذي يناديه باسمه الجميل؟ من يكون المنادي؟ لكنّ الغرفة مازالت فارغة.

- عزيزي الرّاهب يقطين.

بقي يجول ببصره دون أن يجد شيئًا.

- انظر هنا عزيزي.

نظر إلى الجهة الّتي جاء منها الصوت، فرأى فوق الباب زيفينيتا «ب» الّتي كانت تنزل من أعلى. ارتسمت على شفتَيْه ابتسامةُ سعادةٍ كبيرة.

- ملكتي زيفينيتا «ب»، الأولى والفريدة، هذه أنت يا زهرتي الصّغيرة؟

- نعم أنا... أطير.

صار لزيفينيتا جناحان ذهبيّان شفّافان، وأصبحتْ تقوم بجولاتٍ في المكان، ثمّ نزلت بلطفٍ فوق الطّاولة، قربَ وجهه.

- كيف جئتِ إلى هنا يا عزيزتي؟

- لن تتمكّن من فهم الأمر جيّدًا «الآن». لكنّي اشتريت جناحَيْن صغيرَيْن، جناحَيْ ملاكٍ وُلدَ في شهره السّابع. كان عليَّ قطعُ جزءٍ منهما لأنّي وجدتُهما كبيرَيْن جدًّا عليَّ.

- ولماذا جئتِ يا ملكتي الجميلة؟

- لأُريَك الطّريق، الآن وأنت أكثر قوّة. جئت كي تتبعني إلى غاية طريق السُّلّم.

- لا أستطيع يا زيفينيتا.

- بل تستطيع، العكّازان هناك.

- إذَن، أمهليني خمس دقائق.

كان يتكلّم بنبرةٍ أقرب إلى التّوسّل، وفي انكسارٍ تامّ.

- أحتاج إلى محادثةٍ مع السّماء. لا أستطيع صعودَ السُّلّم قبل تحقيق ذلك. بإمكانك مشاهدة رسومات الصّحف اليوميّة إلى أن أُنجزَ ما أريد.

طارت إلى الكرسيّ المتحرّك حيث تتراكم أوراق الصّحف.

- أخاطبك أيّتها السّماء بأجلّ مشاعر التّوقير، وأقول لك إنّه لا يوجد في صدري أيّ حقد... لا مرارة، لا كراهية، وبالخصوص لا حبّ. في حالتي البشريّة البائسة، أعترف أنّك منحتني، رغم كلّ شيء، بعضَ الصّبر، وأنا الآن هنا راكعٌ لك، ربّما في آخر محادثةٍ ستكون بيننا. وأريد أن أؤدّيها بخشوع.

توقّف فترةً قصيرة، ثمّ فتح ذراعَيْه بصعوبةٍ على شكل صليب:

- ليس لي إلّا بعضَ القوّة كي أحمل ذراعَيْن لا فائدة منهما. لو كنت

أستطيع الوقوف، لوقفتُ على قدميَّ، أو جثوتُ في الأقلّ على ركبتيّ. أنا هنا أقرّ وأعترف بكلّ أخطائي الّتي أجبرتْني الحياةُ على ارتكابها، ولا أدري هل تكون لي الشّجاعة لتجنّب تَكرارها لو عشت مرّةً أخرى. ربّما أعيد ما فعلت. كلّ ما حصل لي في الحياة كان بسبب خسارة حبّ باولا. اهتمامي بالهنود دفعني إلى الهروب دومًا. حاولت إلغاءَ وجودي من الحياة باختيار اسمٍ متواضعٍ جدًّا. لا توجد أشياء كثيرةٌ أقلّ قيمةً ومعنًى من حبّة يقطين. في داخل كلّ إنسانٍ جزءٌ من الكتاب المقدّس. ونحن أيضًا مسحاء مصلوبون فوقَ الوحدة. لو جمعت عكّازَيَّ لصنعتُ صليبًا دومينيكانيًّا دون رأس. وفوق ذلك الصّليب علّقني الصّبر ومصاعب الحياة. لم أؤمن بالوحي كما أخبرونا عنه، لأنّي كنت أرى السّماء الموعودةَ غير كافيةٍ وغير مقنعة. أخبرونا، من منطلق عقائد الإيمان، عن وعدٍ بأنّ الإنسان سيعرف بعد الموت جميعَ الأسرار، ما عدا سرّ الثّالوث الأقدس. لا أتذكّر ما إذا كان يوجَد سرٌّ آخر لن نعرفه فذاكرتي ضعيفة. بكشف الأسرار المختلفة، ستبقى النّفس البشريّة في الأبديّة دون فضول، وهو أمرٌ سيكون مزعجًا وعدميًّا. أنا صغير، عديم الفائدة، بلا حزن، تلفُّني رائحةٌ بائسةٌ في الوجود، رائحةُ الجوّافة الحزينة. أنا هنا في معادلةٍ حزينة، هي معادلة الإنسان الّذي سيموت. إذا كان لي جزاءٌ حسنٌ فأرجو، من أجل لحظة سعادةٍ وتعويضًا عن كلّ دقائق المعاناة، أن أُكافأَ بثوانٍ من الحبّ، وتكون مكافأتي رؤية باولا، لأنّ جنّتي كانت جنّة حبّي. أودّ أن أراها كما عرفتُها، مثاليّةً وجميلة. شكرًا جزيلًا على كلّ شيء.

أنزل رأسَه وذراعَيْه. لم يكن في عينَيْه أثرٌ لدمعةٍ واحدة. فقد ماتتْ الدموع قبل وقتٍ طويل.

- أنا جاهزٌ، زيفينيتا.

- إذَن، هيّا بنا يا راهب يقطين.

- بقي أن نعرف ما إذا كانت لديّ القوّة.

- يجب أن تكون لديك. هل تتذكّر عندما كنت تجدف؟

ألقى صليب عكّازَيْن فوق السّرير، وخاض ذلك التّمرين الرّهيب الّذي اعتاد عليه. سبّبت الدّوخة خدرًا في رأسه وتعرّقًا في يديه. نزل عليه ضعفٌ غير عاديٍّ منَعَه من الاستمرار.

- تشجّع يا صديقي.

- لا أجد قوّةً يا زيفينيتا.

- يجب أن تمتلك القوّة. تذكّر عندما كنت تجدف في نهر أراغوايا. اعتقدتَ آنذاك أيضًا أنّك لا تستطيع فعلَ ذلك، لكنّك كنت تجد دومًا طاقةً إضافيّةً لمساعدتك. في هذه اللّحظة لا يمكنك أن تفشل.

انحنى على عكّازَيْه وتدلّى بساقَيْه الميّتتَيْن، بقي يؤرجحهما إلى أن لمسَ الأرض بأصابع قدمَيْه.

فتحت زيفينيتا البابَ أمامه، وعندئذٍ وحسْب استبدلت رائحة الرّطوبة والعفن بهواءٍ مشبعٍ برائحة الجوّافة.

- هناك سُلّمُك يا راهب يقطين. ستصعد. ستصعد لتعمل مع دون تالاميرو كي تتمكّن من إرسال الهدايا إلى جميع هنودك.

ابتسم رغمَ تعبه، وهو يحسبها تحمّسه معتقدةً أنّه جاهلٌ بحقيقة الأمر.

جرّ نفسَه في الممرّ وزيفينيتا تنزلق على طول الجدار بجانبه.

سألها:

- لماذا توقّفتِ عن الطّيران؟

- لأحافظ على الجناحَين اللّذين يصعب تعويضُهما. لكنْ لا تتحدّث الآن. وفّر قوّتك للصّعود.

كان أمامه سلّم، قذرٌ ومتهالكٌ مثل الحياة نفسها، ورائحةٌ كريهة.

- هيّا تشجّع يا صديقي.

لو أنّه يستطيع الوقوفَ على إحدى رجلَيْه وحسْب، أو تمسك إحدى يدَيه بالحاجز! ثبّت جسدَه الّذي اكتسب وزنًا غير طبيعيّ. صعد درجةً واتّكأ على الحائط. كان قميصه مبلّلًا بالعرق وصدره المشبع بالدّهون مضغوطًا بسبب الجهد.

أخذت زيفينيتا تحفّزه.

- لم يبقَ سوى القليل.

- صديقتي العزيزة، تقولين إنّه لم يبقَ سوى القليل من الدّرجات، وأنا في الحقيقة لم أصعد إلّا الدّرجة الأولى!

تنفّس عميقًا وصعد درجةً أخرى.

- جيّد جدًّا! واحدة أخرى.

بدا وكأنّ النّار تشتعل في إبطه، وظهره يحترق مثلَ الجمر عندما وصل إلى الدّرجة السّادسة. وفجأةً أصابه إحباط.

- إنّه جهدٌ بلا جدوى، زيفينيتا، لن أصل إلى أعلى أبدًا. لن أصل إلّا بمعجزة.

- عليك أن تصعدَ، نعم.

لم يعد قادرًا على الكلام، لأنّ الكلمات كانت تضيع بين الأنفاس وقلبُه ينبض بعنفٍ حتّى بدا كأنّه قفزَ من الحائط. نظر إلى أعلى وشعر بالدّوار. ارتجف جسده وسقط متدحرجًا إلى أسفل السلّم.

في سقوطه، رافقه العكّازان. بقي مرميًّا ووجهُه على الأرضيّة الإسمنتيّة، لا يعرف ما إذا كان لا يزال على قيد الحياة.

- لا يزال الوقت مبكّرًا قليلًا يا راهب يقطين. لكنْ لم يبقَ الكثير.

الأرضيّة الباردة، رائحةُ البول، الأوساخُ ودخانُ السّجائر، أعادته إلى الواقع. حينها أراد أن يبكي، يبكي إذ وعى ضَعفَه، ضَعفه وحسْب. حاول الجلوس، لكنّ ساقَيْه كانتا في وضعٍ لا يسمح بذلك.

شعرت زيفينيتا باليأس.

- لم يكن ينقص إلّا القليل...

قال وهو يئنّ بصوتٍ منخفض:

- كنت أعلم، كنت أعلم...

اقتربت زيفينيتا من رأسه:

- استمع. استمع. هل تعرف هذا الصّوت؟

حاول أن يتعرَّفَه. نعم، لقد عرفها!.. لا يمكن أن يجحدَ ذلك الحنان واللّطف. كان الصّوت يأتي من كلّ مكان: من الأرضيّة، من الجدران، من الدّرج.

وكرّرت العمّة إستيفانيا رسالتَها المتفائلة:

«عندما تموت، لن يكون الملائكة هم مَن يساعدونك في صعود سلّم السّماء، بل مجموعة من الهنود».

سمع صراخًا وفوضى عند مدخَل المبنى. من المؤكّد أنّهم اكتشفوا سقوطَه وجاؤوا لمساعدته. رأى مجموعةَ ظلالٍ تتجمّع فوقَ جسده. كان هناك الكثير منها، روائح حياةٍ تعطّر الجوّ، الرائحة البرّيّة لزيت البابا سو بدت ممزوجةً برائحة الأوروكون. ومعها أصواتٌ ودودةٌ ومبتسمة.

- كيارّا، كيارّا راهب يقطين.

- ديويراكري، ديويراكري تويرا.

- دي كارّيكي، دي كارّيكي راهب يقطين.

كانت أصواتًا تدعوه إلى الذّهاب. لكن إلى أين؟

المئات والمئات من الوجوه الودودة المدهونة، المرسومة، بشفاهٍ كبيرة، جميعهم جاؤوا لمساعدته.

- هيّا يا راهب يقطين، لقد كنت دائمًا طيبًا وأخًا لنا.

أمسكوه من الإبطَيْن وساعدوه في الوقوف. مسحوا وجهَه الملطّخ وبدؤوا يصعدون السلّم ببطء.

واصلت العمّة إستيفانيا:

- وحدهم الهنود وليس الملائكة.

كانت زيفينيتا تتكلّم من الجدار وهي سعيدةٌ ترافق صعودَ المجموعة.

- هيّا يا صديقي العزيز. باولا هناك، على الجانب الآخر من الباب. هيّا.

فجأةً توقّف الجميع. أصبح السُلّم كلّه مضاءً بنورٍ يُعمي العيون.

ظهرت الخطوات الأخيرة في ضوءٍ كضوءِ أجمل يومٍ مشمس.

في آخر السلّم رأى والدَه يبتسم، والده الّذي أشار بأصبعه إلى الدّرجات الثّلاث الأخيرة.

- هذه الدّرجات لك. يجب عليك صعودها وحدَك. احمل صليبَك.

سلّموه العكّازَيْن ووقفوا جميعًا يراقبون الرّاهب يقطين وهو يصعد. بدأ الأصدقاء يودّعونه. صعد وهو متعبٌ بشكلٍ رهيب، وظنّ أنّ قلبه سينفجر بعد ذلك بقليل.

مشى الأبُ في الممرّ. لمح الرّاهبُ يقطين بابَ دون تالاميرو مع لافتةٍ رُسِمتْ عليها حروفُ كلمةٍ بشكلٍ سيّئ: خيّاط.

مشى متّجهًا نحوها. فقطع والده طريقه:

- ليس هذا. إنّه الآخر الّذي هناك.

ظهر أمامَه بابٌ ضخمٌ أبيض، مليءٌ بالضّوء.

- تقدّمْ وأدِر مقبضَ الباب. لن يكون وجهُ الربّ بعد الآن لغزًا أمامك.

مدّ يدَه، وأمسك المقبضَ، وفتح الباب.

***

استمرّ هطولُ المطر السيّئ طَوال اللّيل. أمّا تورغا المغطّاة بمعطفٍ يخفي أزهارَها وسحرها فقد عادت بحزنٍ غريبٍ لم تستطع فهمَ سببِهِ. كان عليها أن تعودَ إلى المنزل وتغيّر حذاءَها المبلّل. اللّيلة لم تسفر عن شيء. هرب جميع الرّجال تحت المطر. مسحتْ قدمَيْها عند عتبة الباب

وسارت في الظّلام. رأت كتلةً ملقاةً. فتوقّفتْ خائفةً. يمكن أن يكون سكّيرًا. ثمّ عادت إلى الباب وأشعلت الضّوء.

ما رأته جعلها تضع يدَها على فمها حتّى لا تطلق صرخةَ ألم. ألقت بحقيبتها، خلعت معطفها، جثت على ركبتَيْها ورفعت رأس ريموندو والدّموعُ تنزل من عينَيْها.

- ماذا حدث يا قدّيسي الصّغير؟

تزايدت الدّموع المنهمرة من عينَيها الجميلتَين. وضعت يدَها على صدره ووجدت أنّه ما يزال يتنفّس.

- يا للمسكين، لا شكّ أنّه شعر بألمٍ وأراد صعود درجات السلّم لطلب المساعدة.

أدركت من تنفّسه الضّعيف جدًّا أن لا جدوى من طلب المساعدة. من الأفضل أن تتركه يموت بسلامٍ في حجرها. وكان أكثر ما تستطيع فعلَه هو البكاء.

خفضت وجهها في محاولةٍ لسماع الصّوت الضّعيف الّذي يصدره مثل جدول ماءٍ يجري على رمالٍ ناعمة.

- باولا ... هل هذا أنت يا باولا؟

تذكّرت القدّاحة. كان هذا الاسم منقوشًا عليها. فنزلت دموعُها أكثر.

- باولا ... أنا لا أراك، لكنّي أعرف أنّكِ جميلة.

كانت تورغا تداعب شعرَه بنعومةٍ حتّى ينام نومَه الأكبر، متوهّمًا أنّه بين أحضان الأخرى.

- هذا أفضل شيء، باولا. كنت متعبًا جدًّا وما زلت كذلك من حمل صليب عكّازَيّ.

سأنام قليلًا، باولا، قليلًا وحسْب...

قالت تورغا بصوتٍ هامس:

- نم، نم، سوف يفيدُك ذلك.

ونام دون أيّ إحساسٍ بالألم.

عند طلوع الفجر، خرجَ العمّالُ مُبكّرينَ ووجدوا في طريقِهم إلى أشغالهم تورغا جالسةً في الوضعيّة نفسِها، بعينيْن مُنتفختيْن من البكاء. أسلم ريموندو روحَه بين يديْها، لفاطره، وتسلّقَ سلّمَه. أحاطوا بها، وتتابَع بمرورِ الوقتِ مجيءُ الجيران. وبدا أنّ عينيْ ذاك الرّجلِ الميّتِ في أحضانِها رُفِعت عنها الحجبُ لتُكاشفَ غيبًا مّا، وليتراءى لها ما لا تُدركه الأعينُ من أشياء.

جوزيه ماورو

اعترافات الراهب يقطين

«الإنسانُ هو الإنسانيّة جمعاء»، وأن تكون إنسانًا يعني أن تنصت إلى صدى ذرّات الكون في نفسِكَ وإلى صدى الآخرين فيك وتحملَ بعضَ ما يحملون من عبء الوجود. كذا كان الراهب يقطين إنسانًا مفرطًا في إنسانيّته، أيقن أنّ لنا بعد الموت متّسعًا للمنام فملأ حياته بصخب العيش حاملًا همَّ الإنسان والحيوان معًا.

لقد عاش شقاءَ الطفولة ووهنَ المرض وعجزَ الكبر وصراعًا وجوديًّا ونفسيًّا عنيفًا تردّد فيه بين البؤس والشقاء، والنجاح والفشل، والشكّ واليقين... وفي الرواية تفاصيل كثيرةٌ وأحداثٌ مشوّقة، بعضها واقعيٌّ وبعضها متخيّل، كُتِبَتْ بلغةٍ سلسةٍ على ما فيها من امتزاجٍ بين الفلسفيّ والدينيّ والسياسيّ والرومانسيّ.

روايةٌ تدور أحداثُها بين مدن البرازيل وأدغالها، بين الحضارة والطبيعة، وبين داخل البطل والعالم الخارجيّ، بطلُها إنسانٌ مريدٌ نذَر حياتَه لخدمة الهنود، وجَوهرُها العودةُ إلى المنبع الأوّل منبعِ البراءة والعاطفة والحبّ، فما الإنسانُ إذا أهدر براءتَهُ على مذبح المادّةَ؟ وما الإنسان إذا أضاع الطريق إلى الحبّ؟

بالإجابة عن هذا السؤال، يختتم الكاتب البرازيلي جوزيه ماورو رباعيّة «زيزا»، مخلّفًا لنا وصيّته في «اعترافات الراهب يقطين»، لعلّنا نُدرك يومًا بأنّنا قد نربح الدنيا ونملكها، لكنّنا نخسر أنفسَنا بلا حبّ، وأيّ خسرانٍ تغنم أيّها الوحش؟

رضا الحسني

ISBN